المكتبة التاريخية

د. محمد حقي

البربر في الأندلس

دراسة لتاريخ مجموعة إثنية
من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية



شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء

الدكتور محمد حقي

فائز بجائزة المغرب للكتاب عام 2001

البربر في الأندلس

دراسة لتاريخ مجموعة إثنية
من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية
(92 هـ/ 711 م - 422 هـ / 1031م)

(مع ملحق بآخر أبحاث الكاتب في الموضوع)

شركة النشر والتوزيع المدارس

10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

نشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة

الكتاب : البربر في الأندلس، دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط
الخلافة الأموية (92 هـ / 711 م ـ 422 هـ / 1031 م)
(مع ملحق بآخر أبحاث الكاتب في الموضوع)

تأليف : الدكتور محمد حقي

الناشر: شركة النشر والتوزيع المدارس
10، زنقة جون بوان ـ الدار البيضاء

الهاتف : 0522.22.15.34 / 0522.22.25.22

الفاكس : 0522.20.10.03

البريد الإلكتروني: madariss@almadariss.ma

الموقع على الوِب: www.almadariss.ma

التوزيع: مكتبة المدارس
12، شارع الحسن الثاني ـ الدار البيضاء

الهاتف: 0522.26.67.41 / 42 / 43

الطبعة الثانية : 2017

رقم الإيداع القانوني: 2017 MO 0561

ردمك: 978-9954-0-7619-4

البربر في الأندلس

دراسة لتاريخ مجموعة إثنية

من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية

(92 هـ/ 711 م - 422 هـ / 1031م)

(مع ملحق بآخر أبحاث الكاتب في الموضوع)

مقدمة الطبعة الثانية

منذ حوالي خمسة عشر سنة صدر هذا الكتاب تحت هذا العنوان الذي لم يكن الباحثون يتجرؤون على استعماله، ولقي في البداية بعض الاعتراض من نشطاء الحركة الأمازيغية خاصة، لكن قراءة مضمونه ومعرفة خطه العلمي الصارم ودفاعه عن أحد مكونات الحضارة المغربية بنوع من الرزانة والحياد الإيجابي أزال هذا اللبس وصار الاقبال على الكتاب قويا بحيث استنفذ ربع النسخ المطبوعة في الأشهر الثلاثة الأولى. وتحول الكتاب منذئذ إلى عمل كلاسيكي في موضوعه إذ لم يسبق لباحث أن أنجز دراسة كاملة عن البربر في الأندلس، وطلب من جهات البلاد الأربع ومن الجيران خاصة الجزائر وإسبانيا ومن الأباعد مثل الولايات المتحدة الأمريكية. وجاء التتويج من وزارة الثقافة عندما منحت الكتاب جائزة المغرب للكتاب لعام 2001 وكذلك من السفارة الفرنسية إذ احتل المرتبة الثانية في جائزة «الأطلس الكبير» عام 2002.

لم يكن هذا الكتاب ليحظى بهذا التقدير لولا اشتماله على خصال كثيرة ترتبط بمنهجه العلمي الرصين وقوة التحري وعمق القراءة لمحتويات المصادر والقدرة على توظيف الإشارات القليلة التي ترد عبر صفحاتها وتغيير بعض المسلمات المتداولة من قبل الغربيين والمشارقة بل وحتى المغاربة بشأن تاريخ البربر في الأندلس من قبيل هجراتهم ومواطنهم...

أظهر الكتاب بدقة أن من فتحوا الأندلس هم أبناء المغرب البربر الذين تحملوا مسؤوليتهم في تبليغ الإسلام إلى من خلفهم كما ينص على ذلك الدين الحنيف، ووضح أن البربر سكنوا كل أنواع المجالات بالبلاد بالرغم من غلبة المناطق الجبلية لكن ليس حبا فيها أو اختيارا عفويا لها، ولكن نتيجة لظروف الفتح والصراعات السياسية وفوضى توزيع الأراضي المفتوحة. شكل البربر في الأندلس أول مجموعة دخيلة في البلاد متقدمين على العرب وثاني مجموعة سكانية بعد الإسبان، وحافظوا على تماسكهم الاجتماعي والثقافي

حتى منتصف القرن 3هـ/9م عندما بدأ الاندماج في المجتمع الأندلسي وبدأت عناصر الهوية الأولى تضمحل وزادت المساهمة في الحضارة الأندلسية في جميع الميادين.

بينت الدراسة أن البربر شاركوا في بناء حضارة الأندلس بقوة لكن في الميادين التي يتقنونها ويستطيعون المنافسة فيها وخاصة تلك التي ترتبط بالقبيلة والبادية (الفلاحة – الحرف الصغرى في المدن ـ الجيش ـ السياسة) وللأسف فهذه العناصر لا تحظى بتقدير كبير من قبل الحضارة الإسلامية الحضرية وأهلها كما أنها جاءت متأخرة، مما حكم على الحضور البربري بالسلبية والضعف بل والغياب على الأقل في المصادر.

كانت هذه الميزات كافية ليستنفذ الكتاب، لكن تواصل الطلب عليه سواء من الطلبة أو عامة القراء دفعني إلى التفكير في إعادة طبعه. وحتى نعطي للكتاب وجها جديدا فقد أعيدت كتابته وتنظيمه كما أغني بملحق مفيد يضم آخر قراءاتنا واجتهاداتنا في الموضوع. كل أملي أن يجد القارئ في الكتاب ضالته وأن يستفيد منه على جميع الأصعدة.

في الأخير أتوجه بخالص الشكر والتقدير لدار النشر وللمسؤولين عنها وأحيي اهتمامهم بالكتاب وأهله متمنيا أن يزداد تعاوننا خدمة للمغرب وأهله.

تقـديـم

اهتم كثير من الباحثين العرب وخاصة المشارقة منهم بدراسة تاريخ الأندلس في إطار دعمهم للنزعة القومية العربية، لذلك كانت أبحاثهم عبارة عن مديح وتمجيد لتاريخ وحضارة هذه المنطقة المفقودة من العالم الإسلامي كما نظروا إلى العنصر العربي كمحور أساسي في تطورها. وهذا المنحى فوت عليهم كل فرصة للوقوف عند نقط ضعفها والاهتمام بدور باقي المسلمين في بنائها وتطورها. لكن السنين الأخيرة شهدت تغيرا في هذا المنحى، بحيث ظهرت أقلام أكثر التزاما بالمنهج العلمي وأكثر تمسكا بالحقيقة التاريخية، فهي تنتقد وتمجد في نفس الوقت وتحاول إبراز دور كل ساكنة الأندلس بغض النظر عن أصولها العرقية.

وقد مكنتني قراءاتي الأولى من التعرف على كثير من مصادر التاريخ الأندلسي، وأهم الأبحاث المعاصرة التي أنجزت حوله، فاكتشفت بعض المشاكل التي تواجه دارسه، وبعض الثغرات التي يشكو منها، ثم بعض المواضيع المهملة من قبل الدارسين، وكان موضوع (تاريخ البربر في الأندلس) أكثرها لفتا للانتباه وذلك لعدة اعتبارات أولها، أن البربر يعتبرون أول مجموعة دخيلة من حيث عددها تستقبلها الأندلس منذ بداية الفتح، ولكنها بالمقابل لم تحظ ولو ببحث واحد مستقل من قبل الدارسين في وقت درست فيه جماعات أقل عددا وأهمية مثل: الصقالبة. وثانيها، أن الحضارة المغربية تدين بالكثير للحضارة الأندلسية لحد أن أسميهما صارا يذكران مقترنين، لكننا عندما نتعرف على طبيعة الدور البربري في بناء هذه الحضارة سنتمكن من فهم علاقات التبادل الحضاري بين المغرب والأندلس، ونضع تأثير الأندلس في المغرب في موقعه الصحيح، ونتجنب كل أشكال الغلو والمبالغة في تقديره. وثالثها، لا يمكن رسم صورة واضحة ومتكاملة لتاريخ الأندلس دون معرفة حجم وأهمية مساهمة كل المجموعات السكانية في البلاد. والمؤكد أن مثل هذا العمل سيقضي على كثير من الأفكار والمسلمات التي طبعت الدراسات الأندلسية. وكل هذه الاعتبارات؛ دون شك، تبرر دراسة هذا الموضوع. وقد جعلت عنوان كتابي : « البربر في الأندلس: دراسة لتاريخ مجموعة إثنية منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية : (92 هـ / 711 م - 422 هـ / 1031 م).

فرضت صبغة الموضوع الاجتماعية والثقافية الحضارية امتداده على فترة زمنية طويلة (ثلاثة قرون ونصف تقريبا) مادام يتطلب التركيز على دراسة البنيات وتطوراتها. وهذا النوع من التطور عادة مالايتم في فترة زمنية قصيرة، بل يتم ـ حسب تقسيمات فرناند بروديل ـ في مدد متوسطة أو طويلة توفر الوقت الكافي لتتبعها وملاحظتها. أما عن حدودها، فالحد الأول يوافق بداية التواجد الاسلامي بالأندلس ومعه تاريخ البربر بها، لكن الحد الثاني يثير تساؤلا حول سبب اختياره. والواقع أن هذا الاختيار تم بناء على نتائج الأبحاث التي تناولت موضوع النظام القبلي في الأندلس، والتي أجمعت على أن هذا النظام قد اختفى منذ مطلع القرن 5 هـ / 11م، وصار تنظيم السكان يقوم على أسس مادية بالأساس.

انطلقت منذ البداية من إشكالية محورية : ماهي حدود المشاركة البربرية في التاريخ الأندلسي خلال فترة الدراسة؟ وتتفرع عنها عدة إشكاليات أخرى أهمها : ماهي مراحل استقرار البربر في الأندلس؟ وماهي المناطق التي استقروا بها؟ وكيف نظموا حياتهم؟ وما هي طبيعة علاقاتهم بباقي أهل الأندلس وخاصة العرب؟ وماهي اللغة التي استخدموها في تخاطبهم اليومي؟ وكيف ساهم البربر في إقامة وترسيخ الحكم الإسلامي بالأندلس؟ وما هي قيمة حضورهم في الإدارة والجيش الأمويين؟ وماهي أشكال معارضتهم للحكم المركزي؟ وماذا قدموا للثقافة والحضارة الأندلسيتين؟. وافترضت أن المساهمة البربرية في تاريخ الأندلس أهم وأوسع بكثير مما تظهره المصادر وبعض الدراسات الجزئية، لكن إبراز هذه الأهمية لن يتأتى باستخدام المصادر التقليدية والمناهج المعتادة. واتضح بعد التروي أن استعمال تقنية تحديد الميول والاتجاهات في كل ظاهرة من الظواهر قد يحل مشكلة قلة الأخبار التفصيلية، ويعطي صورة عامة وتقريبية.

لحل إشكاليات الموضوع اقترحت تصميما يسير في ثلاث اتجاهات: أولها، استقرار البربر وحياتهم الاجتماعية في الأندلس. وركزت على مناقشة مواضيع أصل التسمية والتقسيمات البربرية، والهجرة البربرية إلى الأندلس ومواطنهم وتنظيمهم الداخلي، وعلاقات الولاء التي تربطهم بالعرب ولغتهم، ثم الصورة التي رسمها لهم أهل الأندلس. وثانيها، البربر في التطور السياسي الأندلسي، وصببت فيه اهتمامي على تحديد دور البربر في إقامة وترسيخ الحكم الإسلامي بالأندلس، وخاصة الفتح وقيام الدولة الأموية، ومشاركتهم في الإدارة السياسية

والقضائية والجيش الأندلسي، ثم تحديد أهم الثورات التي قام بها البربر في الأندلس، مع دراسة نموذجية خصصتها لأسرتين : واحدة إدارية وثانية أميرية. وثالثها، البربر والحياة الثقافية في الأندلس، وفيه أتناول أهم خصائص المشاركة البربرية، وأهم العلوم التي اشتغلوا بها، وكذلك بعض التجديدات التي أدخلوها خاصة في الميدان المذهبي، ثم توقفت عند بعض جوانب المساهمة الحضارية للبربر في حضارة الأندلس، وانهيت القسم بدراسة تاريخ أسرة علمية بربرية أندلسية.

لاشك أن كل باحث يصطدم بمشاكل وعراقيل كثيرة تتطلب منه حلا عاجلا إن أراد الاستمرار في عمله. وأكبر مشكل اعترضني هو قلة وندرة المعلومات في المصادر إضافة إلى عدم توفر هذه المصادر في أغلب المكتبات، رغم أن أكثرها طبع منذ مدة. وقد تطلب مني ذلك التجول بين مكتبات عدة في مدن الرباط والبيضاء ومراكش وأكادير وورزازات وسلا وتمكَروت، ولايخفى المجهود المادي والمعنوي الذي يتطلبه هذا العمل. أما من ناحية المادة، فقد اعتمدت كل ما وجدته، وليس أحسن ما أجمع وأراكم وأكتفي بالقليل؛ في أحيان كثيرة، معتمدا على التأويل والاستقراء.

أشرت أعلاه إلى أن أحد المشاكل التي تعترض الباحث في تاريخ البربر في الأندلس هو مشكل ندرة المادة التاريخية. ولن أبالغ أو أخطئ إذا استنتجت أن تهميش الباحثين لهذا الموضوع جاء نتيجة لإهمال المصادر. ولذلك فالإقدام عليه يعتبر من قبيل المغامرة. فالمصادر شحيحة وجافة، وما تقدمه لا يعدو أن يكون مجرد إشارات متناثرة هنا وهناك. وكثيرا ما تأتي عرضية وغير كاملة. وأكاد أجزم أن المكتبة الأندلسية لا تحتوي على كتاب خصص لموضوع بربر الأندلس. وحتى كتاب (مفاخر البربر) فلايتوافق عنوانه مع محتواه، فرغم أنه أورد أحداثا شارك البربر فيها بفعالية، فلم يخصص لبربر الأندلس إلا قسطا صغيرا، إضافة إلى كونه جمع فقط وكرر ما تذكره المصادر الأخرى، ويمكن القول إنه لم يأت بجديد في الموضوع. وهذا يجعلنا نقبل على مانجده في هذه المصادر بنهم، ونحاول توظيفه دون أن يكون لنا الحق في الاختيار داخله، وبذلك نستعمل ما نجد وليس أحسن مانجد. ويضاف إلى هذا، أن ما نجده في المصادر يتميز بنوع من النمطية والتكرار، بحيث إن استقرار تقاليد الكتابة لدى مؤرخي وكتاب العصر الوسيط، جعل من الصعب الحصول على الجديد داخلها، بحيث

ينقل المحدثون عن القدامى حرفيا وأحيانا بالاكتفاء بالمضمون، وذلك يجعلنا ننتقل بينها، ونقرأ عن حدث تذكره كلها، لكننا لانحس بجديد وكأننا نقرأ نفس الكتاب. وكذلك نجد أن هؤلاء مغرمين بنوع معين من المعلومات عادة ماتنصب على الحدث السياسي والعلمي، بينما لايأتي الاجتماعي أو الاقتصادي أو الحضاري عامة إلا عرضا. ومع كل هذه العيوب، فإن أهمية المصادر تختلف حسب جنسها. وقد تمكنت من تصنيفها وفق إفادتها على الشكل التالي: كتب التراجم وكتب التاريخ العام وكتب الجغرافية ثم الكتب ذات الإفادات المتنوعة.

إن كتب التراجم بنهجها المتمثل في تناول كل شخصية، وفي فترة مستقلة تعتبر أكثر المصادر أهمية في هذا الموضوع، فرغم قلة عدد التراجم التي احتفظت لنا بها (108 ترجمة)؛ فإن تخصيصها الكلام لجوانب متنوعة من حياة المترجم له كان ذو فائدة كبيرة. وقد ساعدتنا في مواضيع الهجرة والمواطن والتنظيم الداخلي والولاء والإدارة والحياة العلمية والحضارية. فهي بهذا حاضرة في كل فصول الموضوع. وتختلف أهميتها حسب ما أوردته من تراجم، وعلى رأس اللائحة نجد ابن الفرضي في (تاريخ العلماء)، وبعده ابن بشكوال والقاضي عياض والخشني في كتاب «أخبار الفقهاء المحدثين» وابن سعيد في مغربه وابن الابار وباقي كتاب التراجم.

ويجب أن أشير إلى أن هذه الكتب تتميز بميلها نحو التنويه بالمترجم لهم، حيث صارت أشبه بكتب المناقب منها بكتب التراجم، وكذلك شحها فيما يتعلق بالمعلومات الاجتماعية عكس كتب التراجم الافريقية التي نجد فيها هذا النوع من الأخبار بكثرة (الدباغ ـ المالكي).

وفي مرتبة ثانية نجد كتب التاريخ العام التي أفادتنا بالخصوص في الميدان السياسي إضافة إلى معلومات أخرى خاصة حول الهجرة والتنظيم الاجتماعي. وتبرز مكانة مصدرين اثنين من بينها لما يقدمانها من معلومات غنية ومتنوعة. وهما الأجزاء المنشورة من «المقتبس» لابن حيان و«البيان المغرب» لابن عذاري. ويتميز الأول بإيراده لأخبار نادرة وفريدة خاصة فيما يتعلق ببعض الأحداث السياسية خلال القرن 3 هـ / 9م، هذا رغم أنه كان متحاملا على البربر في بعض مواقفه خاصة ما يتعلق بأحداث القرن 5 هـ / 11 م. أما الثاني، فرغم أنه أخذ الكثير عن الأول، فهو يتميز بتغطيته لكل فترة الدراسة، ويتجنب التحامل والتعصب على البربر رغم ورود بعض ملامحه نتيجة نقله عن مصادر أخرى. ويتميز كتاب «مفاخر البربر» بجمعه لمادة خاصة بالبربر من عدة مصادر.

وساهمت كتب الجغرافية في توفير معلومات خاصة بالمواطن البربرية بالأندلس، وبعض الجماعات البربرية بهذه البلاد. ومن أهم الكتب التي حملت معلومات مهمة كتب «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«وصف الأندلس» للرازي و«البلدان» لليعقوبي و«المسالك والممالك» للبكري.

وساعدت باقي أنواع الكتب الأدبية والفقهية والموسوعات ببعض الإشارات أو الفقرات التي خصصتها للبربر مثل : «صبح الأعشى» و«آداب الحسبة» و«طوق الحمامة» و«الفصل في الملل».

ونجمل أهم خصائص المصادر الخاصة بهذا الموضوع فيما يلي:

- اكتفاؤها بإيراد نتف وإشارات متناثرة عن البربر.
- تميز معلوماتها بالنمطية والتكرار وقلة التنوع.
- إهمال الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية بصفة إجمالية.
- الهجوم على البربر والتحامل عليهم.
- تعد كتب التراجم أغنى مصدر في الموضوع بحضور مادتها في كل فقراته.
- كتب التاريخ العام ذات دور مهم في موضوع المشاركة السياسية.
- عجز كتب الجغرافية والرحلات والكتب الأخرى عن توفير الدعم الذي ينتظره منها الباحث.

ونؤكد أن تجاوز هذا المشكل لن يتأتى فقط باكتشاف مصادر جديدة ضمن رבائد المكتبات في المغرب والأندلس والعالم كله، مادمنا قد أظهرنا أنها تتميز بنمطيتها، ولهذا فظهور كتب جديدة لن يأتي بمعلومات مختلفة في طبيعتها، بل ربما فقط يضيف أخبارا جديدة. لكن الذي يمكنه أن ينجدنا هو توسع البحث الآثاري الأركيولوجي الخاص بالعصر الوسيط الإسلامي بالأندلس. ورغم أن بعض الأبحاث قد أجريت خاصة في شرق الأندلس، فإنه لايزال في بدايته، كما أنه ملزم بتطوير وسائله حتى يتمكن من تقديم معلومات مهمة ودقيقة ووثيقة، وَتَتَخَلَّصُ من التردد الذي يطبع نتائج الأبحاث الأولى.

لقد عرفت الأبحاث الخاصة ببربر الأندلس تطورا واضحا خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فإذا كان أغلب رواد التاريخ الأندلسي مثل دوزي وليڤي بروڤنسال وحسين مؤنس وعبد الله عنان والعبادي، قد أهملوا الموضوع وهمشوه أو خصصوا له فقرات صغيرة، فإن جيلا جديدا من الباحثين قد ظهر وأصبح يخصص جهودا كبيرة لخدمة هذا الموضوع. أما على صعيد الجامعة المغربية، فموضوع التاريخ الأندلسي لازال مهمشا وخاصة الفترة ماقبل العهد المرابطي. وأغلب الأبحاث القليلة المنجزة من كلية الأداب بفاس، أما كلية الآداب بالرباط، فالبحوث المخصصة للأندلس لاتتجاوز ـ حسب علمي ـ ثلاثة، لكن الأمور بدأت تتحسن مؤخرا بظهور باحثين خصصوا جهودهم لهذه المنطقة مثل: محمد بن عبود وأحمد الطاهري وإبراهيم القادري بوتشيش. وعلى الصعيد العالمي فقد ظهر جيل من الباحثين الإسبان بالخصوص خصصوا جهودهم لبربر الأندلس. ويقود الجماعة الباحث المقتدر والمؤرخ الفرنسي بيير كَيشار من خلال أعماله المتنوعة والتي تشمل كتبا ومقالات أنارت بعض جوانب الموضوع، وأثارت نقاشا وجدالا زاد من الاهتمام بالموضوع. وتعتبر صفحات مجلة «الأندلس» ووريثتها «القنطرة» مجالا فسيحا لهذا السجال، بحيث كثرت المقالات التي نشرتها في الموضوع منذ عام 1969، وقد حملت أحيانا بعض الآراء الغريبة مثل ذلك الذي حمل توقيع بالبي خواكين الذي يحاول نفي وجود البربر بالأندلس (إسبانيا في القرن 2 هـ / 8 م :الجيش والمجتمع، مجلة الأندلس، عدد 43، جزء 1، 1978، ص : 51—112) وقد علق كَيشار على هذا التطور بقوله : « إن حضور هذا الملف في مجلة «القنطرة» يبين أنه لازال بعيدا عن الانغلاق، وهذا ما لايمكن إلا أن ننوه به». (Faut-il en finir avec les Berbères de Valence, Al Qantara, vol II, fax 2,1990, p.472) وإلى هذه المجموعة ينتمي حمدي عبد المنعم محمد حسين الذي نشر دراستين عن ثورات البربر بالأندلس ودولة بني برزال بقرمونة.

إن هذه الجهود التي أبرزناها توضح أن الإهتمام بموضوع بربر الأندلس يزداد ويتوسع أكثر، ولاشك أن هذا البحث سيغني الموضوع بالأسئلة التي طرحها والقضايا التي أثارها.

قبل أن أختم كلامي أجدني مشدودا بقيود كثيرة، قيود الاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل لأهله، لقد تراكمت علي ديون، ومهما حاولت أن أوف أصحابها حقهم فلن أستطيع الوفاء به فليغفروا لي تقصيري وينظروا إليه بعين الإغضاء والتسامح. وأول من لهم

علي الفضل الكثير أستاذي المشرف الدكتور محمد حمام، واعترف أنه كان دائما إلى جانبي وفي كل مراحل البحث. فمنذ اليوم الذي طلبت منه الاشراف على العمل لم يبخل علي بتوجيهاته المنهجية وإرشاداته البيبلوغرافية وتخصيص وقت طويل للاطلاع على نتائج عملي والإجابة عن أسئلتي، فالله أرجو أن يجازيه عني خير الجزاء ويزيده في العلم بسطة. وأتوجه أيضا بتشكراتي الحارة إلى الأستاذ محمد المغراوي الذي كان الراعي الأول لهذا العمل، ذلك أنه ومنذ أن قررت الاشتغال على هذا الموضوع، كان موجودا إلى جانبي ووجهني إلى الخطوات الأولى التي وضعتني على الطريق. وأتوجه إلى العلي القدير أن يمن برحمته على فقيد البحث التاريخي الأستاذ المرحوم السيد محمد زنيبر الذي شجعني على الاستمرار في العمل على هذا الموضوع بل وقبل الإشراف عليه منذ البداية لولا بعض العراقيل الإدارية التي حالت دون ذلك كما أشكر الأستاذة الاسبانية هيلينا دي فيلبي على مساعدتها لي بتقديم مجموعة من النصائح والمقالات التي أنجزتها في الموضوع. ولن أنسى فضل أصحاب وموظفي المكتبات التي اشتغلت بها، وعلى رأسهم قيم مكتبة المعهد الاسلامي بتمكروت الأخ القاسمي رشيد الذي لايمكنني أن أقدر الخدمات التي قدمها لي أثناء عملي البيبلوغرافي، وكذلك موظفي مكتبة كلية الآداب بالرباط وخاصة العاملين منهم بالقاعة الخاصة بالباحثين، وموظفي مكتباب كلية الآداب بمراكش وأكادير والبيضاء وغيرهم. ولايفوتني أن أشكر كل زملائي وإخواني الذين كانوا دائما يشجعونني ويتابعون تطور عملي باستمرار وخاصة أخي الأستاذ رشيد حقي. والله أسأل التوفيق.

القسم الأول

استقرار البربر بالأندلس

وحياتهم الاجتماعية

الفصل الأول
التعريف بالبربر

يشكل البربر محور هذا البحث. ولكن الغموض يحيط بكثير من جوانب هذه المجموعة البشرية، سواء تعلق الأمر بأصولها أو إسمها أو حتى تقسيماتها الداخلية. وقد أثارت هذه النقطة ؛ ولاتزال، اهتمام الكثير من الباحثين منذ العصر القديم وحتى الوقت الراهن، وتعددت الآراء والاجتهادات، فكانت كلما زادت في عددها، تزيد الموضوع تعقيدا وغموضا. وحتى نضع قاعدة نرتكز عليها في دراستنا هذه للموضوع، سنحاول أن نتعرض لأغلب ماقيل في هذه المواضيع عبر التاريخ، ونبدي ملاحظاتنا وانتقاداتنا فيها. وسنبدأ بمناقشة مسألة الأصول، ثم نثني بموضوع التقسيمات الداخلية للبربر، ثم نختم بالتسمية.

1- أصول البربر

صدرت أبحاث كثيرة في الموضوع عبر تاريخ البربر منذ العصر القديم وحتى الوقت الحاضر. لكنها كانت تزداد أهمية واتساعا في بعض الفترات[1] وذلك عندما تتحول المنطقة إلى نقطة اهتمام خارجي. لكن ازدياد الأبحاث يقابله تصاعد نسبة الغموض والأحكام المسبقة والجاهزة. وهذا ما جعل أحد المهتمين بالموضوع يبدي استغرابه قائلا :« نادرة هي الشعوب مثل البربر، التي بحث في أصولها بمثل هذه المثابرة والجد. فمنذ العصر القديم الأعلى، كانت الكتابات تروج في أوساط العلماء وكتاب الأساطير حول أصول سكان افريقيا»[2]. ويضيف حتى أنه «يصعب أن نبحث عن البلدان التي لم يأت منها البربر» [3] إلى شمال افريقيا.

---

(1) نقصد بها فترة الفتح الاسلامي للمغرب عندما حاول العرب كسب البربر في صفهم، فحاولوا أن يربطوهم بهم بأصول دموية. وكذلك فترة نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 عندما حاولت فرنسا أن تجعل أصول البربر أوربية غالية بهدف ترسيخ استعمارها للمنطقة.

(2) Camps (G) , les berbères : aux marges de l'histoire, éd des Hespérides, 1980, p.19

(3) نفسه، ص. 33.

أمام هذه الآراء المختلفة والمتنوعة من حيث قيمتها، والمضطربة في نتائجها، يصبح محبذا أن نتوقف عند تطور هذا الموضوع عبر التاريخ حتى يمكن أن نحدد بعض الخيوط المتحكمة في الآراء الصادرة ومنطلقات أصحابها التاريخية.

1.1. أصول البربر عند أهل العصر القديم (اليونان، الرومان)

تتجه الآراء في العصر القديم نحو جعل أصل سكان شمال افريقيا خارجا عن المنطقة. فأبو التاريخ هيرودوت Herodotes لايتردد في نسبتهم إلى الطرواديين الذين طردوا من طروادة بعد أن حطمها التحالف الإغريقي مابين القرنين 11 و 12 قبل الميلاد [4]. وترد رواية أخرى عن الإغريق : تنسب البربر إلى مدينة ميسنا [5].

ويذهب سالوست Saluste إلى أن سكان شمال افريقيا الأوائل هم الجيتوليون والليبيون، وبعد ذلك قاد هيرقل إلى المنطقة عناصر ميدية وأرمينة وفارسية انطلاقا من إسبانيا، فاختلط الميديون والأرمن مع الليبيين، بينما اندمج الفرس مع الجيتوليين [6].

ويرى بروكوب Procope أن البربر كنعانيون هاجروا من فلسطين [7].

وورد عن سترابون أنهم هنود، وقادهم إلى المنطقة هيرقليس[8].

يلاحظ من خلال هذه الروايات أنها تحمل طابعا أسطوريا تستقيه من أساطير وأخبار تاريخ اليونان والرومان كجلاء سكان طروادة وانتشارهم بحوض البحر المتوسط أو هجرات اليونان خلال العصر الكلاسيكي إلى غرب البحر المتوسط. كما أنها تجعل أصولهم كلها شرقية. وهذه العناصر أيضا تدخل ضمن تلك المجموعات الهجرية الكبرى التي تلقاها غرب البحر المتوسط (اغريق ـ فنيقيون)، وفوق كل هذا، فهذه الروايات تعترف بوجود عنصر محلي

---

(4) Camps (G) , les berbères : Mémoire et identité , éd. Errance , 2ème ed. 1987, p.17

(5) Berbères : aux marges de l'histoire , p.26 نفسه، ص: 18.

(6) نفسه، ص. 19–20 وص . 14–13.

(7) نفسه، ص. 23 وص .16.

(8) نفسه، ص.25 وص .17.

جاءت العناصر الجديدة لتختلط به، و لم تعمل على تفسير أصوله باستثناء Havius Josephe الذي أورد أن أصل الجيتوليين مشرقي [9].

نحتفظ مما سبق بكون القدماء يربطون أصول البربر بالمشرق وأنهم لم يستطيعوا إخفاء وجود سكان أصليين جاءت العناصر الجديدة لتختلط بهم.

2.1. أصول البربر عند المسلمين في العصر الوسيط

من جديد يعم الغموض والاختلاف بل والتناقض تحديد النسابة المسلمين لأصول البربر. وتتميز أغلب النظريات بكونها تبحث عن ربطهم بأمم قديمة ومشهورة بتاريخها. وهذا مايتضح لنا من كلام لابن خلدون جاء فيه :«... وإلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية، فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافا كثيرا وبحثوا فيه طويلا» [10]. وأورد مجموعة من الروايات أهمها:

- البربر من ولد ابراهيم من ابنه نقشان.
- البربر يمنيون هاجروا إلى المنطقة.
- البربر من قبائل غسان الذين تفرقوا بعد سيل العرم.
- البربر من لخم وجذام سكان فلسطين الذين طردهم الفرس.
- البربر من ولد النعمان بن حمير بن سبإ.
- البربر من قوم جالوت.
- البربر من كنعان والعماليق أنزلهم افريقش افريقية.
- البربر من قبائل شتى : حمير والاقباط والعماليق وكنعان وقريش.

(9) نفسه، ص.17.

(10) ابن خلدون، عبد الرحمان، كتاب العبر، ج. 6، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988، ص.120.

ويعلق المؤلف على هذه الآراء بكونها «كلها مرجوحة وبعيدة من الصواب» [11] وتتبع هذه الروايات بالنقد حسب علم الأنساب وعلم العمران [12] وخلص في الأخير إلى أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح من أبيهم مازيغ وموطنهم الأول فلسطين[13]. ونجد عند ابن حزم قبله موقفا مشابها، حيث ينفي انتماءهم إلى اليمن، ويعتبر ذلك مجرد اختلاق من مؤرخي اليمن [14]، وبشكل ضمني فهو لايرفض الأصل الكنعاني للبربر وهو الأصل الذي سبق أن وضحنا أن ابن خلدون يقره. ونفس التأكيد نجده عند ابن دحية الكلبي الذي لم يشر إليهم بالإسم بل فقط بالمواطن[15]. وابن خرداذ به[16] وابن عبد الحكم[17] ثم الادريسي[18].

من كل ما سبق يتبين الطابع الأسطوري لمعظم الروايات التي تتعرض لأصول البربر وتستعير مادتها من القرآن (تحطم سد مأرب ـ طوفان نوح ـ قتل داوود لجالوت ...) كما أنها تجعل أصل هؤلاء السكان قبل استقرارهم بالمنطقة بالمشرق. وهي أيضا تركز على منطقتين اثنتين وهما: اليمن وفلسطين. ونجد أن الرواية التي تذكر أن افريقش جلبهم إلى افريقية، تذكر أيضا أنه وجد عناصر محلية تتكلم لغة لم يفهمها، فسماهم البربر[19]، وهذا يؤكد لنا أن هناك عنصرا محليا لم تستطع هذه الروايات المختلفة إخفاءه. وبذلك تجد نفسها في نفس الموقف الذي وقفته روايات العصر القديم.

وفي أوساط النسابة البربر نجد أن هناك اختلافا كبيرا حول أصول مواطنيهم بحيث نجد مجموعات قبلية تدعي الأصل العربي المشرقي أكثر من غيرها. وإذا كان انتساب كل البربر إلى أصول عربية أمرا مدفوعا[20]، فإن النسابة يجعلون كتامة وصنهاجة قبائل عربية

(11) نفسه، ص.123.

(12) نفسه، ص.127.

(13) نفسه، ص.12.

(14) ابن حزم، جمهرته، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 495.

(15) ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، دار العلم للجميع، القاهرة (ب ـ ت)، ص. 60.

(16) ابن خرداذ به، المسالك والممالك، مكتبة المتنبي، بغداد، ص .91.

(17) ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1964. ص. 27-28

(18) الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (ب ـ ت)، ج. 1، ص . 222

(19) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 127.

(20) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج. 1، دار صادر، بيروت (ب ـ ت)، ص .368.

يمنية[21] ولواتة من حمير وهوارة من كندة وزناتة من العماليق وزواوة ومكلاتة من حمير[22] وزناتة من قيس عيلان[23].

لكن هذه المذاهب لاتقوم على أسس علمية متينة، وينطلق أغلبها من التطلع إلى اتخاذ أنساب عربية خاصة بالنسبة للأسر التي ترقت إلى قمة الهرم السياسي [24] وأغلب من ينسبون لهم تلك الأنساب هم من مواليهم وصنائعهم مثل ابن الأحمر والمرينيين. وقد سبق أن بينا موقف ابن خلدون وابن حزم من كل هذه الآراء وتمسكهما بالأصل الكنعاني الفلسطيني للبربر، مع إغفال الإشارات الواردة حول وجود عنصر محلي.

3.1. أصل البربر عند الدارسين المعاصرين

انصب اهتمام الباحثين على تحديد أصل البربر، بشكل موسع، منذ منتصف القرن 19 وقد اختلفت أهدافهم ونواياهم كما تعددت تخصصاتهم واتجاهاتهم.

ففي ألمانيا نشأ تيار فلسفي[25] ضم جماعة من الباحثين انصبت جهودهم على مسألة تأكيد الأصل الشرقي للبربر. وصدرت عنهم أقوال مختلفة ومتناقضة أحيانا. ولكنها تتفق في كونها تؤكد على ماسبق أن ورد في مصادر العصرين القديم والوسيط. فهذا Movers يؤكد أنهم كنعانيون قدموا من فلسطين واختلطوا بالليبيين. وذهب A. Divitta إلى أنهم من أصل كنعاني ـ فنيقي. وأسفرت أبحاث Kalt Brumer و Ritter عن كون أصلهم هنديا معتمدين على أسماء أماكن تنتشر عبر الهند وشرق افريقيا ومصر افترضا أن البربر هم الذين أعطوها إسمهم عند مرورهم منها. وأقر Bertholon أنهم إغريق. يلاحظ أن هذا التيار، ورغم تطور مناهج بحثه، لم يستطع أن يضيف شيئا إلى ماقاله أهل العصرين الوسيط والقديم، باستثناء إعطاء قوة جديدة للأدلة المعتمدة. وقد نعت كامبس نتائجه بصفة الغرابة.

(21) ابن خلدون، المصدر السابق 127/6، ـ ابن دحية، مرجع سابق 60 ـ ياقوت، مرجع سابق، ج 1 ص. 368.

(22) نفسه، ص.127.

(23) ابن الأحمر اسماعيل، روضة النسرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ص.9.

(24) شفيق، محمد، إمازيغن، معلمة المغرب، ج.2، ص. 676.

(25) Camps (G) , les berbères : Mémoire, pp. 19-22 & Les berbères aux marges de l'histoire, pp.28-29

أما في فرنسا فقد قامت أبحاث حول تحديد أصولهم، وانطلق عدد من الباحثين من بعض التماثلات الموجودة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط مثل التقاليد الجنائزية (الدولمين) ووجود أشخاص ذوي شعر أشقر وعيون زرق، وبعض النصوص المصرية الضعيفة ليثبتوا أن أصل البربر أوربي، وأنهم هاجروا إلى شمال إفريقيا عبر إسبانيا [26] إلا أن تهافت هذه الشروحات الأنثربولوجية ـ الاركيولوجية الفرنسية واضح، وحركته الطموحات السياسية والأطماع الاستعمارية [27]. وهذا مادفع كلا من استفان كزيل وكابرييل كامبس إلى رفض هذه المقترحات جملة وتفصيلا [28]. ولاتقل النظرية التي تربطهم بجزر المحيط الأطلنتي ضعفا عن سابقاتها الفرنسية [29].

يبدو أن أمل الحصول على نتيجة موثوقة وعلمية من هذا النوع من الأبحاث ضعيف، مادامت مشبعة بالأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية. لذلك كان ضروريا اللجوء إلى وسائل أخرى خاصة الدراسات الأنثربولوجية واللغوية.

يظل كَابرييل كامبس هو دليلنا الرئيسي في التعرف على خلاصات هذه الأبحاث، ومنه سنلخص أهم ما توصلت إليه هذه الأبحاث.

توصل الانثربولوجيون إلى أن شمال افريقيا كانت تعرف استقرار إنسان منذ حوالي 30 ألف سنة قبل الميلاد، أطلقوا عليه إسم الإنسان العتيري الذي عثر على بقاياه في جبل عرود قرب وهران. ويؤكدون أنه معاصر لإنسان كرومانيون الأوربي ويذهب أغلب الباحثين إلى أنه إنسان عاقل باستثناء كامبس. وقد وجد نموذج آخر له بدار السلطان بالمغرب. وهذا دفع الباحثين إلى الإقرار بانتشار هذا الإنسان في شمال غرب افريقيا من غرب الجزائر حتى سواحل المحيط الأطلنتي[30].

واكتشف إنسان آخر في مشتى العربي شرق الجزائر، تبين أنه أحدث من الإنسان العتيري، ولكن الباحثين انقسموا في تحديد أصله إلى فريقين : فريق يفترض أنه نزح إلى

(26) Csell (Sté), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Librairie Hachette. Paris, 4ème ed 1927, tome 1, p.306

(27) «امازيغن»، معلمة المغرب، ج 2، ص.676.

(28) Gsell, op.cit , p.308, Camps,op.cit, p.23

(29) نفسه، ص.306.

(30) نفسه، ص.306.

المنطقة من أوروبا عبر جبل طارق، وفريق ثاني يرى أنه قدم من فلسطين. لكن كامبس يؤكد أن كلا المذهبين يحملان نواقص كثيرة مما يرجح فرضية أصله المحلي كما افترض ذلك عدد من الباحثين الجادين الذين اعتبروه مجرد تطور للإنسان العتيري[31].

وتوصلت الأبحاث الأثرية إلى التعرف على إنسان آخر منذ حوالي الألف التاسعة قبل الميلاد نعت بالإنسان القفصي، وينتشر شرق منطقة شمال افريقيا. وتوافق ملامحه ملامح الإنسان الماقبل متوسطي[32]. وقد قدم إلى المنطقة من الشرق الأدنى. فهناك، إذن، إنسان ماقبل متوسطي في الشرق وإنسان مشتى العربي في الغرب، وهما اللذان أعطيا الإنسان البربري القديم الذي سرعان ما اكتسب الخصائص المتوسطية.

نستخلص من هذه الدراسات الأنثربولوجية أن أصل الإنسان البربري خليط من إنسان محلي تطور في المنطقة، وإنسان طارئ قدم من الشرق الأدنى. ومكنت الهجرة من اندماجهما واختلاطهما، فأنتجا الإنسان البربري. لقد أكدت الأبحاث الأنثربولوجية ما سبق أن سجلناه من أن الإنسان المغربي خليط من الإنسان المحلي والإنسان الأجنبي القادم من المشرق.

علقت آمال كبيرة على الأبحاث اللسانية للحسم في موضوع أصل البربر، فكامبس يرى في اللغة العنصر الأساسي للتعريف بالبربر[33]. أما Pellat فيقول عنها :«وحدها المعطيات اللسانية (أو اللغوية) ستمكن ـ ربما ـ من حل مشكل أصول البربر» [34].

لكن، وللأسف، فأهم الأبحاث سلكت منهجا عقيما يعتمد على مقارنات معجمية عادة ما تؤدي إلى نتائج متسرعة وسلبية. فـBertholon يرى أن الليبكية لغة هلينية نقلها التراس إلى المنطقة. ويرى فيها آخرون تأثيرا سومريا أو طوريا. وأكد آخرون على علاقتها الحميمية مع لغة الباسك[35]، إلا أن باحثين آخرون يرفضون أي علاقة بين الليبيكية

(31) نفسه، ص.39.

(32) نفسه، ص.44.

(33) نفسه، ص.39.

(34) Pellat (CH), les berbères, encyclopédie de l'Islam, tome 1, p. 1208

(35) Camps (G) , les berbères, mémoire, p.37

والبربرية أو يرون، وفي أحسن الأحوال، أنها فقط شكلها القديم[36]، وذهب M.Cohen إلى اعتبار البربرية عنصرا ضمن المجموعة الحامية ـ السامية، فهي بذلك قريبة الهيروغليفية والسامية. وهذا يؤكد ما سبق أن توصلت إليه الأبحاث الأنثروبولوجية من وجود تأثير شرقي في المنطقة [37].

يتضح أن الدراسات اللسانية بدورها قد جرفت بتيار الآراء المتهافتة والمنطلقات المسبقة. وهي بدورها تؤكد على ارتباط أصل البربر بالشرق الأدنى.

خلاصة القول، إن كل المواقف التي تعرضنا لها في إطار البحث عن أصول البربر، سواء منها القديمة أو الحديثة، اتجهت وجهات مضطربة، وسمحت لنفسها باتخاذ مواقف متسرعة. وتلخصت آراؤها في جعل أصول البربر مشرقية ـ فلسطينية أو هندية (القدماء) أو يمنية ـ فلسطينية (عند المسلمين) أو كنعانية ـ إغريقية (عند الباحثين الألمان) أو أوربية (فرنسيين) أو مشرقية ـ محلية (عند الأنثربولوجيين واللسانيين). لكن هذه الاختلافات كلها لم تستطع أن تغيب وجود عناصر محلية تأتي هجرات أجنبية لتدعمها، وليصبحا فيما بعد عنصرا واحدا ومتجانسا هو العنصر البربري. ونعتقد أن الأبحاث ملزمة؛ في الوقت الراهن، بأن تنطلق من المنطقة وتستعمل كل الوسائل المتوفرة، ومتى استنفذتها كان من حقها الاعتماد على وسائل خارجة عنها. والأمر لايتعلق فقط بأصول السكان بل بكل ما يتعلق بتاريخ المنطقة. لقد ولى زمان نظرية التبعية الدائمة لشمال افريقيا للأجانب والتي نشرها وروج لها رواد الحركة الاستعمارية الفرنسية، وحل محلها الاقتناع بخصوصية كل منطقة ومن جميع الزوايا والنواحي.

2- تقسيمات البربر الداخلية

حوت كتب نسابة العصر الوسيط عدة تقسيمات للبربر، بحيث تحدثت عن أفخاذ وبطون وقبائل وفدراليات. لكن التقسيم الأكثر انتشارا وشهرة هو ذلك الذي يقسمهم إلى فريقين اثنين : هما البتر والبرانس، ويبرر هؤلاء النسابة هذا التقسيم بالعودة إلى عنصر النسب

(36) نفسه.

(37) نفسه، ص.39.

والعلاقات الدموية. فابن خلدون يورد روايتين في الموضوع [38]، فالرواية الأولى تذهب إلى أن بُرَّجَدَّ البربر ترك ولدين هما برنس ومادغيس، ونفس الرواية نجدها عند ابن حزم [39]. فانحدر البرانس من برنس والبتر من مادغيس. أما الرواية الثانية فتجعل أبويهما مختلفين، فالبرانس من نسل مازيغ بن كنعان، والبتر من أحفاد بر بن عيلان مما يعني أنهم أجانب من أصل عربي. لكن ابن خلدون يرجح الرواية الأولى [40].

قسم النسابون قبائل البربر حسب انتمائها. فجعلوا قبائل البرانس تتكون من : مصمودة وغمارة وأوربة وكتامة وأوريغة وأزداجة وعجيسة وصنهاجة ولمطة وهسكورة وجزولة ومسطاسة وهوارة، «لكل هؤلاء شعب كثيرة وقبائل جمة وبطون وأفخاذ وعمائر» [41]. وتضم قبائل البتر: زواغة وزناتة وزواوة ونفزة ولواتة ومزاتة ونفوسة ومغيلة ومطماطة ومطفرة ومديونة وصدينة [42]. ويورد ابن خلدون تفاصيل أكثر حول هذه القبائل وفروعها [43].

يبدو من خلال مبررات النسابين أن أصل التقسيم هو النسب. لكننا نشك أن يكون الدافع الوحيد لظهوره. فهذا التقسيم يتشابه مع تقسيم العرب إلى عرب شمال (مضر) وعرب جنوب (يمن)، وربما كان هذا النموذج هو الذي طبقه العرب على بيئة مغربية لا تعرفه. وعندما يجعلون البتر من أصل عربي أجنبي عن المنطقة، ألا يعني هذا محاولة لكسب جزء مهم من البربر إلى جانب العرب الفاتحين في البداية، ثم الحاكمين فيما بعد؟ . فهذا عمل نفساني بالأساس يعمل على ربط البتر بالعرب وجعلهم جزءا منهم، مادامت مسألة النسب في آخر المطاف مسألة اصطلاحية وإحساسية، ويتأكد لنا الرأي عندما نصعد مع التاريخ لنتوقف عند محطة القرن 20، ومع أحد من اهتموا بهذا التقسيم وهو Gautier الفرنسي الذي عاد لينبش في هذا الموضوع ويعطيه بعدا آخر، لكنه لايختلف عما سبق. فهو يقر هذا التقسيم، ويرى

(38) ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص .117.

(39) ابن حزم، المرجع السابق، ص . 495

(40) ابن خلدون، المرجع السابق، ص .117.

(41) نفسه، ص. 117-118، ومجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، ص . 64.

(42) مفاخر البربر، ص .76.

(43) ابن خلدون، المرجع السابق، ص .118-120.

أنه لايرتبط فقط بنمط العيش[44]، بل هو نتيجة لاختلاف الأصول، فالقسم الكبير من البتر أجانب، أما البرانس فهم سكان المنطقة فهم أصليون متحضرون تشبعوا وتأثروا بالحضارة الرومانية والمسيحية[45]. فهو هنا يحاول اجتذاب البرانس إلى فرنسا، أكثر مما يناقش مسألة الأنساب والتقسيم.

نخلص إلى أن تقسيم البربر إلى بتروبرانس، ورغم الخلفيات التي تحكمت فيه، قد استطاع أن يتحول إلى واقع وعمل على تطور أحداث المنطقة وكثيرا ما أثير هذا التقسيم في إطار صراعات بربرية داخلية [46].

إلى جانب هذا التقسيم، ظهر تقسيم لايقل أهمية عنه، ويقوم على تجميع البربر تحت ثلاث اتحاديات قبلية ضخمة من القبائل والعشائر.

من زناتة : بنو مرين ـ بنو عبد الواد ـ مغراوة ـ بنو يفرن ـ تجين ـ زواغة ـ بنو فاتن، ـ مغيلة ـ مطغرة ـ مديونة ـ كشانة ـ ملزوزة ـ مطماطة ـ ولهاصة ـ لواتة ـ مرنيسة ـ بنو دمر ـ نفوسة ـ بنويصونة ـ بنو يجيش وبطوية ـ كزناية ـ بنو ورتطغير ـ نفزة ـ جراوة ـ لماية ـ بنو مستارة أوربة... وتستقر أغلبها ما بين جبال الأوراس شرق الجزائر وسواحل المحيط الأطلنتي عند مدينة أصيلة مرورا بالسهول العليا الجزائرية وممر تازة وسهل سايس، وأغلب قبائلها من صنف البتر.

من صنهاجة : لمتونة ـ لمطة ـ جزولة ـ مسوفة ـ كتامة ـ جدالة ـ زواوة ـ هوارة ... [47] ومواطنهم في جبال القبائل والأطلسين المتوسط والصغير وبعض الجزر في الأطلس الكبير والريف ثم الأراضي الصحراوية الممتدة من جنوب تونس حتى سواحل المحيط الأطلنتي[48].

(45) Gautier (EF) . Les siècles obscurs du Maghreb, Payor, Paris, éd ; 1, 1927 , p. 216-17

(46) برز بشكل واضح في صراعات زناتة وصنهاجة خلال القرنين 4 و5 هـ / 10 و 11 م رغم إغفال استعمال لفظي البتر والبرانس، وخلال فتنة القرن 3 هـ / 9 م في الأندلس، انظر ابن حيان، المقتبس، المكتبة الشرقية، باريس 1937، ص . 468.

(47) أغلب الدراسات تصنف هوارة ضمن زناتة، لكن العودة إلى شجرة الأنساب الواردة عند ابن حزم وابن خلدون ربما تجعلنا نصنفها ضمن قبائل صنهاجة. انظر ابن خلدون، المرجع السابق، ج6، ص. 117. وابن حزم ، الجمهرة، ص. 498.

(48) Terrasse (H) , Islam d'Espagne, Libraire PLON, Paris, 1958, p .196

من مصمودة: غمارة ـ هسكوة ـ أيلانة ـ سكساوة ـ غدميوة ـ هرغة ـ كندافة... ومواطنها بالمغرب الأقصى في الريف الأوسط والغربي ثم الأطلس الكبير والسهول الأطلنتية والحوز وسوس[49] ويقدم ابن خلدون لائحة أوسع وأكثر تفصيلا عن قبائل وعشائر مصمودة.

إن هذه التقسيمات التي تقدم عن البربر رغم الغموض الذي يشوبها، والخلط الذي يرافقها ستكون مفيدة في تتبع أحداث المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط وفهم الكثير من القضايا التي يعرفها هذا التاريخ.

3- التسمية

نعتت هذه المجموعة البشرية، عبر تاريخها، بأسماء متعددة مثل: البربر والأمازيغ والأفارقة والجيتوليين... إلا أن هذه الأسماء كلها لم تحظ باهتمام كبير باستثناء الإسمين الأولين، إذ أثارا جدلا كبيرا ونقاشا بين المختصين حول معناهما وأصلهما ثم مصدرهما. فكل واحد يختار الواحد ويرفض الآخر وفق قناعاته وتبريراته. وإذا كان اسم الأمازيغ يكاد يهيمن على الساحة حاليا، فإن اسم البربر بدوره ظل ؛ ولزمن طويل، الإسم الذي نعت به سكان شمال افريقيا. وسنعمل في هذه النقطة على الوقوف عندهما لنبحث في معناهما وأصلهما وأكثرهما رواجا واستعمالا خلال فترة الدراسة.

1.3. تسمية «البربر»

من الناحية اللغوية نجد أنها تعني :

في معجم محيط المحيط: بربر المعز أي صوت. وبربر القوم أي أكثروا الكلام في غضب وصاحوا اجلَبُواْ. وتبربر الرجل: توحش وجفا طبعه.

والبربار: الكثير الكلام دون منفعة.

في Petit Robert:

berbère : خاص بالبربر و barbare : الأجنبي ـ القديم ـ المتوحش.

(49) نفسه، ص. 194-6.

في Supplément aux dictionnaires arbaes لدوزي :

بربر : تذمر وبرطم.

متبربر : متوحش، خشن.

عند ابن خلدون : يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة[50].

من خلال كل هذه التعاريف نستنتج أن الكلمة تحيل على معاني: التوحش والقدم والكلام غير المفهوم والأجنبية.

أما من الناحية الاصطلاحية فكل هذه المعاجم تحيل على أن المقصود بكلمة بربر هم سكان شمال افريقيا. فما هي العلاقة بين الجانب اللغوي والجانب الاصطلاحي للكلمة؟

فأغلب الدراسات تذهب إلى أن هذا الاسم قد ألصق بسكان المنطقة على يد الرومان والإغريق الذين يطلقونه على كل أجنبي وغريب عن الحضارة والثقافة الهلينية[51]. نعم إن هذا المذهب يتوافق مع الشرح اللغوي للكلمة، وكذلك العلاقة المتوترة للبربر مع الرومان ورفضهم المستمر للخضوع لهم ولحضارتهم قد يبرر إصدار هذا النعت في حقهم. لكن ألا يحق لنا أن نعود إلى المصادر الإغريقية والرومانية ونسألها عن الإسم أو الأسماء التي تنعت بها سكان شمال افريقيا؟ يبدو أنه مطلب مشروع.

فهيرودوت يسميهم بالليبيين، وسالوست بالجيتوليين والليبيين[52]، لكن، هل يعني عدم ورود الإسم في هذه المصادر، عدم وجوده عند الإغريق والرومان؟ كثيرة هي الأسماء التي تتداول في الحياة العامة، ولكنها لاترد ضمن المصادر. ولكننا، وأمام نقص معلوماتنا، سنكتفي فقط بالسؤال دون التطلع إلى الحسم في الجواب عنه. ولكننا نشك في كون أصله إغريقيا أو رومانيا، وهذا يعني أننا سنبحث عنه في مكان آخر.

---

(50) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6، ص. 116.

(51) Camps, les berbères aux marges de l'histoire; p. 86 والعبادي أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، (ب ت)، ص. 16.

(52) Camps, les berbères . mémoire , p.64.

يحاول كامبس أن يجعله مصريا بحيث يذكر أن المصريين كانوا ينعتون به سكان غرب النيل، ولكنه لايملك معرفة يقينية تمكنه من نسبته إليهم(53). وهذا يدفعنا إلى البحث عن مصدر آخر للتسمية وخاصة المصادر العربية.

فابن خلكان يورد أن افريقش بن صيفي الحميري لما غزا افريقية وسمع كلام أهلها لم يفهمه، فقال لهم: ما أكثر بربرتكم، فسموا بربرا (54)، ونفس الرواية يكررها ابن خلدون (55). فهل نستنتج من هذا أن أصل الاسم عربي ؟ إن المنطق التاريخي لايسمح لنا بذلك مادمنا في الصفحات السابقة قد أثبتنا أن هذه الرواية خرافية، فلا يعقل أن يعتمد عليها مادامت كذلك. فهل نيأس من الحصول على دعم لأصلها العربي؟ يقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى عندما يقول: «ولغتهم من الرطانة الأعجمية متميزة بنوعها، وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم»(56). وقد يجد هذا القول مصداقيته في كون العرب لما قدموا إلى شمال افريقيا و لم يسبق لهم أن ربطوا علاقات مع سكان شمال افريقيا ولاعرفوا لغتهم، فلما سمعوها نعتوها بالبربرة. لكن لماذا لم يطلقوا نفس الاسم على الفرس والروم رغم أن لغتهم ليست عربية؟ ربما كانت علاقتهم القديمة بهم، واتصال مواطنهم ببعضها البعض، ومعرفة بعضهم بهذه اللغات، ثم إيمانهم بتفوق الفرس والروم الحضاري، جعلهم يحترمونهم واقتصروا فقط على نعت الأعاجم. إلا أن هذا لايكفي للتأكيد بأن العرب هم أصحاب هذه التسمية.

من خلال وقوفنا عند تسميات الإغريق والرومان والمصريين والعرب لم نستطع أن نحسم في أصل التسمية، لذلك تبقى هذه القضية معلقة. لكن هذا لايمنعنا من الاعتراف بأن هذه التسمية ظلت ملازمة للبربر طيلة العصر الوسيط وحتى القرن 19، و لم نجد من يرفضها من نسابتهم ولاملوكهم، وحتى في فترات حرجة. فمثلا خلال القرن 12/6م، قامت مناظرة بين أبي الوليد الشقندي الأندلسي وأبي يحيى ابن المعلم الطنجي في حضرة والي سبتة الموحدي حول تفضيل إحدى العدوتين، فكانت أول إشارة في كلام الشقندي

(53) نفسه، ص. 64.

(54) ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت (ب ـ ت)، ج.1، ص. 55.

(55) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6. ص. 117.

(56) نفسه، ج. 6، ص. 116.

تشير إلى البربر، ولكن لا أحد اعترض عليه في شأن التسمية[57]. وحتى صاحب «مفاخر البربر» لم يرفض استعمال التسمية، ونفس الأمر ينطبق على ابن خلدون. فماذا يعني هذا؟ هل هو اعتراف بالأمر الواقع وقبول بإسم أطلق عليهم قسرا؟ قد يكون هذا ويمكن مقارنته ببعض الأسر التي تتبنى ألقابا مضحكة وهزلية في أوراقها الرسمية، بعدما كانت تسب كل من ينعتها بها. وقد يكون هذا ناتجا عن عدم الاهتمام مادام البربر ينتسبون في أغلب الأوقات إلى قبائلهم وعشائرهم[58]. وكيفما كان الحال، فهذا الاسم هو الذي نعت به البربر طيلة العصور الوسطى سواء كان محليا أو أجنبيا [59].

2.3. تسمية «أمازيغ»

يرى كامبس أن الاسم الحقيقي لسكان شمال افريقيا هو من الأصل MZG و MZG الذي نجده في كلمات Mazices الرومانية وMaxyces الإغريقية و Mazyes الواردة عند [60] Hecatée. وهي تقابل أمازيغ التي تعني الحر أو الشريف.

من الناحية اللغوية فالاسم من فعل إزيغ أو من فعل يوزاغ ويوهج الذي يعني غزا وأغار [61].

ويوضح لنا كامبس أن استعمال هذه التسمية واسع الانتشار، حيث يستعمل المصريون كلمة Meshewesh لنعت سكان ليبيا، وفي الفزان استعملت كلمة Imusagh، وفي الأوراس والريف والأطلس الكبيرImazighen، وعند الطوارق Tamazek.

ويستنتج من هذا الانتشار الواسع أن هذا هو الاسم الذي يقبل به كل سكان شمال افريقيا كاسم محلي لهم [62].

(57) المقري، نفح الطيب، دار صادر، بيروت (ب، ت)، ج 3، ص. 186.

(58) Pellat, op cit. 1208

(59) ناقش هذا الرأي وأكد عليه الأستاذ محمد زنيبر في مقاله في معلمة المغرب، ج4، ص، 1131 بعنوان «البربر».

(60) Camps, op.cit, p.66

(61) شفيق، أمازيغن، معلمة المغرب، ج،2، ص. 674.

(62) Camps, op.cit, p.66

حسنا هذا إسم نجده في كل المناطق، لكننا عندما نتمعن في الجماعة التي تنعت به، نجد أن المصادر اليونانية إنما نستعمله لنعت قبيلة وسط الجزائر الحالية. وفي الوقت الراهن، نجد أن البربر يستعملون كلمة أمازيغ (وتعني الأحرار)، ولكن للإشارة إلى رتبة إجتماعية. ويحتل من ينعتون بها مكانا وسطا بين الفئة العليا المكونة من الشرفاء والمرابطين، والفئة الدنيا في المجتمع. وهذا دليل على أنهم لايشكلون كل المجتمع، بل فقط جزءا منه، لذلك فلا يمكن أن ننعت بها كل السكان البربر. وإذا عدنا إلى مصادرنا الوسيطية فنكاد نجزم أنها لم ترد إلا في إطار شجرة نسب ينقلها ابن خلدون وباقي النسابة والتي تجعل جد البرانس مازيغ بن كنعان[63]. لكن لا أحد نعت سكان شمال افريقيا بأنهم أمازيغ و لم يبرز هذا النعت حسب كاتب مقال «البربر» في معلمة المغرب إلا خلال القرن 20 [64].

من كل ماسبق، نستنتج أن استعمال كلمة «أمازيغ» رغم تواجدها في القاموس اللغوي البربري منذ القدم لم يكن يشمل كل سكان شمال افريقيا، فهو لايعدو أن يكون إسما يطلق على مجموعة محدودة.

يمكن بعد هذه الجولة التي ناقشنا خلالها مسألة التسمية، أن نقول إن سكان افريقيا خلال العصر الوسيط كانوا ينعتون بالبربر، و لم نجد من يعارض هذه التسمية أو يرفضها، بل الكل موافق عليها رغم الخجل الذي يرافق سماعها. ولذلك، وإيمانا منا بأن المصادر؛ في أحيان كثيرة، تحدد للمؤرخ مصطلحاته، سنحتفظ بهذا الاسم ونستعمله في كل فصول هذا البحث.

واضح من خلال هذا الفصل أن كل مايتعلق بالبربر من حيث الأصول والتقسيمات والتسمية، يشوبه غموض كبير، فنحن في هذه الخاتمة، في حالة ليست بأحسن من حالنا عند المقدمة، فتماما كما كانت البداية إشكالية، فالخاتمة أيضا إشكالية. ولكن المجهود الذي بذلناه لمناقشة هذه القضايا؛ وحتى إن لم يقدم لنا أي شيء، فقد جعلنا على علم بمشاكل هذا الموضوع، وفسح لنا المجال لتحديد بعض المقدمات التي سنرتكز عليها في الفصول اللاحقة.

(63) ابن خلدون، المرجع السابق، ص. 117.

(64) محمد زنيبر، البربر، معلمة المغرب

الفصل الثاني
الهجرات البربرية إلى الأندلس

ظل التبادل السكاني بين شمال وجنوب حوض البحر الأبيض المتوسط سمة بارزة ودائمة عبر تاريخ المنطقة، وهذا ما جعل سمات كثيرة تجمع سكان الضفتين دفعت الكثير من الباحثين إلى إصدار نظريات حضارية تربط هذه الضفة بتلك[1]. وتميزت شبه الجزيرة الإيبيرية؛ بحكم قربها الكبير من الضفة الجنوبية، بدورها كمعبر وممر دائم لهذا التبادل.

منذ الحركات الأولى للفتح الإسلامي سجلت حركة عبور مكثفة من شمال افريقيا نحو إيبيريا، بحيث فر النصارى والأفارقة أمام الفاتحين العرب إلى اسبانيا وجزر البحر المتوسط[2]. وبعد فتح شبه الجزيرة الإيبيرية انطلقت هجرة مكثفة من شمال افريقيا يكونها البربر أساسا. واستمر هذا التيار دون توقف طيلة الحكم الإسلامي للأندلس. وتتفق الآراء حول هذه الاستمرارية. فليڤي بروڤنسال يقول: «استمر تيار الهجرة من المغرب نحو اسبانيا بشكل منتظم»[3]. ويؤكد حسين مؤنس هذا الرأي في كلام له ورد فيه: «أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلا»[4] ونفس الشيء نجده في هذا القول لخالد الصوفي: «كانت الهجرات البربرية من إفريقيا الشمالية نحو الأندلس في تجدد دائم لاتنقطع أبدا»[5]. إن كل هذه الآراء تتفق حول استمرارية ودوام تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس، لكنها لاتتجاوز هذا الكلام المعمم لإعطائنا تفاصيل حول أهم الموجات الهجرية وتواريخها. والحق أننا لا

(1) صدرت نظريات حضارية تبحث في أصل سكان شمال افريقيا، فذهب بعضها إلى أن السكان الأوربيين قد انطلقوا من شمال افريقيا لتعمير أوربا الجنوبية، بينما ذهب آخرون إلى أن شمال افريقيا قد عمر بسكان من أصل أوربي اجتازوا عبر شبه الجزيرة الإيبيرية.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص. 36—37.

(3) Levi- Provençal, L'Espagne musulmane au 10ème S, Paris, 1932, p.10

(4) مؤنس حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية، القاهرة، 1959، ص. 379.

(5) الصوفي خالد، تاريخ العرب في اسبانيا، المطبعة التعاونية، دمشق، 1959، ص. 33.

ننتظر منها أن تقدم لنا سجلات دقيقة عن هذا العصر الذي لايزال فيه مفهوم الحدود غير معروف وغير مدقق وليست هناك سلطات على حدود الدول الغامضة لضبط من يدخل أو يخرج منها ولكن على الأقل الوقوف عند بعض الحركات الأكثر إثارة ولفتا للانتباه.

إن تقاعس الدارسات السابقة عن التوقف عند أهم الهجرات بشكل دقيق ومتأني يلقي عبء هذه المسؤولية على هذا البحث. ويتطلب منا تدقيقا وقراءة متأنية ودقيقة لمصادرنا الوسيطية. وبعد تتبعنا لما تقدمه هذه المصادر، تأكد لدينا أن هناك فقط، نوعين منها يمكن الإعتماد عليه بشكل كبير. إنها كتب التاريخ العام ثم كتب التراجم، دون أن نغفل الإشارة إلى أن مصادر أخرى يمكن أن تنجدنا ببعض الأخبار، ولكنها تظل محدودة للغاية. فالنوع الأول يخبرنا بالخصوص، عن الهجرات الكبرى والجماعية التي تحدث بين الفينة والأخرى، بينما يفيدنا النوع الثاني في تكوين صورة عن الهجرة الفردية. وتظل؛ دائما، معلوماتنا ناقصة مادامت المصادر لاتهتم كثيرا بتحديد مواطن انطلاق المهاجرين ومسار رحلتهم وأعدادهم، وهذا ما يجعل المهمة أكثر صعوبة وتعقيدا.

كثيرة هي الصعوبات التي تواجه من يريد البحث في مسألة الهجرة البربرية إلى الأندلس، ولكن هناك عنصرا إيجابيا يساعد على حل جزء منها ألا وهو استمرارية هذه الهجرات. إذ قد يغنينا عن الوقوف الدقيق عند كل التحركات السكانية، لنعمل على التعرف على الفترات التي عرفت نشاط الهجرة أكثر من غيرها. ولهذا قررنا أن نتحدث عن دورات هجرية بدل هجرات.

تتكون الدورة الهجرية من ثلاثة مراحل: مرحلة الهجرة (أ) ومرحلة الهجرة المضادة (ب) ثم مرحلة الاستقرار النهائي وتغيير المواطن (ج). ونخصص المرحلة (أ) لتحديد أهم الموجات الهجرية التي عرفتها الدورة سواء كانت فردية أو جماعية، وضبط أهم الأسباب الكامنة وراءها، وإن أمكن تحديد مواطن انطلاقها ووصولها. أما المرحلة (ب) فهي التي تعمل على تتبع عودة بعض المهاجرين البربر من الأندلس إلى مواطنهم الأصلية، وعوامل ذلك. في حين تهتم المرحلة (ج) بتتبع أخبار من اختاروا البقاء في الأندلس خاصة، وأنهم يكونون في طور تغيير مواطنهم الأولى بها، والاستقرار بمواطن جديدة.

لاندعي أننا، ومن خلال، هذا التصور سنلتزم بمنهج سكاني محض، بل سنحاول قدر الاستطاعة أن نكون أكثر علمية وتدقيقا.

تمكنا من خلال الدراسة الأولية لمواد هذا الموضوع من تقسيم تاريخ الهجرة البربرية إلى الأندلس إلى ثلاثة دورات كبرى مع وجود مرحلة فراغ. وهذه الدورات هي : الدورة الأولى (92 هـ / 711 م ـ 136 هـ / 754 م) والدورة الثانية (138 هـ / 756 م ـ 202 هـ / 817م) والدورة الثالثة (300 هـ / 912 م ـ 422 هـ /1031م). أما فترة الفراغ فتمتد على القرن 3 هـ / 9م. سيلاحظ القارئ أن تقسيمنا هذا لايرتكز على التقسيم الزمني، بل أساسا على الأحداث التي تكون الدورة الهجرية وهي الهجرة والهجرة المضادة وإعادة الاستيطان في الأندلس.

1- الدورة الهجرية الأولى

كما سبقت الإشارة إلى ذلك فهذه الدورة دورة تمتد من الفتح حتى نهاية حكم الولاة بالأندلس تقريبا على مدى 44 سنة. وهي أقصر دورة. ولكنها الدورة التي حملت أكبر عدد من السكان البربر إلى الأندلس، فهي التي وضعت قاعدة الاستيطان البربري بالأندلس. وهي أيضا الدورة التي تندر الأخبار عنها، وهذا مايفسر غلبة الطابع الجماعي على الهجرات التي نتوفر على أخبار حولها. وسنتوقف الآن عند مراحلها واحدة واحدة لنخرج ببعض الخلاصات.

المرحلة الأولى :

كانت الموجة الأولى من المهاجرين تتكون من الدفعة التي قادها طارق بن زياد سنة 92 هـ / 711 م وهي التي سهرت على فتح الأندلس واستقرار الإسلام بها. واختلفت المصادر، بشكل كبير، حول أعداد المهاجرين. ويمكن تلخيص الآراء الصادرة في الجدول التالي : (أقوال المؤرخين بشأن عدد جند طارق بن زياد).

عدد المهاجرين	عدد المؤرخين القائلين به	أسماء المؤرخين
أقل من ألفين	2	ابن قتيبة ـ الطرطوشي
سبعة آلاف	3	الحميري ـ القلقشندي ـ ابن الشباط.
11984 أو 11986	4	الحميري ـ القلقشندي ـ ابن خلكان ـ المقري.
12 ألف	8	ابن الأثير ـ ابن عذاري ـ ابن الشباط ـ الطبري. ابن كثير ـ أخبار مجموعة ـ المقري ـ النويري
12 ألف ومتطوعة	2	ابن الكردبوس ـ وصاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها»
10 آلاف و 300 رجل	2	ابن خلدون ـ الناصري
13 ألف و 700 رجل	1	صاحب «ذكر سبب فتح الأندلس»

يوضح الجدول أن المؤرخين اختلفوا كثيرا حول تحديد عدد المهاجرين مع طارق بن زياد، لكن يبدو أن أغلبية الآراء تميل نحو تحديدهم في 12 ألف مهاجر أو أقل بقليل أو أكثر بقليل . وهذا ماتدعمه آراء الباحثين مثل الحجي ودوزي[6] ويتفق كل هؤلاء حول كون أغلبية المهاجرين من البربر بينما يقتصر وجود العرب على بضعة عشر رجلا ويؤول أحد الباحثين المعاصرين مسألة إحراق طارق للسفن بكون العرب يشكلون أغلبية في جيشه[7]، ولكنه ينسى أن حادثة الإحراق مسألة غير مؤكدة. وكذلك فإن الإحراق وإن حدث، فإنما كان من أجل أن يقطع مرافقوه كل رجاء في العودة إلى مواطنهم ما لم يحققوا الهدف الذي جاؤوا من أجله، وليس فقط لأن العرب يشكون فيه. وهذا ما يجعل رأيه هذا بعيدا عن الصواب وشاذا.

(6) الحجي عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي، دار القلم، بيروت، 1976، ص. 46–47 و Dozy (R) , Histoire des Musulmans d'Espagne, librairie orientale et américaine, Maisonneuve, Paris, 1952, t.I.P.160

(7) أحمد أبو ضيف مصطفى، القبائل العربية في الأندلس، دار النشر المغربية، البيضاء 1983، ص. 34–35.

إذا كانت الآراء تكاد تجمع حول عدد المهاجرين، فإنها تغفل مسألة أساسية وهي هل هاجر هؤلاء الجنود أفرادا أو أنهم حملوا معهم أسرهم. يغلب عدد من الدارسين المذهب الأول، لكن بيير كَيشار Guichard من خلال تحليله للمسألة يبرز أن تقاليد الجيش الإسلامي في هذا العصر تقتضي مرافقة أسرة المقاتل له. ويشتشهد بمدن الأمصار التي أسسها مقاتلون، ونزلوا بأسرهم وأبنائهم (الكوفة ـ البصرة ـ الفسطاط ـ القيروان) ويضيف أن المقاتلين البربر إذا لم يصحبوا معهم أسرهم منذ البداية، ربما يستدعونها بعد ذلك[8]، ويظهر أن هذا الرأي يستند إلى منطق تاريخي واضح، ولعله يزيد قوة إذا علمنا أن البربر استطاعوا أن يحتفظوا بلغتهم وأنظمتهم الاجتماعية وتقاليدهم. وهذا ما لايمكن تحققه لو تزوجوا كلهم بإثني عشر ألف امرأة اسبانية قوطية[9] وأول عنصر سيفقد في هذه الحالة هو اللغة والتقاليد الاجتماعية، خاصة إذا علمنا أن البربر استقروا في مواطن جنبا إلى جنب مع الأهالي الإسبان. ولهذا، فالجواز الجماعي يبدو أكثر ترجيحا، وهذا ما سيجعل عدد من هاجروا مضاعفا مرتين أو ثلاثة. ويفسر لنا الثقل الذي مثله رجال الدفعة الأولى طيلة تاريخ الأندلس، وخاصة الفترة التي تهمنا.

وبعد هذه الموجة، جاءت الدفعة الثانية التي رافقت موسى بن نصير سنة 93 هـ / 712 م وتجمع المصادر على أنها اقتصرت على بعض وجوه البربر[10] لكن نعت وجوه أو أعيان يجعلنا نشك في كون عدد المهاجرين مع موسى أكثر مما تبينه المصادر. ولعل قول عبد الله عنان الذي يحدد عددهم في 8 آلاف لايخلو من صواب[11].

أمام الانتصارات التي حققها المسلمون، وخاصة جيش طارق، والأخبار الخيالية التي انتشرت حول الغنائم، وخيرات الأندلس الكبيرة، سارع البربر إلى الجواز إلى الأندلس أفرادا وجماعات ويلخص لنا المقري هذه الحركة بشكل جيد«وتسامع الناس من أهل العدوة بالفتح

(8) Guichaud (P) , Structures sociales, Mouton, Paris, 1977, pp.137-138

(9) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط رقم 558، ص. 118.

(10) المراكشي، المعجب، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص. 22 وابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 155.

(11) لايذكر الباحث المصدر الذي اعتمد عليه في إصدار هذا التأكيد. عنان محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1960، ج.1، ص.49.

على طارق وسعة المغانم فيها، فاقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق[12] ولاتبخل علينا المصادر بعد ذلك ببعض الأخبار حول الهجرات المتوالية، فهذا القاضي عياض يذكر أن كثير بن وسلاس جد يحي بن يحي الليثي دخل الأندلس بعد طارق وعلى إثر أبيه وابن عمه نصر الداخلين مع طارق [13]. وستستمر الهجرات على هذه الصورة، رغم عدم ورودها في المصادر، حتى سنة 123 هـ / 1.740 م، خاصة وأن الفتوحات ظلت تتوغل في غاليا، ولم تتوقف إلا بعد مقتل عبد الرحمان الغافقي أمام شارل في معركة بواتييه سنة 114 هـ / 732م.

وفي سنة 123هـ / 740م تنقل بعض الدراسات أن الأندلس استقبلت دعاة خوارج من شمال افريقيا وبعدها ستختفي الأخبار عن أي هجرة من شمال افريقيا [14] إلى الأندلس، بل سجلت حركات مضادة.

وتختلف الدراسات حول تحديد أسباب هذه الهجرة. فأغلب الدارسين الأجانب يربطون هذه الهجرات بعوامل مادية وجغرافية مثل غنى الأندلس وتطلع البربر إلى تحسين أوضاعهم، أو قرب الأندلس وسهولة الجواز[15] ويذهب آخرون إلى ربط ذلك بحب البربر للحرب والمغامرة، أو لتشابههم العرقي مع سكان شبه الجزيرة الإيبيرية[16]، ورغم إمكانية لعب العنصر المادي دورا مهما ورئيسيا، فإن جعله السبب الوحيد ربما، كان مبالغا فيه، وإذا كان هو العنصر الأساسي، فلماذا سينتظر البربر حتى الفتوحات الإسلامية للقيام بهذا الغزو خاصة وأن هذا الطريق كان معروفا لديهم منذ العصر القديم؛ لكن هذا الموقف

(12) المقري أحمد التلمساني، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج 1، ص. 243.

(13) القاضي عياض، ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج. 3، ص. 379.

(14) مؤنس، المرجع السابق، ص. 195 و Dozy, op.cit, p 161.

(15) Lévi - Provençal (E) , Histoire de l'Espagne , Maisonneuve, Paris , 1950, t.3, p. 163

Luis G. de Vadeavellano, Histoire de Espafia antigua y medieval, Alianza editorial, Paris, 1988, t.I,p. 190.

Isidio de las Cagigas, Minorias etnico-religiosas de la edad media española, Instituto de estudios africos, Madrid, 1948, livre 1, t. 1, pp. 386-7.

(16) Luis G. de Vadeavellano, op.cit, t.I, p. 390 & Minorias etnico-religosas, livre I, t. I, pp. 386 - 387

ليس غريبا، لأن كل الفتوحات الاسلامية قد فسرت بأسباب مادية من طرف أغلب الدارسين الغربيين.

حقيقة أن دخول البربر في الإسلام كان حديثا، لكن خضوع المنطقة للحكم الاسلامي الأموي الذي تم قبل ثماني سنوات من تاريخ الفتح، لايعني أنها المناسبة الأولى التي يتعرف فيها المغاربة على الاسلام. فربما لم يتحقق الخضوع السياسي إلا بعدما اقتنع الكثيرون بجدوى اعتناق الاسلام والدخول فيه. وكلنا يعرف أن الأفكار تنتقل بسرعة أكثر من سرعة الجيوش والرجال. ولهذا فلا يستبعد أن يكون الكثير ممن دخلوا ضمن جيش طارق ممن تعرفوا على الإسلام ولعل عدم توقفهم عند المناطق الأولى التي فتحوها، واستمرارهم في عملية الفتح يدعم كون فكرة الجهاد غالبة على نفوسهم إما اقتناعا أو حماسة. ولربما أن فكرة الفتح نبعت من البربر، وباركها موسى بن نصير. وليس هذا بغريب مادامت كل مناطق العالم الإسلامي الحديثة العهد بالاسلام قد أخذت المبادرة ووسعت أفق الدين الجديد في الأراضي الواقعة خلفها[17].

يمكن أن نلخص أسباب الفتح في كون الجهاد ونشر الاسلام الفكرة المحورية التي دفعت البربر إلى الجواز، وكانت الغنائم وخيرات الأندلس مجرد دعم زاد من تحريض وتشجيع المقاتلين على الاستمرار في التوسع.

ونصادف في هذه الفترة أيضا مشكلا آخر حول تحديد مواطن انطلاق المهاجرين البربر، فالمصادر لاتقدم لنا أي معلومات حول ذلك، ويميل أغلب الدارسين إلى كون أغلبهم من المناطق الشمالية للمغرب بناء على قربها من الأندلس وكون أغلب المهاجرين من المستقرين[18]، لكن بيير كَيشار يعارض هذا المذهب، ويرى أن مواطنهم أوسع بكثير، حيث تمتد على كل شمال افريقيا[19] معتمدا على الرواية التي ترى أن جيش طارق مكون

(17) نجد أمثلة كثيرة في تاريخ الفتوحات فكلما أمة جديدة إلى الإسلام صارت من جيوشه مثل الفرس والأتراك والبربر وزنوج غرب افريقيا.

Lombard (M) , l'Islam dans sa première gradeur Champ, Flammarion, Paris, 1971, p. 16

(18) Lévi - Provençal (E) , Histoire t.3, p.170 & Luis G. de Valdevallano, op.cit, p.390.

(19) Guichard, Structure, p.251

من اثني عشر ألف رجلا من رهائن البربر[20]، إلا أن هذه الرواية ضعيفة إذ لم يسجل في تاريخ الفتوحات تصرف مشابه، وحتى لو سلمنا بصحة الرواية، فإن تقاليد العصر لاتقر باستخدام الرهائن في القتال، كما أن طارقا المشهور بحرصه وتخطيطه الدقيق لن يخاطر بغزو أرض غريبة بعناصر كلها مكرهة على القتال.

المرحلة الثانية :

عقب فشل ثورة 123 هـ / 740م، تعرض البربر لمطاردة ملحة من قبل الجيوش الشامية بقيادة بلج بن بشر. فضاقت الأرض عليهم و لم يجدوا أمامهم إلا الفرار إما نحو الهوامش، أو العودة إلى مواطنهم في المغرب التي انفصلوا عنها منذ أكثر من ربع قرن. وإذا كانت المطاردة قد حملتهم على العودة، فإن الحنين الدفين ظل يراودهم، ودفعهم الآن إلى العودة إلى العدوة المغربية. وللأسف فالمصادر لاتخبرنا بشكل واضح عن هذه الهجرة. و لم تتجاوز مجرد تلك الإشارات المهمة التي تنص على أنهم التجأوا إلى المناطق الجنوبية [21] إلا أننا ولحسن الحظ نجد ضمن مصادر المغرب الأقصى إشارة إلى شخص ينتمي إلى وادي برباط انتقل إلى المنطقة، وأسس دولة برغواطة وهو صالح بن طريف البرغواطي[22] سنة 127 هـ /5.744 م لعل صالحا هذا ليس إلا واحدا ممن عادوا إلى أوطانهم بعد أن تبين لهم حقد أهل الأندلس وقسوتهم عليهم.

خلال العقد الرابع من القرن الثاني الهجري، عرفت الأندلس موجة جفاف دامت أربع سنوات دفعت الناس إلى الهجرة إلى المغرب وافريقية، ويذكر ابن عذاري أن الناس«التجأوا إلى طنجة وزويلة وريف البحر بالعدوة»[23]، ورغم أننا لانعتقد أن كل من هاجروا كانوا من البربر، ولكن انطلاق المهاجرين من كورة شذونة يجعلنا نقبل بوجود عناصر بربرية مهمة ضمن أعداد المهاجرين لأن هذه المنطقة تعتبر موطنا مهما للسكان البربر.

(20) الرقيق القيراوني، تاريخ افريقية، ص. 34.

(21) مجهول، ذكر سبب فتح الأندلس، مخطوط الخزانة الملكية رقم 7531، ص.35.

(22) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد (ب ــ ت)، ص. 137، ومجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934، ص. 47.

(23) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 38.

هكذا اتضح لنا أن أواخر هذه الدورة الأولى قد عرفت هجرات مضادة للبربر من الأندلس إلى المغرب تحت تهديد المطاردة العسكرية للجنود الشوام، وكذلك بفعل الجفاف، ثم أيضا نتيجة الحنين إلى الاهل والعشيرة والمواطن الأولى.

المرحلة الثالثة :

في نفس الوقت الذي كان فيه البربر يتعرضون للمطاردة والتجأوا إلى المغرب، كانت تحدث بالأندلس تغييرات مهمة على حركة الاستيطان البربري. فالمقري يقول عن البربر بعد ثورة 123 هـ / 1.740 م : « فقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور، وخفوا عن العيون»[24] ويذكر صاحب «أخبار مجموعة» أن رجال بلج بن بشر تتبعوهم بأرض الأندلس يقتلونهم حتى أطفأوا جمرتهم [25]. أمام هذه المطاردة الشرسة، فر البربر خوفا من القتل أو الاسترقاق والسبي، فالتجأوا إلى مناطق الثغور، حيث المناطق الجبلية المرتفعة، ولكن أساسا، حيث مواطن إخوتهم[26]. كما التجأوا إلى المناطق الجنوبية، حيث جبال الجزيرة ورية، وحيث السكان البربر، وكذلك للاقتراب من البحر، حيث يسهل الجواز إلى المغرب. وهذه الحركات زادت من إفراغ المناطق الوسطى من ساكنتها البربرية.

وخلال جفاف العقد الرابع من القرن الثاني الهجري، انتشر الجفاف، فحدثت تغيرات في موطن الاستقرار«وانضم الناس إلى ماوراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين (754م) واشتد الجوع»[27]. ويضيف العذري في نص آخر : «ولجأ إليه (نهر برباط بكورة شذونة) أهل الأندلس في بعض سني المحل، وهي المعروفة بسني برباط، فحمل الناس وأصابهم خصبه»[28]. ويوضح النصان أن الناس، ومن بينهم البربر، قد التجأوا فرارا من الجفاف إلى فرنسا (وراء الدرب) والثغر الأدنى غرب الأندلس وإلى جنوب الأندلس بكورة شذونة. وهذا يؤكد ميل تحركات البربر داخل الأندلس إلى الاتجاه نحو مناطق الكثافات السكانية البربرية الكبيرة، وهي مناطق الشمال والغرب وكذلك الجنوب.

(24) المقري، نفح الطيب، ج، 4، ص. 20.

(25) أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 44.

(26) سنعود إلى هذه المسألة عند تحديد مواطن

(27) أخبار مجموعة، ص. 62.

(28) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965، ص . 118.

نستخلص من خلال دراستنا لوضع الهجرة خلال هذه الدورة، أن تيار الهجرة البربرية ظل مستمرا طيلة الفترة الممتدة من الفتح حتى ثورة سنة 123 هـ، في شكل هجرات جماعية كان هدفها المساهمة في الفتح ونشر الإسلام، مع الاستفادة مما يدره هذا العمل من غنائم. ولكن السمة الجماعية قد تكون فقط نتيجة انعدام أخبار حول هجرات فردية، وانتهت هذه الدورة بحدوث هجرات مضادة اتجهت نحو المغرب، وكذلك بتغيير البربر لمواطنهم واتجاههم نحو الثغور الشمالية والغربية وكذلك في اتجاه الجنوب فرارا من المطاردة العسكرية أو من الجفاف الذي ضرب الأندلس الوسطى، فكرسوا بذلك الاستيطان البربري بهذه المناطق. وسيلعب هؤلاء الذين فضلوا البقاء بالأندلس دورا مهما في تاريخ الأندلس.

2- الدورة الهجرية الثانية (138 هـ / 756 م ـ 202 هـ /817م)

تمتد هذه الدورة من دخول عبد الرحمان الداخل للأندلس إلى حادثة الربض التي عرفتها قرطبة على مدى ثلثي قرن من الزمان. ومعلوماتنا حول هذه الدورة أكثر دقة من معلوماتنا حول الدورة السابقة، مع أنها دون المستوى المطلوب.

المرحلة الأولى

تتركز هذه المرحلة حول الهجرة وانتقال السكان من المغرب إلى الأندلس. وأهم ما يميزها هو توفر بعض الأخبار حول هجرات فردية تلقتها البلاد خلالها.

كانت أولى الهجرات تلك التي نظمها عبد الرحمان الداخل عندما احتاج إلى جيش نظامي لاينتمي إلى عرب الأندلس الذين أعيوه بثوراتهم وانتفاضاتهم، ويضمن ولاءه لشخصه دون غيره. فكانت عدوة المغرب قبلته فجلب منها عددا من الرجال كون منهم ـ حسب رواية ابن حيان ـ جيشا غلب بهم أهل الأندلس[29]. ورغم أننا لانملك معلومات حول عدد هؤلاء المهاجرين، فإننا نرجح أن يكون البربر أغلبية جيشه الذي بلغ عدده أربعين ألف رجل، وذلك بسبب علاقة الدم التي تربطه بهم[30]، وعلاقاته الطيبة معهم أثناء تنقله

---

(29) المقري، المرجع السابق، ج، 4. ص. 36.

(30) نفسه، ج.1، ص.312.

من المشرق نحو الأندلس، وتمكنه من اختبار شجاعتهم ووفائهم. وفوق كل هذا فكثير من أعدائه يستعملون مرتزقة بربرا، وليس هناك وسيلة أحسن من مقاومتهم بنفس أسلحتهم. والتحق بعبد الرحمان عدد من مواليه الذين استقر عندهم عندما كان مستخفيا في المغرب، مثل وانسوس أبو قرة وأسرته وهو أحد شيوخ مغيلة الذين أووه وستروه عن عبد الرحمان بني حبيب الفهري[31]، والتحق به أيضا ميمون بن سعد مولى الوليد بن عبد الملك فولاه طليطلة[32]. وهؤلاء على مايبدو أمثلة فقط لمن رافقوه، بينما أغفلت المصادر ذكر أشخاص آخرين.

و لم يقتصر جواز البربر على من استقطبهم عبد الرحمان الداخل، بل إن عددا من معارضيه قد ذهبوا بدورهم إلى العدوة للبحث عن مرتزقة وجنود. فهذا عبد الرحمن بن حبيب الفهري يجتاز من إفريقية سنة 162 هـ / 778 م، فأعلن الثورة في كورة تدمير في السنة الموالية معتمدا على جيش بربري [33]. ولاتذكر لنا المصادر أي معلومات حول مصدر هؤلاء البربر، هل هم من سكان تدمير أو أنه جلبهم معه من إفريقية. إن استعداده للثورة في إفريقية، وقوة العلاقة التي تجمع الفهريين بأهل إفريقية[34]. ربما تجعلنا نغلب كونه جلب بعضهم على الأقل من هذه المنطقة للاعتماد عليهم في معارضة عدوه عبد الرحمن الداخل.

وفي بداية حكمه نفى هشام بن عبدالرحمن أخويه عبد الله وسليمان إلى العدوة، حيث قضيا سنوات حكمه، وعند تولي ابنه الحكم، اجتاز عمه سليمان من طنجة لاستعادة حكمه المغصوب[35]. وذلك سنة 182 هـ /798م، واستقر ببلنسية، وكان جيشه يضم أغلبية بربرية[36]. ألا يعني هذا أنه كون أثناء إقامته بالعدوة جيشا مرتزقا من البربر، فأجازهم ليستعيد بهم حكمه؟ الحقيقة أننا لانملك أدلة قوية، ولكن عادة أهل الأندلس في استجلاب المرتزقة

(31) ابن الابار، التكملة، مكتب نشر الثقافة، 1956، ج. 1، ص. 315.
(32) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 55. وابن خلدون، العبر، ج. 4، ص. 158.
(33) نفسه، ص.70.
(34) لقد ترك عقبة ابن نافع آثارا حسنة في هذه المنطقة، وقد سبق لأحفاده أن اعتمدوا على سمعته للسيطرة على ولاية افريقية، وكان على رأسها عند سقوط الأمويين عبد الرحمان بن حبيب الفهري.
(35) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 161.
(36) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 70.

البربر، ووجود هؤلاء ضمن جيشه، ثم استمرارهم ووفاؤهم له لمدة ثلاث سنوات، ربما تجعلنا نعتقد أنه فعلا قد جلبهم معه من منطقة طنجة.

اتضح من خلال استعراضنا لأهم الهجرات التي عرفتها هذه الدورة، أنها محدودة العدد، مع أننا لانركن إلى هذا العدد الذي قدمته المصادر، بل نشك في كونها أغفلت بعضها، خاصة الفردية منها. وقد كان وراء أغلب هذه الهجرات عامل سياسي ارتبط باضطراب أوضاع الأندلس، وصراع الفرقاء السياسيين، وحاجتهم إلى المرتزقة، فاستغلوا فقر شمال افريقيا لجلبهم. وهناك شريحة أخرى حاول عبد الرحمن الداخل أن يدعم بها عدد مواليه وأنصاره في الأندلس، فاستدعاها اعترافا بالجميل في الظاهر، ودعما لمركزه في الباطن. وقد توجهت أغلب هذه الهجرات إلى مدينة قرطبة أو كورتي تدمير وبلنسية، وأغلب المهاجرين جلبوا إما من شمال المغرب في منطقة الريف، أو من إفريقية.

المرحلة الثانية

تسجل لنا المصادر أن أول عودة إلى شمال افريقيا تعود إلى سنة 189 هـ / 805م، عندما قدمت على إدريس الثاني جماعة من أهل قرطبة فرارا من الحكم الأول الذي أعدم عددا من أهل قرطبة بعد أن كشف تآمرهم ضد حكمه، ويذكر ــ نفس المصدر ــ أن أغلب المهاجرين عرب بل وحدد قبائلهم[37]، ولاندري هل يوجد من بينهم بربر استعربوا أم لا.

في أعقاب حادث الربض المشهور سنة 202 هـ / 817م، طرد سكان الربض الغربي من العاصمة قرطبة، فالتجأوا إلى سواحل البربر، «وأصعدت منهم طائفة عظيمة نحو الخمسة عشر ألفا في البحر نحو المشرق حتى انتهوا إلى الإسكندرية»[38]. ولانجد في المصادر معلومات حول عدد من هاجروا إلى المغرب، إلا أن رواية لأحد المتأخرين، تذكر أن عدد من نزلواْ بفاس كانوا سبعة آلاف رجل[39]. لكن هذا الرقم الذي يقدمه يبدو أقل بكثير من الحقيقة، خاصة إذا عدنا إلى المعلومات القيمة التي يقدمها لنا البكري حول هؤلاء المهاجرين إلى المغرب[40].

(37) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 29.

(38) ابن الابار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 2، ص. 45.

(39) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، وفضلها، ص. 157–158.

(40) البكري، المرجع السابق، ص. 155.

لكن السؤال الأكثر إلحاحا يتعلق بتحديد أصل هؤلاء المهاجرين، فهل كانوا كلهم بربرا أو أن منهم عناصر أخرى؟ فلو سمحنا لأنفسنا بأن نحكم أن كل جنس يتجه نحو أهله ومواطنه، لقلنا إن هؤلاء كانوا بربرا، ولكننا نعلم أن هذه القاعدة ليست دائما صحيحة. ويبقى علينا الآن أن نستنجد بالمصادر علها تقدم لنا استنارة. نجد عند البكري مجموعة من النصوص أولها يقول: «... وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا في ربضية الأندلس، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة»[41]. وتؤكد كل المصادر أن مدرارا هذا بربري مكناسي زناتي.

وفي النص الثاني يقول: «... موضع يعرف بأوزقور كان يسكنه قوم يعرفون ببني موسى من ربضية الأندلس»[42]. ويقع الموضع شمال مدينة داي.

وفي نص ثالث «... مدينة أغيغي (...) وكان القوم الذين بنوها وسكنوها من ربضية الأندلس»[43]. على بعد ثلاث مراحل من فاس. ورغم أن النصين الأخيرين لايشيران إلى كون هؤلاء الربضية بربرا، ولكن تعمقهم في البادية واستقرارهم وسط قبائل صنهاجية وزناتية، ربما اعتبر دليلا على كون العائدين من البربر الذين التحقوا بقبائلهم ومواطنهم الأولى.

ويذكر أصحاب «بيوتات فاس الكبرى»، أن بني القباب «من البربر، بيتهم بيت فقه وعدالة وعلم وثروة، وهم من الأندلس الواردين على إدريس بن إدريس الكامل»[44] ونزلوا بالجيزيين وسويقة مغراوة.

توضح هذه النصوص أن عددا من المهاجرين الذين حلوا بالمغرب بعد حادثة الربض من البربر الذين عادوا إلى موطنهم الأولى بفاس وسفوح الأطلس المتوسط الغربية، وأغلبهم ـ في أغلب الظن ـ من البربر الحديثي الهجرة الذين استقروا بأرباض قرطبة وشاركوا في ثورة أهله.

المرحلة الثالثة

في الوقت الذي كانت فيه فئة من البربر في طريق العودة إلى مواطنها بالمغرب، كانت فئات أخرى من البربر تبحث لها عن مواطن جديدة في الأندلس وخارج العاصمة التي

---

(41) نفسه، ص. 149.

(42) نفسه، ص. 155.

(43) نفسه.

(44) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط 1972، ص. 44.

طردت منها ـ وإذا كنا لانملك معلومات دقيقة ونصوصا شاهدة في الموضوع، فلنا قرائن تساعدنا على توضيح ذلك. وقد أثبتنا أعلاه أن البربر الحديثي الهجرة إلى قرطبة، قد استقر معظمهم في الربض. وبعد الطرد اتجه عدد كبير من المهاجرين نحو الشمال. ويقول ابن الابار في ذلك : «ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها للحكم»[45]. ويضيف ابن عذاري:«وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس»[46]. لكننا لا نستطيع وفقا لهذا إثبات كون البربر من بين المهاجرين. إلا أننا نجد في أحد المصادر أن من بين الفارين يحي بن يحي، الذي فر أولا إلى فحص البلوط عند بني عمه هناك، ولما خانوه وحاولوا سرقته، وربما تسليمه، فر إلى طليطلة [47]. ألا يمكن اعتباره واحدا من البربر الذين فروا والتحقوا بهذه المناطق الشمالية، مفضلين البقاء على أرض الأندلس من العودة إلى المغرب، خاصة وأن نزولهم وسط أبناء قبائلهم يوفر الأمن والحماية؟ ويرجح هذا إذا علمنا أن تحركات الناس كانت سرية خوفا على أنفسهم من المتابعة والقتل، وهذا لم يسمح بورودها ضمن المصادر. ولذلك فالثغر الأوسط وكذلك الثغر الأدنى، خاصة ماردة ستكون أحسن الملاجئ للربضيين البربر. وقد يكون عدد آخر اتجه نحو الجنوب طلبا لحماية أبناء جلدته من البربر. لذلك يتأكد لنا ماسبق أن وضحناه في الدورة الأولى، وهو أن تغيير البربر لمواطنهم في نهاية كل دورة يكرس ويدعم مناطق الاستيطان الكثيف للبربر في الثغرين الأوسط والأدنى والمناطق الجنوبية.

لقد تميزت الدورة الثانية بقلة عدد المهاجرين، نسبيا، وكذلك بكونهم تضمنوا بعض المهاجرين الأفراد، وأن أغلبهم جلب للخدمة والارتزاق في الجيش نتيجة الصراعات السياسية في الأندلس. وقد انتهت هذه الدورة بعودة مكثفة للبربر إلى المغرب. وفرارهم نحو مناطق الثغر الأوسط والأدنى والجنوب للاحتماء بأبناء جلدتهم ولتكريس الاستيطان البربري في هذه المناطق.

---

(45) الحلة السيراء، ج.1، ص. 45.

(46) المرجع السابق، ج 2، ص. 77.

(47) الخشني، تاريخ الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للبحث، مدريد 1992، ص. 360.

3- الدورة الهجرية الثالثة (300 هـ / 912 م ـ 422 هـ /1031م)

تعد هذه الدورة أطول الدورات، إذ تتجاوز قرنا من الزمان. وهي أيضا أكثرها وضوحا لكثرة الأخبار حول الهجرات التي عرفتها، وهي هجرات فردية وجماعية متنوعة الأهداف والأغراض. ولايستغرب هذا الأمر إذا علمنا أنها تشمل القرن 4 هـ / 10 م الذي عرف انطلاقة التأليف التاريخي الأندلسي بشكل واسع. فأقدم المؤلفات التي نتوفر عليها تعود إلى هذه الفترة.

المرحلة الأولى

لتتبع الهجرات التي تلقتها الأندلس سنبدأ أولا بتقديم الهجرات الجماعية ثم نثني بالهجرات الفردية.

كانت أولى الهجرات تلك التي انطلقت من نكور سنة 304 هـ /916 م، عندما فربنو سعيد بن صالح من القائد الشيعي مصالة بن حبوس والتجأوا إلى مالقة وبجانة [48].

عند حديثه عن أحداث سنة 316 هـ / 927م، ذكر ابن حيان وجود فرق من الطنجيين ضمن جيش الخليفة عبد الرحمان الناصر[49]، فهل يتعلق الأمر بجلبه لبربر لدعم جيشه الفتي أم أنهم فقط تلك العناصر التي تركها جده؛ نرجح أن يكون قد جلبهم خاصة وأنه يعمل الآن على إطفاء ماتبقى من نيران الفتنة، وفرض سلطة الدولة المركزية، ونجد تأكيدا لذلك عند نفس المؤرخ الذي أشار إلى أن الناصر قد جلب عددا من الفرسان البربر لقمع حركة ابن حفصون[50].

وبعد حوالي عقد من الزمان تلقت مالقة والمرية من جديد دفعة من بني صالح، عندما ثار عبد السميع بن جرثم بن إدريس على موسى بن رومي وطرده مع أخيه هارون وأسرته[51].

(48) البكري، المرجع السابق، ص. 96. وابن عذاري، المرجع السابق، ج 1، ص. 175.
(49) ابن حيان، المقتبس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979، ج 5، ص. 241.
(50) نفسه، ص. 257.
(51) البكري، المرجع السابق، ص. 99–98، وابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص . 286.

وفي سنة 343 هـ / 954م، واجهت قبيلة ازداجة محمد بن أبي العافية المكناسي فهزمها، فاضطر رؤساؤها إلى الهجرة إلى الأندلس[52]، ومعهم عدد من الأتباع. فاحتلوا فيما بعد مكانة خاصة ضمن جيش المنصور بن أبي عامر.

وفي السنة الموالية، اجتاز حميد بن يصل وستة وثلاثون من رجال كتامة وغيرهم من قبائل المستأمنين من عسكر الشيعي، فاستقبلهم الناصر[53]، وواضح من كونهم رؤساء أن مرافقيهم سيكونون كثيري العدد.

وكانت سنة 362 هـ / 973م، من أكثر السنوات هجرة. ففي جمادى الثانية منها، دخل قرطبة جمع من مصمودة الفارين من حسن بن قنون الإدريسي وعددهم سبعون رجلا، فقبلهم المستنصر وأنزلهم بمنية نجدة[54]. وفي رجب أقبل على قرطبة إبراهيم بن مسهول الصنهاجي ومحمد بن خلف الكتامي ومعهما نفر من أصحابهما، فأنزلوا خير منزل[55]. وعقب رمضان وصل نحو من ستين فارسا من البربر الجانحين إلى طاعة الأمويين، فتقبلوا، وأحسن إليهم[56].

بعد أسر الحسن بن قنون الإدريسي على يد غالب الناصري في عام 364 هـ/ 974م، حمل إلى قرطبة ومعه رجاله وأهله فـ «رتب (الحكم) من حاشيته في الديوان سبعمائة من أنجاد المغاربة»[57].

ونتيجة الصراعات التي فجرها الصراع الفاطمي الأموي بين قبائل البربر، وقعت مواجهة عنيفة بين زناتة وصنهاجة، فقتل بنو برزال زيري بن مناد، فخافوا على أنفسهم، فطلبوا الإذن من الخليفة الحكم الثاني، فقبل التحاقهم في زهاء ستمائة شخص، فالحقوا بالجيش تحت قيادة

(52) ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص. 196.
(53) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 220.
(54) نفسه، ص. 246، وابن حيان، ج. 6، ص. 96.
(55) ابن حيان، ج 6، ص. 195.
(56) نفسه، ص. 115.
(57) نفسه، ص. 196، وابن خلدون، المرجع السابق. ج 6، ص. 292.

زعيمهم جعفر الحمدوني[58]، ولاتحدد لنا المصادر تاريخ هذه الهجرة، ولكن المؤكد هو أنها تمت بعد 360هـ / 971م، سنة قتل زيري بن مناد.

وعند قتل جوهر الصقلي ليدو بن يعلى في ناحية الشلف، فر بنو يفرن ولحقوا بالأندلس ودخلوا جيش المنصور بن أبي عامر، بعد اختلافهم حول من يتولى أمرهم، وغلبة أبي يداس على محمد بن يدو، فاضطر هذا الأخير إلى الالتحاق بالأندلس سنة 381 هـ / 991 م[59].

والتحق بالأندلس جمع مهم من صنهاجة إفريقية بعد الصراع الذي عرفه البيت الزيري، فعندما تولى باديس بن منصور السلطة سنة 386 هـ / 996م، استصغره أعمامه زاوي وماكسن، فثاروا عليه والتحقوا بجبل شنوق أو شنون[60]، فحاربهم عمه حماد، فهزمهم، وقتل ماكسن، فخاف الآخرون، رغم العفو الذي حظوا به على أنفسهم، فطلبوا الإذن في الجواز إلى الأندلس، فاجتاز زاوي وابنا أخيه حباسة وحبوس وأخواه جلال ومعنصر في عدد من رجالهم، ودعموا جيش العامري[61]، ويبدو أن هذه الهجرة كانت في الشهور الأخيرة من عهد المنصور بن أبي عامر وبداية عهد عبد الملك المظفر، مادام آل زيزي في سنة 392 هـ / 1022م، في مواجهاتهم العسكرية، وفيها قتل أيضا ماكسن[62]. وتؤكد المصادر أن عدد المهاجرين مع زاوي كان كبيرا، ذلك أنه، ومباشرة بعد وصوله إلى الأندلس، قاد حملة جهاد في رجاله باستثناء أدلاء أندلسيين، وحقق نصرا مهما[63].

وفي بداية القرن 5 هـ / 11م، جاز علي بن حمود «مع البربر من العدوة إلى الأندلس»[64]. وبعد سبع سنوات [جاز «يحي بن علي بن حمود] البحر بجمع وافر وحصل بمالقة مع أخيه إدريس» [65].

---

(58) نفسه، ص. 192، وابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 278.

(59) مفاخر البربر ص. 45. وابن عذاري، المرجع السابق، ج 3، ص. 270.

(60) ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص. 208 و 228 و 238.

(61) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 3، ص. 263. وعبد الله بن بلقين الزيري، التبيان، دار المعارف، القاهرة، ص. 17.

(62) النويري، تاريخ المغرب الاسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص. 328.

(63) ابن الأثير، المرجع السابق، ج 9، ص. 33.32.

(64) المقري، المرجع السابق، ج 1، ص. 406.

(65) نفسه، ج 2، ص. 31.

هذه لائحة طويلة عن الهجرات الجماعية التي تلقتها الأندلس خلال هذه الدورة الثالثة، وهي دون شك طويلة، لكننا نظل نشك في أن تكون كاملة، وذلك لأننا عندما نعود إلى جيش المنصور نجد من بين قبائله مثلا مغراوة، ولكن هذه الهجرات لا تذكر هجرة واسعة لمغراوة، كما أن المصادر تستعمل لفظ «وغيرهم» في كل مرة، مما يعني أنها لا تذكر كل شيء، بل هناك من تركت ذكرهم. ولكن أهم ميزة لها هو كونها هجرات مستمرة وموزعة على كل الفترة الزمانية للدورة.

وإلى جانب الهجرات الجماعية سجلنا لائحة للهجرات الفردية التي لاتقل أهمية عن سابقتها.

أول المهاجرين هو قاضي مليلة الذي فر من الشيعة ولحق بالناصر فتقبله سنة 325 هـ / 937م[66]، واسمه أحمد بن الفتح المليلي المعروف بابن الخزاز. وفي سنة 333 هـ / 945م، خرج حامد بن يصل قائد الشيعة على المغرب، والتحق بالأندلس ونال مكانة عظيمة عند الأمويين [67].

وفي عام 344 هـ / 956م، جاز محمد بن الخير أمير مدينتي فاس إلى الأندلس قصد الجهاد [68] وهاجر عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي من أصيلة سنة 342هـ / 954 م قصد الجهاد، واستقر بمحلة بأعمال طليطلة [69].

كما دخل الأندلس لطلب العلم والجهاد دراس بن اسماعيل أبو ميمونة المالكي الفاسي (ت 357 أو 358 هـ / 969 م) [70].

وفي بداية صفر من سنة 362 هـ / 973م، وصل ثعبان بن أحمد الكتامي المشتهر بشجاعته فأنزله الحكم أحسن منزل [71].

(66) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ج 1، ص. 61.

(67) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 1، ص. 198 و 214.

(68) ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص. 88.

(69) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج.1، ص. 213.212.

(70) القاضي عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 81.

(71) ابن حيان، المرجع السابق، ج 6، ص. 144.

وفي رجب من سنة 363 هـ / 974م، قدم قرطبة قياطين بن يعلى أمير بني نفرو وصاحب مدينة أفكان[72].

وأقبل على طليطلة الحسين بن أبي العافية الجنجيالي للرباط والجهاد [ت 383 هـ / 993 م][73].

ودخل موسى بن يحي الصديني الأندلس وتردد بالثغر مجاهدا [74].

ونزل بطليطلة قصد الجهاد سرواس بن حمود الصنهاجي[75].

وسكن الثغر أحمد بن خلوف لأعوام [76].

وقدم على قرطبة أبو سعيد خلف بن مسعود الرعيني سنة 393 هـ / 1003 م وقتلته عامة قرطبة سنة 400 هـ / 1009م تعصبا على البربر[77].

وخلال نفس السنة «وافت الحضرة لأول هذا الوقت طوائف كثيرة من متطوعة العدوة المجاهدين للحسبة، فيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم، وعصابة كبيرة من فقهائهم يبغون مشاهدة هذه الغزوة» [78].

ونعتقد أن المصادر لم تتوقف عند كل الهجرات الفردية التي وافت الأندلس، وأغلب من ذكرتهم هم من الفقهاء والأمراء والمجاهدين والقواد وطلبة العلم. والواقع أن الهجرة لاتحركها فقط هذه الأهداف. وظهر من خلال تتبع تيار الهجرة أنه كان مستمرا حتى سنة 393 هـ / 1003م ، مع تزايد ملحوظ خلال العقود الخامس والسابع والتاسع وبداية العاشر. كما يلاحظ أن أغلب المهاجرين الأفراد هم من سكان المدن من فاس وأصيلة وأفكان

(72) نفسه، ص. 155.
(73) ابن شكوان، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج 1، ص . 141.
(74) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج 6، ص. 144.
(75) الصلة، ج 1، ص. 239.
(76) ترتيب المدارك، ج 7، ص. 110. وابن الفرضي، المرجع السابق، ج 2، ص. 61.
(77) الصلة، ج. 1، ص. 1. وترتيب المدارك، ج 7، ص. 111.
(78) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 3، ص. 4.

ومليلة. وربما يبين لنا هذا التركز في المدن أن الهجرة الفردية كانت أكثر وعيا وتخطيطا من الهجرة الجماعية التي كانت عادة ما تنطلق من البوادي وباستقطاب من الأمويين.

بصفة إجمالية، فالصورة التي رسمناها لهذه الهجرة لاتعتبر كاملة وتامة، مادامت المصادر لاتهتم إلا بمشاهير الناس، أما ضعافهم فلاتعيرهم أي اهتمام. ونستغرب كثيرا إذ لانصادف في مصادرنا أي معلومات عن مهاجرين هدفهم ممارسة أنشطة تجارية أو العمل في المزارع الأندلسية في عصر عرفت فيه الأندلس قمة ازدهارها الاقتصادي. فلا يستبعد أن يكون هناك من هاجروا من أجل كسب الرزق والعمل، وأن المصادر فقط هي التي غيبتهم.

ننتقل بعد هذا إلى البحث عن أهم الأسباب التي كانت وراء هذه الهجرة المكثفة. من خلال الوقوف عند الهجرات السالفة الذكر يمكن أن نقسمها إلى عوامل: سياسية ودينية وعلمية واقتصادية.

فالعامل السياسي كان أكثر بروزا ووضوحا. فالاضطرابات التي خلفها قيام الدولة الفاطمية ودخولها في صراع مع الأمويين، والصراعات التي نتجت عنه بين القبائل البربرية، كانت وراء عدد كبير من الهجرات. فهجوم الفاطميين على نكور كان وراء التجاء بني صالح إلى الأندلس، كما اضطر بنو برزال إلى الفرار إلى الأندلس خوفا من انتقام الزيريين خلفاء الفاطميين. وكان كل هؤلاء يستقبلون بحفاوة من قبل الأمويين، فمارسوا بذلك إغراء كبيرا على البربر من أجل جلبهم واستخدامهم في أعمالهم العسكرية خاصة ضد الممالك المسيحية الشمالية. وقد كانت على عهد المنصور بن أبي عامر أكثر اتساعا وشمولا والتجأ إلى وسائل مباشرة وعلى رأسها استدعاء القبائل. وفي ذلك يقول ابن عذاري: « وأنفذ كتبه إلى العدوة يستدعيهم ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم حتى كثروا بالأندلس (...) وقد صار بالأندلس منهم قبائل بأسرها »[79].

وكانت الصراعات الداخلية للأسر البربرية الحاكمة أحد العوامل المهمة، وقد سبق أن ذكرنا أن عبد السميع بن جرثم من بني صالح بنكور ثار على موسى بن رومي، فاضطر هذا

(79) نفسه، ج. 2، ص. 294.

الأخير إلى الالتحاق بالأندلس، وهاجر أبو يداس اليفرني بعد أن ثار عليه أبناء قبيلته، وجاز إلى المنصور بن أبي عامر زاوي بن مناد الصنهاجي بعد صراعه مع ابن أخيه وانهزامه.

وكان لازدهار العلم بالأندلس وسبقها في هذا الميدان أثر كبير على أهل المغرب، بحيث سجلنا عددا من الأسماء التي هاجرت لطلب العلم مثل : إسماعيل بن دراس الفاسي. واقترن طلب العلم بالجهاد والسياحة الصوفية في الثغور الأندلسية. وقد كان لنشاط المعارك مع المسيحيين دور كبير في استقطاب المهاجرين البربر. وشجع الخلفاء الأمويون هذه الرغبة لدى المغاربة بما يغدقونه عليهم من الهدايا والعطاء(80).

ولا يخفى أن لجوء البربر للمشاركة في الجيش الأموي أو للجهاد كان يحمل ملامح اقتصادية، ولكن ما نقصده بالعامل الاقتصادي، هو جواز البربر للاشتغال بأنشطة اقتصادية كالتجارة والفلاحة، وللأسف فالمصادر تبخل علينا بهذا النوع من المعلومات، ولكن تصورنا لمغرب يعيش على اقتصاد فلاحي مقلال دمرته حروب الأمويين والفاطميين يسمع عن ازدهار الأندلس وتدفق الخيرات بها، ويرى رجالها الذين يزورونه يوزعون المال دون حساب (81)، وفي أبهة كبيرة. هذا التصور يدفعنا إلى التفكير بأن الكثيرين سيحلمون بهذا النعيم الأرضي لتحسين أوضاعهم ومستوى معيشتهم، خاصة وأن إمكانيات الجواز متوفرة.

هذه، إذن أهم العوامل التي حركت المهاجرين البربر إلى الأندلس. وهي بمقارنتها بأسباب الهجرات السابقة أكثر تنوعا وتعددا.

وقد استقر أغلب المهاجرين خلال هذه الدورة بمدينة قرطبة، بينما استقرت قلة منهم بمالقة والمرية وبجانة والثغر الأوسط وخاصة عاصمته طليطلة وأحوازها.

أما انطلاقتها فقد كانت أكثر وضوحا من الفترات السابقة، بحيث يمكن تحديدها في المغرب الأوسط خاصة بلاد الزاب موطن بني برزال أو إفريقية بالنسبة لصنهاجة أو سهل

(80) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، دار المكشوف، بيروت، 1956، ج 2 ص. 87.

(81) أرسل المستنصر أموالا كثيرة إلى قواده في المغرب وأمرهم بتفريقها على البربر دون تردد ولاحساب قصد إبعادهم عن الحسن بن كَنون، المقتبس، ج 6، ص. 191.

السايس والهبط وجبال الريف بالمغرب الأقصى. وأغلب المهاجرين من زناتة إضافة إلى كتامة ومكلاتة من صنهاجة وكذلك مصامدة جبال الريف.

وقد زادت هذه الهجرات من عدد البربر في الأندلس، وأصبحوا يثيرون مخاوف أهل الأندلس خاصة وأنهم يسيطرون على الميدان العسكري، فتولدت عن هذه المخاوف أحقاد وأضغان ستفعل فعلها فيما بعد.

المرحلة الثانية

إن ظرفية الأسباب التي كانت وراء هجرة عدد من البربر إلى الأندلس، كانت وراء نشاط الهجرات المضادة. بحيث نسجل أن عددا من الذين فروا من الزحف الفاطمي سرعان مايعودون إلى موطنهم بزوال الخطر. ويعطي بنو صالح نموذجا واضحا عن ذلك، فبعدما طردهم مصالة من مدينتهم، عادوا مباشرة إلى مواطنهم بعد عودته إلى افريقية[82].

وكذلك استدعى أهل المدينة سنة 336 هـ / 948 م جرثم بن أحمد الذي طرده عبد السميع بن جرثم منذ سنوات ليحكم المدينة، فعاد واستلم الأمر[83].

وسبق أن وضحنا أن وضاحا لما هزم الحسن بن كَنون حمله مع رجاله إلى الأندلس، لكن الحكم II سيستثقل نفقاتهم ويطردهم إلى القاهرة سنة 365 هـ /976م، ولكنهم نزلوا بتونس[84].

وفي عهد المنصور بن أبي عامر قتل جعفر بن علي بن حمدون، فاتهمه أخوه يحيى بقتله فطرده المنصور إلى العدوة[85].

---

(82) البكري، المرجع السابق، ص. 96. وابن عذاري، المرجع السابق، ج 1و ص. 175.

(83) نفسه، ص. 99–98.

(84) اتهمت المصادر الأندلسية جعفر بن عثمان المصحفي بالتعصب لقومه البربر فدس إلى الحكم الثاني أمر طردهم لتخليصهم من الأسر ومن المنفى. ابن أبي زرع، ص. 63، ومفاخر البربر، ص. 12.

(85) ابن الابار، الحلة السيراء، ج. 1و ص. 306.307.

وفي عهد عبد الملك المظفر، طلب أخ لزاوي بن مناد الصنهاجي الإذن له في الرحيل إلى افريقية، فرحل في أهله(86).

أثناء اضطرابات مطلع القرن 5 هـ / 11م، بعد طرد البربر من قرطبة بعد فترة حكم المستعين الأولى، حملوا أهلهم وأموالهم، واتجهوا نحو بحر الزقاق قاصدين بلادهم الغربية(87). ولاتذكر لنا المصادر شيئا حول جوازهم، لكننا نرجح أن تكون بعض العناصر قد عادت إلى وطنها الأول، خاصة وأن موجة العداء لهم تصاعدت في أوساط الأندلسيين، وصاروا يطاردون في كل مكان.

وتمثل عودة زاوي بن مناد الصنهاجي وأسرته سنة 410 هـ / 1019م، أحسن نموذج عن عودة البربر إلى مواطنهم المغربية. وتختلف المصادر في تحديد سبب عودته، وأغلبها يذهب إلى خوفه من إبادة أهل الأندلس بعد التكالب الذي تعرض له مع أصحابه من قبل الأندلسيين وزعيمهم المرتضى. وكان ممكنا أن نركن إلى هذا الرأي لولا أن أبناء قبيلته الذين فضلوا البقاء يعطون دليلا مفندا لهذا المذهب(88). وقد كونوا إمارة من أقوى الإمارات صمدت في وجه بني عباد على مدى القرن 5 هـ /11م. ويبرر ابن سعيد عودته بفراره بثرواته وذخائره، ولكن مثل هذا الكلام لايمكن أن يقال عن ابن أسرة حاكمة لاتنقصها الأموال(89). فما السبب الرئيسي لهذه العودة؟ يرد عند آخرين أنه عاد طمعا في السلطة بعد موت باديس وتولي إبنه الطفل مكانه(90). قد يكون هذا الرأي أقرب إلى الصواب، ولكن ليس على أساس أنه ذهب يطلب السلطة، بل لأن عدوه الذي طرده قد اختفى، فأصبحت الأجواء الآن ملائمة لعودته إلى عشيرته. ويرتبط هذا بعوامل نفسية بالأساس، حيث يوضح لنا ابن بسام ذلك في كلام زاوي : «... والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها

(86) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت 1979، ج 7، ص. 82.
(86) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت 1979، ج 7، ص. 82.
(87) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص. 115. والمقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 404.
(88) ابن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973، ج. 1، ص. 517.516
(89) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 2، ص. 107.
(90) عبد الله بن بلقين الزبري، المرجع السابق، ص. 18.17.

كانفين للعيال والذرية مباعدين لهم لما وراءنا من أهل جنسنا زناتة الأعداء الحقيقيين»[91]. فالمسألة ترتبط بالأساس بالحنين إلى الموطن، ومحاولة التخلص من ذل الغربة والمنفى.

إن استعراضنا لهذه الرحلات المضادة يبين لنا أنها كانت مهمة، وأنها في أغلب الأحيان ترتبط بزوال الأسباب التي كانت وراء انطلاقها، أو نتيجة الاضطرابات التي عرفتها الأندلس خاصة عند مطلع القرن الخامس الهجري.

المرحلة الثالثة

كانت أغلب الهجرات التي عرفتها هذه الدورة قد استقرت في قرطبة. ولما اندلعت ثورة محمد بن عبد الجبار المهدي سنة 399 هـ / 1009 م، وتمرد البربر عليه، أمر بطردهم من المدينة في محرم من سنة 400 هـ / 1010 م[92]. فانطلقت هجرة بربرية من المدينة نحو المناطق الأخرى. ولما طرد المستعين من قرطبة، خرج منها البربر بعيالهم وأموالهم متجهين نحو الجنوب وخاصة الجزيرة الخضراء[93]. وقد يكون الكثير منهم استقر بهذه المناطق التي توفر الحماية الكافية مادامت آهلة بعناصر بربرية.

بعد انتصار المستعين على هشام المؤيد بالله وأنصاره سنة 403 هـ / 1012م، عمل البربر على اقتسام البلاد الأندلسية فيما بينهم، وحصل أغلبهم على كور جنوب وجنوب شرق قرطبة. فحصل صنهاجة على البيرة، وبنو برزال وبنو يفرن على جيان وذواتها. والمغاربة وبنو دمر وأزداجة على شذونة ومورور، والقاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء ومغراوة على جوف البلاد «الشمال»[94].

ومرة أخرى يتأكد ميل البربر واستيطانهم نحو الاستقرار في المناطق الجنوبية والشمالية، وهذا ماسبق أن سجلناه بالنسبة للدورتين الأولى والثانية.

---

(91) الذخيرة، ج 1، ص. 459.

(92) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 3و ص. 87.

(93) نفسه، ص. 95 والمقري، المرجع السابق، ج 1، ص. 1.

(94) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 2، ص. 119.

بعد تعرضنا لمراحل الدورة الثالثة الثلاث، يمكن أن نستخلص أن الهجرة خلال هذه الفترة كانت أكثر استمرارية وكثافة، وتراوحت بين هجرات جماعية وهجرات فردية. وكانت وراءها أسباب متنوعة سياسية وعلمية واقتصادية ودينية. كما وجدنا أن الدوافع الشخصية كانت حاضرة خلال هذه الفترة. كما سجلنا وجود هجرات من الحواضر المغربية على عكس الفترات السابقة التي كان رجالها من أهل البادية في أغلبهم. وعرفت هذه الدورة أيضا هجرة مضادة ارتبطت أساسا بظرفية العوامل التي كانت وراء الهجرة، وتثبت لنا أن الأندلس لم تكن بالنسبة للمغاربة جنة يتسارعون لارتيادها، بل إنهم لا يترددون لحظة في الهروب منها والعودة إلى بلادهم. وتوصلنا في الأخير إلى أن إعادة استيطان البربر في الأندلس أكدت لنا ميل البربر إلى استيطان المناطق الجنوبية والشمالية، مما يؤكد ما سبق أن توصلنا إليه في الدورتين السابقتين.

4- فترة الهدوء الهجري

تمتد هذه الفترة على مدى القرن الثالث الهجري. ومن خلال تتبع الأخبار الواردة في مصادرنا، لم نعثر على مايفيد بحدوث هجرات مهمة أو تبادل سكاني بين شمال افريقيا والأندلس. لكننا نستثني بعض الأخبار المحدودة. فالباحث محمود علي مكي يشير إلى ربط عبد الرحمن الثاني علاقات طيبة بالرستميين فأمدوه بجنود وقواد استخدمهم في جيشه[95]. ويفيدنا ابن حيان بوجود خدم بربر مع الأمير المنذر[96]. وذكر عناصر بربرية مرتزقة في جيش الأمير عبد الله في عدة مناسبات، مثل مواجهته لابن حفصون سنة 284 هـ / 897م[97]، واستعمل نعت الطنجيين للإشارة إليهم، وتخصص المصادر الأندلسية هذا النعت للبربر الحديثي الهجرة إلى الأندلس من أجل الارتزاق في الجيش، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بحدوث هجرة محدودة إلى الأندلس خلال

(95) مكي محمود علي، الخوارج بالأندلس، مجلة تطوان، عدد 1، ص. 172.

(96) المقتبس، المكتبة الشرقية، باريس 1937،

(97) نفسه، ص. 122، وابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 147.

هذه الفترة. وكان لابن حفصون بدوره مرتزقة بربر في جيشه[98]. وأورد البكري أن عبد الرحمن الفقيه من أحفاد صالح بن منصور صاحب نكور، اجتاز إلى الأندلس، وشارك في غزاة واستشهد فيها[99].

وفي الجانب الآخر، نسجل هجرات مضادة كتلك التي قام بها البحريون الأندلسيون الذين أسسوا مدينة تنس سنة 262 هـ / 875م[100]، ومدينة وهران سنة 290 هـ / 903م [101]. لكننا نجهل ما إذا كان من بينهم بربر. وانطلقت أيضا من الأندلس هجرة سنة 297 هـ / 910 م عقب مجاعة شديدة مات فيها عدد كبير من أهل الأندلس[102].

من خلال هذه النماذج من الهجرات المضادة يتضح أننا لانستطيع الإقرار بوجود هجرة بربرية معاكسة نحو المغرب، بما أن عدد المهاجرين في الأندلس يظل محدودا. و لم نستطع أن نتعرف على أي توزيع جديد للبربر في الأندلس في نهاية هذه الفترة، مما يعني أن شروط دورة هجرية كلها تنعدم خلال هذه الفترة. ولهذا نعتناها بفترة الهدوء. فما هي يا ترى العوامل الكامنة وراء هذا التوقف في تيار الهجرة؟

تتسارع إلى أذهاننا مجموعة من الأسباب التي يحتمل أن تكون وراء هذا التوقف دون أن نتأكد من كونها كذلك. فقد يكون الاستقرار الذي عاشه المغرب والأندلس على حد سواء وراء ذلك ! وقد يكون الأمر متعلقا فقط بسكوت المصادر ! وقد يكون ناتجا عن توتر العلاقات المغربية الأندلسية بفعل قيام أسرتين حملتا معهما عداءهما من المشرق! لا نستطيع الحسم في هذا الأمر بشكل واضح. وما يمكن ملاحظته هو أن الهجرة إلى الأندلس بصفة عامة كانت هجرة نوعية، بحيث نلتقي بشخصيات كبيرة ومشهورة من أقران علي بن نافع المشهور بزرياب أو الرازي المؤرخ. لكن الأمر قد يكون من عمل كتاب التاريخ. وما هو مؤكد أيضا هو استقرار المغرب الكبير وازدهاره الاقتصادي والعمراني في ظل خلفاء إدريس

(98) نفسه، ص. 112.

(99) البكري، المرجع السابق، ص. 92.

(100) نفسه، ص. 61.

(101) نفسه، ص. 61.

(102) ابن حيان، المرجع السابق، ج 3، ص. 146.

الثاني[103]، قد يدفع الكثير من المغاربة إلى الإقبال على العمل في وطنهم وعدم التفكير في مغادرته. ونفس الشيء بالنسبة للأندلس التي عرفت استقرارا كبيرا، وقلت بها الأعمال العسكرية بما فيها الصوائف ضد المسيحيين، وهذا ما جعل طلبها على المرتزقة يختفي. ويمكن أن ندعم هذا الرأي بكونها لما بدأت تعرف بعض الاضطرابات بدأ تيار الهجرة يتجدد. وهذا يجعلنا نستنتج أن تيار الهجرة إنما توقف بفعل سيادة الاستقرار والهدوء بالمغرب والأندلس على حد سواء.

إن تتبعنا للهجرة البربرية إلى الأندلس واعتمادنا على نظام الدورات الهجرية بدل هجرات مفردة. قد مكننا أولا : من التعرف على الفترات التي كانت أكثر تبادلا للسكان بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط وثانيا خلصتنا من استعباد المصادر، إذ لم يعد مهما أن نتعرف على الهجرات بقدر مايهم التعرف على الميل العام للهجرة، وثالثا، ساعدتنا على ضبط تيار الهجرة المضادة التي كانت المصادر لاتعيرها كبير اهتمام لأن المغاربة الذين يهاجرون إلى الأندلس لايقيمون بها بشكل دائم كلهم، بل هناك نسبة منهم تعود إلى مواطنها. ورابعا تمكنا أيضا من تتبع بعض الهجرات الداخلية للبربر داخل الأندلس، حيث رأينا كيف يفرون في نهاية كل دورة من وسط الأندلس وخاصة قرطبة قاصدين مناطقهم المفضلة في الشمال والغرب والجنوب، وهذا ماسيساعدنا في الفصل الموالي على فهم بعض خفايا الاستيطان البربري في الأندلس. وخامسا، تمكنا من خلال تتبع الهجرات من تحديد الأسباب الغالبة على كل دورة، فالأولى كان محرك الهجرة فيها هو الجهاد والرغبة في الغنائم. أما الثانية فقد كان استقطاب الجيش الأموي وراءها، في حين كانت أسباب الهجرة في الدورة الثالثة ناتجة عن عوامل سياسية مرتبطة بالصراع الفاطمي ـ الأموي أو صراع الزعماء السياسيين في المغرب أو الأندلس، وعوامل دينية ارتبطت بالرغبة في الجهاد والسياحة الصوفية في الثغور، وعوامل علمية. وسادسا سجلنا خلال الدورة الثالثة أهمية الهجرة الفردية التي انطلقت من المدن، وهذا تغيير مهم حدث بالنسبة لنوعية المهاجرين وكذلك نوعية أهدافهم. وسابعا، اكتشاف أن القرن الثالث كان قرن هدوء بفعل الاستقرار الذي ساد المغرب والأندلس.

(103) ابن إبي زرع، المرجع السابق، ص. 54.53 و 96.

عند توقفنا عند عوامل الهجرة كان سؤال يراودنا في كل دورة، وجاء الوقت لإخراجه، ويتعلق الأمر بالدور الذي يمكن أن يكون للنمو الديموغرافي في المغرب خلال هذه الفترة. وما جعلنا نطرح هذا السؤال هو هذه الاستمرارية التي عرفها تيار الهجرة إلى الأندلس، وكذلك توجه هجرات أخرى إلى الصحراء الكبرى وبلاد السودان الغربي، وصقيلية ومصر الفاطمية، والوفيات التي رافقت حروب الفتح والصراع الفاطمي ـ الأموي وحتى قيام دولة المرابطين.

حاولنا أن نبحث عن جواب لهذا السؤال لكننا وللأسف لانجد في مصادرنا ما يساعدنا على الوصول إلى نتيجة، لكننا سنلتجئ إلى مقارنات بسيطة آملين أن تساعدنا لإبداء رأي في الموضوع.

نجد عند الباحث Weuleresse [104] أن الصحراء الحجازية قبل الدعوة الاسلامية كانت تعرف نموا ديموغرافيا مهما ساعد على توفير الرجال للدعوة الاسلامية. ألا يمكن أن ينطبق نفس الأمر على المغرب، مادام يشبه تلك الصحراء في بعض عناصره، بل ويتوفر على ظروف أحسن منها بكثير؟. ولو أردنا أن نسلم بإمكانية هذا الأمر لوجدنا أن دراسة أنجزت حول النمو الديموغرافي في الأندلس خلال القرن 4 هـ / 10م، وهي أقرب إلى المغرب وربما أن نتائجها تنطبق على المغرب أكثر مما تنطبق عليه نتائج دراسة حول الصحراء. وقد أنجز هذه الدراسة الاسباني Joaquin Vallvé، وهي عبارة عن مقال نشر في مجلة [105] Al- Andalous ، واعتمد على ولادات ووفيات الأسرة الأموية الحاكمة والأسر الكبرى في قرطبة، وتوصل إلى نتائج مهمة منها: ارتفاع المواليد ووفيات مهمة للأطفال والشباب، وهذه سمات النظام الديمغرافي التقليدي الذي لايسمح بنمو سريع للسكان. هذا في أندلس مزدهرة اقتصاديا، وفي أوساط أسر تهتم بظروفها الصحية بشكل كبير. فماذا سيكون عليه الوضع في مغرب تغلب عليه البداوة. وهذا يدفعنا إلى اليأس من إمكانية

(104) نقلا عن

Xavier de Planbol, Fondements de la civilisation de l'Islam, Champs, Flammartion , Paris. 1968. p. 14,

(105) Vallvé (J), Sobre demograffa y sociedad en Al Andalus (Siglos 8-11) , Revue Al - Andalus Vol, 42, Fasc. 2 pp. 320-340.

الحصول على نتائج تتعلق بمدى مساهمة النمو الديمغرافي في هجرة البربر إلى الأندلس أو مناطق أخرى. ويترتب عن هذا أن هذه الهجرة قد أفرغت البلاد من سكانها، وكانت وراء فتح الباب لتعميرها بعناصر عربية انطلاقا من القرن 5 هـ / 11 م ابتداء من إفريقية وانتهاء بالمغرب الأقصى.

الفصل الثالث

مواطن البربر بالأندلس

ينصب الاهتمام في هذا الفصل على مشكل طالما أرق الباحثين وهو توزيع القادمين الجدد في أرض الأندلس والمواطن التي نزلوا بها، ولكن تحديد مواطن البربر يطرح مشاكل أكثر لندرة المصادر التي تتحدث عنه.

وقد اعتاد الباحثون في دراستهم لموضوع الاستيطان البربري في الأندلس على الارتكاز على مجموعة من المصادر أولها أسماء الأماكن. ولكن هذا النوع من الأخبار يحمل في طياته كثيرا من المخاطر والمزالق التي يمكن أن تؤدي إلى إثبات مواطن لم يسبق للبربر أن نزلوا بها. فمثلا في قرطبة نجد فحصا يدعى فحص مطرف، فقد يظن للوهلة الأولى أنه كان في ملك هذا الشخص لكن العودة إلى المصادر توضح لنا أن التسمية جاءت من كون مطرف بن موسى القسوي صلب في عهد الأمير محمد في هذا الفحص سنة 259 هـ / 873 م[1] ولذلك نسب إليه. ونفس الشيء يمكن تسجيله بالنسبة لتسمية مرج العرب الموجود ببقيرة قرب طليطلة. فقد سمي بهذا الإسم لأن لب بن موسى بن موسى القسوي قتل فيه جمعا من العرب سنة 260 هـ / 874 [2]. ونجد أيضا في شرق الأندلس أماكن تحمل أسماء صنهاجة وزناتة، ولكن اعتمادها لإثبات وجود بربر من هاتين المجموعتين القبليتين في فترة الدراسة يثير كثيرا من الشك، لأن المنطقة استقبلت في عهد المرابطين والموحدين[3] عناصر من هاتين القبيلتين، فهل كانت تسميتها بهذا الإسم قبل هذا العهد أم خلاله؟. فهذه الأمثلة تبين لنا أن الاستفادة من أسماء الأماكن تظل محدودة مادامت قد تحمل أسماء نتيجة حدث عابر كما أنها لاتأخذ عنصر الزمان في اعتبارها.

(1) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1965، ص. 68.

(2) نفسه، ص. 31.

(3) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 147 و 164.

ويعتمد الباحثون أيضا على تراجم العلماء وقد اعتبرها بيير كَيشار Guichard وسيلة لازالت لم تستعمل إلا جزئيا، لذلك يمكنها أن تقدم الكثير[4]. وقد اعتمد على هذه الأسماء ياقوت الحموي منذ القرن 7 هـ / 13م، لتحديد بعض المناطق في كتابه الضخم «معجم البلدان». لكن هذه التراجم قد تخدعنا، فوجود شخص في مدينة أو مكان ما لا ينبغي أن يحيل على وجود جماعة ينتمي إليها في هذا المكان، فطلبة العلم ينتقلون كثيرا للبحث عن بضاعتهم. وهذا يتطلب منا الحذر في استعمال التراجم لتحديد المواطن.

واستعملت الأحداث السياسية بدورها كوسيلة لتحديد المواطن، لكن الأحداث وإن كانت تساعدنا في التعرف على مستوطني منطقة ما، إلا أنها قد تقدم لنا معلومات خاطئة إذ يمكن لحدث أن يقع خارج منطقة استيطان المجموعة المعنية والمشاركة فيه.

واستخدم الباحث Guichard أسماء الأماكن التي تحمل لفظ «بني» للتدليل على وجود ساكنة بربرية[5]، لكن هذا اللفظ يمكن أن يحمله البربر والعرب، وحتى المستعربون الاسبان.

وتضاف إلى هذه المصادر نتائج الأبحاث الأركيولوجية، على قلتها وعدم قدرتها على تمييز ما هو بربري، وخاصة منها مايتعلق بدراسة الخزف. ويمكنها أن تمنح للباحث دعما وَتُنْجِدُهُ في كثير من النقط والجوانب الدقيقة.

فالأدوات المستخدمة لتحديد المواطن تطرح مصاعب كبيرة وتتطلب حذرا كبيرا في التعامل معها. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل كثيرا من الباحثين يعزفون عن الوقوف عند هذا الموضوع. وسنعمل على استخدام هذه الوسائل التي لامحيد عنها، ولكننا سنلتزم الحذر أكثر، ونحاول متى سمحت المصادر أن نعتمد على أكثر من نوع واحد عند إرادة إثبات موطن ما.

وسنقسم هذا الموضوع إلى أربع نقط رئيسية، نخصص الأولى لعرض أهم النظريات الصادرة في موضوع الاستيطان البربري، ثم تصورنا في الموضوع، ونختم بتحديد أهم المواطن التي استقر بها البربر في جهات الأندلس وكذلك مناقشة موضوع استقرارهم بالمدن.

---

(4) Guichard (P), Structure sociales orientale et occidentale dans l'Espagne musulmane, éd Mouton, Paris, 1977, p. 225.

(5) نفسه، ص. 243.

1- نظريات حول الاستيطان البربري بالأندلس

تتمزكز أغلب النظريات حول فكرة استقرار البربر في المناطق الجبلية تاركين المناطق السهلية للعرب. ويختلفون بعد ذلك في تفسير أسباب هذا الاختيار. وقد كان العلامة ليڤي بروڤنسال رائد هذا التصور حيث يؤكد أن البربر استقروا في المناطق الجبلية لأن العرب استحوذوا على الأراضي الخصبة دونهم، وطردوهم نحو الجبال والهضاب الجافة. وقد تكرر تصوره هذا في كثير من أبحاثه التي أنجزها حول الأندلس(6). وكانت الفكرة قد وردت أولا عند أستاذه ورائد الدراسات الأندلسية دوزي في كتابه القيم «تاريخ مسلمي الأندلس» وأخذها عنه وطورها وعممها. ويضيف أيضا أنهم استقروا في هذه المناطق لأنهم أصلا من قبائل الجبال المغربية، وأنهم كانوا يرغبون في الابتعاد عن التبعية للعرب. وقد صار بعد ذلك مرجعا للآخرين. فأغلب الدارسين الاسبان يقيمون نفس التمييز بين أراضي جبلية بربرية وأراضي سهلية عربية (7).

ونفس الاختيار نجده عند الدارسين العرب المشارقة، بحيث احتفظوا بتقسيم ليڤي بروڤنسال، وحاولوا أن يفسروا سبب الاختيار بكون البربر التزموا بتقاليدهم في الاستقرار بالجبال، وأن العرب لم يتدخلوا لمنعهم من المناطق السهلية(8). ورغبة الدفاع عن العنصر

---

(6) Lévi- Provençal (E) Histoire de l'Espagne musulmane, Maisonneuve, Paris , 1950 , T. 1, p . 88

Lévi- Provençal (E) L'Espagne au X ème siècle, Larose, Paris, 1932, p; 23-25

Lévi- Provençal (E) Al- Andalus, Encyclopédie de l'Islam, T. 1, p. 505;

(7) Isidio de Las Cagigas, Minorias etnico-religiosas, Instituto de estudios africos, Madrid, 1948 Livre I,t, 1; pp.87-88

Arié (R), Espana musulmana, éd, Labor, Barcelona, 1983, p. 18

Luis G. de Valdeavellano, histoire de España Antigua y medieval, éd. Alianza editorial, Madrid, 1988, T. 1, p. 89-90

Barcelo (C), Galogos o podencos, Al-qantara, vol 11, fasc. 2, p.442.

Historia de España y America, dirigida por J. Vicens Vives, Barcelona, 1971, t. 1, p. 238.

(8) مؤنس حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية، القاهرة، 1959، ص. 389.

الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، المطبعة التعاونية، دمشق، 1959، ص. 33.

الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، بيروت، 1976، ص. 138–137

سالم عبد العزيز، المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج. 2، ص. 28.

سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص.124.

أبو ضيف، مصطفى، القبائل العربية في الأندلس، دار النشر المغربية، البيضاء، 1983، ص.78.

العربي واضحة في هذا التفسير. ويتميز بيير كَيشار بتفسير أكثر توازنا، إذ يشير إلى أن البربر يقطنون في مناطق جبلية كثيرة، ولكن هذا لايمنع من وجودهم في مناطق سهلية في حوض الوادي الكبير وسهول شرق الأندلس(9).

يتفق أغلب الباحثين على كون مواطن البربر في الأندلس مناطق جبلية، لكن تفسيرهم لهذا الاستيطان بعوامل عرقية يطرح إشكالية كبيرة. فهل يمكن أن نعتبر أن المواطن مما يورث كالجينات في دم الإنسان؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يستقر العرب؛ وعدد منهم من البدو، في المناطق الجافة لممارسة نشاطهم الرعوي؟ وما يثبته التاريخ هو أن هؤلاء البدو لما حلوا بالأودية الزراعية الكبرى في العراق ومصر والشام انكبوا على الحياة الزراعية ونسوا أنهم كانوا بدوا رحلا. فلماذا لم يحافظوا على تقاليدهم مادامت تتوارث؟ أم أن المسألة خاصة فقط بالبربر؟ فما هو مؤكد هو أن ليڤي بروڤنسال وتلامذته لايعملون إلا على تكرار ماجاء عند الأنثروبولوجيين أمثال Montagne من أن البربر يفضلون حياة العزلة، والبعد عن السلطة، لذلك ينكمشون في المناطق الجبلية (10). وفوق كل هذا فهذه النظرة قديمة وتعود إلى العصر الوسيط. فانظر إلى قول الاشبيلي التالي: «إن البربر حين دخلوا المغرب، وجدوا الافرنج قد سبقوهم إليه، فاخلوهم، حتى اصطلحوا على أن يسكن البربر الجبال وتسكن الافرنج الأوطية»(11). وقد تكرر هذا الكلام عند كتاب ومؤرخين آخرين(12).

فما ذهب إليه ليڤي بروڤنسال إنما هو صدى للنظرة الاستعمارية للبربر وتكرار لأقوال المصادر القديمة.

وفوق كل ذلك، فالبربر المقيمون في المناطق الجبلية لم يكونوا يقتصرون على الرستاق الجبلي لوحده. بل إنهم في أغلب الأوقات يضمون إليه رستاقا سهليا مجاورا له، ويتنقلون بينهما حسب فصول السنة. ويقدم لنا صاحب الاستبصار صورة واضحة عن ذلك في قوله :

---

(9) Guichard, op.cit, p. 275

(10) Montagne (R) , La vie social et politique de Berbères, Regards sur le Maroc, CHEAM, Paris 1986, pp. 32.

(11) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 1، ص. 20.

(12) ابن خرداذبه، مسالك المماليك، مكتبة المثنى، بغداد، ص. 91، مجهول، الاستبصار في غرائب الأمصار، دار النشر المغربية، البيضاء، 1965، ص. 156.

«وهو[جبل فازاز] جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي، وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل» [13].

ألا يكفي هذا النص دليلا على أن البربري لاينغلق في جبله، بل يستغل الجبال والسهول ويتكيف مع الحياة في كليهما ! وأكثر من هذا ففي كثير من المناطق نجد مجموعة قبلية واحدة تنقسم حسب مواطنها إلى قسمين : أهل الجبال وأهل السهل. فابن خلدون يقول عن المصامدة :«هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلا منهم بالبسائط»[14].

ويؤكد ذلك ابن عذاري عند حديثه عن بداية الدولة الموحدية حيث يقول:« أما مصامدة الجبل فاتبعوه أجمعين، وأما مصامدة الفحص فقليل»[15]. وهناك حالة قصوى، حيث تختار قبائل بأكملها الإقامة في السهول. فهذه مكناسة تستقر في هضبة السايس حول مدينة مكناسة[16] وفي حوض ملوية والهضاب العليا المغربية الشرقية [17]. كما أن تامسنا آهلة بقبائل بربرية، وكثير منها تتوفر على ممثلين بالأندلس، ومنها زواغة وزواوة ولماية وسراته وغياثة ونفزة وغمارة[18] وتستقر بسهل الهبط عدة قبائل بربرية، حيث نجد حول مدينة أصيلا « من القبائل لواتة في القبلة، ومن هوارة قوم يعرفون ببني زياد، بينه كدية رمل عالية (...) وحولها من القبائل من جهة الغرب هوارة الساحل»[19]. وتستقر حول آسفي (سهل عبدة) قبائل رجراجة وزودة واخلاط من البربر[20]. لقد أظهرت هذه النماذج أن مواطن البربر في المغرب لاتقتصر على الجبال والمناطق الوعرة، بل هي أكثر تنوعا وتشمل كل الوحدات التضاريسية. فقبائل تجمع بين رساتيق جبلية وسهلية وتعيش على التنقل بينها حسب فصول السنة، وقبائل أخرى تنقسم إلى سكان جبل وسكان سهل، بينما تستقر أخرى في السهل. وهذا ما يؤكد أن الالتزام بقاعدة محددة في تحديد مواطن البربر أمر غير ممكن باستثناء استقرارهم في كل

(13) نفسه، ص. 187.

(14) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج.6، ص. 291.

(15) ابن عذاري، البيان المغرب، ج.4، ص. 85.

(16) الادريسي، نزهة المشتاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج. 1، ص. 244.

(17) ابن خلدون، المرجع السابق، ص. 170.

(18) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 20.

(19) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 235.

(20) الإدريسي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 240.

المواطن، لذلك فنحن ملزمون بالبحث عن تفسير آخر للاستقرار البربري في جبال الأندلس يبتعد عن النظرة العرقية والوراثية، ويلتزم بقانون التطور التاريخي.

2- تفسير بديل

عند دخول الأندلس، صار بإمكان الفاتحين أن يقتسموا الأراضي التي فتحوها عنوة. بينما يحتفظ المصالحون بأراضيهم. ولكن المصادر الأندلسية لاتقدم لنا مثل هذه الصورة، بل ترد في الموضوع أقوال متناقضة ومتضاربة. وانقسم المؤرخون والعلماء إلى فرق. ففريق يقر بأن أرض الأندلس قسمت وفق أسس شرعية صحيحة [21] بينما يرى فريق ثاني أنها لم تقسم، وإنما تحكم في تملكها منطق القوة. وفي ذلك يقول الزهري:« لما فتح المسلمون بلاد الأندلس أخذ القوي بقوته والضعيف بضعفه، ولم تنقسم على الحقيقة» [22]. ويضيف الداودي : «أما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة، وأنها لم تخمس ولم تقسم غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام»[23]. والأقوال في هذا الموضوع كثيرة، غير أن أحد الباحثين تتبعها بالنقد والتمحيص وتوصل في آخر تحليله إلى أنها لم توزع قط وفقا للشرع، وإنما وفقا لقانون القوة والغلبة[24].

وتثبت لنا المصادر أن طارق بن زياد لما دخل الأندلس بجيشه ذي الأغلبية البربرية، لم يكن يترك في المناطق المفتوحة إلا عناصر قليلة ليتعاونوا مع اليهود لحمايتها[25].

فهو لايفكر قط في شيء آخر غير الفتح والتقدم في العمليات العسكرية، أما الغنائم فقد اقتصروا على مايحمل منها، أما الأراضي فلم يفكروا في استعمارها لأنهم، ربما، لم يفكروا في استيطان الأندلس أو الاستقرار بها، أو أنهم لايملكون خبرة بالفتوح وكيفية التعامل مع

(21) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 31. ابن خلدون، العبر، ج. 4، ص. 152. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 39.

(22) الزهري، كتاب الجغرافية، Bulletins d'études orientales ، ص. 207.

(23) الداودي، كتاب الأموال، مركز إحياء التراث المغربي، الرباط، ص. 70.

(24) القادري بوتشيش، أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي، منشورات عكاظ، الرباط، ص.80.

(25) أخبار مجموعة، ص. 20 و 22.

أراضي المغلوبين، وظلوا يحتفظون بتقاليدهم المغربية التي نادرا ما توافق على احتلال أراضي الأعداء.

بعد سنة من جواز طارق، اجتاز موسى بن نصير بجيش أغلبيته عربية. وهذه العناصر لها معرفة بقانون تقسيم الغنائم، وخبرة بالفتوحات، بحيث سبق لها أن شاركت في عدة عمليات من هذا النوع. لذلك فما أن حلت بالأندلس حتى عملت على احتلال الأراضي التي سبق للبربر أن فتحوها مستغلة ثمرة عملهم، واستقرت بها دونهم. ولما عزم موسى على العودة إلى المشرق كان عليه التفكير في مصير الأندلس التي تركها تحت حكم ابنه عبدالعزيز، وقطع الطريق أمام أية ردة فعل من القوط المعتصمين في هذا الوقت بأراضي جليقية بأقصى شمال غرب الجزيرة. ففكر في تكوين جدار دفاعي بشري يحمي الأندلس الوسطى والجنوبية من أذاهم، فأمر باستقرار القبائل البربرية في الجبال الواقعة شمال طليطلة وكذلك غرب الأندلس فيما يعرف بالثغر الأدنى. فكان بذلك يفرض عليهم الاستقرار في أراضي لم يفكروا في تعميرها، ولكن استراتيجية الفاتحين وخاصة القائد موسى بن نصير هي التي فرضتها عليهم.

بعد مرور السنوات الأولى للفتح ستعمل تطورات التاريخ الأندلسي على تكريس هذا الاستقرار في الثغور الشمالية، وكذلك في المناطق الجنوبية. فعقب ثورة 123 هـ / 1.740م، طورد البربر من وسط الأندلس، فالتجأوا إلى الثغور الشمالية، وكذلك الجنوبية، وقد سبق أن وضحنا هذا في الفصل السابق. وسيتكرر هذا العمل والإجراء خلال جفاف العقد الرابع من القرن 2 هـ / 8م. وعقب حدث الربض، ثم عند انفجار الفتنة في قرطبة في بداية القرن الخامس الهجري فتكرس بذلك الاستيطان البربري في المناطق الجبلية الشمالية وفي هضاب غرب الأندلس ثم جنوب الأندلس، فحاولوا التكيف مع حياة هذه الثغور، وصاروا مع الأيام، درعا حقيقيا للاسلام.

يلاحظ، إذن أن استقرار البربر في المناطق الجبلية قد اجتمعت عدة عوامل لتحديده. فهناك الفوضى التي طبعت تقسيم الأراضي في الأندلس، وهناك جهل البربربقواعد تقسيم الأراضي المفتوحة وتحمسهم للجهاد، ثم هناك استراتيجية الفاتحين الرامية إلى حماية الأراضي المفتوحة، وأخيرا التطور التاريخي للأندلس الذي كرس الاستقرار الأول للبربر في هذه المناطق الجبلية.

3- تحديد مواطن البربر في جهات الأندلس

كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه، فالأدوات المستعملة لتحديد مواطن البربر أدوات محدودة، ووضحنا أن محدودية الوسائل تقف أمام التوصل إلى إعطاء صورة كاملة وشاملة عن هذه المواطن، كما أكدنا على ضرورة الاعتماد على أكثر من إشارة وأداة قبل الإقرار بوجود استيطان بربري في منطقة ما، وكنا نود أن نستخدم وسيلة أخرى ذات قيمة كبيرة، وهي مسألة الولاء، إذ يلاحظ أن هناك علاقة طردية بين الولاء وأهمية المجموعة القاطنة للمنطقة، فكلما كان عدد البربر في منطقة ما كبيرا ومهيمنا، كلما كانت حالات الولاء قليلة، والعكس بالعكس. لكن، وللأسف، فالحالات التي نتوفر عليها محدودة ولاتتجاوز أربعا وثلاثين حالة[26]. وكان ممكنا أن نستفيد من هذا العنصر كثيرا لأن الولاء الغالب على البربر هو ولاء الجوار والحلف.

رغم العيوب التي تكمن في وسائلنا، فهذا لن يمنعنا من محاولة رسم خريطة للاستيطان البربري في الأندلس. وتنقسم الأندلس إلى مجموعة من الجهات الكبرى، وفقا للتقسيمات التاريخية للعصر الوسيط مع بعض التعديلات البسيطة. وأهم الجهات التي حددناها هي : الثغر الأعلى ـ الثغر الأوسط ـ موسطة الأندلس ـ غرب الأندلس ـ شرق الأندلس ـ جنوب وجنوب شرق الأندلس[27].

1.3. مواطن البربر في الثغر الأعلى (سرقسطة وذواتها)

لاتحتوي المصادر إلا على إشارات قليلة إلى مواطن الاستيطان البربري بهذا الثغر. وهذا يؤكد لنا ضعف الوجود البربري بهذه المنطقة. ويؤكد لنا صاحب «أخبار مجموعة» ذلك عند حديثه عن ثورة 123 هـ / 1.740م : «وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم، فإنهم كانوا أكثر من البربر، فلم يهج عليهم البربر»[28].

(26) أنظر الفصل السادس الذي يناقش مسألة الولاء.

(27) أنظر خريطتي الاستيطان في نهاية الفصل.

(28) أخبار مجموعة، ص. 42.

ولايقتصر أمر القلة والندرة على البربر فقط، بل إن العناصر الدخيلة على الأندلس عربا وبربرا نادرة بهذا الثغر.

يشير ابن عذاري إلى أن البربر انضموا إلى الحباب بن رواحة العبدري لما ثار على عامل يوسف الفهري سنة 137 هـ / 755م، وحاصره بسرقسطة[29]. وخلال ثورة مطروح بن سليمان الاعرابي بسرقسطة سنة 175 هـ / 792م، على هشام بن عبد الرحمن، حاصره عبيد الله عم الأمير، فاغتاله تابعان له هما عمروس بن يوسف وشرحبيل بن صلتان الزواغي[30]. وهذا تأكيد على وجود عناصر بربرية من قبيلة زواغة الزناتية في أحواز سرقسطة، وفي عهد عبد الرحمن الناصر، حوصر حصن ورشة التابع لمحمد بن هاشم التجيبي، وكان فيه أخوه ابراهيم بن هاشم التجيبي، فلاذ من كان حوله من البربر بالطاعة، وأفردوه، وكان ذلك سنة 323 هـ /934م [31].

وتنتشر عبر المصادر مجموعة من أسماء الأماكن التي تحيل على قبائل بربرية. فعند الرازي نجد ذكر حصن مكناسة الواقع على نهر الايبرو قرب مدينة لاردة[32]. وتتكرر الإشارة إليه في مصادر أخرى[33]. وورودها عند الرازي يؤكد لنا أن هذا الحصن كان موجودا في فترة الدراسة. ويشير ياقوت الحموي إلى موضع آخر يحمل اسم زناتة بناحية سرقسطة[34]. ويطرح بدوره مشكل توقيت حمله هذا الاسم، خاصة إذا علمنا أن هذه المنطقة قد تلقت عناصر زناتية خلال العصر المرابطي [35]. ويؤكد صاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها» أن جراوة من أعمال سرقسطة [36].

(29) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 42.
(30) نفسه، ج.2، ص. 63. العذري، المرجع السابق، مع أنه يذكر أن الثورة كانت سنة 195 هـ / 812م، وهو خطأ، وربما كان سهوا من الناسخ فقط.
(31) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 361.
(32) الرازي، وصف الأندلس، مجلة الأندلس، ج. 18، 1953، ص. 74.
(33) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 95. Asin Palacios, contribucion à la toponfmia arabe de Espagna, Madrid, 1940, p:120
(34) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج. 3، ص. 151.
(35) ابن أبي زرع، المرجع السابق، ص. 147 و 164. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 95.
(36) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558، ص. 81.

ونجد في كتب التراجم مجموعة من العلماء البربر الذين ينتمون إلى هذا الثغر، فعند الخشني نجد محمد بن سلامة بن حنين البربري الهواري الصدفي القاطن بتطيلة (ت في سني 400 هـ / 1009م)[37]. وعند ابن الابار، نلتقي بمعن بن محمد بن معن البربري الانصاري من سرقسطة[38].

إن هذه الإشارات تتفق على وجود عناصر بربرية، وأغلبها يذكر قبائل زناتية مثل : مكناسة وجراوة وزواغة وزناتة وهوارة مع إشارة إلى عناصر بنعت بربري فقط دون ذكر قبائلهم. وقلة المعلومات حول مواطن بربرية في هذا الثغر يؤكد الملاحظة التي أبديناها في أول كلامنا، وبذلك نعود إلى نقطة انطلاقنا.

2.3. مواطن البربر بالثغر الأوسط (طليطلة ونواحيها)[39]

تحفل صفحات المصادر بإشارات عديدة إلى مواطن بربرية كثيرة في هذا الثغر، وربما يظهر تعددها أن هذا الثغر يعتبر من المواطن المهمة للبربر في الأندلس. ففي الأحداث التي عرفتها طليطلة لانكاد نفقد ذكرا للبربر، وحملت جمهرة ابن حزم معلومات قيمة عن بربر هذه المنطقة. وقد استنتج أحد الباحثين أن المنطقة الممتدة من طليطلة حتى المحيط الأطلنتي هي مناطق آهلة بسكان بربر[40]. ونفس التأكيد نجده عند ابن حيان عند حديثه عن ثورة ابن القط الأموي في عهد الأمير عبدالله في أواخر القرن 3 هـ / 9م، حيث قال: «فصار بأرض الجوف في بلاد البربر هناك»[41].

منذ عهد الفتح نجد أن طارق بن زياد ينطلق في فتوحاته دون توقف حتى منطقة طليطلة، حيث انتظر قائده موسى بن نصير. وربما أن استيطان الثغر بدأ خلال هذا الوقت عندما تعرف

(37) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 181.

(38) ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة، مطبعة السعادة، مصر، 1955، ج. 2، ص. 729.

(39) يحدد ابن سعيد كور وحواضر الثغر الأوسط في كتابه «المغرب في حلى المغرب» فيما يلي : طليلطلة ــ قرية وقش ــ مدينة طلبيرة ــ وادي الحجارة ــ قلعة رياح ــ مدينة طلمنكة ــ مدينة مجريط ــ قرية مكادة.

(40) Guichard, op, cit, p. 275

(41) اين حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 139.

عليه جنده البربري. وسبق أن وضحنا أن موسى عندما أراد العودة إلى المشرق أمر البربر بالاستقرار في الجبال الواقعة شمال طليلطة ليشكلوا درعا حاميا أمام كل هجوم محتمل للمسيحيين المعتصمين بجبال جليقية.

خلال ثورة 123 هـ / 740م كان بربر طليطلة قد شكلوا إلى جانب بربر الغرب أحد الجيوش البربرية الثلاث التي عملت على محاصرة عرب الوسط. وقد طردوا العرب من هذا الثغر نحو الموسطة، لكنهم انهزموا في وادي سليط، وقتلوا بقسوة على يد بلج بن بشر القشيري[42].

وفي بداية عهد عبد الرحمن الداخل، كان بربر طليطلة يساندون عبد الرحمن بن يوسف الفهري، وساعدوه بحوالي 20 ألف رجل سنة 141هـ / 759م، على استعادة سلطته من عبد الرحمان الداخل[43].

وخلال ثورة البربري شقيا بن لقيا المكناسي (150 هـ / 767 م ـ 160 هـ /778م). كانت منطقة عملياته تمتد من السهلة شرقا حتى ماردة غربا، ودعمه بربر هذا الثغر بقوة، مما أفشل كل محاولات عبد الرحمان الداخل في إخماد ثورته. و لم ينجح في ذلك إلا بعد أن عين منافسا له هو هلال بن عامر المديوني زعيما لبربر شرق الأندلس فـ «تفرقت بفعله ذلك كلمة البربر، وانحلت عقدة الفاطمي، وانصرف من شنت برية إلى الجوف»[44]. وكدليل على الدعم الكبير الذي تلقاه من بربر المنطقة؛ نجد عبد الرحمان الداخل يعاقب بربر قورية ويقتل عددا من زعمائها[45]. ونجاح هذه الثورة البربرية بهذا الثغر يجعلنا نؤكد على أهمية الاستيطان البربري في المنطقة.

وفي سنة 181 هـ / 799، قام جمع من بربر طلبيرة بقتل جمع من عرب بني مخشي في إحن كانت بينهم، وذلك في منزل عمروس بن يوسف قائد السلطان على طلبيرة[46].

(42) أخبار مجموعة، ص. 44، ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 31.

(43) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 1، ص. 308.

(44) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 55.

(45) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 36.

(46) النويري، تاريخ المغرب الاسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص. 80-81. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 69.

وفي سنة 214 هـ / 829م، ثار هاشم الضراب بطليطلة، فكان يغير على العرب والبربر بأحوازها [47]. وفي حديثه عن أحداث سنة 273 هـ /886م، يتحدث ابن عذاري عن نفي بربر ترجيلة الذين ساعدوا أهل طليطلة[48].

وفي سنة 259 هـ / 872 م، هاجم أهل طليطلة حصن سكيان حيث يوجد 700 بربري فانهزموا أمامهم [49]. وكانت وادي الحجارة على عهد الأمير محمد تحت حكم أرزاق بن منت المصمودي، فحاول موسى بن موسى القسوي استمالته بمصاهرته، فلم يفلح، وقتله إرزاق عندما هاجمه[50].

وخلال اضطرابات نهاية القرن 3 هـ/ 9م، كانت أحداث هذا الثغر تدور حول تحركات بني ذي النون الذين سيطروا على طليطلة وذواتها وصاروا سادة المنطقة. و لم يكن هذا ليتحقق لهم لولا دعم عدد كبير من الأمراء البربر الصغار الذين يقتسمون كثيرا من جهات هذه المنطقة. ولما تولى الناصر أعاد التسجيل لهؤلاء الأمراء على مناطقهم، وظلوا على حالهم في مجاهدة العدو وحماية البلاد. ومن هؤلاء أولاد عمريل بن تمليت المغربي وآل ذي النون وآل غزوان وآل رزين «وراثها عن الأجداد» و«جدد لهم ولاعقابهم بعدهم على أقسامهم»[51]. ونفس الإجراء سيتكرر على عهد الحكم II [52].

إن المشاركة البربرية في أحداث المنطقة الكثيفة توضح حقيقة مفادها أن البربر يشكلون جزءا كبيرا من سكانها. رغم أن المصادر لم تفصح لنا إلا عن اسم قبيلة واحدة وهي مصمودة. وسنعتمد على المصادر الأخرى للتعرف على بعض القبائل الأخرى.

---

(47) نفسه، ص. 83.

(48) نفسه، ص. 116.

(49) نفسه، ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 7، ص. 265 ـ النويري، مرجع سابق، ص: 108-9.

(50) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 117.

(51) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 438.437.

(52) نفسه، ج. 6، ص. 73.

وتوفر لنا المصادر بعض أسماء الأماكن البربرية إلا أنها محدودة جدا. وأهم مانجده موضع يدعى بنوبرنس قرب ابيلا[53]، ومكادة قرب طليطلة[54]، ثم منزل رزين[55]، بضواحي هذه المدينة نفسها في إشارة إلى بني رزين أو فقط إلى شخص يحمل هذا الإسم. وندرة أسماء الأماكن لا تؤكد لنا كثافة السكان البربر بهذا الثغر كما أوحت بذلك مشاركتهم المكثفة والدائمة في أحداثه وتطوراته.

وتوفر لنا المصادر بعض العلماء من هذا الثغر، والذين هم من أصل بربري، مثل : خلف بن يوسف بن نصر المغيلي من طلبيرة[56]، وسعيد بن مسعدة من وادي الحجارة (قتل سنة 288 هـ) [57]، وأحمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديوني من مدينة الفرج[58]، وداود بن ميمون بن سعد من طليطلة[59]. إن محدودية اللائحة التي نتوفر عليها بأسماء العلماء البربر بهذه المنطقة تطرح تساؤلات حول سببها، فهل هو ناتج عن إهمال المصادر؟ أم أن المنطقة فعلا لم تنتج علماء بربرا؟ أو أنها نهجت مذاهب تخالف مذاهب الحاكمين فتعمدوا السكوت عنها؟

وتحتوي جمهرة ابن حزم على مجموعة من الإشارات التي تساعدنا على فك بعض رموز الاستيطان البربري لهذا الثغر. فهو يذكر أن بني ذي النون الهواريين يسكنون بأقليش وبنو سالم المصامدة بمدينة سالم ومدينة الفرج (وادي الحجارة) وبنو مضى بقصر مضى وبنو زروال بالمنتانية[60].

وترد عند اليعقوبي إشارة تدعم ما سبق بحيث يقول: «مدينة وادي الحجارة كان عليها رجل من البربر يقال له مسل بن فرج الصنهاجي يتولاها يدعو لبني أمية. ثم ولده وذريته بعده إلى هذه الغاية في البلد»[61].

---

(53) Asin Palacios, op.cit, p.49

(54) معجم البلدان، ج. 5، ص. 179، ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 2، ص. 45 و118 Ibid.p.

(55) Asin Palacios, op.cit, p.120

(56) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج. 1، ص. 161.

(57) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، ص. 324.

(58) الصلة، ج. 1، ص. 5.

(59) ابن الأبار، تكملة الصلة، ج. 1، ص. 315.

(60) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 499–501.

(61) اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف، ص. 106.

إن كل الإشارات السابقة لاتذكر لنا إلا قبائل بربرية محدودة ممن يقطن هذا الثغر، وهي : هوارة ـ مغيلة ـ مديونة. مع إشارات إلى آخرين بنعت البربري فقط. إلا أن محدودية القبائل المذكورة لايمس في شيء ما سبق أن لاحظناه؛ عند وقوفنا عند مشاركة البربر في أحداث الثغر، من أنهم يمثلون كثافات مهمة. ويؤكد لنا هذا صعود عدد كبير من الأسر البربرية إلى مناصب الإمارة والقيادة، ولولا المساندة الكثيفة التي يقدمها لهم أبناء عشائرهم ما كانوا لينجحوا في هذا المسعى، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة المجتمع القبلية.

3.3. مواطن البربر في موسطة الأندلس (قرطبة ونواحيها)

تتميز موسطة الأندلس عن باقي المناطق بوفرة المصادر، ولكن بالأساس بتوفر نصوص تشير مباشرة إلى الاستيطان البربري ونقطه.

يعود أول استقرار للبربر في قرطبة إلى عهد فتح طارق بن زياد لها على يد الكتيبة التي قادها مغيث الرومي، عندما ترك بها بعض العناصر لحكمها إلى جانب ساكنتها اليهودية[62]. وسيساعد موقع المدينة على استقطاب ساكنة بربرية بشكل دائم ومستمر. فعقب ثورة 123 هـ / 1.740م، سيقوم ثعلبة بن سلامة العقيلي بأسر ألف من بربر ماردة وحملهم إلى قرطبة[63]. وعندما قدم عبد الرحمان الداخل الأندلس كانت بقرطبة أسر بربرية مشهورة وذات جاه وثروة. وسبق أن رأينا في الفصل السابق أن أغلب المهاجرين خلال الدورتين الهجريتين الثانية والثالثة نزلوا بقرطبة واستوطنوها. وكان عددهم مهما رغم أن بعضهم سيغادر المدينة في نهاية الدورتين.

ونتوفر على مجموعة من النصوص عن استيطان البربر لموسطة الأندلس. فهذا الرازي يذكر أن فحص البلوط الواقع شمال قرطبة معمور بالبربر[64]. ونفس العبارة ينقلها ياقوت الحموي[65]. ونجد عند ابن الفرضي إشارة إلى قبيلة ولهاصة من كزنة النفزية التي تقطن

(62) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 10.
(63) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 259.
(64) الرازي، جغرافيته، مجلة الأندلس، عدد 18، 1953، ص. 83.
(65) معجم البلدان، ج.1، ص. 492.

هذا الفحص[66]. ويورد الخشني معلومات حول عناصر مصمودية تقطن هذا الفحص[67]. وفي الفحص أيضا نجد حصنا يدعى مسطاسة من أعمال أوريط[68]، وحصن صدفورة[69]، ويسكن هذا الفحص برانس لعبوا دورا مهما في تركيز دعائم دولة عبد الرحمان الداخل[70]. ويذكر ابن الخطيب شخصا يدعى محمد بن مسلمة المعروف بابن الافطس، وهو مكناسي نزل فحص البلوط[71].

يظهر أن فحص البلوط نتيجة قربه من العاصمة، وتوفره على حماية طبيعية بفضل طبوغرافيته الجبلية، كان قبلة لعدد من القبائل البربرية هي : نفزة (ولهاصة) ومصمودة وصدفورة ومكناسة.

وإلى الجنوب من قرطبة تنتشر مجموعة من الجزر البربرية. فهذا صاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها» يذكر أن مدينة قبرة «كان أهلها في الاسلام عرب وبربر»[72]. ويشير الادريسي إلى أن حصني بلاي ومنترك «حصون يسكنها البربر من أيام الأمويين»[73]. وكان بشقندة أسرة بني مشرف من زواوة الكتامية [74] وعلى الطريق من قرطبة إلى اشبيلية توجد قلعة شنت فيلة «وهي معقل للبربر من قديم الزمان»[75] ومن بربرها بنو الليث الزناتيين [76].

وإلى شرق قرطبة توجد بلكونة التي ينتمي إليها يحي بن ضريس الصنهاجي، وهو واليها، وقد أبطل يد عمر بن حفصون [77] بضربة من سيفه. وكانت بيانة أيضا مستقرا لعناصر بربرية [78].

---

(66) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ج. 2، ص. 144.
(67) الخشني، المرجع السابق، ص. 360.
(68) معجم البلدان، ج. 5، ص. 24.
(69) نفسه، ج. 3، ص. 397.
(70) أخبار مجموعة، ص. 101.
(71) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، دار المكشوف، بيروت، 1956، ج. 2، ص. 183.
(72) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص. 96.
(73) نزهة المشتاق، ج. 2، ص. 512.
(74) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 501.
(75) نزهة المشتاق، ج.2، ص. 573.
(76) جمهرة ابن حزم، ص. 499.
(77) نفسه، ص. 500.
(78) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 167.

وإلى الغرب والشمال الغربي من المدينة تمتد مواطن بربرية أخرى، ففي حصن المدور تستقر عناصر بربرية مهمة (79) وفي جهة فريش يوجد حصن يدعى لواتة (80) وهو اسم لقبيلة بربرية زناتية كانت دون شك تقطنه وكذلك حصن قسطنطينة الحديد (81). وهو حصن آهل بساكنة بربرية خاصة وأنه يتوفر على منجم للحديد.

يلاحـظ أن موسطة الأندلس عـرفت استيطـانا بربريا مـهما، بحيث كانت كـل جهات قرطبة آهلة بسكان بربر من قبائل زناتة ونفزة وصنهاجة ومصمودة. و لم نتوقف عند مدينة قرطبة على أساس أننا سنخصص لها حيزا مهما عند حديثنا عن الاستيطان البربري بالمدن. وبذلك تضاف موسطة الأندلس إلى منطقة الثغر الأوسط كمنطقة آهلة بالساكنة البربرية.

4.3. مواطن البربر بشرق الأندلس

ظل الباحثون ولوقت طويل يعتبرون أن شرق الأندلس كان حكرا على العناصر العربية، بينما لايشكل البربر إلا أقلية. فهذا ليڤي بروڤنسال يؤكد أن البربر لم يستقروا في المناطق الساحلية إلا نادرا بما فيها السواحل الشرقية (82) وتؤكد هذا المذهب دراسات أخرى شرقية وغربية(83)، وقد صار هذا الرأي مسلمة عند الكل، و لم يعمل أحد على تفنيده، إلى أن جاء مقال الباحث بيير كَيشار Guichard المعنون بـ «تعمير منطقة بلنسية»(84)، الذي دافع فيه عن وجهة نظر مخالفة. بحيث أكد على أن المنطقة الشرقية كانت آهلة بعناصر بربرية مستعربة. واحتاج في الدفاع عن رأيه هذا إلى إظهار كل إمكانياته في التأويل والقراءة الدقيقة للنصوص. ورغم أن تأويلاته كانت في بعض الأحيان متهافتة، إلا أنها مكنت من إظهار بعض الحقائق المغمورة والمهمشة حتى ذلك الوقت.

(79) أخبار مجموعة، ص. 45.

(80) معجم البلان، ج. 4، ص. 24.

(81) الادريسي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 574.

(82) Lévi-Provençal (E) , al-Andalus, Ency. de l'Islam , t. I, p.505

(83) Historia de España y America, dirigida par J; Vicens, Barcelona, 1971. t; I, p; 218 Isidio de las Cagigas, Minorias, Madrid, 1948, livre I, t, I, pp. 87-88.

شكيب أرسلان، الحلل السندسية، مكتبة الحياة، بيروت، ج. 3، ص. 433

(84) Guichard (P) , Peuplement de la région de Valence, in 'Casa de Velasquez»,» vol.5, 1969, pp 103-158

إن أهم مايميز عمل كَيشار هو تتبعه الدقيق والمتأني للنصوص التاريخية، ووقوفه حتى عند أبسط التفاصيل. ففي البداية عمل على تفنيد غلبة العرب على سكان شرق الأندلس. ثم بدأ في بناء الأطروحة المضادة، فأورد نصوصا تاريخية (اليعقوبي ـ ابن الأثير ـ الرازي، ابن عذاري والعذري). ثم أورد شجرات نسب بربرية من المنطقة أو حتى تلك التي شك في كونها بربرية. وبرر موقف الصمت الذي التزمته المصادر بتهميشها للبربر وتمردهم الدائم. ثم ختم كلامه بعبارة متواضعة جاء فيها :«إن فرضية تبربر شرق الأندلس لاتحل كل المشاكل، ويمكن أن تثير بدورها بعض الاعتراضات»[85].

وقد رد على كيشار باحث اسباني في مقال نشر بمجلة «القنطرة». وتوقف الباحث عند أدلته بنفس دقته. فاستنتج أن النصوص التي أوردها لاتعني تماما وجود أغلبية بربرية بل فقط وجود بربر. ويمكن بالاستعانة بمصادر أخرى توطينهم في المناطق الجبلية. كما أشار إلى أن كَيشار استعمل أسماء أماكن قد تكون أطلقت عليها بعد فترة الدراسة خاصة خلال العصرين المرابطي والموحدي. كما أن الاعتماد على الأسماء التي تبتدئ «ببني» لا تعتبر أدلة قوية وثابتة. ونفس الشيء يمكن ملاحظته على تأويل الأحداث التاريخية كإرسال الحكم الأول ليحي بن يحي الليثي لإقامة الصلح مع عمه، وقد ربطه كَيشار بأصله البربري. ويخلص في آخر كلامه إلى أن كل ماقدمه كَيشار من أدلة تشير إلى وجود بربر، وليس إلى غلبتهم على المنطقة[86].

إضافة إلى هذه الانتقادات، فلابد من الإشارة إلى بعض الملاحظات الأخرى. أولها كون المنطقة تعرف تمردات مستمرة وغلبة الطابع البدوي يجعلها منطقة استيطان بربري. فلا اعتقد أن أي منطقة من مناطق الأندلس، باستثناء الموسطة كانت خالية منها خاصة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. وسينتج عن هذا اعتبار كل المناطق ذات كثافات سكانية بربرية مهمة. إضافة إلى هذا فالثورة المشهورة التي عرفتها المنطقة على عهد الحكم الأول، كان يقودها أحد أبناء البيت الأموي الذي هو سليمان بن عبد الرحمان، فهذا

(85) Ibid, pp: 150-151

(86) Bercelo, op. cit, pp. 429-460

فقط، مجرد عنصر في صراع داخلي لأبناء البيت الحاكم، وأكثر من هذا فعند انضمام البربر إلى سليمان، لم يفعلوه إلا بعد أن اقتنعوا بقضيته، وربما فقط تبنوها وفقا لمبدإ الاستجارة السائد خلال العصر الوسيط. وهذا يمكن أن يقوم به العرب والبربر على حد سواء. أما مسألة العزلة والبداوة، فلا يرتبط بمجموعة بشرية دون غيرها. وكَيشار في مذهبه هذا يتبنى الفكرة التي طالما دافع عنها الأنثروبولوجيون الفرنسيون خلال عهد الحماية في المغرب[87]. وهي فكرة ثبت تهافتها ونزوعها الايديولوجي.

ويثير كَيشار مسألة تعريب البربر السريع. ولو أردنا أن نتتبع عملية التعريب بشكل منطقي لأعطتنا صورة تختلف عن تلك التي رسمها. ألا يقتضي التعريب توفر عنصر مساعد؟ سيقول إن الإسلام كان خير دافع، لكننا إذا سمحنا لأنفسنا بتطبيق الصورة على المغرب الأقصى، فستجد أن بربره ورغم إسلامهم، لم يتخلوا عن لغتهم و لم يستعربوا تماما. قد نقول أيضا أن الأندلس تميزت بانفتاحها الكبير على العروبة والمشرق، ولذلك ستكون العملية أسرع، لكن الباحث ينفي هذا بإثباته أن المنطقة كانت منعزلة، وكان يغلب عليها الطابع البدوي. وينتج عن هذا أن أهلها لن يستفيدوا من التفتح الأندلسي على المشرق، وسيحتفظون بلغتهم الأم. إلا أن التعريب قد حصل لسكان المنطقة. وبقي إذن، سبب واحد للتعريب هو وجود البربر في وسط عربي، فأخذوا التقاليد واللغة العربية، مع أننا لانملك أدلة واضحة عن حدوث هذا التعريب.

بعد عرض ومناقشة آراء بيير كَيشار يمكن أن نقر بأن شرق الأندلس كان يضم ساكنة بربرية مهمة، لكنها ليست مهيمنة كما أراد لها الباحث ذلك. وسنعمل؛ بعد هذا على عرض الأدلة التي تقدمها لنا المصادر عن مواطن البربر بهذه المنطقة.

ففي شمال المنطقة وفي أحواز طرطوشة نجد موضعا يعرف بمغراوة[88]، وهو كما يبدو قد أخذ اسمه من القبيلة البربرية الزناتية مغراوة.

---

(87) Montagne, op,.cit , pp.32-33. Les berbères et le Makhzem, Edition d'Afrique Orient, Casablanca 1983, pp.180-184

(88) القزويني، آثار البلاد، وأخبار العباد، دار بيروت، بيروت، 1979، ص. 544.

وإلى الجنوب منها نجد سهلة بني رزين المنسوبة إلى أسرة بني رزين الهوارية التي حكمت المنطقة منذ الفتح حتى القرن 5هـ/ 11م [89]. وإلى جانبها بنو هذيل المديونيين[90]، وبنو عزون من زناتة[91]، وعوسجة من ملزوزة[92]. وبنو تيه الأمراء بشنت برية، وبنو أبي الأخطل من ملزوزة.

وفي تروال نجد بني غزلون الزناتيين[93]، وفي جنوبها الشرقي توجد عقبة الهواريين [94] التي قد تنسب لهوارة، كما نجد موضعا يحمل اسم البراتين[95].

وفي البونت يستقر بنو قاسم من زواوة الكتامية الصنهاجية[96].

وفي بلنسية تشير المصادر إلى وجود البربر بها في عدة مناسبات فخلال ثورة عبد الرحمان بن حبيب الفهري على عبد الرحمان الداخل، التجأ إلى بلنسية، وكان في جيشه بربر، كما أن قاتله بربري يدعي مشكار سنة 163 هـ /780م [97]، وعندما ثار سليمان بن عبد الرحمان التجأ إلى بربر بلنسية واحتمى بهم لمدة ثلاث سنوات[98]. كما نلتقي في أحواز بلنسية بموضع يحمل اسم زناتة[99]. ورغم أن تسميته قد تكون متأخرة إلى عهد المرابطين، خاصة وأن قبائل زناتية استقرت في المنطقة على عهدهم[100]. ومن بين أقاليم بلنسية التي ذكرها العذري نلتقي بجزء مصمودة [101].

---

(89) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 499 ـ ابن بسام، الذخيرة، ج. 5، ص. 109–110 ـ الاصطخري، مسالك الممالك، ص. 44. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص. 185.

(90) الجمهرة، ص. 500، العبر، ج. 6، ص. 165، الاصطخري، ص. 44.

(91) نفسه، ص. 499.

(92) نفسه، ص. 498.

(93) نفسه، ص. 499.

(94) العذري، المرجع السابق، ص. 21.

(95) Asin Palacios, op.cit,p: 43

(96) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 501.

(97) العذري، المرجع السابق، ص. 11. ابن عذاري، المرجع السابق، ج ـ 2، ص.56.

(98) نفسه، ص. 70.

(95) Asin Palacios, op.cit,p: 43

(100) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. 147 و 164.

(101) العذري، المرجع السابق، ص. 20.

وفي شاطبة نلتقي ببني عميرة من ألهاصة من نفزة[102]، وبني ملحان من نفزة[103] أيضا وعلى الطريق الرابطة بين دانية وشاطبة يوجد موضع يدعى أوربة على بعد 15 أو 20 كلم من دانية [104] وبيران قرية تابعة لدانية يقطن بها قبيل من نفزة، ومنهم أبو حفص عمر بن الحسن بن عبد الرزاق البيراني النفزي[105]. ويورد ابن عبد الملك أسماء علماء نفزيين من شاطبة، رغم أنهم عاشوا خارج فترة الدراسة، إلا أن ذلك يؤكد استمرار الوجود النفزي بها[106].

من خلال الإشارات السالفة الذكر، أمكن التأكد من أهمية الوجود البربري في شرق الأندلس. كما تعرفنا منها على أهم المجموعات القبلية التي سكنته خلال هذه الفترة، وهي : مغراوة وهوارة ومديونة وزناتة وملزوزة وكتامة «زواوة» والبرانس ونفزة وأوربة، وتغلب عليها القبائل الزناتية، ولعل هذا ما يساعد على تعريب المنطقة. لأن هذه العناصر أسرع إلى التخلي عن هويتها أكثر من القبائل الأخرى خاصة المصامدة والصنهاجيين، وسنوضح هذا في الفصول اللاحقة.

5.3. مواطن البربر في غرب الأندلس

تسجل المصادر الأندلسية عددا من الأحداث التي وقعت غرب الأندلس، وكان البربر العنصر الأساسي والفاعل فيها، وهو ما يحيل على التفكير؛ ولأول وهلة على كون هذه الجهة آهلة بالسكان البربر. فقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه المناطق قد تلقت فئات عريضة من بربر الفتح من أجل حمايتها من ردود الفعل المسيحية بناء على الخطة التي وضعها موسى بن نصير قبل عودته إلى المشرق.

خلال ثورة 123 هـ / 741/740 م، كانت منطقة الغرب وخاصة ماردة تشارك في الجيش البربري الذي كان يقاتل في الثغر الأوسط بقيادة ابن هدين وقد انهزموا أمام بلج بن بشر [107]

(102) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 499، ياقوت الحموي، المرجع السابق، ج.5، ص. 296.
(103) نفسه، ص. 296.
(104) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص. 511.
(105) ياقوت، المرجع السابق، ج، 1، ص. 524.
(106) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، 1937، ج. 6، ص. 344 و345 و347 و 315.
(107) مجهول، أخبار مجموعة، ص. 43-44.

لكن ماردة ستتحالف مع ابني عبد الملك بن قطن، فتعرضت من جديد لهزيمة وإهانة من ثعلبة بن سلامة العقيلي الذي أسر من أهلها 1000 رجل كلهم بربر، وحملوا إلى قرطبة [108].

وفي عهد عبد الرحمان الداخل، شاركت المنطقة في ثورة شقيا بن لقيا المكناسي، وكانت ماردة وقورية ومدلين من المناطق التي خضعت لسلطته، وساعدته ضد عمال الأمير عبد الرحمان الأول[109]. وقد تعرضت قورية سنة 158هـ / 775م، لحملة تأديبية من عبدالرحمان الداخل عقابا لها على دعم شقيا بن لقيا، فقتل عددا من زعمائها ورؤسائها. وفي هذه الحملة أسر عباس بن قلعوش المعروف بأبي مزكانة المصمودي[110]. ودعم هذه المنطقة، مع ورود الإشارة إلى البربر، لشقيا يعتبر أكبر دليل على غلبة البربر عليها، وتعصبهم لهذا الزعيم البربري دفعهم إلى مساندته طيلة فترة ثورته.

وعند ثورة عبد الغفار بلبلة وعمر بن طالوت بباجة على عبد الرحمان الداخل، كان معهم جنود من حلفائهم البربر[111] وكان ذلك سنة 156 هـ / 773م، أو التي بعدها.

وفي سنة 170 هـ / 787م، أوقع عبد الرحمان الداخل ببربر نفزة، فأذلهم وقتل عددا منهم، وذلك انتقاما منهم على دعمهم لعبد الرحمان بن محمد بن يوسف الفهري[112].

وفي عهد الحكم الأول، ثار بماردة أميرها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس سنة 190 هـ / 806م، ودام تمرده سبع سنوات [113].

وثار بالمدينة مابين 213 هـ /829م و 218هـ /834م، محمود بن عبد الجبار البربري الذي فر فيما بعد إلى جليقية، حيث قتل سنة 225هـ /841م [114].

(108) نفسه، ص. 46–47. وابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 259.
(109) نفسه، ص. 47 . نفسه، ص. 605. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص.147 .
(110) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2. ص. 55.
(111) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 55، نفسه، ص. 56.55.
(112) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 6. ص. 109، نفسه، ص. 56.55.
(113) أخبار مجموعة، ص. 119. ابن عذاري، المرجع السابق، ج.2، ص. 72.
(114) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 88–89، النويري، المرجع السابق، ص. 95–96.
Dozy (R), Recherches sur l'histoire de la littérature de l'Espagne, Maisonneuve. Paris, t, 1, p. 139.

وخلال فتنة نهاية القرن 3 هـ / 9م استدعى كريب بن خلدون وجنيد البرنسي بربر ماردة للغارة على كورة اشبيلية، فنفذوا المهمة، واحتجنوا الغنائم ثم انسحبوا[115]، بعدما قدموا خدمة عظيمة لعرب اشبيلة. وفي لشبونة ثار بربري يدعي ابن عوسجة[116]. وكانت ماردة قد ثارت تحت قيادة سعود بن تاجيت المصمودي، وانهزم في عدة مناسبات أمام عبد الرحمان بن مروان الجليقي، مما أضعفه [117]. وثارت مكناسة بدورها ودخلت مع ابن مروان في صراع حاد [118].

واستقل بحصن أم جعفر قاعدة نفزة عبد الله بن عيسى من بني ورجول[119]. وخلال ثورة أحمد بن معاوية بن محمد المعروف بابن القط، سانده بربر ترجيلة ونفزة[120].

وعند بداية عهد الطوائف كان من حكامها بربري يدعى عبد الله بن مسلمة المكناسي المعروف بابن الافطس واتخذ باجة قاعدة له[121].

إن كثافة المشاركة البربرية في أحداث غرب الأندلس، بل وقيادة الكثير منها يؤكد لنا أن المنطقة، كانت تعرف، ومنذ الفتح، كثافات سكانية بربرية مهمة.

وتدعم ما بينته الأحداث نصوص أخرى، فالاصطخري يقول :« وأما نفزة ومكناسة فهم بالأندلس بين الجلالقة وبين مدينة قرطبة»[122]. ويقول الرازي، : «توجد في قادس أعمال جميلة يقال أن البربر هم الذين حملوها إليها عندما عبروا البحر ونزلوها وعمروا الجهة القريبة من البحر»[123].

(115) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 69.
(116) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص. 180.
(117) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 501. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 171.
(118) ابن حيان، المرجع السابق، ج، 5، ص. 118.
(119) نفسه، ص. 239.238.
(120) نفسه، ج. 3، ص. 136.
(121) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 203 وابن بسام، المرجع السابق، ج. 4، ص. 641.
(122) الاصطخري، المرجع السابق، ص. 44.
(123) الرازي، جغرافيته، ص. 97.96.

ويورد ابن حزم أن ماردة وقورية وجدانية كانت لمسعود بن تاجيت المصمودي، ولأبيه وجده[124]. كما يذكر ابن حيان أن أسرة بني راشد النفزية تقطن على ضفة وادي آنة [125]. كما يؤكد أن مدينة يابرة محاطة بعناصر بربرية [126].

وتختزن صفحات المصادر مجموعة أسماء أماكن كلها لقبائل بربرية، فعند ابن حوقل نجد ذكرا لقصر بني ورداسن الذي يبعد عن شلب بخمسة مراحل [127]. ونجد مكانا يدعى هوارة قرب حصن مكناسة ونفزة أيضا [128]. وقرب بطليوس نجد حصنا يدعى زواغة [129]. كما نلتقي في قادس بقلعة كَزولة[130]. وربما أن هذه التسمية لم تظهر إلا خلال العهد المرابطي، ويؤكد لنا هذا كون هذا القبيل لم يذكر في أي مصدر ضمن القبائل التي اجتازت إلى الأندلس خلال هذه الفترة المدروسة.

تؤكد لنا أسماء الأماكن هذه كثافة الاستيطان البربري في الغرب الأندلسي، وخاصة الأجزاء الشمالية منه.

وتتوزع عبر المصادر أسماء علماء برابرة أبناء الغرب الأندلسي ومنهم مطرف بن فرج بن علي المعروف بأبي سهولة بن بطليوس (ت 320 هـ أو 322) [131] وسليمان بن محمد بن عبد الله بن أصبغ بن وانسوس من ماردة [132] وأبو اسحاق ابراهيم بن هارون بن عبد الكريم المصمودي المعروف بالزاهد الاشبوني (ت 360 هـ) [133]، ودحمان بن مالك بن عثمان النفزي (ق 4 هـ) [134]، ومحمد بن زكريا المعروف بابن الطنجية

(124) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 501.

(125) ابن حيان، المرجع السابق، ص. 137.

(126) نفسه، ج. 5، ص. 96.

(127) ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، 1938، ج. 1، ص. 116.

(128) الاصطخري، المرجع السابق، ص. 47. وتقع مدينة مكناسة بين نهري تاجو وأنه، الإدريسي، ج.2.

(129) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص 171 و Asin Palacios, op:.cit.p 870 .

(130) Ibid, p. 67

(131) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 136.

(132) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 362.

(133) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص 18.17 وياقوت الحموي، ج. 1، ص. 195.

(134) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 319.

من اشبيلية [135] وعبد الله بن سمحون الطنجي من اشبيلية [136]، وغالب بن عبد الرحمان الهواري الاشبيلي (ت 440 هـ) [137]، وحسن بن فتح الاشبيلي (ق 4 هـ) [138] وأخيرا عبد الله بن خلوف بن موسى الزواغي البجاني (ت 443 هـ) [139].

من خلال الأحداث التي توقفنا عندها والنصوص التاريخية وأسماء الأماكن ثم أسماء بعض العلماء المنتمين للغرب الأندلسي، يمكن أن نؤكد أن غرب الأندلس يستقطب ساكنة بربرية مهمة، وخاصة في المناطق الشمالية منه. وأهم المجموعات القبلية التي تسمح لنا المصادر بالتعرف عليها هي : هوارة ـ نفزة ـ مكناسة ـ مصمودة ـ زواغة ـ وبني ورداسن ـ وكَزولة. وأغلبها يستقر في المناطق الواقعة بين نهري التاجو وأنة، شمال بطليوس وماردة وجنوب قورية وغرب طلبيرة حتى لشبونة على سواحل المحيط الاطلنتي مع بعض العناصر بباجة وحول يابرة غرب بطليوس.

6.3. مواطن البربر في الجنوب والجنوب الشرقي

اعتبرت كورة جيان من بين الكور التي يغلب عليها العرب، بينما يقل بها البربر. لكن الملاحظ هو أن الأخبار تندر حول هذه الكورة فمنذ البداية نجهل من فتحها على وجه التحديد. فكل المصادر تكاد تتفق على أن طارقا لم يفتحها، باستثناء رواية أوردها المقري تذكر أن طارق بعدما وزع السرايا، سار على رأس واحدة منها وفتح بها جيان [140] لكن الوثوق بهذه الرواية الشاذة يبدو صعبا، خاصة إذا علمنا أن هم طارق الوحيد هو الوصول إلى طليطلة منبع الشر الأساسي، ولذلك فلن يضيع أي وقت لفتح مناطق في طريقه ما لم تشكل عرقلة أمام مشروعه. وربما أن عبد الأعلى بن موسى بن نصير هو فاتحها عندما فتح تدمير ومالقة في سنة 93هـ /712 م [141].

---

(135) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل، ج. 6، ص. 200.
(136) ابن الابار، التكملة، ج. 2، ص. 399.
(137) ابن بشكوال، الصلة، ج. 2، ص. 446.
(138) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 113 . 114.
(139) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج، 1، ص. 269.
(140) المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 243.
(141) ابن الخطيب، الاحاطة، ج. 1، ص. 101.

وتختفي عنا كل أخبار الكورة المتعلقة بوجود البربر بها حتى اضطرابات نهاية القرن 3 هـ / 9م عندما تدخل بنو ذي النون فاحتلوا وبذة، كما دخل عبيد الله ابن الشالية حاكم شنتمان في صراع مع الفتح بن ذي النون حول حصن ديميه، وانتصر عليه [142]. وثار عمر بن ابراهيم الهترولي البربري بقرية الملاحة، ثم استنزل ورحل إلى قرطبة [143] وتمرد بنو هابل منذر بن جرير واخوته هابل وعامر وعمر بحصون بغتويرة ومرغيطة وشنت أشتبين [144].

فالإشارات الضعيفة إلى مشاركة البربر في أحداث الكورة، وسرعة إخماد ثوراتهم تؤكد أنهم قلة بها ولايتوفرون على قاعدة بشرية عريضة تقدم الدعم اللازم لحركاتهم الثورية.

وتشير المصادر إلى بعض البربر الذين سكنوا الكورة مثل: بنو ذي النون في وبذة[145] وآل عامر بن وهب من ملزوزة بنفس المدينة[146]، وبنو دراج الصنهاجيون بقسطلة دراج[147]. ويشير ابن القوطية إلى وجود هواريين بجانب جيان[148]. ويذكر ابن الابار أن محمد بن تاجيت وأخاه اسماعيل بربريان من جيان[149]. ومن أسماء الأماكن البربرية النادرة التي نجدها بهذه الكورة مدينة أوربة التي اعتبرها الرازي حاضرة لجيان[150]، وكـذلك مـوضعا يدعى صنهاجة [151].

ومن العلماء البربر الذين ينتسبون إلى الكورة يحيى بن أيوب بن خيار الزهري «سمع من سحنون»[152] وأحمد بن محمد بن يوسف القسطلي مربي هشام المؤيد[153]. وأسرة آل دراج التي نبغ منها رجال كثيرون أشهرهم أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المشهور.

(142) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 10.
(143) نفسه، ص. 25.
(144) نفسه، ص. 29.27.
(145) ابن حزم، المرجع السابق.ص. 500.
(146) نفسه.
(147) نفسه، ص. 501.
(148) تاريخ افتتاح الاندلس، ص. 57.
(149) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 178.
(150) الرازي، جغرافيته، ص. 69.
(151) ربما لم يحمل هذا الاسم إلا عندما استقر آل زيري بالكورة خلال ق 5هـ / 11م وفي عهد المرابطين.
(152) عياض، المرجع السابق، ج. 4، ص. 456. والخشني، المرجع السابق، ص. 378.
(153) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 76.

من خلال هذه الإشارات القليلة يمكن أن نستنتج وجود بربر بالكورة، لكنهم يمثلون أقلية من بين سكانها وينتمون إلى قبائل: هوارة ملزوزة ـ أوربة ـ صنهاجة.

أما كورة تدمير، فإنها لم تتلق ساكنة بربرية منذ الفتح مادامت المصادر تتفق على أن فاتحها كان عبد الأعلى بن موسى بن نصير، وتقل أحداثها بعد هذا التاريخ بما فيها تلك التي شارك فيها البربر. ففي سنة 161 هـ/ 778م نزل عبد الرحمان بن حبيب الصقلبي بسواحلها معلنا الدعوة العباسية. وتذكر المصادر أن جيشه يحتوي على بربر [154]. لكننا نجهل ما إذا كانوا سكان الكورة قبله أو أنه حملهم معه، ونميل إلى الجمع بين العنصرين. ثم تغيب عنا المصادر بعد اغتيال هذا الزعيم على يد بربري بتحريض وإغراء من عبد الرحمان الداخل[155].

ويعرفنا ابن حزم ببعض البربر القاطنين بالكورة مثل بنو الخروبي في لقنت وآل صبرون بن شبيب والي أليش من أوربة [156].

ويورد اسين بلاسيوس مجموعة أسماء أماكن مثل أوربة وصنهاجة وزناتة وبني طنجة [157]، وكلها بمدينة لقنت وهي تثير بعض الشكوك حول تاريخ حملها لهذه الأسماء.

ومن العلماء الذين ذكرتهم المصادر أبو القاسم مسعود بن عمر الهواري [158].

من خلال هذه المعلومات المتوفرة يمكن التأكيد على ضعف الاستيطان البربري بهذه الكورة واقتصاره على مدينة لقنت بالساحل المتوسطي. مع اعترافنا بقلة الاخبار عن هذه الكوة ضمن المصادر الأندلسية.

وتعاني كورة البيرة بدورها من نفس الإهمال الذي مس الكور الأخرى. فمنذ بداية الوجود الاسلامي بالأندلس، تتحدث المصادر عن فتح الكورة على يد سرية بعثها طارق من استجة، وتركت بها عناصر بربرية لحمايتها، ونشر الأمن بها[159]. ثم تختفي عنا الأخبار

(154) ابن الأثير، الكامل، ج. 6 و ص. 54. والعبر، ج. 4، ص. 158.

(155) نفسه.

(156) الجمهرة، ص. 499 و 501.

(157) Contribution, pp. 126-134-143 et 95.

(158) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 246.

(159) أخبار مجموعة، ص. 20، وابن الأثير، المرجع السابق، ج.4، ص. 563.

التي تشير إلى مشاركة بربرية حتى عهد الأمير عبد الله خلال الثلث الأخير من القرن 3 هـ / 9م، حيث كان من بين ثوار الكورة بربريان هما خليل وسعيد ابنا مهلب وهما كتاميان، واستقرا بحصن بقرذيرة وأشبرغرة[160] وعند الحديث عنهما يورد ابن حيان العبارة التالية: «من بيوتات البرابرة بكورة البيرة»[161]. ألا يمكن أن نستنتج من العبارتين أن الكورة تعرف استقرارا مهما للبربر؟ ويورد ابن حيان نصا آخر عن البربر جاء فيه: «وارتقى في حصن منتشاقر من البربر جملة فبناه وحصنه. وتجمعت إليه العرب فيه»[162].

ويدعم ابن حزم ماجاء في هذه النصوص، بحيث يذكر أن بني مهلب الكتاميين يسكنون بقرذيرة واشبرغرة[163].

ونجد في كتب التراجم ثلاثة أسماء لعلماء الكورة هم عبد الله بن عيسى بن زمنين المري النفزي «ت 395 هـ»[164] وابنه محمد بن عبد الله «ت 399هـ»[165] وعلي بن أبي حلى المكناسي «ت 406 هـ»[166]

ونجد اسم مكان يدعى مكناسة بوادي اش[167]. وموضع الصنهاجيين[168] وربما أن هذه التسمية ظهرت على عهد صنهاجة في القرن 5 هـ / 11م، إلا أننا نشك في كونه أقدم من ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار تواجد منجم لحجز المغناطيس به[169]، ونعرف أن كل مناطق الاستغلال المنجمي بالأندلس استقطبت ساكنة بربرية منذ فترات قديمة.

(160) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 31–32. وابن عذاري، ج. 2، ص. 137.

(161) نفسه.

(162) نفسه، ص. 61. يبدو أن يحي صقالة صاحب الحصن استخدم البربر في بنائه بالتابية.

(163) الجمهرة، ص. 501.

(164) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 18.

(165) نفسه، ص. 183

(166) المقري، المرجع السابق، ج. 5، ص. 98.

(167) عبد الله بن بلقين الزيري، التبيان، ص. 115.

(168) البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص. 128.

(169) نفسه.

إن الأخبار القليلة التي نتوفر عليها عن الاستقرار البربري بكورة البيرة تعطي الانطباع بوجود ساكنة محترمة، لكنها قليلة مقارنة مع الكور الآهلة ومن أهم القبائل الممثلة بها: كتامة ـ صنهاجة ـ هوارة ـ مكناسة ـ نفزة.

ويتفق أغلب الدارسين حول كون كور مورور وتاكرنا ورية مناطق آهلة بالساكنة البربرية، بحيث استقطبتهم سهولها وجبالها على حد سواء. وسبق في الفصل الماضي أن وضحنا أن هذه المنطقة كانت ملجأ مفضلا للبربر وفي كل الدورات الهجرية التي توقفنا عندها.

لعل استقراء أحداث المنطقة ومشاركة البربر فيها ستؤكد لنا هذا الرأي. فمنذ بداية الفتح، كانت أهم المعارك التي حطم فيها طارق بن زياد جيوش القوط بوادي برباط بشذونة ومن استجة أرسل السرايا نحو مختلف مناطق الأندلس خاصة نحو البيرة ومالقة ورية وقرطبة؛ بينما سار هو في بقية الجيش نحو طليطلة [170]. ولذلك فأول استيطان بربري لهذه المناطق يعود إلى هذه الفترة، رغم أنه اقتصر على تلك العناصر المكلفة بحماية مكتسبات الفتح، وتدعم بالمهاجرين الجدد الذين التحقوا بالأندلس بعدما وصلتهم أخبار الفتح والغنائم.

خلال ثورة 123 هـ / 1.740 م، كانت هذه المنطقة من أنشط المناطق، حيث كانت شذونة معسكر الجيش الثالث بقيادة رجل زناتي[171]. وهذا ـ ربما ـ يبين لنا أن البربر كانوا أغلبية في هذه المنطقة.

ولما قدم عبد الرحمان الداخل إلى الأندلس، كان بربر هذه المناطق ممن دعموه وساعدوه، حيث بايعه بنو الخليع المديونيون بتاكرنا وأمدوه بأربعمائة فارس، وبنو الياس المغيليون بشذونة في عدد كبير، وكذلك بربر من البرانس الذين ينتمي إليهم سابق رديف عبد الرحمان الداخل بمورور[172].

---

(170) النويري، المرجع السابق، ص. 205. وابن خلدون، ج. 4، ص. 150. وابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص. 75. وابن القوطية، ص. 32 و 35 وأخبار مجموعة، ص. 18—19.

(171) ابن عذاري، ج.2، ص. 31. وابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 251، وذكر سبب فتح الأندلس، مخطوط الخزانة الملكية، رقم 7531، ص. 36.

(172) ذكر سبب فتح الأندلس، ص. 30. وابن القوطية، ص. 50 و 52.

وقاد البربر عدة ثورات ضد عبد الرحمان في هذه المنطقة مثل ابراهيم بن شجرة البرنسي سنة 162 أو 163 هـ /780 ـ 779 م، بمورور، فقتله الحاجب بدر[173] وثار بربر تاكرنا على عهد هشام الأول سنة 178 هـ / 795 م، فتعرضوا للإبادة وطردوا من أراضيهم برندة ففروا إلى القبائل المجاورة وغرب الأندلس نحو طلبيرة وترجيلة[174].

وفي عهد الحكم الأول كان البربر من بين جيوش عمه سليمان عندما كان في استجة سنة 183 هـ / 799 ـ 800م [175]، وثار بربر بناحية مورور فقتلوا سنة 200 هـ/815م[176].

وفي عهده أيضا قامت ثورة لبربر الجزيرة نعتتها المصادر بأنها ثورة خارجية، وحرض عباس بن ناصح الأمير على قمعها، فأخمدها الحكم بقسوة[177].

وتجددت ثورات المنطقة على عهد عبد الرحمان الثاني، حيث تمرد رجل يدعى طوريل بتاكرنا، فأخذ سنة 211 هـ / 826 م[178]، وثار أيضا حبيب البرنسي بجبال الجزيرة سنة 236 هـ / 750م [179].

خلال اضطرابات نهاية القرن 3هـ / 9م، شارك البربر بفعالية. وقد ثار يحي الجزيري برية وتاكرنا والجزيرة قبل أن يقبض عليه الوزير هاشم بن عبد العزيز سنة 265 هـ /878م[180]، وتحالف عوسجة من بني الخليع مع ابن حفصون سنة 276 هـ /889 م[181]، وتحالف بربر البرانس مع كريب بن خلدون في نفس السنة بقيادة جنيد بن وهب القرموني، وبتر مورور مع المضريين والمولدين، بينما بقيت فئة ثالثة على الطاعة للإمارة والتزام الحياد مثل: بنو إلياس المغيليون بشذونة [182].

---

(173) العبر، ج.4، ص. 158، والبيان المغرب، ج 2، ص. 56.

(174) نفسه، ص. 160.

(175) نفسه، ص. 161.

(176) الكامل، ج. 6، ص. 318.

(177) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 71—72.

(178) البيان المغرب، ج. 2، ص. 82.

(179) نفسه،ص. 89. وابن حيان، ج.2، ص. 148.

(180) انفسه، ص. 103.

(181) ابن حيان، ج. 3، ص. 54.

(182) نفسه، ص. 68، والعذري، المرجع السابق ص. 113.

إن هذه المشاركة الدائمة والفعالة للبربر في أحداث هذه المنطقة توضح لنا أن البربر كانوا عنصرا مهما ضمن سكانها، مع ملاحظة محدودية دور كورة رية ربما لقلة بربرها.

وتقدم لنا النصوص التاريخية معلومات أخرى تدعم الصورة التي رسمتها أحداث المنطقة. فابن حزم يقدم لائحة بالبربر الذين قطنوا هذه المنطقة وهم : بنو إلياس من مغيلة بشذونة وبنو الخليع من مديونة بتاكرنا، وبنو عبد الوهاب، وبو طاهر الصنهاجيون بأشونة قرب استجة بكورة مورور [183].

ونلتقي بمجموعة أسماء أماكن بربرية في المنطقة. فمن أقاليم الجزيرة يذكر العذري جزء البربر[184] وبشذونة نجد حصون مغيلة وهي، دون شك، تابعة لبني إلياس المغيليين أمراء البربر بهذه الكورة [185]. وقرب مالقة نجد قرية تحمل اسم ذكوان[186]، أليس هذا اسما بربريا؟ لم نجد أسماء من هذا النوع إلا عند أسرة بربرية اشتهرت بقرطبة وهم بنو ذكوان، وربما أن هذا يدل على كون الاسم بربريا.

وتمدنا كتب التراجم بمجموعة من العلماء البربر الذين ينتمون إلى هذه الكور.

فمن كورة مورور، عثمان بن شن الاستجي[187]، وأبو موسى بن أبي حزم بن جوهر المرشاني الصنهاجي الاستجي (ت 724 هـ) [188]، وعيشون بن اسحاق بن عيشون الاستجي (ت 353 هـ) [189]، ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم من شذونة (كان حيا أثناء الفتنة)[190]، وغالب بن محمد بن عبد الله الهواري الأشوني[191]، وعبد السلام بن السمح بن نابل الهواري

---

(183) جمهرة ابن حزم، ص. 499 و 500 و 502.

(184) ترصيع الأخبار، ص. 120.

(185) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1. ص. 313. وياقوت الحموي، ج. 5، ص. 163. وابن حيان، ج. 5، ص. 214

(186) ابن عسكر، بعض فقهاء مالقة، وأدباؤهم، مخطوط الخزانة الملكية، رقم 11055، ص. 98.

(187) ابن الفرضي، ج. 1، ص. 304.

(188) ابن حزم، الجمهرة، ص. 498. وعياض، ج. 7، ص. 187.

(189) ابن الفرضي، ج. 1، ص. 339.

(190) ابن عبد الملك، ج.6، ص. 252-253.

(191) ابن بشكوال، ج. 1، ص. 448.

من استجة (ت 387هـ)[192]،وهشام بن محمد بن أبي رزين (ت 333 هـ) من شدونة [193]، وسكتان بن مروان بن حبيب المصمودي (ت 346هـ) من شذونة [194]، وسهل بن إبراهيم بن سهل من استجة (ت 387 هـ) [195]، وأبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري (بداية ق 3 هـ) [196].

ومن تاكرنا محمد بن سعيد من مديونة (على عهد الأمير محمد)[197] وعباس بن ناصح المصمودي من الجزيرة الخضراء[198]، وابنه وحفيده. ومن رية عمر بن حمدون الأموي المغيلي (على عهد عبد الرحمان الداخل)[199].

يلاحظ من خلال استعراضنا لمشاركة البربر في أحداث هذه الكور الجنوبية، ومن الإشارات الواردة في النصوص ومن أسماء الأماكن، ثم لائحة العلماء البربر الذين ينتمون إلى هذه المناطق، يلاحظ أنها تعرف استقرارا كثيفا للبربر خاصة تاكرنا وموروز، بينما لوحظ أن مايتعلق برية أقل اتساعا، ولاندري هل النصوص هي التي أغفلت ذكر أحداثها وأخبارها أم أن الاستيطان البربري كان أقل بها من جاريتها؟ وعلى كل فما تقدمه مصادرنا يجعلنا نعتبر الاستيطان البربري في رية دون مستوى مثيله في تاكرنا وموروز. وأهم المجموعات القبلية الوارد ذكرها في هذه المصادر: مديونة ـ مغيلة ـ هوارة ـ مصمودة ـ صنهاجة وإشارات عامة إلى البتر والبرانس أو فقط بربر.

إن وقوفنا عند الاستيطان البربري في مختلف جهات وكور الأندلس مكننا من دعم خريطة هذا الاستيطان وتعميقها وتدقيقها أكثر والخروج بملاحظات وحقائق مهمة حوله، وأهمها:

1 ـ إن البربر قد توزعوا عبر جهات الأندلس، ولا تخلو أية منطقة منها من ساكنة بربرية.

---

(192) ابن الفرضي، ج. 1، ص. 387-388.
(193) عياض، ج. 6، ص. 70-71.
(194) ابن الفرضي، ج. 2، ص. 195.
(195) نفسه، ص. 191-192.
(196) نفسه، ص. 257-258 وابن القوطية، ص. 54. والخشني، المرجع السابق، ص. 234.
(197) ابن سعيد، المغرب، ج. 1، ص. 330—331.
(198) عياض، ج. 4، ص. 268. وابن الفرضي، ج. 1، ص. 340.
(199) نفسه، ص. 320.

2 ـ إن توزيع البربر عبر جهات الأندلس يعرف عدم التكافؤ، بحيث إن مناطق الثغر الأعلى وكور تدمير وإلبيرة وجيان ورية تحتضن ساكنة بربرية ضعيفة ونادرة وتتركز عادة في بعض النقط دون غيرها. بينما نجد مناطق أخرى تستقطب ساكنة متوسطة كما هو الحال في شرق الأندلس. في حين تعرف مناطق أخرى كثافات كبيرة جدا وهي الثغر الأوسط حول طليلطة وغرب الأندلس، وخاصة الأجزاء الشمالية منه. ثم جنوب الأندلس خاصة كورتي مورور وتاكرنا.

3 ـ إن المناطق التي تعرف كثافات مهمة تعرف وجود سلاسل جبلية ولكنها أيضا تحتضن مناطق سهلية خصبة، هذا ما يثبت ما سبق أن وضحناه من أن البربر لم يقتصروا فقط على المناطق الجبلية، بل استقروا أيضا بمناطق سهلية.

4 ـ إن كلامنا عن مواطن البربر، لحد الوقت، ينصب على أقاليم وجهات دون الوقوف عند المراكز، وخاصة الحضرية منها. لذلك فسنخصص آخر كلامنا عن مواطن البربر لمعرفة مدى قيمة وأهمية الاستيطان البربري في الحواضر.

4- استقرار البربر في مدن الأندلس

إذا كانت معلوماتنا حول الاستيطان البربري للأندلس ضعيفة وقليلة ؛ فإنها بالنسبة للاستقرار في المدن اندر وأقل. وهذا ـ ما دفع الكثير من الباحثين إلى إصدار أحكام سلبية في حق الوجود البربري بالمدن الأندلسية. فزعيم دارسي تاريخ الأندلس ليڤي بروڤنسال يقول بأن قلة من البربر فقط هي التي اختارت الاستقرار بالمدن، ويضيف في مكان آخر أن هذه الجماعات تعيش في ظروف ضعيفة، وأن قرطبة تحظى بالمكانة الأولى من بين المدن الأندلسية(200). ونفس الرأي عبر عنه باحث آخر حينما أكد أن البادية استقطبت البربر أكثر مما اجتذبتهم المدن(201). وورد عند أحد مؤرخي العصر الوسيط نص أكثر اعتدالا والتزاما

(200) Lévi - Provençal (E), Op. cit, t. I, pp. 88 -89 & t 3, p. 171.
Lévi - Provençal (E), L’Espagne au 10 ème siècle, p. 23.

(201) Luis G. de Valdeavellano, op. cit, vol. 1, p. 390.

بمنطق الأشياء من الدارسين المعاصرين، جاء فيه: « أما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن، ومن كان من أهل البادية استقر بالبوادي ...»[202]، ورغم أن الأمور لن تسير وفقا لهذه القاعدة، ولكن النص يدل على أن البربر نزلوا المدن تماما كما نزلوا البوادي.

ودون أن نتبنى رأيا موافقا أو معارضا لهذه المذاهب، نحاول إبداء مجموعة من الملاحظات حول الاستقرار البربري في المدن، ثم نخصص الحديث لمدينة قرطبة لوفرة المادة التاريخية حولها.

منذ الفتح الاسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية سار طارق على خطة محكمة وواضحة، وترتكز على ترك حاميات عسكرية في المدن التي تفتتحها لحمايتها وإدارتها، وإذا كنا قد أثبتنا أعلاه أن جيشه كان بربريا في مجمله، فهذا يسمح لنا بأن نستنتج أن بعض العناصر البربرية قد استقرت بكل المدن التي فتحها طارق، وهي: الجزيرة الخضراء واستجة وقرطبة وغرناطة (إلبيرة) ومالقة وطليطلة. ولانعتقد أن الاستيطان البربري للمدن سيتوقف، بل سيتدعم طيلة الفترة التي تهمنا. وتشير المصادر التاريخية إلى بعض المدن كمواطن بربرية محضة، مثل شنتبرية بسهلة بني رزين وتروال ووادي الحجارة وماردة وترجيلة ومكناسة... وإذا كنا نعترف أن أغلب هذه المدن صغيرة أو مجرد حصون، فإن هذا لاينفي عنها صفة المدينة، خاصة وأن المدن الكبيرة في أندلس القرون الأولى للحكم الإسلامي تكاد تنعدم. ويمكن بناء على ماسبق أن نقول إن الاستيطان البربري للمدن كان غائبا فقط في المصادر، ويكرس هذا المذهب كون المدن لاتعتمد كثيرا على المعايير العرقية للإشارة إلى سكانها، وأن هذا الأمر يتقوى في مجتمعات البادية. ولعل وفرة الأخبار حول قرطبة وأهمية الاستيطان البربري بها تساعدنا على التمسك بهذا التصور.

لقد كانت قرطبة من بين المراكز الأولى التي استقر بها البربر منذ سنة 92 هـ / 711م، وقد وضحنا خلال الفصل السابق أن أغلب الهجرات التي عرفتها الدورتان الهجريتان الثانية والثالثة قد اتجهت نحو قرطبة، واستقر بها معظم المهاجرين باستثناء أولئك الذين غادروها في نهاية الدورتين. ونتوفر على بعض الأخبار حول ساكنة قرطبة البربرية على شكل نصوص أو تراجم العلماء.

---

(202) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 25.

فعند سيطرة عبد الرحمان الداخل على قرطبة «كان بها منهم بيوتات لها وفرة وثروة من البربر وغيرهم»[203]. وتخبرنا المصادر عن بعض الأجزاء التي كانت آهلة بالبربر مثل الرصافة الواقعة شمال قرطبة، وكان عبد الرحمان الداخل قد أنزل بها أحد مواليه البربر، هو آبان بن عبيد المعروف بالشرخ وتوارثها أبناؤه وأحفاده حتى القرن 5 هـ /11م [204].

ويورد ابن الخطيب نقلا عن ابن حزم أن الأرباض الغربية من المدينة كانت آهلة بالبربر[205]. وأكثر من ذلك فبعض الأرباض كانت بربرية تنسب إلى أحد البرابر مثل: ربض الزجالي [206] ومقبرة الزجاجلة بجانبه[207].

ونلتقي في قرطبة بأسر بربرية كبيرة هيمنت على قسط وافر من حياتها طيلة القرون الأولى للحكم الإسلامي، فهذا أبو عبد الملك محمد بن عبد الله بن أبي دليم الزناتي الأوداجي يؤسس بقرطبة بيتا علميا و«كان لبنيه بها ذكر وفي فقهاء قرطبة»[208]. لكن أشهر الأسر على الإطلاق هي أسرة آل أبي عيسى المصمودية التي أنشأها يحي بن يحي الليثي، فتعاقب أبناؤه وأحفاده على مناصب العلم والقضاء والسلطة واشتهروا برفعة البيت والثروة والجاه وسنتوقف عندها في فصول لاحقة.

وخلال القرن 4 هـ /10م، اشتهرت بيوتات أخرى مثل بيت آل منذر بن سعيد قاضي الجماعة من ولهاصة النفزية النازحين من فحص البلوط، وكان له عقب واسع وكثير من الإخوة والأبناء والأحفاد كلهم حمل العلم وشارك في مهام ترتبط بالقضاء، وأسرة بني ذكوان ورئيسها أبو العباس أحمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان قاضي قضاة الأندلس، وهم من كزنة من فحص البلوط. وكان أخوه أبو حاتم محمد بن عبد الله صاحب المظالم. ومن الأسر القديمة أيضا أسرة بني الزجالي الذين التحقوا بخدمة الأمويين منذ القرن 3 هـ /9م، وهم من

---

(203) أخبار مجموعة، ص. 44.

(204) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 112. وابن عذاري، ج. 3، ص. 51، والذخيرة، ج. 3، ص. 397.

(205) أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 106. والبيان المغرب، ج. 3 ص. 51.

(206) نفح الطيب، ج. 5، ص. 366.

(207) ابن الفرضي، ج. 1و ص. 279.

(208) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 210. وابن خلدون، العبر، ج. 6، ص. 191.

بني هذيل المديونيين بتاكرنا[209] أو من ورفجومة[210]. وهناك أسرة بني سفيان بن عبد ربه وزير الأمير عبد الرحمان II [112]، ويذكر ابن حزم أنهم انقرضوا في عهده واختفى ذكرهم في قرطبة [212].

إضافة إلى هذه الأسر، نجد مجموعة كبيرة من العلماء الأفراد. ومنهم محمد بن عبد الله المطماطي البزاز[213]، وأبو الربيع سليمان بن محمد بن أصبغ بن وانسوس المصمودي وزير الأمير عبد الله[214]، وعثمان بن نصر بن عبدالله المصحفي مربي الحكم II [215]، وابنه جعفر وزير الحكم II وحاجب هشام المؤيد، ثم عبد الله بن واقزن[216]، وحسن بن سعد بن إدريس بن رزين الكتامي[217]، وعبد الله بن محمد المغيلي[218]، وعبدالله بن مطاهر بن اصبغ بن هانئ[219] وأبو بكر يحي بن عبد الله المغيلي [220] ووليد بن عيسى بن حارث بن سالم[221]، وملحان بن عبدالله بن ملحان بن سالم[222]، ومحمد بن سليمان بن حارث المغيلي القسام[223]، وابراهيم بن حارث بن عبد الملك الأنطي[224]، وأبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأصيلي[225]، وسعيد بن

(209) ابن حزم، جمهرته، ص. 500.
(210) ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص. 151.
(211) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 500، وابن حيان، ج. 2و ص. 165—167.
(212) نفسه.
(213) ابن الفرضي، ج. 2، ص. 3.4. وابن الابار، التكملة، ج. 2، ص. 775.
(214) ابن الابار، الحلة السيراء، ج. 1، ص. 123—124. والمغرب في حلى المغرب، ج. 1 ص. 362.
(215) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج، 1، ص. 305.
(216) الخشني، المرجع السابق، ص. 225.
(217) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 110.
(218) نفسه، ص. 227.
(219) التكملة، ج. 2، ص. 775.
(220) ابن سعيد، المغرب، ج. 1، ص. 313. والجذوة، ص. 392.
(221) ابن الفرضي، ج. 2، ص. 162.
(222) ابن الابار، التكملة، ج. 2، ص. 773 والزبيدي، طبقات النحويين، دار المعارف، القاهرة، طبعة 1973، ص. 303.
(223) ابن الفرضي، ج. 25،ص . 87.
(224) نفسه، ج. 1، ص. 20.
(225) ياقوت الحموي، ج. 1،ص. 212—213.

عثمان بن أبي سعيد المعروف بابن القزاز[226]، وأحمد بن خلوف المسيلي[227]، وإبراهيم بن سهل بن نوح بن العطار[228]، وإسماعيل بن تاجيت[229]، وأحمد بن الليث الأنسري[230]، وأحمد بن عبد العزيز بن فرج المصمودي[231]، وعبد الله بن سلام الصنهاجي[232]، ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد[233] ورفاعة بن الفرج بن أحمد القرشي الصديني[234]، وأبو عمر أحمد بن محمد بن العاص بن دراج القسطلي الشهير، وعبد الله بن يوسف بن نامى الرهوني[235]، وسعيد بن عمر بن عبد النور النفزي[236] وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله [237].

لعل هذه الأدلة التي توقفنا عندها طويلا، ولحد أصبحت تثير الملل، تبين وتبرهن على أن مدينة قرطبة كانت تعرف استقرار ساكنة بربرية كبيرة ومهمة. وشغلت مناصب راقية (الوزارة ـ القضاء ـ الكتابة ـ التأديب ...) لكن من يشتغلون بوظائف صغيرة يظلون غائبين في المصادر. ونعترف أن أغلب العلماء الذين ذكرناهم هم من أهل القرن الرابع الهجري، لكن هذا لايعني أنهم فقط وجدوا في المدينة خلال هذا القرن، بل الأمر يرتبط أكثر بكون النبوغ البربري خاصة في ميدان العلوم لم يظهر إلا خلال هذا القرن، إضافة إلى كون معلوماتنا عن الأندلس بصفة عامة، لم تتوسع إلا خلال هذه الفترة. وإذا كانت قرطبة تقدم لنا نموذجا لمدينة آهلة بالساكنة البربرية، فإن هذا لايعطينا الحق في تعميم حكمنا والقول بأن البربر يشكلون ثقلا مهما في مدن الأندلس، وكل ما يمكن قوله هو أن البربر سكنوا فعلا مدن الأندلس، وأن

(226) ابن بشكوال، الصلة، ج. 1، ص. 206—207.

(227) ابن القرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 77.

(228) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 132.

(229) نفسه، ص. 178.

(230) نفسه، ص. 19.

(231) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 20، ومفاخر البربر، ص. 63.

(232) نفسه، ص. 247.

(233) ابن عبد الملك، ج. 6، ص. 252-253.

(234) ابن بشكوال، الصلة، ج. 1، ص. 186.

(235) نفسه، ص. 262.

(236) ابن عبد الملك، ج. 4، ص. 38.

(237) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 70.

مايغيبهم هي المصادر المنعدمة. وعند الوقوف عند أصول بربر قرطبة نجد أنهم ينتمون إلى كل المجموعات القبلية البربرية تقريبا كصنهاجة وزناتة ومغيلة وأوداجة وكتامة وهوارة ونفزة ومصمودة، بينما نجهل الانتماء القبلي لعناصر أخرى.

نتائج وخلاصات

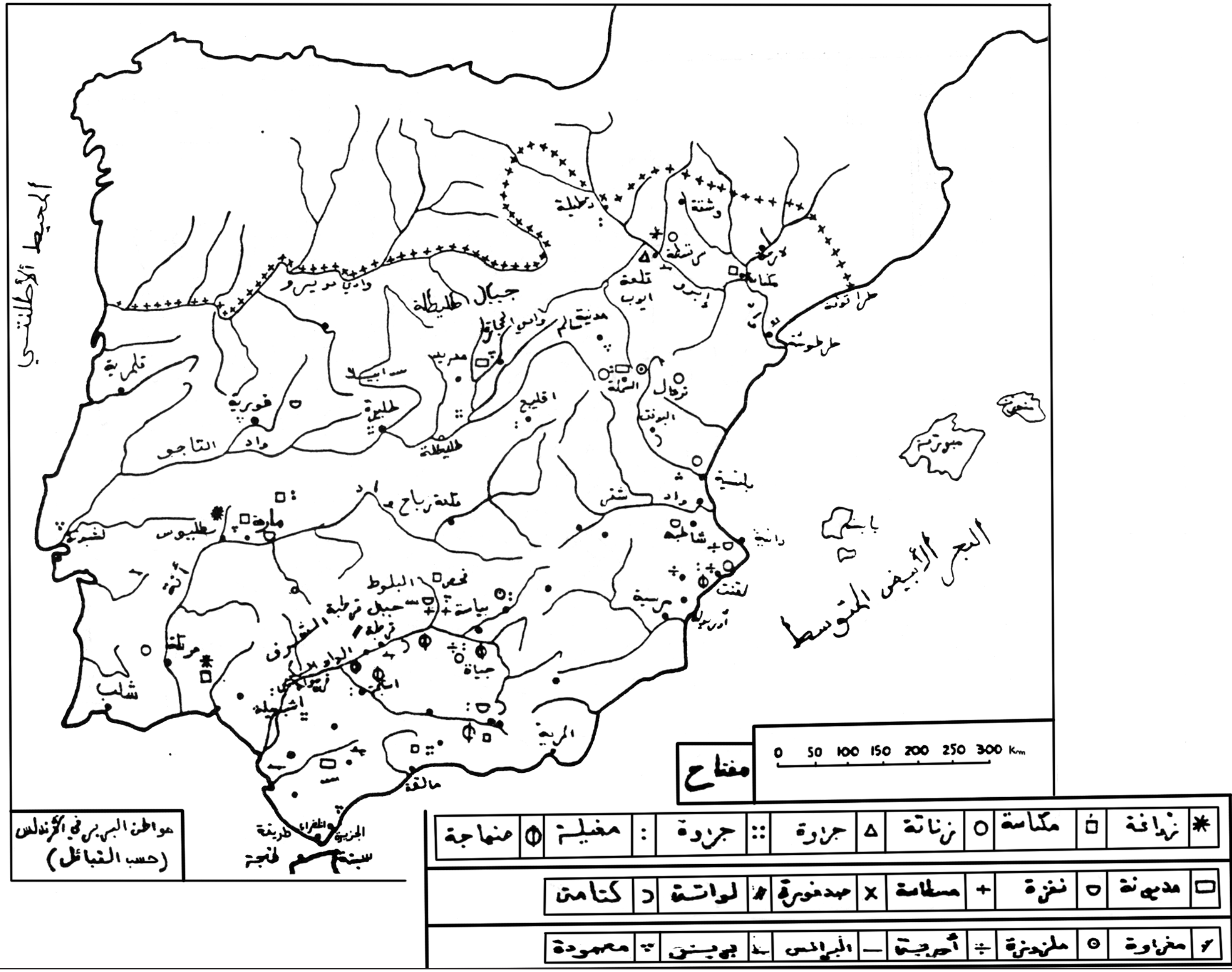
إن وقوفنا عند الاستيطان البربري في الأندلس قد مكننا من التعرف على بعض الحقائق التي تنفي أو، على الأقل، تخفف من حدة الأحكام المتداولة حول هذا الاستيطان، وأهمها:

1 ـ إن الحكم الذي يصدره كثير من الباحثين حول كون البربر اقتصروا في مواطنهم على الأراضي الجبلية أو الهضبية الجافة، حكم متطرف إلى حد ما. حقيقة أننا نجدهم في مناطق من هذا النوع، ولكنهم أيضا موجودون في مناطق سهلية وخصبة في سهول الجزيرة وكورة مورور وعلى ضفاف النهر الكبير وآنة وتاجو وبعض مناطق شرق الأندلس.

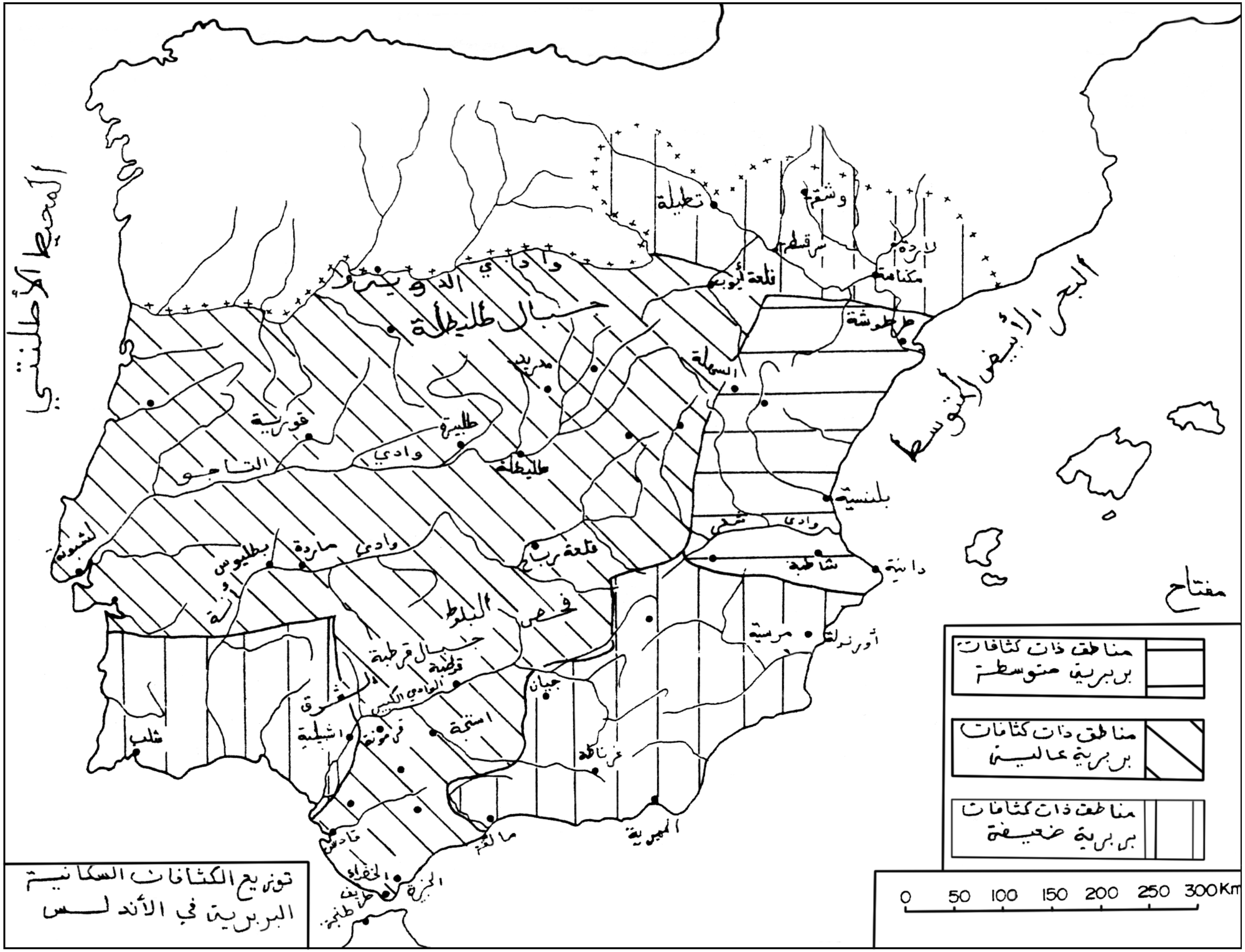
2 ـ إن الاستقرار في الجبال لم يكن مرتبطا بالاختيار لتلاؤم البربر مع هذه المناطق، بل جاء نتيجة لعوامل استراتيجية ترتبط برغبة الفاتحين في الحفاظ على مكاسب الفتح، فشكلوا من البربر درعا بشريا في الشمال، ونتيجة جهل البربر بقوانين التعامل مع الأراضي المفتوحة عنوة وانشغالهم بالفتح، ثم مشاركة البربر في أحداث الأندلس والعنف الذي عوملوا به، مما جعلهم يلتجئون إلى هذه المناطق للاحتماء بها.

3 ـ من خلال دراستنا للاستيطان البربري يمكن أن نضع خريطة تقريبية لكثافات الاستيطان البربري في الأندلس بالتمييز بين مناطق قليلة السكان البربر، ومناطق متوسطة الكثافات، ثم مناطق كثيفة الساكنة (انظر الخريطة أسفله **1**).

4 ـ من خلال توقفنا عند الاستيطان البربري بالمدن، اتضح أن المصادر هي التي أغفلت الاهتمام به، وأن هذا لا يعني أنهم يشكلون أغلبية، بل فقط إنهم موجودون بها. كما أن قرطبة مركز حضري يحتضن ساكنة بربرية كثيفة جدا.



مواطن البربر في الأندلس
(حسب القبائل)
المحيط الأطلنتي
البحر الأبيض المتوسط
جبال طليطلة
وادي دويرو
وادي التاجه
وادي الحجارة
مدينة سالم
قلعة أيوب
تطيلة
وشقة
لاردة
طراكونة
طرطوشة
كتامة
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
مرسية
أوريولة
المرية
مالقة
طليطلة
طلبيرة
قلعة رباح
فحص البلوط
جبل قرطبة
قرطبة
إشبيلية
جيان
بياسة
ماردة
بطليوس
أشبونة
قلمرية
شلب
شنتمرية
أنة
ميورقة
منورقة
يابسة
الجزيرة الخضراء
طريفة
سبتة
طنجة
مفتاح
0 50 100 150 200 250 300 Km
زواغة
مكناسة
زناتة
جراوة
جراوة
مغيلة
صنهاجة
مديونة
نفزة
مسطاسة
صدفورة
لواتة
كتامة
مغراوة
ملزوزة
أوربة
البرانس
بني برنس
مصمودة



المحيط الأطلنتي
البحر الأبيض المتوسط
جبال طليطلة
وادي الدويرة
وادي التاجو
وادي
فحص البلوط
جبال قرطبة
الوادي الكبير
تطيلة
وشقة
سرقسطة
قلعة أيوب
مكناسة
طرطوشة
السهلة
مدريد
طلبيرة
طليطلة
قورية
بلنسية
شاطبة
دانية
قلعة رباح
بطليوس
ماردة
مرسية
أوريولة
قرطبة
جيان
استجة
غرناطة
المرية
مالقة
اشبيلية
قرمونة
شلب
قادس
الجزيرة الخضراء
طريف
طنجة
مفتاح
مناطق ذات كثافات بربرية متوسطة
مناطق ذات كثافات بربرية عالية
مناطق ذات كثافات بربرية ضعيفة
0 50 100 150 200 250 300Km
توزيع الكثافات السكانية البربرية في الأندلس

الفصل الرابع

التنظيم الداخلي للبربر

يطرح التعرف على التنظيم الداخلي للبربر صعوبات ومشاكل لسبب بسيط وهو أن المصادر لم تهتم به، ولم تنقل لنا عنه إلا بعض الإشارات المتناثرة هنا وهناك. لكن، وبناء على تلك الإشارات وبعض الاجتهاد للم شتاتها وتكوين مجموعة متجانسة منها، ربما أمكن التعرف على الخطوط العريضة لهذه التنظيمات. وسنقسم هذا الموضوع إلى مجموعة من النقط الكبرى وهي: الطابع القبلي لهذا التنظيم وعلاقات الزواج داخل المجموعة البربرية، ثم طبيعة العلاقات بين المجموعات القبلية المختلفة.

1- التنظيم القبلي لبربر الأندلس

كثيرا ما نصادف في المصادر نعوتا في حق البربر مثل: البربر وقومه البربر وبنو فلان البرابرة أو آل فلان البربر وقبيل... ولعل كل هذه النعوت تشير إلى شيء واحد أو أشياء متقاربة قد تكون قبيلة أو عشيرة أو حتى أسرة كبيرة. وهذا يحيلنا على التفكير في كون النظام القبلي سيدا في هذا المجتمع. وفي نفس الوقت نجد نصوصا تستعمل لفظ قبيلة. فهذا ابن عذاري عند حديثه عن البربر يقول: «وصار بالأندلس منهم القبائل بأسرها» [1]. و«لما بايع البربر سليمان بن حكم (المستعين) حملوا له مالا من عند كل قبيل منهم» [2]. ويقول عنهم ابن الخطيب: «وامتازت بطون القبائل على أرحامها وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها» [3]. ونفس الشيء نجده عند ابن حزم الذي تتبع فروع القبائل البربرية عبر جهات الأندلس، وضمها إلى قبائلها الأصلية [4].

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 294.

(2) نفسه، ج. 3، ص. 84.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج. 1، ص. 515.

(4) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 497-502.

ونفس الاتجاه نجده عند الدارسين المحدثين الذين أثبتوا أن النظام السائد في أوساط البربر والعرب على حد سواء هو نظام قبلي، وحدته الرئيسية القبيلة أو العشيرة (5).

وطبيعي أن يسود نظام قبلي في الأندلس في هذا الظرف التاريخي الذي ينتشر فيه هذا النظام شرقاً وغربا عبر أنحاء العالم الإسلامي إن لم نقل العالم ككل مع بعض الاختلافات بين المناطق.

إلا أننا عندما نتتبع توزيع البربر في جهات الأندلس نجد عناصر من قبيلة واحدة تنتشر في مناطق متباعدة، ولانجد في مصادرنا أية إشارات إلى وجود علاقات بين هذه الأجزاء. مثلا : نجد عناصر هوارة في مورور وجيان وشرق الأندلس والثغر الأوسط والموسطة وغرب الأندلس. وهذا الأمر يدفعنا إلى التفكير في كون الوحدة التنظيمية للبربر هي دون مستوى القبيلة، ولذلك تفرض العشيرة أو الأسرة الكبيرة نفسها كوحدة مركزية لهذا التنظيم. وهذا الأمر ليس بدعة عند البربر مادام الانثروبولوجيون الذين درسوا البنيات القبلية في المغرب قد وضحوا أن العشائر أكثر وضوحا وبروزا من القبيلة كمفهوم غامض وواسع وصعب الإدراك. لذلك رأوا أن العشيرة هي أساس التنظيم وسماها مونطاني Canton (6) وجاك بيرك Ikhs J. Berque(7). ورأوا أن السبب في ذلك هو التقارب الدموي بين أفرادها وجوار المساكن، أكثر مما هو عليه الأمر بالنسبة للقبيلة أو الاتحادية. وقد سبق لبيير كَيشار أن أكد أن وحدة التنظيم لدى بربر الأندلس هي العشيرة (8).

وتقوم العلاقة بين أفراد العشيرة على أساس دموي. بحيث يعتقدون في انتمائهم إلى جد واحد حقيقة أو وهما. وينتج عن هذا الاعتقاد سلسلة من العلاقات، فكل فرد ينتظر

---

(5) Glick (T.F), Islamic and Christian Spain, Princeton, New Jersey, 1979, p. 137.

Isidio de las Cagigas, Minorias etnico- religiosas, Madrid, 1948, livre I, t. 1, p. 386.

Guichard (P), Structure sociales, éd. Mouton, Paris, 1977, p. 173.

(6) Montagne (R), Les berbères et le Makhzen, Ed. Afrique Orient, Casablanca, 1983, p. 169.

(7) Berque (J), Structures sociales du Haut Atlas, PUF, Paris, 1955, p.40

(8) Guichard, op. cit, p. 173.

من أبناء عشيرته أن يتضامنوا معه ويقفوا إلى جانبه في كل الحالات. وقد سجلت لنا المصادر الأندلسية عدة حالات من هذا النوع. فخلال غزوة إلى ناحية سرقسطة، وقع تفاخر بين حفص بن ميمون المصمودي وغالب بن تمام العربي، ففضل الأول مصمودة على العرب. فقام الثاني وقتله، فلم يستنكر الأمير الأموي ذلك. فقام أخوه وهب وأقسم إن لم ينتصر لهم الأمير أن تقوم سبعون ألف سيف بأخذ ثأره [9] وهو هنا يقصد، دون شك، أبناء عشيرته أو ربما البربر بصفة عامة. ورغم أن المصادر لم تقدم لنا أخبارا حول ما حدث غير قتل وهب وصلبه، فإن الأساسي هو أن الفكرة حاضرة في ذهن المصمودي ويؤمن بها بعمق. وخلال فتنة بداية القرن 5 هـ /11م، يورد ابن عذاري ما يلي : «برز إلى واضح مصالة بن حميد وولده ورجاله من بني عمه» [10]، قرب مدينة سالم سنة 399 هـ /1088م. ونجد عنده أيضا نصا آخر يسير في هذا الاتجاه جاء فيه: «لما بلغ خبره (مقتل خزرون بن محمد على يد أهل قرطبة) أخاه حبوس بن ماكسن وعمه زاوي بن زيري وأهل بيته جزعوا عليه جزعا شديدا، وباتوا مستعدين للقتال، فلما أصبح قاتلوا أهل قرطبة قتالا شديدا لم يسمع قط بمثله» [11]. ونفس التضامن نسجله بالنسبة لكل الأمراء البربر في مناطق حكمهم، فهم يحكمون بتقديم ودعم أبناء عشيرتهم ، وإذا أصابهم مكروه، فهو يلحق أسرتهم الكبيرة بدورها. فمثلا، «لحق مسعود بن تاجيت بقرطبة في بني عمه وأهله»، بعد استنزاله من ماردة سنة 316 هـ /926م [12].

وقد كان لهذا الالتحام الدموي أثر كبير على قوة وتماسك هذا التنظيم القبلي واستمراريته حتى القرن 10م/4 هـ على الأقل [13]. وكان أفراد القبائل يظلون في ارتباط بقبائلهم حتى بعد مغادرتها والعيش بعيدا عنها. فمثلا في نهاية القرن 3 هـ / 9م، استدعى بربر حصن أم جعفر فرانك بن لب بن خالد النفزاوي بقرطبة ليرأسهم، بعدما اندلعت الفتنة، فاستجاب، وأورث الإمارة لأبنائه [14]. ونفس الشعور والإحساس نجده عند الوزير سليمان بن وانسوس

(9) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 103.

(10) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 84.

(11) نفسه، ج. 3، ص. 112.

(12) ابن حيان، المقتبس في أخبار الأندلس، المعهد الاسباني العربي، مدريد، 1979، ج. 5، ص. 241.

(13) Guichard, op.cit, p. 273

(14) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 23.

المصمودي، فمرة أهانه الأمير عبد الله في مجلسه وسخر من لحيته، فرد عليه بقوله :« أيها الأمير إنما كان الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم، وأما إذا صارت جالبة للذل فلنا دور تسعنا وتغنينا» (15). فأهم شيء في هذا النص هو تعريض ابن وانسوس بالعودة إلى قبيلته التي تقطن ماردة والاعتزاز بها والاحتماء بجوارها، وهو مايؤكد التماسك الذي ظل يطبع علاقات أبناء العشائر البربرية حتى بعد فراقهم.

إن قوة العلاقات الدموية وتماسك العشيرة سينتج عنه سلوك خاص في تسيير شؤونها. ويقدم لنا صاحب «التبيان» صورة عن ذلك : «كان حبوس ـ رحمه الله ـ لاينفرد برأي دونهم، ولايقطع مقطعا إلا بمشورتهم، حتى إنهم ليجتمعون معه للحكم في موضع خارج قصره دون السير إليه» (16). ويضيف «فلما طاعت لهم البلاد اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها، وكانت عادة في البربر، لكي لا يأنف أحدهم مما يصير إلى أخيه. فرجعت البيرة في قرعة زاوي وحصن آشر مع جيان في قرعة حبوس بن أخيه جدنا ـ رحمة الله عليهم ـ وتعاقد جميعهم على أنه إن طرق العدو جهة صاحبه، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله » (17) . فالنصان يوضحان أن شؤون القبائل البربرية (صنهاجة) كانت تخضع للتشاور بين أعيان القبائل كما يخضع كل تقسيم للقرعة، وهذه طريقة ديمقراطية بدائية، بحيث تتخذ فيها القرارات وفقا لمبدإ التوافق الجماعي. وكذلك نجد في مصادرنا حالة مشابهة، فعند اندلاع الفتنة خلال القرن 3 هـ / 9م، احتاجت نفزة المستقرة بحصن أم جعفر غرب الأندلس إلى زعيم يحميها من اعتداءات الجيران، فتشاوروا في أمرهم، فاتفق رأيهم على استدعاء أحد شيوخهم من قرطبة، وهو فرانك بن لب بن خالد النفزاوي من قرطبة فسلموه الرئاسة فأورثها لبنيه (18). ونفس الإجراء يلجأ إليه بربر فحص البلوط لما حل بهم أبو علي السراج داعية ابن القط المرواني، بحيث اجتمع الشيوخ، وتباحثوا في الأمر قبل أن يقرروا دعمه (19).

---

(15) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ص. 226–227

(16) عبدالله بن بلقين الزيري، التبيان، دار المعارف، القاهرة، ص. 26.

(17) نفسه، ص. 133–134–135

(18) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 23.

(19) نفسه، ص. 133–134–135 .

إن هذه الأمثلة والنصوص توضح لنا أن النظام العشائري البربري يقوم على أساس جماعة من الأعيان تتولى شؤون المجموعة، وتتخذ قراراتها بعد التشاور والتوافق الجماعي، بل قد يلتجئون إلى القرعة للفصل في بعض القضايا الشائكة وذلك درءا للخلاف والصراع. وهذه التقاليد مما حمله البربر معهم من المغرب، بحيث إن الدراسات الأنثروبولوجية سجلت أنظمة مشابهة في أوساط القبائل البربرية في المغرب [20].

إن هذا التسيير القائم على المشاورة والقرار الجماعي سيتعرض لبعض التغيرات انطلاقا من القرن 3هـ / 9م، فعند العودة إلى جمهرة ابن حزم نلتقي بمجموعة من الأسر التي استطاعت أن تنفرد بالسلطة وتتوارثها في عدة مناطق. ومنها بنو زروال المغيليون بالمنتانية، وبنو عزون أمراء شنت برية، وبنو غزوان بتروال وبنو عميرة بشاطبة وبنو رزين بالسهلة وبنو ذي النون بوبذة وأقليش[21]... فهذه لائحة بأسر بربرية ومن مناطق مختلفة استطاعت أن تتصدر الزعامة، وتحتكر قيادة قبائلها. ولايجب أن نعتقد أن هذه الأسر تتواجد لوحدها في هذه المناطق، بل إن زعامتها تقتضي وجود قاعدة من أبناء عشائرها تساندها وتدعمها. وهذا ما يبرر لنا أنها قد اغتصبت السلطة واحتكرتها. وقد يفسر هذا الأمر بمسألة تراتبية العصبيات داخل القبلية، والتي يوضحها هذا النص لابن خلدون: «اعلم أن كل حي أوبطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففيهم أيضا عصبيات أخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام» [22]. كان ممكنا أن نطمئن إلى هذا التفسير لولا أن أغلب هذه الأسر قد شكلها أفراد وفي ظروف خاصة. وللأسف فلا نملك معلومات كافية عن أغلبهم، إلا أننا ولحسن الحظ نملك مايوضح لنا هذه المسألة من خلال تطور أسرة آل ذي النون الهوارية بأقليش.

يقول ابن حيان عن بداية بني ذي النون: «كانت نباهة بني ذي النون من جدهم ذي النون في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمان، فقد خلف عنده خصيا بحصن أقليش،

(20) Montagne, op.cit, pp. 173 et 180 - Berque, op. cit, 414

(21) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 499.

(22) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، 1981، ص. 131.

فعالجه حتى برئ» [23] ثم حمله إلى قرطبة، فعينه الأمير على زعامة قومه ردا لجميله، واعترافا له بصنيعه، فالواضح من خلال هذا النص أن الأمير قد تدخل لإحداث الخلل على بنيات القبيلة بتقديم الدعم لذي النون للسيطرة على السلطة فيها. لكن ألا يجب أن نتوقف عند ظروف هذا الحدث لفهم الأمور أكثر، وبدقة أفضل؟ فالأمير محمد لما حل بأقليش، لم يكن لينزل أو يترك خادمه لأي واحد من سكانه، بل كان منطقيا أن يتركه عند أحد وجهائه وكبرائه، إن لم يكن زعيمه ويبدو أن من يحمل هذه الخصال هو ذو النون. وهذا يجعلنا نفكر بأنه استطاع أن يدعم سلطته، ويحقق التفوق داخل عشيرته حتى قبل مجيء هذه الفرصة التي ربطته بالسلطان. ويبدو أنه قد احتكر أراضي زراعية مهمة، وكون ثروة كبيرة التي ستحقق له الزعامة. وذلك أن وجوده في الثغر الأوسط، وهو مكان للجهاد والحرب الدائمة ضد الممالك المسيحية، وهو أيضا مكان اكتساب الثروات بسرعة خاصة إذا توفرت خصال الفروسية والإقدام لديه. فيفترض أن ذي النون كان زعيما وفارسا مشهورا اكتسب شهرة وسمعة في الميدان العسكري، وهو الميدان الذي يملك ثقلا كبيرا على نفوس الأندلسيين، وفي نفس الوقت جمع ثروات ضخمة. فأصبح الآن يملك قاعدة معنوية (فارس شجاع) وقاعدة مادية (ثرواث)، فانتظر مجيء الأمير محمد ليكرس تفوقه، ويحصل على الغلاف الشرعي الذي ينقصه لفرض سيطرته على هذا الثغر أو على الجزء الأكبر منه. وحتى لو لم يعينه الأمير في هذا المنصب، فالمؤكد هو أنه سيصل إليه خاصة في هذا الوقت الذي تعيش فيه الأندلس بداية اضطرابات نهاية القرن 3 هـ / 9م وما يدعم هذا التصور الأخير هو أن ذي النون ووارثه سينسلخ بعد سنوات من التبعية للسلطة في قرطبة، ويتصرف وفق مصالحه الخاصة، وربما أنهم كانوا أول من أعلن الانفصال عن حكام قرطبة [24].

إن النموذج الذي قدمه بنو ذي النون، هو صورة لتطور أغلب الأسر الأميرية في مختلف جهات الأندلس، وخاصة في الثغور، فاجتماع الثروة لديهم، وتحقيقهم للزعامة العسكرية والمعنوية على الصعيد المحلي، ثم تدخل السلطان لتكريس واقع حاضر وفارض لنفسه مكنهم

(23) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج. 7، ص. 142–143. وابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج. 2. ص. 11.

(24) كانت ثورتهم سنة 260 هـ / 874م، بقيادة الفتح بن موسى بن ذي النون، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص. 66.

من الانفراد بالزعامة. وهذه تماما هي الشروط التي توصل إليها مونطاني عند بحثه عن أسباب تحول الأنماط القبلية في المغرب إلى أنماط شبه إقطاعية [25].

هكذا، إذن نتوصل إلى نتيجة مهمة، وهي أن النظام القبلي البربري في الأندلس قد فقد بعض عناصره انطلاقا من القرن 3 هـ / 9م، بحيث تحولت السلطات إلى أسر صارت تتوارثها واقتصر جو التشاور والمداولة حول أمور الجماعة على أبنائها حفاظا منهم على مصلحتهم الخاصة في المرتبة الأولى، ومصلحة العشيرة في مرتبة ثانية وثانوية. لكن هذا لايعني اختفاء النظام القبلي الذي ظل يحتفظ بوجوده، لكنه فقد بعضا من عناصره الأولى وعلى رأسها المساواة واتخاذ القرار الجماعي بناء على التوافق الجماعي.

وقبل أن ننتهي من هذا النظام القبلي نشير إلى أن النظام العسكري السائد في الأندلس والقائم على أساس قبلي [26]، قد قدم دعما كبيرا وساعد على استمرارية هذا النظام. ورغم أن البربر في أغلبهم لاينتمون إلى الكور المجندة، فإنهم كانوا يشاركون في الحملات ضمن الكور غير المجندة التي تضم العرب والبربر [27] لقد عرفت الجماعات البربرية نظاما قبليا انقساميا تتحكم فيه العلاقات الدموية والعصبية، واعتمد في تسييره على مجالس أعيان القبيلة الذين يتخذون قرارات جماعية وبتوافق تام، لكن القرن 3 هـ / 9م، سيشهد تحولا في هذا النظام، وذلك لصالح النظام شبه الإقطاعي لحدوث خلل في موازين الثروة وتدخل السلطة الأموية لدعم بعض الزعماء والقادة العسكريين من أجل الهيمنة على عشائرهم. لكن هذا التغيير، لم يقض على النظام الذي ظل سائدا حتى بداية القرن 5 هـ /11م.

2- نظام الزواج عند بربر الأندلس

لاتهتم المصادر بهذا الموضوع إلا نادرا، بحيث لايرد إلا عندما يتعلق بزواج لأحد الأمراء والوزراء وربما أحد الوجهاء. فحتى كتب التراجم وكتب النوازل لاتعيره إلا اهتماما مماثلا.

(25) Montagne, op.cit, p. 295

(26) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1965، ص. 41.

(27) Guichard, op.cit, pp. 221-222.

ومع كل ما قلناه، فقد تمكنا من جمع بعض الإشارات المتناثرة هنا وهناك بين صفحات المصادر، وربما ساعدتنا على فهم بعض جوانب هذا الموضوع واتجاهه العام مادمنا قد يئسنا من التعرف عليه بشكل مفصل.

يذهب كثير من الباحثين إلى أن البربر لما حلوا بالأندلس تزوجوا بنساء إسبانيات أو أنهم تزوجوا بهن بعد مجاعات جفاف 133 هـ / 751 م ـ 136 هـ / 754 م [28]، وقد سبق أن أظهرنا مدى مجانبة هذا الرأي للصواب [29]، وبينا أن البربر إما دخلوا الأندلس بأسرهم حسب تقاليد العصر أو أنهم استدعوها بعد استقرارهم بالبلاد.

وتزودنا المصادر ببعض الحالات التي تزوج فيها بربر بعربيات وإسبانيات أو العكس. ففي عهد الأمير محمد زوج موسى بن موسى بن قسي السرقسطي بنته لارزاق بن منت المصمودي الحجازي [30]، وكان يرغب من وراء ذلك في ضمه إلى جانبه ودخوله في حلفه ضد الأمير الأموي. وكان منذر بن يحي التجيبي صاحب سرقسطة ابن أخت اسماعيل بن ذي النون [31]. وتصاهر يحي بن ذي النون مع عبد الله بن عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية في بداية عهد ملوك الطوائف بتزويجه أخته التي خلفه عليها أخوه عبد الملك [32]. وكانت ليحي بن يحي الليثي زوجة من المياسير تنتمي، دون شك، إلى إحدى الأسر الكبرى من الموالي أو العرب القرطبيين [33] . فهذه النماذج من الزواج تدفعنا إلى التفكير بأن مسألة الزواج كانت مفتوحة بحيث يتم الاقتران بين مختلف العناصر دون حواجز، وخاصة بين البربر وغيرهم، لكن الوقوف عند المعنيين في هذه الحالات، يبين ضرورة الحذر في اتخاذ موقف أو إصدار حكم.

---

(28) Lévi Provençal. op.cit, t.1, p. 85 & Arié (R), Espana muslmana, labor, Barcelona, 1983, t. 3, p. 18.

(29) انظر الفصل الثاني من هذا القسم.

(30) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 117. والعذري، ص. 30.

(31) ابن عذاري، ج. 3، ص. 178–179.

(32) نفسه، ص. 174 و 266.

(33) عياض، ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج. 4، ص. 112.

فالأسر البربرية المعنية هي أسر من الأمراء أو كبار العلماء في الأندلس ومصاهرتهم كانت من أسر من نوعهم، فلذلك فربما كانت المصلحة المتبادلة حاضرة في هذه المصاهرة. ولاتبخل علينا المصادر ببعض التوضيحات، فموسى بن موسى إنما زوج ابنته من إرزاق لكسبه إلى جانبه ضد الإمارة في قرطبة، ونفس الشيء نسجله بالنسبة لبني ذي النون، فالهدف كان بالأساس كسب حلفاء للوقوف في وجه الأعداء، خاصة في بداية القرن 5 هـ / 11م، حيث الأندلس تشتغل فتنة وحروبا. أما يحي بن يحي فإن مكانته في قرطبة تجعل كل الناس يتمنون التقرب منه بأغلى ماعندهم. ولهذا فيمكن أن نستنتج أن هذا الزواج بين البربر وغيرهم إنما هو زواج مصلحة وحسابات سياسية بالأساس، وليس تقليدا أو عادة اجتماعية عامة.

ونجد أيضا جماعة ممن ينتسبون إلى بربريات مثل زكريا بن يحي بن شموس المعروف بابن الطنجية [ت 300 هـ] [34] . كما أن عددا من الأمراء الأمويين مثل عبد الرحمان الثاني والمنذر كانوا أبناء مولدات بربريات [35]. ونسبة رجل إلى الطنجية، ربما، يدل على أن الزواج من البربريات حالة نادرة، ولربما أن زكريا هذا ينعت بها احتقارا له. أما المولدات، فهذا يرتبط بوجود إماء بربريات في ملك الأمراء، فولدن أمراء. ويبدو أن هذه الظاهرة واسعة في الأندلس، وذلك للسمعة الكبيرة التي كانت للمولدة البربرية. ويوضح لنا السقطي ذلك في نص في غاية الأهمية : «فالبربريات أطبع الخلق على الطاعة وأنشطهم للعمل وأصلحهم للتوليد واللذة، وأحسنهم للولد، وبعدهن اليمنيات ويشبههن العرب» [36]. وما يذكره السقطي إنما هو صدى لما هو منتشر في المجتمع، لذلك فقد يكون الزواج من البربريات واسعا في الأندلس، لكن المصادر تسكت عنه.

لحد الآن لم نستطع أن نبين طبيعة الزواج بين البربر وغيرهم وخاصة العرب وكل ما هناك هو زواج مصلحة أو زواج من بربريات لخصالهن الحميدة والمستحسنة لدى الأندلسيين.

---

(34) ابن الأبار، التكملة، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، 1956، ج. 1، ص. 327 وعياض، ج.5، ص. 233.
(35) مجهول ذكر بلاد الأندلس، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558، ص. 159.
(36) السقطي، آداب الحسبة، المطبعة الدولية، باريس، 1931، ص. 50.

لفهم الظاهرة أكثر ننطلق من هذا النص الوارد عند صاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها» عند حديثه عن أتل أم المنذر، ويقول فيه : « وألقي في روعها أنها أم خليفة، فكانت تتكبر على قومها بذلك وتستحقرهم، فأخذها خال كان لها، فسار بها إلى قرطبة فباعها فاشترتها سكر أم هاشم بن عبد العزيز الوزير». فأهدتها إلى ابنها، فرفضته، وفرت إلى ابن السليم، وعرفته أنها حرة، فقدمها للأمير محمد [37]. ويحتوي هذا النص على فائدتين مهمتين: أولهما: عيش الفتاة بجانب خالها، وفي نفس المكان، وهذا دليل على أن زواج أمها قد تم داخل عشيرتها، وثانيتهما : أن شعور البنت بكونها أما لخليفة دفعها إلى احتقار أبناء قومها، يعني رفض الزواج منهم، وهو مايعني خروجها عن تقاليدهم وتمردا عليهم وهذا بالنسبة للعشيرة عار وفضيحة، ولذلك فعليها أن تتلخص منها، وتدفن هذا العار، بطمس انتساب البنت إليهم، فكان الحل هو بيعها كأمة حتى يختفي ذكرها وعارها إلى الأبد. وعلى مايظهر، فهذا النص يبين لنا أن الزواج لدى البربر زواج داخلي لحمي يتم بين أبناء العشيرة. ويدعم هذا المذهب، ما نجده في كلام منذر بن سعيد عند حديثه عن ثورة ابن القط الأموي، بحيث أن خاله شهد الغزاة بين قومه وأخبره عنه [38] ، ألا يعني هذا أن خاله كان من نفس العشيرة، وأن الزواج ثم بين أبنائها !

وينقل لنا ابن حزم خبرا عن زواج بين عشيرتين بربريتين في الثغر الأوسط وشرق الأندلس وهما بنو ذي النون من هوارة وثابت بن عامر المديوني الذي كان خالا لابن ذي النون [39].

لقد أظهرت لنا النصوص السابقة أن الزواج المفضل عند البربر هو الزواج الداخلي اللحمي إما داخل العشيرة الواحدة، أو حتى بين عشيرتين ومن قبيلتين مختلفتين. لكننا نجهل ما إذا كان الزواج داخل العشيرة يقوم على الزواج بابنة العم الشقيقة أو فقط بإحدى بنات العشيرة. والحقيقة أننا لانملك معلومات كافية للتدليل على هذا الجانب. ونتوفر فقط، على

(37) ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص. 159.

(38) ابن حيان، المرجع السابق، ج 3، ص. 138–139.

(39) ابن حزم، المرجع السابق، ص. 500 .

حالة واحدة تتعلق بتزويج منذر بن سعيد القاضي المشهور ابنته لابن عمها فضل الله [40]. إضافة إلى نص تاريخي يشير إلى ذلك تصريحا، لكنه نص متأخر نسبيا عن فترة الدراسة، وفيه يقول عبد الله بن بلقين الزيري: « وأنا في تلك الفترة [مابين 479 هـ و 483 هـ] رأينا من الصلاح النظر لمن معنا من البنات وتزويجهن قبل أن يفجأ أمر، فيكن على غير عصمة ولاكفيل، فتخيرنا لهما من بني عمهما شاكلة منهم معد بن يعلى ؛ ويضيف، فقد كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك» [41]. ويبدو أن حالة منذر بن سعيد وتصرف عبد الله الزيري تبين أن هناك حرصاً على تزويج بنات البربر من أبناء أعمامهن، دون أن ندري هل هم أبناء العم الأشقاء، فلا يمكن أن نعمم مسألة كون البربر يميلون إلى الزواج بابنة العم الشقيقة، بل فقط بابنة العشيرة أو ربما بابنة الجنس (البربر)، وهم هنا يخالفون عادة العرب التي تحرص على الزواج بابنة العم الشقيقة [42]. لكن لماذا هذا الزواج الداخلي؟

قد يكون الأمر متعلقا بانغلاق الجماعات، وضعف العلاقات فيما بينها. لكن هذا التفسير بسيط وقريب المنال، لذلك نرى ضرورة البحث عن تفسير أكثر صلابة وتماسكا. عند العودة إلى نتائج الأبحاث الأنثربولوجية، نجد أن المسألة تتعلق بالأساس بصيانة شرف الجماعة وحمايته، لأن خروج المرأة من جماعتها يعرض الجماعة للإهانة [43]. وهذا مانجده في النص الذي أورده ابن القوطية عند حديثه عن زواج إرزاق بن منت بابنة موسى بن موسى القسوي، وقد جاء فيه :« فلما تشفى من زوجته، خرج في نفر يسير من اتباعه (...) حتى وقف على باب الجنان» من قصر قرطبة [44] وذلك ليشرح للأمير موقفه وتصرفه، وجاء في كلامه مع الأمير: « ما يضرك أن يكون وليك يطأ ابنة عدوك» [45]. وأسلوب الشماتة والتشفي واضح في النص، ونظرا لشدة وطأة العار الذي يلحق بالمرأة، عمل البربر والعرب على حد سواء على

(40) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج، 2، ص. 456.

(41) التبيان، ص. 139 و 143.

(42) Guichard, op.cit, p: 61 & 63.

(43) Ibid, p. 174

(44) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 117–118.

(45) نفسه، ص. 118.

تجنب كل مايمكن أن يسببه، وبكل الوسائل. فقد سبق في النص المتعلق بأم الأمير المنذر أن رأينا كيف أن خالها باعها لتجنب عار خروجها على تقاليد عشيرتها [46].

وخلال القرن 5 هـ / 11م، ولما سلم بنويرنيان حصن أركش لباديس بـن حبوس سنة 450 هـ / 1058م وحملوا أثقالهم وعيالهم إلى غرناطة، فاجأهم في الطريق ابن عباد وحاصرهم، فأمر زعيمهم محمد بن خزر بقتل زوجته «لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه». وأن يفعل ذلك بأخته [47]، وهذه الحالات دليل على الحرص الشديد على الشرف، وخاصة شرف المرأة.

ونجد عند ابن بسام أن أبا مروان عبد الملك بن رزين صاحب السهلة قتل أمه لتهمة لحقت بها عنده [48]، وفي نفس الاتجاه يسير تزويج الأمير عبد الله لأخواته قبل سقوط إمارته في يد المرابطين.

ويترتب على الحرص على شرف المرأة عزلها عن الرجل، وإذا كنا لانملك معلومات حول هذا الموضوع، فإن قراءتنا للنصوص تبين لنا غيابا شبه تام للمرأة، بل أكثر من ذلك نجد نصا عند ابن الآبار يعيب على إدريس بن يحي بن علي بن حمود بأنه لايحجب حرمه عن أصحابه [49]. وورد ضمن كلام القاضي عياض عن يحي بن يحي الليثي :«دخل سعيد بن حسان على يحي بن يحي، فتعجل له الإذن وكانت زوجة يحي حاضرة، فدخلت جنة البيت، وتركت نعلها في البيت» [50]. وهرولة زوج يحي واستعجالها بالاحتجاب من رجل يعد صديقا حميما لزوجها، يدل دلالة قاطعة على ميل النساء إلى الاحتجاب والبقاء بعيدا عن الرجل، وسبق لكَيشار أن توصل إلى نتيجة مماثلة بالنسبة للعرب والبربر على حد سواء، وأظهر أن تحرر المرأة وسفورها يقتصر على الجواري والخادمات، أما سيدات البيوت الحرات

(46) ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص. 177.

(47) ابن عذاري، ج. 3، ص. 272–273.

(48) ابن بسام، الذخيرة، ج. 5، ص. 11 .

(49) ابن الآبار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 2، ص. 29 .

(50) عياض، المرجع السابق، ج. 4، ص. 112 .

فلا يظهرن أبدا (51). لكن احتجاب النساء الحرات لم يمنع بعضهن من المشاركة في الحياة العامة وخاصة المجال السياسي، فهذه جميلة أخت محمود بن عبد الجبار تقف في وجه أخيها الثائر، والتزمت بطاعة الأمير (52) وربما كانت هذه الحالة واحدة، فقط من عدة حالات.

نستخلص مما سبق، أن الزواج في وسط البربر كان زواجا داخليا يقتصر على العشيرة، دون أن نتمكن من إثبات وجود الزواج بابنة العم الشقيقة. كما وجدنا زواجا بين البربر وغيرهم من أهل الأندلس، وخاصة المولدين والعرب، ولكننا أثبتنا أنه زواج غير طبيعي لكونه جاء لخدمة مصالح سياسية أو اقتصادية، أو أنه كان فقط زواجا بإماء بربريات. وتأكد لنا أن الحرص على الزواج الداخلي يرتبط بالشرف والحرص على صيانة عرض المرأة بكل الوسائل. ورافق هذا ميل النساء إلى الاحتجاب عن الرجال.

3- علاقات بربر الأندلس الداخلية

إلى هذا الحد، كنا نتحدث عن البربر كمجموعة متجانسة لانميز بينهم على أساس عشائري أو قبلي، والحق أن محتويات المصادر لاتسعفنا في التعرف على بعض ملامح هذه العلاقة الداخلية، ولذلك وجب التزام الحذر والحيطة في مناقشة هذه النقطة. ويبدو من خلال الإشارات القليلة التي نتوفر عليها أن العلاقة تراوحت بين التوافق والصراع أو بالأحرى التنافس.

فمنذ السنوات الأولى للفتح، وبالضبط خلال ثورة 123 هـ / 740–741 م، نجد بربر الأندلس يتحدون ويشكلون كتلة واحدة وأعلنوا الثورة على العرب، وقد شملت الثورة كل بربر الأندلس وجهاتها باستثناء مناطق محدودة كالثغر الأعلى ورغم أن الزعامات كانت زناتية، فإن البرانس شاركوا وقاتلوا بقتالها (53) . ونفس الوحدة نسجلها، عندما قام شقيا بن

(51) Guichard, op.cit, p:174.

(52) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 89. والنويري، المغرب الإسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص. 96.

(53) أخبار مجموعة، ص. 43 .

لقيا المكناسي من شرق الأندلس، فانضم إليه البربر من شرق الأندلس حتى المحيط الأطلنتي مرورا بالثغر الأوسط ووصولا إلى الثغر الأدنى واستطاع شقيا بفضل وحدة البربر أن يصمد لمدة عشر سنوات، قبل أن يغدر به أولا بربر مديونة بانضمامهم إلى الأمير، وثانيا أحد أتباعه باغتياله.

وفي نهاية القرن 3 هـ / 9م، قام المرواني ابن القط يدعو إلى الجهاد في أوساط البربر من فحص البلوط والثغر الأوسط والأدنى، فانضووا تحت إمرته وساندوه قبل أن ينهزموا أمام القوات المسيحية [54].

وأخيرا خلال فتنة بداية القرن 5هـ / 11م، شكل البربر كيانا واحدا، وقاتلوا قتال الحياة أو الموت على مدى أربع سنوات، قبل تحقيق الانتصار وإعلان المستعين خليفة سنة 403 هـ / 1012م، وداخل هذا الجيش وجدنا كل عشائر وقبائل البربر.

يلاحظ من خلال مشاركة البربر في هذه الأحداث الكبرى، أنهم كانوا كتلة موحدة، يعمها الوئام والتوافق، لكنها ليست الصورة الوحيدة، بل هناك وجه آخر لهذه العملة. إنه التنافس والصراع.

فعند قيام شقيا المكناسي في مناطق الثغر ما بين 150 هـ /768م و 160 هـ /779م، عمل عبد الرحمان على إضعافه بشق صفوف البربر، فعين منافسا له، وهو هلال بن عامر المديوني «فكان في ذلك الراحة منه وتفرقت كلمة البربر، وانحلت عقدة الفاطمي، وانصرف من شنت برية إلى الجوف» [55]. كان ذلك سنة 155 هـ /773م، وينقل لنا ابن الأثير خبر صراع حدث بين بربر بلنسية وبربر شنت برية وذلك سنة 164 هـ / 782م، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة، قتل فيها عدد منهم[56]. ولاندري هل كان هذا الصراع ذيلا من ذيول الصراع

(55) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 54–55.

(56) أخبار مجموعة، ص. 43 .

الذي أثاره عبد الرحمن الداخل عند إرادة هزم شقيا، أو أن الأمر يتعلق بحدث جديد وصراع من نوع آخر، أو أن الأمر اختلط على ابن الأثير مادام ينفرد بنقل هذا الخبر لوحده. ويقول عنه : «كانت وقائعهم مشهورة» [57]. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يعقل أن لا ينقله غيره. ويورد ابن حيان صراعات أخرى بين البربر خلال القرن 3 هـ /9م، بحيث انضم البربر بقيادة جنيد بن وهب القرموني إلى اليمنيين أصحاب كريب ابن خلدون، بينما حالف البتر المولدين والمضريين وذلك في عام 276 هـ / 889م [58]، فدخل الطرفان في صراع حاد حول الكورة الاشبيلية. وهذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها المصادر قيام صراع بين البرانس والبتر في الأندلس، وربما أن السبب لايتعلق بصراع بين البربر، وهو ما توضحه الأحداث، بل فقط إن علاقات الحلف في الأندلس هي التي اقتضت هذه المواجهة، لذلك فلايمكن اعتباره صراعا بربريا.

وخلال بداية القرن 5 هـ / 11م، تطورت الأحداث في اتجاه انقسام البربر، فابن الخطيب يذكر أن ابن عبد الجبار أساء إلى صنهاجة أكثر من زناتة [59]. فأشاع بينهما الحقد. لكن تطورات الأحداث فيما بعد ستظهر أنهما قاتلتا مجتمعتين من أجل الاحتماء من الإبادة الأندلسية. ولن يظهر هذا الصراع إلا بعد الانتصار النهائي وتعيين المستعين خليفة. فقد قام الخليفة الجديد بتقريب زناتة، فنفر من صنهاجة، لذلك بايعوا علي بن حمود، وساعدوه على تسلم السلطة [60]. وربما كانت هذه الصورة من رسم المؤرخين وخيالهم الفياض خاصة وأن الولاء القديم لصنهاجة كان للهاشميين، بينما الولاء الزناتي كان للأمويين.

كما سبق وأن أكدنا ذلك في بداية كلامنا، فهذه الإشارات لاتكفي لرسم صورة واضحة عن علاقات البربر فيما بينهم، وإن شئنا فهي تعطينا صورة لعلاقات عادية لاتخرج عن إطار الصراع والوفاق.

---

(57) نفسه.

(58) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 68 .

(59) ابن الخطيب، الإحاطة، ج. 1، ص. 513—514.

(60) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 121.

خلاصات

إن وقوفنا عند تنظيم البربر الداخلي قد وضح مجموعة من الجوانب والنقط نجملها فيما يلي:

1 ـ لقد احتفظ البربر بتقاليدهم المغربية، بحيث ظل النمط القبلي الانقسامي الإطار التنظيمي الأساسي. وكانت العشيرة هي وحدة التنظيم الأساسية تماما كما هو الشأن في المغرب.

2 ـ كان تسيير القبيلة يعتمد على مجلس القبيلة المكون من أعيانها، وكانت القرارات تتخذ بشكل جماعي، لكن القرن 3هـ / 9م، سيشهد تحولا عميقا، بحيث سيظهر نمط شبه إقطاعي بسيطرة مجموعة من الأفراد على السلطة بتحقيقهم للتفوق الاقتصادي والعسكري وحصولهم على دعم السلطة الشرعية بقرطبة، لكن هذا لم يمنع من استمرار النظام القبلي حتى نهاية فترة دراستنا.

3 ـ تبين أن الزواج في الوسط البربري الأندلسي كان داخليا بين أبناء العشيرة، ودون أن يكون مقتصرا على ابنة العم الشقيقة. كما أن الزواج ببعض العرب والمولدين كان فقط مصلحيا وسياسيا.

4 ـ كان التمسك بالزواج الداخلي مرتبطا بقيمة الشرف في الوسط البربري الأندلسي، بحيث تمثل المرأة قمته، لذلك فخروجها من العشيرة إهانة وهتك له، وساعد الحرص على الشرف على احتجاب المرأة في البيوت وانعزالها عن الرجل.

5 ـ حاولنا أن نتعرف على طبيعة العلاقة بين البربر في الأندلس، فلم تسعفنا المصادر كثيرا، ولكن ما قدمته لنا يبين أنها علاقة عادية تتراوح بين الصراع والوفاق، مع غلبة الوفاق في أغلب الأحيان، ما لم يتدخل الأجانب لتعكير الأجواء.

الفصل الخامس

العلاقات الاجتماعية بين البربر والعرب: مسألة الولاء

يرتبط اهتمامنا بمسألة الولاء بالدور الكبير الذي لعبه الموالي في تاريخ الأندلس وخاصة منهم البربر، وقد انتشر في العالم الإسلامي نتيجة سبق العرب إلى الإسلام وانتساب صاحب الرسالة إليهم، فتطلعت مختلف الأجناس غير العربية إلى التقرب منهم خاصة بواسطة ولاء الحلف، ويترتب عن الولاء تحول المولى إلى تابع لمولاه ينتسب بنسبه، ويتصرف وفق مصالحه. ومن المؤكد أن البربر الموالي قد شاركوا بحصة كبيرة في تاريخ الأندلس، إلا أن مصادرنا لاتقدم لنا إلا حالات محدودة من الموالي البربر. وهذا الأمر يجعل من الصعب الوقوف عند هذه المسألة بشكل دقيق ومفصل.

لحل مشكل نقص المعلومات اعتمدنا على عينة محدودة تتكون من 34 حالة [1]، وهو كل ماقدمته لنا المصادر بعد تتبعها الدقيق. مع أننا نقتصر بالنسبة للأسر التي توارثت الولاء على اعتبارها حالة واحدة. وانطلاقا من العينة أنجزنا مجموعة من الجداول التي تبين لنا توزيع الموالي حسب نوعية الولاء، والقبائل الموالية من البربر، والموالي من العرب، وهذا مكننا من الخروج ببعض الملاحظات المهمة في الموضوع.

رغم أن تواريخ ولاء المذكورين في العينة غير دقيقة، لكنها بالنسبة للعدد الأكبر تواريخ تقريبية تركز إما على فترة حكم أو حياة المولى العربي، ولايخرج عن هذه القاعدة إلا ثماني حالات. وأغلب حالات الولاء البربرية حدثت ما قبل القرن 4 هـ / 10م ، ولم تحصل إلا حالة واحدة خلال هذا القرن. وأكثر من هذا فالقرنان 1 هـ / 7م (10 حالات) و 2 هـ /8م (11 حالة) يهيمنان على العدد الكبير من هذه العينة، ويمكن تفسير ذلك. أولا بكون القرن

(1) انظر ملحق خاص بالعينة في نهاية الفصل.

الأول هو تاريخ فتح المغرب. وخلال أحداثه الطويلة دخل عدد من البربر في ولاء العرب بإسلامهم على أيديهم أو بوقوعهم في الأسر، وبعد ذلك اجتازوا إلى الأندلس، ثانيا، لأن النظام القبلي ظل حتى نهاية القرن 3 هـ / 9م يلعب دورا كبيرا جدا في تطور الحياة الأندلسية، وكان المحدد لكل العلاقات، لهذا كثرت علاقات الولاء والحلف بين العرب وغيرهم لأنهم يعتبرون القوة الأولى في البلاد. ثالثا، لأن البربر كانوا يحسون بالنقص والدونية، فبحثوا من خلال موالاتهم للعرب على كسب «الشرعية» والمكانة اللازمة في المجتمع، وعندما ضعف هذا الشعور، بدأ الولاء يخف بل كاد يختفي، ورابعا، لأن الدولة الأموية كانت لاتزال فتية وتواجه مشاكل كثيرة وخاصة الثورات المتكررة، فجندت طاقاتها لجمع الموالي والزيادة في اتساع قاعدتها البشرية في البلاد وكان البربر العنصر الأكثر استهدافا.

قسمنا هذا الفصل إلى ثلاثة نقط رئيسية، نعرف في الأولى بالولاء، ثم نتوقف عند موالاة البربر للعرب، وأخيرا ندرس موالاة بعض العناصر غير العربية لعناصر بربرية.

1- تعريف الولاء

في المنجد نجد :

الولاء من فعل والى يوالي ولاء وموالاة

نقول والى الرجل أي صادقه وناصره.

وتولى الأمر بمعنى تقلده وقام به.

تولى فلانا : اتخذه وليا.

وفي ترتيب القاموس المحيط:

ولي وليا بمعنى القرب والدنو.

وفي المعجم العربي الأساسي:

والى الشيء، بمعنى تابعه.

والى الشخص : ناصره وأحبه.

وفي لسان العرب:

المولى : هو الولي والحليف والمعتق وابن العم والناصر والذي يسلم على يديك.

وفي القاموس المحيط:

المولى : القريب والجار والرب والصهر والتابع.

فكل هذه التعاريف تؤكد أولا، على أن أصل كلمة ولاء من فعل والى. وثانيا، أن كلمة المولى تحمل معنى الرب والتابع في نفس الوقت ويهمنا نحن في هذا المقام المعنى الثاني. وثالثا، أن الولاء يعني المصادقة والمناصرة والقرب والحب والتبعية. ورابعا أن الولاء ينتج عن الحلف والعتق والإسلام على يدي شخص ما ثم القرابة الدموية.

وإذا كنا في هذا الموضوع نهتم بالولاء بمعنى التبعية، وأيضا نهتم بهذه المسألة بين مجموعتين إثنيتين مختلفتين هما: البربر والعرب، فأسباب الولاء ستكون إما الحلف والجوار أو العتق أو الإسلام على يدي عربي، بينما يغيب ولاء الدم والقرابة.

ويترتب عن الولاء أن يصبح المولى واحدا من جماعة مولاه يحمل اسمهم وينتسب بنسبهم، ويحالف حلفاءهم ويعادي أعداءهم ويصاهرهم وهو مما يتوارث بين أبناء وأحفاد المولى وتتضمن صفحات المصادر أحاديث نبوية تحرم التخلي عن الولاء أو بيعه.

ومنها : «ملعون من ادعى إلى غير نسبه، ملعون من أنكر نعمة المنعم عليه». [2] ويحرص الموالي على استمرار ولائهم، بل إن البعض يضطر بعد انقراض مواليه إلى البحث عن موالي جدد كما فعل آل ذكوان، بحيث انتقلوا إلى ولاء سليم بعد انقراض دولة مواليهم الأمويين [3].

---

(2) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 33. معجم لسان العرب، ةج. 15، ص. 410.

(3) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج. 1، ص. 210–211.

2- ولاء البربر للعرب

كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه، فمعلوماتنا عن هذا الموضوع قليلة، والمصادر شحيحة. لكننا اكتفينا بالعينة المتوفرة، وفرغناها في عدة جداول حتى يسهل استغلالها.

نوع الولاء / القبائل	ولاء حلف وجوار		ولاء إسلام		ولاء نعمة وعتق		مجموع	
	عدد	نسبة%	عدد	نسبة%	عدد	نسبة%	عدد	نسبة%
زناتة	9	25,71	2	5,71	1	2,85	12	34,27
صنهاجة	4	11,42	0	0	0	0	4	11,42
مصمودة	2	5,71	1	2,85	1	2,85	4	11,41
بربر دون نسبة	11	31,42	0	0	4	11,42	15	42,85
المجموع	26	74,16	3	8,56	6	17,12	35	100

توزيع الموالي البربر حسب نوعية الولاء والانتماء القبلي

يلاحظ من خلال الجدول، أن ولاء البربر للعرب يسيطر عليه ولاء الحلف والجوار الذي يمثل حوالي ثلاثة أرباع الحالات (74.16)، بينما لا يمثل ولاء الإسلام إلا 8,65 أقل من العشر، أما ولاء العتق فيمثل حوالي السدس (17,12)، ويمكن من خلال هذا التوزيع للولاء أن نكتشف نوعية العلاقة التي جمعت بين البربر والعرب. فرغم إحساس الأواخر بالتفوق ورغبة البربر في الالتحاق بهم وتقليدهم، فإن ذلك لم يؤد إلى استعبادهم وتخليهم عن كبريائهم وأنفتهم. ويتضح أن الولاء قد جاء نتيجة لمصالح استراتيجية وحسابات عربية وبربرية على حد سواء. فمن ناحية العرب كان من مصلحتهم، خاصة منهم الحكام الأمويون الاستكثار من الأتباع والأنصار لضمان استمرارية دولتهم والتغلب على منافسيهم من العرب، وتؤيد هذا المذهب مجموعة من الإشارات والشواهد، فعبد الرحمن الداخل لما فقد ثقته في العرب مال إلى اتخاذ الموالي خاصة من البربر، كون منهم جيشا من حوالي 40 ألف رجل [4]. ويورد صاحب

(4) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 4، ص. 36.

«أخبار مجموعة» نصا يتحدث فيه عن موقف لهشام الأول، جاء فيه: « ذكر عنه أن الهواري دخل عليه، فقال: مات فلان عن ضيعة تعود بكذا، وضخم أمرها وعليه دين تباع، وحضه على شرائها، فقال: أنا أريد أمرا إن بلغته استغنيت عنها، وإن لم أبلغها فما أقلها، واصطناع رجل واحد أحب إلي من ضيعة، قال : فاصطنعني بها. فأمر له بثمنها» [5].

فالنص يظهر مدى تهافت ورغبة الأمويين في اكتساب الصنائع والموالي. أما من ناحية البربر، فهم يريدون بهذا الولاء إخفاء أنسابهم البربرية التي تسبب لهم الحرج، واكتساب أنساب عربية مشرفة، إضافة إلى الاعتزاز والجاه، وهذا مايظهر لنا في تصرف الهواري السابق الذي استغل الفرصة للحصول على ضيعة مصدر المال. وكذلك في قول الوزير أبي الربيع سليمان بن وانسوس (ت 292هـ) للأمير عبد الله : «أيها الأمير إنما كان الناس يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم، وأما إذا صارت جالبة للذل، فلنا دور تسعنا وتغنينا عنكم»[6]. وأسرة آل وانسوس هذه من أكبر الأسر البربرية المكناسية في ماردة، واستقطبها الأمويون بعد إخماد ثورة جده أصبغ بن وانسوس على عهد الحكم الأول[7]. ويضاف إلى هذا العامل طبيعة مجتمع الأندلس القبلية التي كانت وراء دفع الكثير من الناس خاصة الأفراد إلى البحث عن موالي للاعتزاز بهم والاحتماء بجوارهم كما حدث ليحي بن كثير والد يحي بن يحي الليثي الذي انتمى في ليث لأنه نزل بمنزلهم [8].

و لم يقتصر بحث حكام الأندلس على موالي بربر على الأمويين فقط، بل إن ولاة الأندلس قبلهم اتخذوا نفس النهج والسياسة. فقد كان لعبد الملك بن قطن والي الأندلس (121 هـ /738 م ـ 123 هـ / 740 ـ 741م) موالي بربر، وهم الذين قاموا بإنزاله من خشبة صلبه التي نصبها له بلج بن بشر في قرطبة، وسرقوا جثته ليلا ودفنوه[9]. وكان أيضا ليوسف

---

(5) أخبار مجموعة، ص. 109–110.
(6) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، القاهرة، 1966، ص. 226–227.
(7) ابن الأبار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 1، ص. 160.
(8) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج. 4، ص.373.
(9) أخبار مجموعة، ص. 45.

بن عبد الرحمان الفهري موالي بربر في الثغرين الأوسط والأدنى التجأ إليهم بعد فراره من قرطبة، ودعموه لاستعادة حكمه[10].

إن إقبال الطرفين على الولاء، قد جعل ولاء الحلف والمناصرة يكثر في الأندلس، وقد استفاد منه العرب أكثر لأنه زاد من أعدادهم بالبلاد بعدما كانوا أقلية [11].

ويرتبط ضعف ولاء الإسلام والنعمة بكون البربر الذين هاجروا إلى الأندلس كلهم مسلمين، وساروا إلى شبه الجزيرة للجهاد ونشر الإسلام. وأغلب الحالات التي نجدها ضمن هذه المجموعة هم من الذين حملوا معهم هذا الولاء من المغرب إذ أسلموا على يد عرب، فانتموا إليهم، ولما هاجروا إلى الأندلس حافظوا على ولائهم مثل : كثير الليثي المصمودي [12]، وزناتة وصنهاجة موالي الأمويين والشيعة قبل دخول الأندلس[13].

أما ولاء النعمة والعتق فيرتبط بكون أصحابه من سبي البربر خلال فتح شمال افريقيا، نقلوا إلى الشام ثم دخلوا الأندلس فيما بعد، وهم ملحان بن عبد الله بن سالم مولى مسلمة بن عبد الرحمن بن معاوية [14]، وميمون بن سعد البربري مولى الوليد بن عبد الملك [15] وابان بن عبيد جد بني مسلمة مولى معاوية بن أبي سفيان من سبي البربر[16]، وناصح والد العباس مولى مزاحمة بنت مزاحم الثقفي[17]، وحجاج المغيلي مولى يزيد بن طلحة العبسي [18] ولعل هذا هو السبب في قلة حالات ولاء النعمة، ولايجب أن ننسى أن أبغض الولاء عند أصحابه هو ولاء العتق، لذلك كانوا يخفونه بعدم ذكر مصدر ولائهم، أو، ربما حتى طمس الولاء ككل. نستخلص مما سبق، أن ولاء الحلف يغلب على بربر الأندلس للعرب، لأن الولاء

(10) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 49.

(11) Lévi-Provençal (E), Al-Andalus, Ency-de l'Islam, t, 1, p. 505.

(12) ابن الخطيب المرجع السابق، ج. 4، ص. 373.

(13) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 202.

(14) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، مطبعة السعادة، مصر، 1955، ج.2، ص. 733.

(15) نفسه، ج. 1، ص. 315.

(16) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 97.

(17) نفسه، ج. 1، ص. 324.

(18) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 212.

نتج في أصله عن حاجة مشتركة بين الطرفين إلى الاعتزاز والاحتماء وإسكات الأعداء، أو لإخفاء نسب طالما أرق مضجع الكثيرين من البربر.

ويتوزع الموالي البربر بشكل غير متكافئ بين المجموعات القبلية البربرية الكبرى: زناتة وصنهاجة ومصمودة، ونجد أن الموالي الذين لاتذكر المصادر قبائلهم يشكلون أكبر نسبة بحوالي خمسي الموالي (42,85 %) وبعدهم الموالي الزناتيون بحوالي الثلث (34,27 %) في حين لايمثل الصنهاجيون والمصموديون، إلا العشر تقريبا (11,42 %و11,41 %).

ويمكن تفسير هيمنة الصنف الأول بكون حالاته عادة ماتقتصر على أفراد يجدون أنفسهم في حاجة إلى جماعة تحتضنهم وتحميهم خاصة، وأن المجتمع يغلب عليه الطابع القبلي، فيضطرون إلى الدخول في ولاء بعض القبائل ويضاف إلى هذا أن عددا مهما منهم هم من موالي العتق والنعمة (4 من 15).

ويرتبط ارتفاع نسبة الزناتيين بمجموعة من العوامل، أولها كونهم يشكلون أغلبية البربر الذين هاجروا إلى الأندلس، وثانيهما، أن اعتقادهم بولائهم التاريخي للأمويين [19] جعل الكثيرين منهم يتهافتون على الولاء. وثالثها أن كون أغلب زناتة من الرحل يجعل مرتكزاتهم الحضارية هشة وضعيفة، وهو مايضعف تمسكهم بخصائصهم وماضيهم، ويسهل عملية اندماجهم في حضارة أخرى ويفسر إقبالهم الكبير على الولاء.

أما صنهاجة ومصمودة، فإن نسبتها ضعيفة، ويعود ذلك أولا إلى ضعف أعدادهم. وثانيا، اعتقاد صنهاجة في الولاء التاريخي لبني هاشم[20]، جعلهم يمتنعون عن قبول ولاء الأمويين. وثالثا وهو الأهم، أن كون صنهاجة ومصمودة مجموعتان يغلب عليهما الاستقرار، ولهما ماضي حضاري عريق، وتقاليد حضارية عريقة ومستقرة، يجعلهما أكثر

(19) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6، ص. 202.

(20) نفسه.

استقلالية، وغيرة على خصوصيتهما [21]، ورفضا للتبعية للآخرين ويمكن أن ندعم هذا الرأي بتتبع توزيع مواطنهم التي تنتشر بالأساس في المناطق الغربية والجنوبية، وهي مناطق لاتخضع لتبعية قوية لسلطات قرطبة المركزية.

خلاصة القول، إن توزيع الموالي البربر حسب المجموعات القبلية غير متكافئ، بحيث نجد أن البربر الذين لاتذكر المصادر قبائلهم يحتلون المرتبة الأولى، وأن زناتة تأتي في مرتبة ثانية، بينما تقل مساهمة صنهاجة ومصمودة. وسنتوقف في الجدول الموالي عند توزيع الموالي حسب مناطق الأندلس.

نوع الولاء / الجهات	ولاء حلف وجوار	ولاء إسلام	ولاء نعمة وعتق	مجموع	
				عدد	%
الثغر الأعلى	3	0	0	3	9,67
الثغر الأوسط	2	0	1	3	9,67
موسطة الأندلس (قرطبة وماحولها)	8	1	2	11	35,48
غرب الأندلس	1	0	1	2	6,45
شرق الأندلس	1	0	0	1	3,22
جنوب شرق الأندلس (جيان ـ تدمير ـ البيرة)	4	0	0	4	12,90
جنوب الأندلس (رية ـ مورور ـ تاكرنا)	6	0	1	7	22,58

توزيع الموالي البربر حسب جهات الأندلس

يوضح الجدول أعلاه، أن موسطة الأندلس وجنوبها تسيطر على نسبة كبيرة تتجاوز النصف (58,06 %) ولعل هذه النسبة ترتبط بالأساس بكون هاتين المنطقتين تعرفان كثافات سكانية بربرية عالية، لكن هذا العامل لايكفي لتبرير هذا الأمر، لأن ارتفاع أعداد البربر يعني

(21) دفع عن هذا الرأي الأستاذ محمد زنيبر في محاضرة له لطلبة شهادة استكمال الدروس في موسم 92–92 ونفس الرأي ورد عند مونطاني لكنه فسر الاستقلالية بالحذر والانغلاق، و لم يصل إلى مستوى ربطه باعتزازهم بماضيهم وحضارتهم العريقة : انظر :

Montagne (R) , La vie sociale et politique des berbères sur le Maroc, CHEAM, Paris, 1986, pp. 32-33.

عدم حاجتهم إلى البحث عن الولاء، لذلك وجب أن نتعرف على مدى أهمية الاستقرار العربي بهذه المناطق، فكل الأبحاث تتفق على أن المناطق الوسطى والجنوبية والجنوبية الشرقية، تعرف استقرارا مكثفا للعرب وهو ما يفرض اختلاطا ولقاء بالبربر بهذه المناطق، ومعه ستزداد العلاقات بين الطرفين. فجوار المواطن، والحاجة إلى الدعم في الأزمات السياسية في المنطقة، وما أكثرها ! ورغبة البربر في نيل شرف الالتحاق بالعرب والنسب العربي، كل هذه العوامل تدفع الطرفين إلى البحث عن ربط علاقات ولاء، ولاننسى أن نذكر أن هذه المناطق كانت أكثر تبعية وخضوعا للسلطة الأموية في قرطبة، وهو ما قوى العلاقات بين البربر والأمويين. وسيظهر ذلك عندما نناقش مسألة الولاء حسب قبائل الولاء. وفي هذه المناطق أيضا نجد أغلب حالات ولاء العتق. فثلاثة منها بقرطبة وواحدة بالجزيرة الخضراء، وهذا دليل على أن العرب كانوا أغلبية تسيطر على أوضاع المنطقة فاضطر السكان الآخرون بمن فيهم البربر إلى البحث عن التقرب إليهم وموالاتهم.

أما في المناطق الأخرى، فنسبة الموالي ضعيفة، ففي الثغر الأعلى لاتتجاوز 9,67 % (3 حالات)، ويرتبط هذا الضعف، بغياب البربر عن هذه المناطق، وكذلك العرب، ويؤكد العذري ذلك في هذا النص :«فليس اليوم بوشقة عربي صحيح ينتمي من العرب إلى أصل صحيح غير من اعتزى إلى نسب من أسلم على يديه من العرب» [22] والأمر يتعمم على الثغر ككل، أما في الثغر الأوسط فرغم ضعف النسبة، فإن سببها يختلف. فالبربر يشكلون نسبا مهمة من سكانه، ويتواجد العرب أيضا. فلماذا ضعف الولاء؟ لعل كثرة البربر قد جعلتهم يحسون بقوتهم، وعدم حاجتهم إلى موالي يحمونهم ويساعدونهم، خاصة وأن نظامهم القبلي المتماسك قد وفر لهم الحماية الكافية، وربما أنهم تحالفوا فيما بينهم وشكلوا كتلا ضخمة. ويضاف إلى هذا العامل، كون هذه المناطق قد ظلت ضعيفة الولاء للأمويين ، وربما أيضا أن كون بربرها من بربر الفتح قد أعطاهم شرف السبق والاعتزاز، فأنفوا من موالاة العرب، وتبرر الحالات التي سجلناها شيئا من ذلك. فانتساب آل ذي النون إلى حمير لايرتبط بالأساس بالولاء، بل بأحد أقوال النسابة التي تنسب هوارة إلى عرب اليمن، وهم حمير وأما ميمون بن سعد، فهو مولى عتق عينه عبد الرحمن الداخل على ولاية طليلطة. فتناسل بها عقبة [23]، فهو بذلك ليس من بربر الثغر الأوائل.

---

(22) العذري، المرجع السابق، ص. 57.

(23) التكملة، ج.1، ص. 315.

وفي شرق الأندلس نجد نسبة ضعيفة (3,22 %)، ويرتبط ضعفها إما بكون البربر يشكلون أغلبية سكان المنطقة والعرب قلة أو منعدمون كما يذهب إلى ذلك بيير كَيشار، وقد سبق أن شككنا في صحة هذا الرأي، وحتى لو سلمنا بصحته، فكثرة البربر ينتج عنها ضعف حالات الولاء، أو أن البربر قلة تتركز في مناطق محدودة ومنعزلة و لم يفتحوا علاقات مهمة مع العرب، أو أن المصادر هي التي لم تزودنا بمعلومات حول الموضوع.

ويرتبط ضعف الولاء بغرب الأندلس بكثرة البربر وتماسك البنيات القبلية، وضعف العلاقات مع قرطبة ثم قلة العرب بالثغر.

وأخيرا ففي جنوب شرق الأندلس نجد نسبة 12,90 %، وهي تتوافق مع طبيعة الاستيطان في المنطقة، كثرة عربية وقلة بربرية، فنتج عن ذلك حاجة البربر إلى الحماية وتطلعهم إلى النسب العربي فتهافتوا على الولاء.

خلاصة الكلام إن توزيع الولاء حسب جهات الأندلس مرهون بنسبة الاستيطان العربي والبربري، وطبيعة العلاقات ما بين المناطق والسلطة المركزية، ثم التنظيمات الاجتماعية للبربر في كل منطقة. فنتج عن هذه العوامل أن وسط وجنوب الأندلس كانت كثيرة الموالي البربر، بينما كانت في مناطق أخرى قليلة أو متوسطة، وبقي علينا أن نتعرف على كيفية توزيع الموالي البربر حسب قبائل الولاء العربية.

توزيع الموالي البربر حسب قبيلة الولاء العربية

القبائل العربية / القبائل البربرية	القبائل المضرية			القبائل اليمنية		
	عدد الحالات	عدد القبائل	%	عدد الحالات	عدد القبائل	%
زناتة	10	3	37,03	2	2	28,57
صنهاجة	2	2	7,40	2	2	28,57
مصمودة	3	3	11,11	0	0	0
بربر دون نسبة	12	4	44,44	3	3	42,25
المجموع	27	12	100	7	7	100

يبين الجدول أن البربر يميلون أكثر إلى موالاة عرب الشمال (مضر) فأربعة أخماس الموالي البربر موالون لقبائل مضرية (79,4 %)، بينـما يمثل موالي عـرب الجنـوب الخمس

فقط (20,59 %) فكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالولاء وسيلة للاعتزاز والحماية والحصول على الشرف، ولأن الولاء الغالب على البربر هو ولاء الحلف والجوار، فهذا يقتضي التحالف مع الأقوى ونعرف أن عرب اليمن كانوا في الأندلس في موقع أضعف من عرب الشمال وشكلوا طيلة القرنين 2و3 الهجريين المعارضة الرئيسية في البلاد، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق الطموحات التي طالما كافحوا من أجلها [24]. وما يبين هذا التصور هو سيطرة بني أمية على أغلب الحالات التي نتوفر عليها، فمن أصل 34 حالة، كان للأمويين 16 حالة (47,05 %). ولايفسر هذا التقدم إلا بموقعهم كحكام للبلاد، إذ كانوا يعملون على اجتذاب أكبر عدد من الصنائع والموالي لإعطاء قاعدة صلبة لنظام حكمهم، وحمايته من المعارضين خاصة العرب، وكذلك عمل البربر على التقرب منهم قصد الاستفادة من سلطتهم وتحقيق بعض الحاجيات التي يتطلعون إليها. وقد سبق أن أوردنا قولا للوزير سليمان بن وانسوس للأمير عبد الله يوضح ذلك [25]. كما أتيحت لهم الفرصة للتوفر على عدد كبير من السبي البربر أثناء فتح المغرب، فنقلوا ولاءهم معهم إلى الأندلس إما من الشام أو المغرب، أو حتى بعد فتح الأندلس. وقد سجلنا أن عدد حالات ولاء النعمة الأموية تبلغ 4 حالات من أصل ست حالات. وكل هذه العوامل تبرر لنا كثرة عدد الموالي الأمويين والمضريين بصفة عامة.

أما موالي اليمن فهم قلة، ونجد حالتين في الثغر الأعلى من موالي الصدف والأنصار [26]، وواحدة لقضاعة في جيان [27] وأخرى لتجيب في فحص البلوط [28] و أخرى في أقليش لحمير [29]، ومولى عبسي في قرطبة [30]، ومولى أودي في تاكرنا [31]. وأغلب هذه الحالات

---

(24) لايجب الخلط بين السلطة والمساهمة الحضارية، لأن اليمنيين حققوا نتائج كبيرة وفي غاية الأهمية في ميدان العلوم، وميدان الفلاحة والصناعة، وأغنوا الحضارة الأندلسية بإسهامات كبيرة جدا .

(25) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج. 1، ص. 160.

(26) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 181، التكملة، ج. 2، ص، 729.

(27) نفسه، ج. 1، ص. 178.

(28) ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ج. 2، ص. 182.

(29) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 18.

(30) نفسه، ص. 212.

(31) أخبار مجموعة، ص. 18.

توجد في مناطق هامشية وأقل نشاطا من الناحية السياسية، وهو ما يعني ضعف منافسة عرب الشمال.

ونلاحظ أيضا، أن عدد القبائل التي يتوزع عليها الموالي البربر يختلف، فبالنسبة للمضريين 9 قبائل تتوزع 27 حالة بمعدل ثلاث حالات لكل قبيلة، ولكن الأمويين يسيطرون على أغلب الحالات (16 حالة). أما بالنسبة لعرب الجنوب فهناك سبع حالات وسبع قبائل، مما يظهر تشتتا واضحا، ومعه انعدام قبيلة جاذبة من بينها، وهو عكس الشمالية التي يمثل الأمويون قوتها الجاذبة.

خلاصة الكلام، إن وضعية قبائل الشمال المتميزة، قد ساعدتهم على استقطاب أعداد مهمة من الموالي البربر، واستفادوا من خدماتهم في أكثر من مناسبة، وسيتضح ذلك خاصة عند وقوفنا عند بعض الأحداث المهمة في القسم الموالي.

إن ولاء البربر للعرب، قد أظهر اختلافات وتناقضات كبيرة بين القبائل وأنواع الولاء، والمناطق، وقبائل الولاء، وتمكنا من خلال الجداول التي وضعناها من التوصل إلى نقط مهمة هي:

1 ـ يغلب على ولاء البربر ولاء الحلف.

2 ـ يتركز أغلب الموالي البربر في وسط وجنوب الأندلس وجنوب شرقها.

3 ـ الولاء يمس البربر الأفراد غير المنتسبين وكذلك زناتة بالأساس.

4 ـ البربر أكثر ولاء لعرب الشمال (مضر) مسايرين بذلك ميزان القوة في الأندلس.

3- ولاء عناصر أخرى للبربر

توقفنا في النقطة السابقة عند الموالي البربر، جاء الوقت لنلقي نظرة على ولاء بعض العناصر للبربر خاصة من الإسبان. وإذا كنا في السطور السابقة قد اشتكينا من ندرة المعلومات والأخبار، فإننا هنا سنقول بشبه انعدامها. وإذا كان كل المؤرخين، قدماء ومحدثين، يسلمون بدور البربر الكبير في فتح وإسلام الأندلس، فإنه سيترتب عن هذا كثرة

عدد ولاء الموالي الإسبان للبربر وهم أساسا موالي إسلام، لكننا، للأسف، لا نتوفر على شيء ذي بال في هذا المجال. فباستثناء بعض الأشخاص الذين يحملون أسماء إسبانية ونسبا بربريا، والتي نشك في أن هذا الانتساب ناتج عن الولاء، والتي سبق لبيير كَيشار وأن أكد أنها تعود إلى تبني بعض البربر لأسماء اسبانية (32)، لكننا نخالفه في هذا الرأي ونرى أن هؤلاء موالي إسبان أسلموا على يد بعض البربر، فانتسبوا إليهم. فعلى سبيل المثال ينقل لنا السالم عبد العزيز أن بكر بن يحي بن بكر الثائر بشنت مرية الغرب من كورة اكشونية خلال النصف الثاني من القرن 3 هـ / 9م، كان جده زدلف من العجم مولى لبكر بن نجاد الأوربي، فسمى ابنه باسم مولاه (33) . ولعل هذا المثال يساعدنا على دعم الرأي الذي ذهبنا إليه، ويبرر عدم ورود أسماء موالي بربر في المصادر بإغفالها للموضوع من جهة، ومن جهة ثانية بالمكانة المتواضعة، أو الحقيرة التي يحتلها البربر ويمثلها النسب البربري في الأندلس والغرب الإسلامي عامة (34).

ومن موالي البربر الذين احتفظت لنا المصادر بأسمائهم، بكر بن بكر الأوربي السالف الذكر، وعبد الله بن مسرة بن نجيح مولى أبي قرة المكناسي الجياني أو رجل من أهل فاس (35). وربما كان أيضا أحمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديوني (36) مولى لرجل من مديونة، وأن ذلك كان منذ عهد جده فرتون، وكان محمد بن عبد الرحمن مولى لآ ل أبي عيسى، ويسكن شبلار ومات في حياة يحي بن يحي الليثي (37).

توضح لنا هذه الأمثلة وجود موالي تابعين للبربر، وهم من نوعي ولاء العتق والإسلام، وربما أن ضعف عدد الحالات يعود إلى إهمال المصادر وسكوتها، أو لإخفاء الناس لولائهم للبربر خوفا مما يجره من الاحتقار.

---

(32) Guichard (P), Peuplement de la région de Valence, Revue de la Casa de Velasquez, Vol. 5. 1965, p.132.

(34) سنوضح هذه المسألة بشكل جيد خلال الفصل السابع والأخير من هذا القسم.

(35) ابن حيان، المرجع السابق، ج.5، ص. 35، الخشني، المرجع السابق، ص. 218، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية، 1966، ص. 124.

(36) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 5.

(37) الخشني، المرجع السابق، ص. 162، ابن الآبار، التكملة، ج. 1، ص. 356.

وانتشر أيضا أسلوب الإخاء بين البربر وغيرهم، ويذكر المقري أن أبا عبد الله محمد بن عيسى من آل يحي بن يحي الليثي كان يؤاخي رجلا من آل حدير بقرطبة [38]، والمؤاخاة تحل محل العلاقة الدموية وهي أقوى منها لأنها جاءت عن قناعة واختيار، وهي توضح لنا أن العلاقة بين بعض البربر وبعض أهل الأندلس كانت قوية وعميقة.

لمحة سريعة وموجزة عن البربر الموالي اعتمدت أساسا على عينة محدودة، لكنها عينة جيدة لأنها عشوائية وعفوية، وإذا كنا لاندعي أن هذه النتائج التي توصلنا إليها ثابتة وموثوقة، فإننا نؤمن بأنها أعطتنا صورة تقريبية عن اتجاهات وميولات ولاء البربر في الأندلس. وأهم ما وضحته ينحصر فيما يلي:

1 ـ إن ولاء البربر ولاء حلف وجوار اقتضته مصلحة البربر والعرب على حد سواء.

2 ـ ينحصر الموالي البربر في المناطق الوسطى والجنوبية الشرقية، حيث الأغلبية العربية، والهيمنة على باقي الفئات.

3 ـ إن الولاء مس أفرادا يبحثون عن حماية قبلية، وكذلك قبائل زناتية التي تفتقد قاعدة حضارية صلبة مما سهل انضمامها إلى العرب.

4 ـ إن البربر قد والوا القبائل المضرية بالأساس وهذا يرتبط بقوتها وسيطرتها على مقاليد الحكم، وعادة الناس في الميل مع الأقوى.

5 ـ للبربر موالي خاصة من الإسبان، لكن المصادر لاتذكرهم، وهم أساسا موالي إسلام أو عتق.

6 ـ لقد خدم الموالي البربر مواليهم من العرب وخاصة الحكام الأمويين، وسيتضح هذا خلال وقوفنا عند مشاركة البربر في التطور السياسي الأندلسي.

(38) المقري، نفح الطيب، ج. 2، ص. 221.

الملحق الأول
الموالي البربر في الأندلس

رقم	اسم المولى	نوع الولاء	تاريخه	موطنه	قبيلته البربرية	مواليه (مضر)	مواليه (يمن)
1	ابراهيم بن شجرة	حلف	قبل 138 هـ	تاكرنا	بربري		أود
2	آل ذكوان	ـ	ق 4 هـ / 10م	قرطبة	كزنة	سليم	
3	ابنا تاجيت	يحتمل حلف	ـ	جيان	بربري	بنو أمية	قضاعة
4	بنو ذي النون	حلف	قديم	أقليش	هوارة		حمير
5	بنو الخليع	ـ	105.101 هـ	تاكرنا	مكناسة	بنو أمية	
6	بنو سالم	ـ	قبل 138 هـ	و. الحجارة	مصمودة	ثقيف	
7	بنو السقا	ـ	86.65 هـ	قرطبة	بربري	بنو أمية	
8	بنو قاسم	ـ	قبل 138 هـ	البونت	زواوة	فهر	
9	بنو الليث	ـ	96.86 هـ	شنت فيلة	زناتة	بنوأمية	
10	بنو مسلمة	عتق	56.41 هـ	قرطبة	بربري	ـ	
11	بنو ميمون	حلف	قبل 138 هـ	ـ	صنهاجة	ـ	
12	بنووانسوس	ـ	86.65 هـ	شذونة	مكناسة	ـ	
13	ثابت بن حزم	ـ	ق 3 هـ / 9م	سرقسطة	بربري	زهرة	
14	حجاج المغيلي	عتق	قبل 206 هـ	قرطبة	مغيلة		عبس
15	زناتة	حلف ـ اسلام	36.23 هـ	كل الجهات		بنو أمية	
16	سفيان بن ع. ربه	حلف	238.206 هـ	قرطبة	بربري	ـ	
17	سليمان بن وانسوس	حلف	بداية ق 3 هـ	قرطبة/ماردة	مكناسة	بنو أمية	
18	سهل بن إبراهيم	يحتمل حلف	قبل ق 4 هـ	استجة	بربري	بنو أمية	

19	شهيد بن عيسى	عتق	99-101 هـ	اشبيلية	بربري	بنو أمية	
20	صنهاجة	حلف إسلام	24-40 هـ	كل الجهات	صنهاجة	آل هاشم	
21	عباس بن ناصح	عتق	قبل ق. 3 هـ	الجزيرة	مصمودة	ثقيف	
22	عبد الله بن أبي زمنين	حلف	قديم	إلبيرة	نفرة	مرة	
23	عبد الله بن الأفطس	حلف	ـ	فحص البلوط	مكناسة		تجيب
24	عثمان المصحفي	حلف	قبل ق 4 هـ	جيان	بربري	قيس	
25	عمر بن حمدون	حلف	قبل 172 هـ	رية	مغيلة	بنو أمية	
26	كثير بن وسلاس	اسلام ـ جوار	65 ـ 86 هـ	قرطبة	مصمودة	ليث كنانة	
27	محمد الزجالي	حلف	206-238هـ	قرطبة	نفزة	بنو أمية	
28	محمد بن سلامة	حلف	قبل ق 4 هـ	تطيلة	هوارة		الصدف
29	معن بن محمد	يحتمل حلف	قبل ق 4 هـ	سرقسطة	بربري		الأنصار
30	ملحان بن عبد الله	عتق	نهاية ق 1 م	قرطبة	بربري	بنو أمية	
31	موالي بن قطن	حلف	قبل 138 هـ	الثغر الأوسط	بربري	فهر	
32	ميمون بن سعد	عتق	86 ـ 96 هـ	طليطلة	بربري	بنو أمية	
33	الهواري	حلف	172 ـ 182 هـ	ماردة/ لقنت	هوارة	بنو أمية	
34	يحي بن خيار	يحتمل حلف	قبل ق 3 هـ	جيان	بربري	زهرة	

الفصل السادس

لغة بربر الأندلس أو التعريب

1- إشكالية التعريب

يطرح موضوع التعريب البربري بالأندلس مجموعة من القضايا عادة ما لا تستجيب المصادر ولا حتى الدراسات المعاصرة لها. فأولها، لو قصدنا بالتعريب اتخاذ اللغة العربية كلغة، لتطلب ذلك الحسم فيما إذا كان الأمر يتعلق بالعربية كلغة للتخاطب اليومي أو لغة للإدارة والثقافة. وثانيهما، هل شمل التعريب كل فئات الجماعات البربرية خاصة النساء والأطفال الذين لاتسمح لهم ظروفهم بالاحتكاك بالخارج. وإذا تبنى البربر العربية، ألم يطبعوها بطابع خاص بهم في النطق وإدخال ألفاظ بربرية. وثالثهما، لو قصدنا بالتعريب، التعريب الثقافي[1]، لتوسع ليشمل جوانب كثيرة لاتمثل اللغة إلا عنصرا ثانويا، وقد لا يقتضيها تماما. وكيفما كان الحال، فكل الآراء الواردة في هذا الباب لاتجعل حدودا بين التعريب اللغوي والتعريب الثقافي وتتغاضى عن إثارة هذا التمييز.

إن عودتنا إلى المصادر من أجل الحصول على معلومات حول التعريب بمعناه اللغوي، لأننا اخترنا هذا المعنى، بينما ظل النوع الثاني عنصرا مشجعا ودافعا إليه، كادت تخيب، لولا بعض الإشارات القليلة والمتناثرة والتي تحتاج إلى مجهود أكبر لاستخراجها وتوظيفها بشكل موفق.

ويمكن تقسيم الباحثين حسب آرائهم إلى فريقين اثنين. فريق يتبنى التعريب السريع والكامل للبربر في الأندلس، وفريق ثاني يميل إلى تغليب الحذر في حكمه، ويؤكد على

---

(1) نقصد بالتعريب «الثقافي» المعنى الذي يعطيه له الأنثربولوجيون، والذي يوافق «حضاري» وهو يوافق كل ما يتعلق بإنتاج مجتمع معين وفي كل الميادين (تنظيمات اجتماعية، تنظيمات اقتصادية، تنظيمات سياسية، عادات، تقاليد، موسيقى، فنون...)

استمرارية اللغة البربرية إلى جانب اللغة العربية الخاصة بالتعامل مع الأجانب عن الجماعة أو العشيرة.

يتزعم الفريق الأول العلامة ليڤي بروڤنسال الذي يثبت في نص مهم أن البربر قد استعربوا خلال القرن 2 هـ / 8م، وجاء في النص مايلي :« كانت بعض الأجيال، دون شك، كافية لتفقدهم استعمال لغتهم الوطنية «اللسان الغربي» تماما، وقد عوضوه دون مشاكل باللسان العربي، وفي نفس الوقت الرومانس، ويحتمل أن لا يبقى أحد ممن يتكلم اللهجة البربرية في الأندلس انطلاقا من القرن التاسع الميلادي : لانجد أي إشارة تفند هذه الفرضية التي دعمها، بالعكس، الغياب التام أو الشبه التام لأسماء أماكن بربرية باستثناء الفرضية التي دعمها، بالعكس، الغياب التام أو شبه التام لأسماء أماكن بربرية باستثناء أسماء القبائل نفسها ضمن مجموعة أسماء الأماكن في الأندلس» [2]. دون شك فصاحب النص، لا يستند في كلامه هذا على نصوص مدعمة، بل فقط يضع فرضية يبحث لها عن الدعم في غياب نصوص أو إشارات تفندها، ولكنه يخفي أن الإشارات التي تدعمها أيضا منعدمة، لذلك يبقى الاحتمالان واردان. وأكثر من هذا يستند إلى انعدام أسماء أماكن بربرية غير أسماء القبائل ونعتقد أن هذا الأمر يعود إلى أن من كتبوا هذه المصادر عرب، بحيث نجد في حالات كثيرة أن الأسماء تترجم أو تحرف لتتطابق مع النطق العربي. وعلى كل، فالأستاذ ليڤي بروڤنسال ينطلق من افتراضه هذا من تصور وضعاني يجعل الوثيقة المكتوبة وحدها مصدر الأخبار، وغيابها يعني غياب الظاهرة التي تتعلق بها لكن حكمه يثير معارضة ونقاشا سنتوقف عنده فيما بعد.

ويواكب هذا الرأي عدد من الكتاب العرب المشارقة، بحيث يؤكدون على تعريب سريع للبربر يثير الإعجاب والدهشة [3]. ويتضح من صيغة هؤلاء النفس الملحمي والحماسي

---

(2) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Maisonneuve, Paris, 1950, t 3, p. 169.

(3) شكيب أرسلان، الحلل السندسية، مكتبة الحياة، بيروت، ج. 3، ص. 533.
مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص. 276/277، وفجر الأندلس، الشركة العربية، القاهرة، 1959، ص. 395/396.
العبادي عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958، ص. 41.

ورائحة القومية العربية التي أنستهم كل شيء غير إثبات تبني البربر السريع للعربية. وبالتالي كون الأندلس بلدا عربيا محضا.

ويتخذ بيير كَيشار موقفا مشابها، فعند تناوله لمنطقة بلنسية (شرق الأندلس) يدافع عن استعراب سريع وتام للبربر، وتحويلهم إلى عنصر التعريب فيها [(4)]. وهو يلجأ إلى هذا التأكيد ليخدم أطروحته التي تدافع عن تبربر واسع لشرق الأندلس، و لم تكن مسألة اللغة إلا عنصرا جزئيا في كلامه لذلك لم يتوقف للتدقيق في المسألة مع أنه لا يملك وثائق.

فنحن إجمالا، أمام تيار حاول أن يدافع عن رأيه بالخضوع لكلام الوثائق أو بالاحتجاج بانعدام آراء مضادة، أو أمام قوميين همهم ترسيخ عروبة الأندلس، أو مدافع عن أطروحة تاريخية جعلت اللغة إحدى وسائلها البسيطة لتحقيق هدفها. وفوق كل هذا فكل هؤلاء لم يخصصوا للغة البربرية أكثر من بضعة سطور.

أما التيار الثاني، فينظر إلى المسألة نظرة معتدلة، بحيث حاول إخضاعها لقانون التطور وانتشار اللغات والذي يتطلب وقتا طويلا جدا. وأكد أصحابه أن عملية التعريب شهدت تقدما مهما لكنها لم تقض على اللغة البربرية، لكونها احتفظت بمكانتها كلغة للتخاطب اليومي في الوسط البربري. ومن المدافعين عن هذا الرأي T. Glick الذي يذهب إلى أن الوسط البربري كان يعرف ازدواجية لغوية وثقافية. فسكان المدن؛ وهم قلة، استعربوا إلى جانب الفئة المتقفة بشكل كامل، بينما لا يحتمل تعريب المناطق القروية والجبال المنعزلة، فحتى داخل ممالك بني الأفطس وبني ذي النون، فيظهر أن الأرستقراطية هي وحدها التي استعربت، بينما ظل عامة الناس يتكلمون لغة واحدة أو لغة مزدوجة [(5)] وأيده في ذلك كل من L.G de Valdeavellano و M. Ch. Delaigue[(6)].

(4) Guichard (P), Structures sociales orientale et occidentale, Mouton, Paris, 1977, pp. 250 à 276.
Guichard (P), Faut-il en finir avec les berbères de Valence, Revue Al-Qantara, vol 11, fax 2, 1990, p. 461;
Guichard (P), Les Musulmans de Valence, Institut français de Dames, 1991, p. 175.

(5) Glick (Thf). Islamic and christian Spain, Princeton, New Jersey, 1979, p. 180.

(6) Luis G. De Valdeavellano, Historia de Espana, Alianza Editorial, Madrid, 1988, t. 1, p. 390
Delaigue (M.H), Possible influence berbère, bulletin d'archéologie marocaine, t. 15, 1983-84, p. 494.

وهذا التيار الثاني لايستشهد بنصوص، إذ لم نجد منهم من استعمل إحالة في الموضوع، ولكنه استعمل المنطق، وخضع لقانون انتشار اللغات والعادات والمؤثرات الحضارية في أوساط شعوب جديدة.

من خلال استعراضنا للمواقف التي تكونت حول لغة البربر، بدا واضحا أن هناك صراعا بين طرفين : طرف يدافع عن التعريب السريع والتام، وطرف يؤمن باستمرار اللسان البربري إلى جانب دخول اللغة العربية، وسنعمل من خلال النصوص والشواهد التي جمعناها على توضيح كل ما يتعلق بكلا الموقفين محاولين التدرج للخروج بموقف واضح في الموضوع.

2- البربر المستعربون

تنوعت المجهودات التي بذلتها الشعوب غير العربية المسلمة من أجل ضبط اللغة العربية والإمساك بزمامها، ليس فقط لأنها لغة القرآن والعبادة، بل أيضا للحصول على مكانة في المجتمع ومساواة العرب. و لم يكن البربر بعيدين عن هذا التيار، خاصة من كانوا منهم في الأندلس، وقد استخدموا وسائل متنوعة ومتعددة من أجل تحقيق حلم التعريب. فمن اتخاذ الأسماء العربية إلى تبني الأصول العربية والتهافت على الولاء، ثم محاولة تشرب العربية من منابعها البدوية الحجازية والنجدية، ثم التعمق في دراستها.

إن تبني الأسماء العربية ـ الإسلامية لم يكن مقتصرا على البربر، بل هي ظاهرة عمل الرسول منذ بداية الدعوة على نشرها، وغير أسماء كثير من الأشخاص والقبائل، ولا نعتقد أن المسألة ترتبط فقط باستهجان هذه الأسماء، بل أيضا بضم رجال إلى صفوف الدعوة وترسيخ إيمانهم بها. ويورد ابن حزم نماذج عن هذه التغييرات [7]. وقد انتقل هذا التقليد إلى باقي الشعوب الإسلامية التي صارت تتخلى عن أسمائها المحلية، وتتبنى أسماء عربية، ومنهم بربر الأندلس، فأغلب سلسات النسب التي نتوفر عليها من خلال تراجم العلماء، لا نجد ضمنها الأسماء المحلية إلا في فترات متقدمة، ربما، تعود إلى فترة دخول الإسلام إلى شمال افريقيا أو على الأقرب فترة الفتح الإسلامي للأندلس. فمن خلال عينة لأسماء علماء بربر أندلسيين

(7) ابن حزم، الجمهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 123و 206 و211 و 283 و 318.

مكونة من 142 إسما، نجد أن اسم محمد يمثل 16,9 % (24 اسما) واسم عبد الله وعبيد الله 14,7 %(21 اســما)، وتمثل الأسماء الأخـرى التـي تبتـدئ بــ «عبد» 21,83 % (31 اسما) وأحمد 14,08 %(20 اسما). وبالمقابل، نجد أن الأسماء التي يفترض أنها بربرية محلية (سكتان ـ سرواس ـ ذكوان ـ دحمان) لا تمثل إلا2,8 % . وربما بينت لنا هذه الأرقام أن مسألة التعريب على صعيد الأسماء حققت نجاحا واسعا، وقد لعب الإسلام أكبر الأدوار في هذا النجاح. ويتأكد لنا ذلك من خلال غلبة الأسماء التي ترتبط بالإسلام مثل محمد اسم (الرسول) وأحمد وتلك التي تبتدئ «بعبد» فهي لوحدها تمثل 52,81 %وتضاف إليها أسماء أنبياء أخرى. ولكن هذا لا ينفي دور العرب على اعتبار أن أسماءهم أصبحت من هذا النوع، وهم أيضا الذين حملوها إلى البربر. لكن، يجب أن نحذر من هذه الصورة التي قدمت لنا من خلال تراجم العلماء، فهي تعبر عن الأسر التي اندمجت أكثر في الثقافة الإسلامية، وتعبر أكثر عن أهل المدن، بينما لا يمثل أهل البوادي إلا حالات قليلة منها. وقد أثبت كَيشار أن فئة العلماء أسرع إلى التعريب [8]، أما المحافظة فتعشش في الوسط الشعبي الذي لا نملك عنه أخبارا كثيرة.

ونزع البربر، بصفة عامة، إلى اتخاذ أنساب عربية، وقد سبق لنا في الفصل الأول أن بينا مختلف الأقوال التي تتعلق بنسبة البربر إلى أصول عربية، وسبق أيضا أن أكدنا أن النسابتين ابن حزم وابن خلدون يرفضان هذه الأنساب جملة وتفصيلا [9]. وإذا كان بالإمكان اكتشاف انتساب قبائل بأكملها إلى العرب، فإن ادعاءات الأفراد يصعب اكتشافها وضبطها خاصة في بلد مثل الأندلس. وقد عرفت هذه المنطقة انطلاقا من القرن 3 هـ / 9م، اختلاطا وتمازجا في الأنساب، وأصبحت الأخبار المتعلقة بالأنساب نادرة، وقد حاول الخليفة الحكم الثاني أن يوقف هذه الحركة. ويـوضح لنا ابن الآبـار الإجـراء الذي اتخـذه من أجل ذلك في نصه التالي : «وكان قد قيد كثيرا من أنساب أهل بلده، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل

(8) Guichard, Structures, p. 243.
Guichard, Les Musulmans, t. 1. pp. 172-173.

(9) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 128. ابن حزم، الجمهرة، ص. 495.

عربي أخمل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك ويؤلف من الكتب، ويرد كل ذي نسب إلى نسبه، وفرج ذلك بالعلم فتم له ذلك ما أراد» [10]. إذا كان إجراء الحكم حسب النص قد انتهى إلى تحقيق المراد، فإننا لا نتوفر على كتاب للأنساب يعود إلى عهده ولاحتى أخبار حول وجوده، وربما، أنه لم ينجز أصلا. وهذا الإجراء بدوره سيدعم عملية دخول بعض الناس في الأنساب العربية، ويساعدهم هذا العمل في سرعة إثبات انتمائهم العربي وتأكيده، ويختفي نسبهم الأول إلى الأبد، ويستغرب ابن سعيد لهذه الظاهرة، ويقول بشأن انتشار النسب الأنصاري بالأندلس: «والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخا من الخزرج وعجوزا من الأوس» [11]. وقد ساعدت نظرة المالكيين التي تؤمن بضرورة تصديق الناس في أنسابهم [12] في دعم حركة تبني أنساب عربية. وقد شملت، دون شك، هذه العملية عددا مهما من البربر، إذ لايعقل أن نجد عددا مهما من العلماء البربر عند ابن الفرضي، والبربر لايزالون في بداية نهضتهم الثقافية، بينما يتقلص هذا العدد ويكاد النسب البربري يختفي عند ابن الآبار وخاصة عند صاحب «الذيل والتكملة»، ولانجد تفسيرا لهذه الظاهرة إلا في تبني عدد مهم من البربر للنسب العربي.

ولايجب أن ننسى أن الولاء قد ساعد كثيرا من البربر على اتخاذ أنساب عربية، في البداية بحكم الولاء، ولكنها مع الزمان تحولت إلى أنساب حقيقية.

ونتج عن تبني النسب العربي، العمل على تكريسه على صعيد وأرض الواقع، وأول الوسائل الضرورية هو التخلي عن اللغة البربرية، واتخاذ اللغة العربية لغة تخاطب يومي، مما سيؤدي إلى انتشار واسع للغة العربية.

ودعم حركة الاستعراب أيضا عمل عدد كبير من العلماء وطلبة العلم البربر على السفر إلى الحجاز ونجد لتلقي العربية من أصحابها الأعراب بالاحتكاك بهم والعيش معهم. ومن

(10) ابن الأبار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 1، ص. 202. 203.
(11) نقلا عن المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 1، 275.
(12) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت، 1981، ص. 27.

أوائل من قاموا بهذه الرحلة أبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري الاستجي الذي رحل في بداية عهد عبد الرحمن الداخل من أجل طلب العلم، ولكن ليس فقط العلوم الدينية، بل التقى بعلماء لغة مثل أبي زيد والأصمعي و«داخل الأعراب في محالها» (13). وينعته عياض بأنه «كان فصيحا ضربا من الأعراب» (14). وصنفه الزبيدي ضمن النحويين واللغويين واعتبره أول من جمع الفقه في الدين وعلم العربية بالأندلس (15) وتصرف أبي موسى هذا يريد من ورائه إثبات وجوده بين العرب بضبط وإتقان العربية.

وتخبرنا المصادر عن رجل آخر هو أبو العلاء عباس بن ناصح المصمودي الجزيري الذي رحل به أبوه صغيرا إلى مصر وتردد بالحجاز طلبا للسان العربي، ولقي الأصمعي وغيره من اللغويين بالعراق، وقد كان لهذا المجهود أثره في تكوينه اللغوي، فهذا الفرضي ينعته بأنه «كان من أهل العلم باللغة العربية، وكان جزل الشعر يسلك في أشعاره مسالك العرب القديمة» (16)، وصنفه الزبيدي ضمن طبقاته.

ورحل ثابت بن حزم العوفي البربري من سرقسطة و«كان يبصر العربية بصرا جيدا، وكان كثير الخبر حسن الحكاية مع بلاغة تامة وخطابة بارعة وهو أول من أدخل كتاب «العين» للخليل بن أحمد» (17) ، وكانت رحلته سنة 288 هـ / 901 م إلى مصر والحجاز والعراق وعاد بحرا من اللغة.

ورحل أيضا يحي بن عبد الله بن محمد المغيلي [ت 320 هـ] وعاد «بصيرا بالنحو والغريب والشعر بليغا شاعرا مؤلفا، جيد النظر، حسن الاستنباط» (18).

---

(13) عياض ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج. 3، ص. 343.
الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 234–235.

(14) نفسه.

(15) الزبيدي طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، مصر، 1973، ص. 253.

(16) نفسه، ص. 263. عياض، المرجع السابق، ج. 4، ص.268. الخشني، المرجع السابق، ص. 284.

(17) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 341، عياض، المرجع السابق، ج. 4، ص. 268.

(18) الخشني، المرجع السابق، ص. 67. وابن الفرضي، المرجع السابق، الدار المصرية، 1966، ص. 190.

وكان منذر بن سعيد قاضي الجماعة من فصحاء وبلغاء الأندلس. وقد رحل إلى المشرق فسمع «كتاب العين» بمصر ولقي أبا جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوي [19].

ونجد أبا عبدالله محمد بن عبد الله بن يحي بن يحي بن يحي الليثي قاضي الجماعة [ت339 هـ] عند عودته من رحلته المشرقية ينظم أبياتا جاء فيها[20]:

كأن لم يكن بين و لم تكن فرقة | إذا كان من بعد الفراق تلاق

و لم أزر الاعراب في جنب أرضهم | بذات اللوى من رامة وبراق

ويشير في البيت الثاني إلى زيارته لمواطن الأعراب من أجل صقل مواهبه وملكاته اللغوية وفعلا فقد «كان له نصيب وافر من الأدب، وحظ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب» [21] .

فكل الأمثلة التي أوردناها تثبت أن هؤلاء البربر قد بذلوا جهودا كبيرة من أجل إتقان اللغة العربية، وإذا كانت هذه أسماء مشهورة خصتها المصادر بالذكر، فإن هناك فئات وأسرا متعددة ستشارك في هذه الحركة بتعليم أبنائها العربية وبكل الوسائل وهو ما سيدعم تيار التعريب في الأندلس.

إن كل هذه العناصر التي توقفنا عندها، وخصصنا لها جزءا من كلامنا، قد وضحت وأبرزت أن حركة التعريب ـ ربما ـ انتشرت على نطاق واسع، بل والتعريب المستمر للبربر. لكن المنطق التاريخي يفرض علينا أن نتساءل عن وظيفة اللغة التي تعلمها هؤلاء، هل من أجل العلم أم من أجل التخاطب اليومي؟ فلو سمحنا لأنفسنا بإقامة مقارنة بسيطة بين القرن 20 والفترة التي تهمنا، لقلنا أن كثيرا من الأسر البربرية تتقن العربية وتستعملها بطلاقة خارج البيت، ولكنها بمجرد ما تعود إلى بيوتها، تعود إلى تداول اللغة البربرية. ألا يمكن أن نقارن الوضع في الأندلس، بهذه الوضعية، ونقول إن العربية كانت بالنسبة لأغلب البربر لغة

(19) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 348–349.
(20) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 220–221.
(21) نفسه.

الشارع والعلم، بينما هناك لغة البيت التي هي اللغة الأم. وبذلك نصل إلى مسألة الازدواجية في اللغة لدى بربر الأندلس، فهل هناك ما يساعدنا على دعم هذا الرأي ؟

3- الإزدواجية اللغوية عند بربر الأندلس

سبق وأن أكدنا على عدم توفر الشواهد الكافية، وبذلك سنحاول أن نتعامل مع ما نملكه بتوأدة وصبر، عله يعوضنا عن النقص. ولننطلق من هذا النص لابن القوطية والذي أورده بمناسبة حديثه عن ثورة عبد الغفار وعمرو بن طالوت وكلثوم بن يحصب ضد عبد الرحمن الداخل سنة 149 هـ / 768 م، وجاء فيه : «فسمع كلام البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية، فدعا بمواليه من البربر من بني الخليع وبني وانسوس وغيرهم. فقال خاطبوا بني عمكم وعظوهم (...) فلما أظلم الليل دنوا من العسكر، وخاطبوهم بالبربرية، فأجابوهم إلى ما أحبوه» [22] . ونفس النص نقله لنا صاحب «أخبار مجموعة» غير أنه يجعل قائد الثوار حيوة بن ملامس بإشبيلية والوسطاء بني ميمون [23]. ونستنتج من النص مايلي:

1 ـ إن بربر المعسكر المعادي لعبد الرحمان عندما اجتمعوا فيما بينهم كان تخاطبهم بلغتهم البربرية وليس بالعربية، وهذا دليل على أنها اللغة التي يرتاحون إلى استعمالها ويتقنونها، لذلك ينطقون بها بطريقة عفوية.

2 ـ إن بني الخليع وبني وانسوس وبني ميمون من الموالي الأمويين الذين يعرفون العربية جيدا، لكنهم لازالوا يتقنون البربرية، ويخاطبون بها أبناء عمومتهم دون أن يثيروا شكهم لاختلاف اللكنة واعوجاج النطق، وهذا ما سهل مهمتهم.

لنتوقف عند هاتين الملاحظتين، فنحن في منتصف القرن 2 هـ / 8م، وهو ما يعني مرور ستين سنة تقريبا على فتح الأندلس، واستقرار البربر بها. والبربر الذين شاركوا في هذه المعارك هم من بربر الفتح، لأننا سبق أن وضحنا أن المهاجرين الجدد كانوا موجهين لصالح

(22) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 55–56.
(23) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 98.

عبد الرحمان الداخل، وإذا كان الأمر كذلك، فهؤلاء يمثلون جيلا جديدا ولد وشب في الأندلس، لأن الجيل الذي شارك في الفتح لن يكون بإمكانه القتال، خاصة وأن سن أغلب رجاله سيتجاوز الثمانين سنة وهذا يعني أيضا أن البربرية ظلت تحافظ على مكانتها كلغة أولى وأساسية للبربر حتى بعد انقضاء جيل الفتح، ونعتقد أن لغة تملك هذه السلطة في منتصف القرن 2هـ / 8م، لن تفقدها إلا بعد أجيال، ربما جيلين أو ثلاثة أو أربعة، وهو ما يعني أن البربرية ستحافظ على قوتها حتى الثلث الأخير من القرن 3هـ / 9م، وهذه الفترة كانت فعلا فترة تحول كبير في تاريخ الأندلس، لذلك يمكن أن يبدأ البربر في إهمال لغتهم، والإقبال على العربية، ويجب أن لاننسى أن عددا من المناطق التي استوطنها البربر خلال هذه الفترة مناطق منعزلة، وهذا عنصر مساعد على بقاء واستمرار اللغة البربرية، على الأقل، إلى جانب اللغة العربية.

وعلينا أيضا أن نستحضر الروابط النفسية التي تجمع البربري بلغته الأم، ذلك أن الحنين الذي يتحرك في نفوس هؤلاء بين الفينة والأخرى إلى مواطنهم الأولى، سيجعلهم يحافظون عليها. كما أن هذه اللغة تعتبر وسيلة للتخاطب بين البربر، وإخفاء مضمون كلامهم عن الحضور من غير البربر ويؤكد لنا ذلك ابن الخطيب عند حديثه عن باديس بن حبوس عندما تخلص من أحد أعداء دولته سنة 427 هـ / 1036م، في قوله : «وجعل يراطن أخاه بالبربرية» (24). وهذا أمير من ملوك الطوائف يحافظ على لغته البربرية.

ونجد أيضا أن أهل الأندلس يسخرون من لكنة البربر العربية، حيث يتهمونهم بعدم إتقان النطق بالعربية، وينقل ابن الخطيب أن علي بن حمود لما قتل المستعين بالله الأموي، قال : « لايقتل الزلطان إلا الزلطان، يعني السلطان، إذ كان بربري اللسان» (25). واختيارنا لعلي بن حمود ليس من باب الصدفة، بل لأن الأمر يتعلق بأمير أصله عربي وله اتصال بالعربية، ومع ذلك فلهجته تثير ضحك ابن الخطيب، وما بالك ببربري لايمت إلى العرب بصلة، بل

(24) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج. 1، ص. 262.
(25) نفسه، ج. 4، ص. 274 وأعمال الإعلام، دار المكشوف، ج. 2، ص. 121.

من الفئات الشعبية. وهذا الانحراف في نطق البربر دليل آخر على احتفاظهم بلغتهم المحلية واستعمالهم لها في أغلب أوقات النهار.

هل ينبغي أن نستنتج من هذا بقاء جزر بربرية اللغة داخل الأندلس؟ و لم نرفضه؟ فإذا كان الإسبان قد حافظوا على لغتهم، فلماذا لايحافظ البربر على لغتهم؟ وفوق كل هذا ينقل لنا ابن حزم نصا يتعلق بمنطقة قريبة من قرطبة جاء فيه: «داربلي بالأندلس الموضع المعروف باسمهم [يمانيون] بشمالي قرطبة. وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم، لا يحسنون الكلام باللطينية، لكن العربية فقط، نساؤهم ورجالهم، ويقرون الضيف ولايأكلون آلية الشاة إلى اليوم» [26] . ألا يمكن للبربر أن يعيشوا حالة مشابهة لهؤلاء؟ ودون أن نذهب إلى حد الإيمان بانغلاقهم التام، نأخذ صورة مشابهة أو قريبة من هذه التي يرسمها مونطاني لبربر المغرب حين يقول : «تمتد أراضي الازدواجية من الأراضي السابقة، وفيها تتكلم النساء البربرية، بينما يفهم الرجال أو على الأقل الذين لهم اتصال بالخارج في مشاغلهم [ويتكلمون] العربية» [27].

نخلص مما سبق إلى أن النصوص لاتسعفنا في التعرف على الوضعية اللغوية للبربر في الأندلس مادامت منعدمة أو شبه منعدمة. لكننا وبناء على ما توفر لدينا، وبعض القرائن الأخرى، اكتشفنا أن البربر بذلوا جهودا متنوعة من أجل التعريب، وقد حققت بعض أهدافها، لكن لا يبدو، أنها عربت كل البربر. ونشك في أن يكون البربر قد فقدوا لغتهم خلال القرن 4 هـ /10م، وإذا كنا نوافق أن يكون أهل المدن قد تعربوا بصفة شبه تامة، فإننا نرفض أن يكون الأمر منطبقا على أهل البوادي والمناطق المنعزلة والذين سيعيشون في أحسن الظروف على الازدواجية اللغوية، إن لم تكن لغة واحدة فقط.

(26) الجمهرة ص. 443.

(27) Montagne (R), La vie sociale et politique des berbères, Regards sur le Maroc, CHEAM, Paris, 1986, p. 17

الفصل السابع

صورة البربري في الأندلس

يبدو أن الصورة التي رسمتها مصادر العصر الوسيط للبربري صورة سلبية، اتسمت في أغلب الأوقات بالسواد والقتامة، ولم تكن إيجابية إلا في حالات نادرة جدا. فقد هوجم في تدينه وعاداته وإمكانياته العقلية، وجرد من كل قدرة على الإبداع والخلق، ودون شك، فمبررات هذه الصورة موجودة وحاضرة في أذهان أصحابها ولو أنهم لم يفصحوا عنها من خلال مخلفاتهم.

شأن المواضيع السابقة، فمعلوماتنا حول الموضوع نادرة لاتتجاوز شذرات محدودة ومتناثرة بين المصادر المختلفة. وإذا كنا قد جمعنا منها ما أمكننا جمعه، فإن الصورة التي سنكونها انطلاقا منها، تبقى تقريبية ومحدودة. وسنقسم الفصل إلى نقطتين رئيسيتين: صورة البربري عند أهل ورجال العصر الوسيط عامة ثم صورة البربري عند أهل الأندلس. وسنعمل على البحث عن أصول هذه الصورة وكذلك انعكاساتها على نظرة البربري لنفسه.

1- صورة البربري في العصر الوسيط

تنقل المصادر الوسيطية مجموعة من الأقوال والأحاديث[1] التي تنسبها للرسول، كلها تتفق على الحط من قدر البربر وترسم لهم صورة سوداء ويورد ياقوت الحموي حديثا، يذكر أنه رفع عن أنس، جاء فيه : «جئت إلى النبي ﷺ ، ومعي وصيف بربري، فقال: يا أنس ما جنس هذا الغلام؟ فقلت : بربري يارسول الله، فقال : يا أنس بعه ولو بدينار، فقلت له :

(1) اعتقد أني هنا لست في حاجة إلى تخريج هذه الأحاديث لإثبات صحة أو خطأ هذا النوع من الأحاديث، فالوقوف عند متنها يبين أنها تتعارض مع مبادئ صاحب الرسالة، ويكفي هذا دليلا على خطئها ووضعها، وهي تضاف إلى تلك الأحاديث التي توضع لمدح مكانة بعض المدن مثل بغداد.

و لم يا ر سول الله ؟ قال إنهم أمة بعث الله إليهم نبيا فذبحوه وطبخوه وأكلوا لحمه، وبعثوا من المرق إلى النساء فلم يتحسوه، فقال الله تعالى :لا اتخذت منكم نبيا ولابعثت فيكم رسولا» [2].

ويذكر حديثا آخر جاء فيه: «ما تحت أديم السماء وعلى الأرض خلق شر من البربر، ولئن أتصدق بعلاقة سوطي في سبيل الله أحب إلى من أن أعتق رقبة بربري»[3].

ويضيف ابن الفقيه: «قال رسول الله ﷺ نساء البربر خير من رجالهم بعث إليهم نبي فقتلوه، فتولت النساء دفنه، والحدة عشر أجزاء وتسعة منها في البربر وجزء في الناس» [4].

ويقول البكري :« وفي الحديث أن بالمغرب جبلا يُقال له درن يزف يوم القيامة بأهله كما تزف العروس إلى بعلها»[5].

ليس ضروريا أن تكون هذه الأحاديث صحيحة حتى نعتمد عليها في معرفة نظرة أصحابها إلى البربر لأن الكذب هنا يكشف عن نظرتهم إلى البربر التي حاولوا أن يعطوها القوة اللازمة بتغطيتها بغلاف ديني. وأهم ما تلصقه هذه الأحاديث بالبربر من صفات يتلخص في مايلي: كفر البربر برسالة نبيهم وقتلهم له وأكلهم لحوم الأدميين، وسيطرة الطيش عليهم وعلى عقولهم دون سائر الناس، ثم إن هذه الصفات خاصة بالرجال دون النساء.

ونجد دعما لهذه الصورة في باقي المصادر، فابن حزم يقول إن «كفار البربر كانوا أشر كفار فإنهم ليسوا أهل كتاب ولا ارتباط بشرع، وكذلك مسلموهم شرار المسلمين وأكثرهم عاجلة»[6].

---

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج. 1، ص. 369.
الفزويني، آثار البلاد، وأخبار العباد، دار بيروت، بيروت، 1979، ص. 163.
(3) نفسه، ج. 1، ص. 369. نفسه، ص. 164.
(4) نفسه، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1886، ص. 83.
(5) البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص. 160.
(6) مجهول، ذكر سبب فتح الأندلس، مخطوط الخزانة الملكية رقم 7531، ص. 36.

ويقول ابن حوقل عنهم : «وقد يعرض في بعض نواحيهم من التهور الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبدار الطيش» (7).

ويقول عنهم ياقوت الحموي : «والبربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة، و لم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط (...) صارت طباعهم إلى الباطل مائلة وغرائزهم في ضد الحق جائلة، فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا داعيه ولمذهبه انتحلو» (8).

وتجمع هذه الأقوال الأخيرة على فكرة محورية وهي ميل البربر مع المذاهب الجديدة وتصديقهم لكل قائم فيهم، إضافة إلى تأكيد خاصية العجلة والطيش وحب الفتنة التي سبق أن أوردتها الأحاديث.

ويسير ابن سعيد في نفس الخط فيقول : « إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام المريخية على زعمهم، فإن للمغرب الأقصى من ذلك الحظ الوافر، لا سيما في جهة السوس وجبال درن فإن قتل الإنسان عندهم كذبح العصفور، قال : وكم قتيل عندهم على كلمة. وهم بالقتل يفخرون» (9).

ويسير هذا النص في اتجاه دعم الفكرة السابقة التي تنعت البربر بالطيش والعجلة إضافة إلى الحقد.

وتنتقد هذه النصوص أيضا عادات البربر وتقاليدهم، فهذا ابن حوقل يقول : «وليس في بلدانهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة كالعيدان والطنابير والمعازف والنواح

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، 1938، ج. 1، ص. 98.
(8) ياقوت الحموي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 379.
(9) القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، ج. 5، ص. 178 يحدد صفات هذا الإقليم في الصفات التالية : سفك الدماء. الحسد ــ الحقد ــ الغل.

والقيان والمخنثين والفسق الشنيع» [10]. ويؤكد هذا الشقندي في قوله: «وحسبهم الدف وأقوال والليرا وابو قرون ودبدبة السودان وحماقي البربر» [11] واتهم البربر أيضا بـ «غفلة وقلة فطنة» [12] وجهل وقلة علم [13].

ويتهم البربر أيضا بتعاطي اللواط باستضافة ضيوفهم بأبنائهم الذكور وتفاخرهم بذلك[14]. ويضيف القزويني أن بلاد البربر غاصة بالمجبوبين موردا قصة غريبة يفسر بها ذلك [15].

بعد هذه الوقفة مع أهم الأقوال الواردة في المصادر الوسيطية حول البربر يمكن أن نلخص الصورة التي رسموها للبربر فيما يلي:

1 ـ البربري ضعيف التدين يميل مع كل نزعة أو متنبئ

2 ـ البربري آكل لحوم البشر

3 ـ البربري يميل إلى الطيش والعجلة وسرعة القتل

4 ـ البربري حقود وحسود

5 ـ البربري يستعمل آلات موسيقية منكرة

6 ـ البربري جاهل وضعيف العقل

7 ـ البربري يتعاطى اللواط ويستضيف الناس بأبنائه الذكور

ولو لخصنا هذه النقط لوجدنا أنها تنصب حول ثلاثة نقط رئيسية، تدين البربري وعاداته وتقاليده وميزة شخصيته فما عساها تكون الأسباب الكامنة وراء هذه الإتهامات الموجهة للبربري؟

---

(10) ابن حوقل، المرجع السابق، ج. 1، ص. 98.
(11) المقري، نفح الطيب، دار صادر، بيروت، ج. 4، ص. 200.
(12) ابن الفقيه، المرجع السابق، ص. 83.
(13) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، مصر، ص. 9.
(14) ابن حوقل، المرجع السابق، ج. 1، ص. 93. القزويني، المرجع السابق، ص. 164.
(15) نفسه، ص. 164.

إن التركيز على كفر البربر وميلهم مع النحل المنحرفة يجعلنا نفكر في البحث عن سبب ذلك من خلال تطور أحداث شمال إفريقيا في العصور الأولى للإسلام ولا أحد يجهل أن شمال إفريقيا كانت من أكثر المناطق مقاومة للفتح الإسلامي، فقد تطلبت من العرب أكثر من نصف قرن، قبل أن تستسلم لهم وتدخل في الدين الجديد. وهذه مقاومة لم يصادفها العرب في أي مكان، وكما أنهم ولعدة مرات تعرضوا لضربات موجعة مثل: مقتل عقبة بالمغرب الأوسط وهزيمة حسان. و لم يكد العرب يصدقون أن المغرب قد دخل الإسلام، حتى تحول إلى مخزن للثورات الخارجية، وملجإ للمذاهب غير السنية خاصة الخارجي والشيعي ثم الأموي بعد قيام العباسيين. فانفصل عن العالم الإسلامي سياسيا، ومند وقت مبكر دون شك، فهذه الوجهة التي اختارها المغرب والبربر قد جعلت رجال السنة يحقدون عليهم وينعتونهم بهذه الصفات التي تكفرهم وتبشرهم بالجحيم. وكانت المقاومة الشجاعة للبربري وإقدامه في الحروب، وعدم تسامحه مع أعدائه، قد رسمت له تلك الصورة التي تظهره طائشا متعجلا ومحبا في قتل الأنفس. إذن، فطريقة دخول شمال إفريقيا إلى الإسلام والمشاكل التي رافقتها وتبنيها للمذاهب الخارجية، كانت وراء هذه الصورة القاتمة، خاصة من الناحية الدينية.

أما انتقاد العادات الاجتماعية للبربر، وخاصة منها الفنون الموسيقية، فهو دليل على التمسك الشديد للبربر بها ورفض تغييرها، وأيضا إفراز للموقف الديني من الموسيقى عامة، ثم عدم تعود المؤرخين والجغرافيين على التنوع الثقافي، ورفضهم لكل النماذج غير النموذج العربي، ومن خلال حديثهم عن انتشار القتل والثأر في الأوساط البربرية، فهم يعطون الانطباع بأن المغرب بلاد فوضى[16]، لكن الأخبار التاريخية تثبت أن النظام القبلي كان ناجعا في أغلب الأوقات، واستطاع توفير الأمن الضروري، ولا يعجز عن تحقيق ذلك إلا بتدخل قوى أجنبية.

ويورد ابن حوقل وغيره أن البربر يستضيفون ضيوفهم بأبنائهم الذكور. ولا يجب أن تمر هذه الأشياء دون تعقيب. فصاحبها أولا، هو ابن حوقل الداعية الفاطمي الذي جاء إلى المغرب من أجل التجسس للفاطميين، فهو هنا يحرض أولياءه على تغيير هذا المنكر،

(16) لاحظ أن هذه النظرة تشبه نظرة المعمر الفرنسي في بداية القرن 20 التي قسمت البلاد إلى «بلاد مخزن» و«بلاد سيبا» حيث يسود النظام العرفي القبلي.

ويستعجلهم للتدخل في المنطقة، وثانيا، إنه يتهم به القبائل التي تقطن المغرب الأقصى وجزءا من الأوسط وهي أساسا من زناتة، وأيضا خارجة عن نفوذ الفاطميين وموالية للأمويين. ألا يمكن أن نستنتج منها أن كلامه هذا يدخل في إطار الدعاية المغرضة ومحاولة تشويه سمعة هؤلاء؟ هذا مايبدو أقرب إلى الصواب، خاصة وأن أهل العصر الوسيط كثيرا مايحاولون تحطيم أعدائهم بالعزف على هذا الوتر. فانظر إلى هذا النص الذي ينقله ابن عذاري عن عبيد الله الفاطمي: «فامتحنه الله بعلة قبيحة يقال لها حب القرع، وهو دود على صورة حب القرع في آخر مخرجه، تأكل أحشاءه وما والاها، فكان يؤتى بأذناب الكباش العظيمة، فيستدخلها في نفسه لتنشغل عنه الدود بها. فيجد لذلك بعض راحة لشغلها بالاذناب، ثم يخرج الأذناب وقد هلكتها الدود، يدخل أخرى في دبره، ثم لم تزل الدود تأكل حتى انقطعت مذاكره وهلك» [17] والنص، دون شك، من نسج أهل السنة المعادين لحكمه. وفي نفس الإطار يمكن وضع قول ابن حوقل، خاصة وأن البربر يحرصون على شرف نسائهم، وما بالك بالرجال. ويؤكد لنا ذلك قصة الفتاة التي قتلت نفسها بعد تعرضها لاغتصاب رجال حماد حفاظا على شرف أسرتها ودفعا لعار الاغتصاب أمام حماد وأبيها والجنود [18].

لقد أبرزنا خلال هذه الوقفة خلفيات هذه الصورة التي رسمت للبربري، ولكن بربر العصر الوسيط لم يقوموا بنفس العمل، وهي دون شك، قد خلفت عندهم انعكاسات سلبية فما هو مدى هذا الانعكاس؟

وقبل الوقوف عند ذلك، نحاول أن نورد بعضا من الصفات الحسنة التي وصف بها البربري والتي تخفف من قتامة هذه الصورة. وأولها صفة الكرم ورفض البخل بحيث مدح البربر باستضافة كل من يمر بهم، وتفاخرهم بتقديم الطعام، بل وبلغ بهم الحرص على الضيافة إلى حد تقديم أبنائهم الذكور للضيوف ليقضوا وطرهم منهم [19].

(17) ابن عذاري، البيان المغرب، ج. 1، دار الثقافة، بيروت، 1983 ص. 284.
(18) البكري، المرجع السابق، ص. 170.
(19) ابن سعيد نقلا عن القلقشندي، المرجع السابق، ج. 5، ص. 178.
ابن حوقل، المرجع السابق، ج. 1، ص. 93.
ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 136.

ومدح البربر أيضا بالفروسية والصبر، والسماحة وعزة الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة، والوفاء بالعهد والصبر على المكاره [20].

ومدح البربر أيضا بجمال الأبدان والألوان وحسن الصور [21]. ولذلك أكدوا على اتخاذ الأماء من البربر وأثنوا عليهم، ويقول أبو عثمان رئيس النخاسين بالمشرق : «إذا وجدت المرأة بنت تسع حجج كتامية الأم صنهاجية الأب مصمودية المنشأ، قد جلبت إلى المدينة، وأقامت بها ثلاث حجج، وبالعراق عشر حجج، فتلك التي جمعت حسن الجنس إلى كمال القصد» [22].

ويخصص البكري فصلا من كتابه بعنوان «ذكر نبذ من سير البربر وسياساتهم». للحديث عن تعقل البربر وذكائهم وتأنيهم، قبل الانتقام [23]، فهو يفند كثيرا مما سبق وأن اتهم به البربر ولكن الملاحظ على البكري، رغم ثنائه على البربر، هو أنه يكرر صورة طالما كررها رجال الأندلس خلال القرن 5 هـ / 11 م، وبعده، وتتعلق بقدرة البربر على إخفاء أحقادهم لفترة طويلة، ثم الانتقام في الوقت المناسب فهم قد حقدوا على أهل الأندلس لسوء معاملتهم وحسدوهم على نعمهم، ثم قاموا عليهم لينتقموا منهم شر انتقام. وهو هنا من خلال تأكيده في حكاياته على الثأر يعبر عن رأي ذائع في الأندلس وهو أيضا قدح في البربر بطريقة مهذبة وخفية.

رغم هذه الصفات التي امتدح بها البربر، والتي تجعلهم مشابهين للعرب، فإنها لم تستطع إزالة أثر الصورة السلبية التي رسمت لهم، بحيث كانوا يحمرون عند ذكر نسبهم خجلا كما قال Gautier [24]. وتحتفظ لنا المصادر ببعض المواقف التي توضح هذا الإحساس بالنفور والرفض للنسب البربري. فهذا أبو عمرو البهلول بن راشد الرعيني المشهور بورعه

---

(20) نفسه، ص. 176. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ملحق كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس»، دار النشر للجامعيين، ص.180.

(21) ابن حوقل، المرجع السابق، ج. 1، ص. 103.

(22) السقطي، آداب الحسبة، المطبعة الدولية، باريس، 1931، ص. 50.

(23) البكري، المرجع السابق، ص. 184–188.

(24) Gautier (E.F), Les siècles obscurs du Maghreb, Payot, Paris, 1927, p. 193.

وتقواه، وعلمه وتصوفه [ت 283 هـ] يصنع «طعاما وحضر له جماعة من أصحابه. فقالوا: يا أبا عمرو لم صنعت هذا الطعام، فقال: إنني كنت خائفا أن أكون من البربر لما جاء فيهم من الحديث. فسألت عن أصلي من يعرفه، فأخبرت أني لست من البربر، فأخذت لذلك هذا الطعام شكرا لله عز وجل إذ لم أكن من البربر» (25). والبهلول بربري مشهور وينعت به بشكل متكرر، فمثلا يقول عنه إبراهيم بن الأغلب :«أفسدكم البربري» (26)، ونلاحظ هذه الفرحة التي حاول بها أن يعبر عن تهربه من النسب البربري، ولولا ما جاء في النصوص الدينية، كما يقول، والنظرة الاحتقارية التي ينظر بها المجتمع الإفريقي للبربر ما تصرف بهذه الطريقة.

ونجد كلاما مشابها عند صاحب «مفاخر البربر» الذي يجعل سبب تأليف كتابه مرتبطا بنظرة الناس إلى البربر، ويقول : «لما كانت البربر عند كثير من الناس من أخسر الأمم وأجهلها (...) رأيت أن أذكر ملوكهم في الإسلام» ويضيف «صارت أيضا محقرة عند الناس» (27).

وعندما تفاخر الشقندي أبو الوليد مع ابن المعلم أبي يحي الطنجي في حضرة والي سبتة الموحدي، كان أول تعريض للشقندي بالعدوة المغربية ينصب على كون سكانها من البربر، وقد ورد نص هذا الكلام في رسالة الشقندي وفيه «أتريد أن تقول كون أهل برنا عربا وأهل بركم بربرا، فقال حاشا لله ! فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه يريد ذلك» (28). ولما نعت ابن رشد يعقوب المنصور الموحدي «بملك البربر» (28 مكرر) عاقبه الخليفة بقسوة بأن شتت رجاله، ونفاه إلى مراكش، و لم يكن ليفعل ذلك لولا الحساسية التي يثيرها.

إن هذا الموقف السلبي الذي اتخذ من النسب البربري قد جعل أصحابه يخجلون من ذكر نسبهم ومحاولة إخفائه والالتحاق بأنساب عربية. وهذه الصورة لم يفلتوا منها حتى في

(25) الدباغ، معالم الإيمان، المطبعة العربية التونسية، 1320، ج. 1، ص. 204.
المالكي، رياض النفوس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1951، ج. 1، ص. 139.
عياض، ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج. 3، ص. 90-91.
(26) الدباغ، المرجع السابق، ج. 2، ص. 18.
(27) مجهول، مفاخر البربر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 1.
(28) نقلا عن المقري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 186.
(28) مكرر ـ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص. 436.

العصر المعاصر، بحيث نجد أن روبير مونطاني يرسم لهم صورة مشابهة بتحديد صفاتهم في : الجمود وشدة المحافظة وقلة الإبداع والخلق [29].

2- صورة البربري في الأندلس

إن الوقوف عند أغلب ما يرد عند الأندلسيين عن البربر، يكاد يعطي الانطباع بالتحامل والهجوم والكراهية الشديدة. ولقد شمل هذا الموقف أغلب أنواع المصادر. ولا غرابة في هذا الأمر، لأن أغلب المؤلفات التي نتوفر عليها إنما كتبت خلال القرن 5 هـ / 11م، وما بعده، وبعد اضطرابات هذا القرن والتي كان البربر أبطالها وخلفوا لدى الأندلسيين جروحا لاتكاد تندمل، ثم أعقب هذه الفترة دخول الأندلس تحت حكم البربر المرابطين والموحدين، وهي مهانة بالنسبة لهم، ماداموا ينظرون إلى أنفسهم نظرة تفوق عليهم، وكان عزاؤهم الوحيد هو التعبير عن حقدهم وكراهيتهم واحتقارهم لهم من خلال ما يؤلفونه.

ففي المؤلفات التاريخية المشهورة نجد تحاملا على البربر يتعارض مع منهج أصحابها العلمي فابن حيان المشهور بضبطه وتحريه في نقل الأخبار، لم يستطع إخفاء حقده وحقد أهل الأندلس على البربر ويعبر عن ذلك صراحة في أحد عناوينه :«خبر فتح سبتة، فرضة العبور الأسهل إلى بلد العدوة، ومبتدأ الوغول في مخالطة أهلها، أمم البرابر المنكرة الذين أحلو بعد حين ببلد الأندلس الفاقرة» [30]. ويتكرر هذا الموقف عند ابن بسام، وحتى عند ابن عذاري الذي بدا أكثر موضوعية، نقل من هذا النوع من الأخبار وسبق أيضا أن أوردنا قولا لابن حزم في الصفحات السابقة.

ونسجت أسطورة حول حقد البربر على أهل الأندلس، وميلهم إلى التدمير والتخريب، وتتعلق بطلسم قادس الذي بناه اليونان تخوفا من عبور البربر إلى بلادهم. وينقل لنا ابن

---

(29) Montagne (R), La vie sociale et politique des berbères, Regards sur le Maroc; CHEAM. Paris. 1986. p. 32-34

(30) ابن حيان، المقتبس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص. 288.

خلكان هذه الأسطورة كمايلي: « ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس بينهم سوى البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا (...) فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس لهم وبغضهم أبغضوهم وحسدوهم، فلا نجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا، ولابربريا إلا مبغضا أندلسيا» [31]. وهذه الأسطورة تؤكد على بغض أهل الأندلس للبربر ومبادلة هؤلاء لهم نفس الإحساس، ويعود ذلك إلى وحشية البربر، وجفائهم، ويؤكد ذلك قول لابن حيان عند حديثه عن المستعين الأموي: «وأنس ببيعة ستة من جهال البرابر أشباه نعام الدو وآساد الفيل استلانوا بعد قليل غرائز أهل الأندلس وحسدوهم مألفوهم من حسن الحال، فلم يلبثوا أن توثبوا عليهم آخر أمر الدولة [32]. ويؤكد الحجاري هذا البغض في مسهبه «وأهل العدوة يكرهون أهل الأندلس» [33].

وهذه المواقف كلها تؤكد على كراهية وبغض أهل الأندلس للبربر بحقدهم عليهم، وربما، كان هذا مايسمى بالإسقاط عند علماء النفس بحيث لا يعبر الأندلسيون إلا عن شعورهم الداخلي عندما يتهمون البربر بالحقد على أهل العدوة.

ونجد ضمن النصوص الأدبية الأندلسية أخبارا ومعلومات عن موقف الأندلسيين من البربر. وتمثل رسالة الشقندي أحسن نموذج. وقد اتهم البربر بقلة علمهم في جميع الميادين وجفاء الطبع والفقر والجشع، فهو الذي يقول : «... وتين بليش، وهو الذي قيل لبربري : كيف رأيته؟ قال لاتسألني عنه وصب في حلقي بالقفة، وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها». واتهم البربر بالثقل في النسب والأرواح [34].

يورد المقري أبياتا لأحد الأندلسيين يهجو فيها البربر، جاء فيها [35]:

---

(31) ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ج. 5، ص. 323–324

(32) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 298.

(33) المقري، المرجع السابق، ج. 6، ص. 12.

(34) نفسه، ص. 205. 206 و210.

(35) نفسه، ج. 1، ص. 405.

رأيت آدام في نـومـي فـقلت لـه أبـا البريـة إن النـاس قـد حـكموا
إن البرابـر نـسل منـك، قال: أنـا! حـواء طالـقة إن كـان مـا زعـموا

والأبيات كما هو واضح تحاول أن تجرد البربر من إنسانيتهم، وتعتبرهم مقابل ذلك من غير جنس البشر.

ونجد في النفح أبياتا للمستعين حليف البربر يهجو فيها البربر [36] .

فـواعـجبا مـن عـبشـمي مهـلـك يـزعـم العـوالي والمعـالـي تـبربـرا
فلـو أن أمـري بالخيـار نبذتـهم وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فـإما حـياة تستـلـذ بفـقدهـم وإمـا حـمام لانـرى فيه مـاوردا

وجاء في أبيات للمرتضى بشأنهم [37] :

قـد بلـغ البـربـر فـيـنا وبـنا ما أفـسد الأحـوال والنـظام
كـالسهم للطائـر لـولا الذي فـيه مـن الريـش لمـا أصـمي
فـقومـوا بنا في شـأنهم قـومـة تـزيـل عـنا العـار والـرغـما
إمـا بـها نـهـلك أولا نـرى مـايرجـع الطـرف بـه أعـمى

وتؤكد الأبيات على رفض أهل الأندلس لحكم وتحكم البربر لأنه عار ولايحق للبربري أن يدعي المعالي أو يتحكم في أهل الأندلس.

وشاركت الأمثال العربية بدورها في هجاء واحتقار البربر، بحيث نجد في كتاب «أمثال العوام» مجموعة من الأمثال التي تقدح في البربر وتسخر منهم، ورغم أننا لا نملك معلومات

(36) نفسه، ص. 405.
(37) نفسه، ص.405-406.

حول تاريخ صدور هذه الأمثال، فإنها تسير في نفس خط النصوص السابقة، ولا يستبعد أن تكون قد ظهرت خلال بداية القرن 5 هـ / 11م، عندما اشتد العداء الأندلسي للبربر، وبلغ الحقد ذروته أو بعدها بقليل. وأهم الأمثال الواردة بالكتاب نذكر [38]:

- البربري والفار : لاتعلمه باب الدار

- عطي البربر شبر، يطلب ذراع

- فقوس البربر، خشن وحلو

وهذه الأمثال تعرض بطبع البربر القائم على السيطرة والجشع وتدعو إلى الحذر منهم، كما تتهمهم بالخشونة والبخل.

ولانجد إلا مثالا واحدا يمدح البربر ويقول : لاحر إلا زناتي ولافرس إلا مكلاتي [39]، وهو يحيلنا على صفة الشجاعة والفروسية التي تميز البربر، وهي صفة كررت المصادر ذكرها في كل الفترات التاريخية [40] . وقد أثنى الحكم على هذه الخصلة البربرية أمام رجال دولته في قوله : «انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم (...) ما أعجب انقيادها لهم، كأنما تفهم كلامهم» [41] .

ونجد نصوصا أخرى يعير فيها البربر بصفات أخرى، كما جاء في رسالة للناصر إلى المعز الفاطمي :« وإنما بها [افريقية] برابر أغنام لا يميزون شيئا» [42].

(38) الزجالي، أمثال العوام بالأندلس، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1975، ج. 2، ص. 45 و 375 و 404 و 430.

(39) نفسه، ج. 1، ص. 210، من كلام محقق الكتاب محمد بنشريفة أثناء دراسته لهذه الأمثال.

(40) أخبار مجموعة، ص. 90.

(41) ابن حيان والمرجع السابق، ج. 6، ص. 191.

(42) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، المطبعة الرسمة للجمهورية التونسية، 1978، ص. 189.

ونجد عبد الرحمن الداخل يسخر من تكفات زوجة أبي قرة وانسوس المغيلي بقوله : «عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ماكان بي من الخوف، وسطعتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة : بل ذلك كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك» [43].

وردت حكايات أخرى تنعت البربر بالجهل مثل ما حدث في استعراض 347 هـ / 958م، وحكاية زطرزون بن نزار البرزالي مع المنصور بن أبي عامر عند حديثهما عن إعدام ابنه عبد الله [44].

وكان البربر أيضا يوصفون بأنهم حراثون، وعليهم أن لا يمارسوا عملا غير ذلك [45].

لقد اتضح أن الأندلسيين كانوا يستصغرون البربر وينعتونهم بمجموعة من الصفات أهمها : الحقد المتوارث لأهل الأندلس، وحسد الأندلس على خيراتها، والجهل وحب السيطرة والخشونة والبخل ونتونة الروائح وعدم الفصاحة وكونهم حراثين. بينما مدحوهم بالفروسية والشجاعة. ورغم ماتحمله هذه النعوث من نفس فلكلوري وبعدها عن الحقائق في كثير من الأحيان، إلا أن المهم هو أن هذه الصورة التي رسمها الأندلسيون للبربر لاتكاد تختلف عن الصورة التي وجدناها عند رجال أهل العصر الوسيط، وخاصة المشارقة منهم. وتماما كما تصرف هؤلاء مع البربر بقسوة في كل المواقف، فلن يختلف الأندلسيون عنهم حيث عوقب البربر على كل تصرفاتهم بقسوة، وبلغت موجة العداء قمتها عند بداية القرن 5 هـ / 11م عندما عذب البربر وسبيت نساؤهم وهتك عرضهم بقرطبة [46]. وستستمر هذه المعاملة طيلة هذا القرن، بحيث نجد عباد بن المعتضد يحتفظ برؤوس أعدائه البربر في خزانته للمباهاة بقتلهم [47].

---

(43) المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 313.
(44) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 221 . 222 و 295.
(45) نفسه، ج. 3، ص. 82.
(46) نفسه، ج. 3، ص. 81.
(47) نفسه، ص. 206.

لكننا لا نتوفر ولسوء الحظ على معلومات حول موقف البربر، إلا أن ما هو مؤكد هو أن الحقد يولد الحقد، لذلك فلا يستبعد أن يكون البربر قد عملوا على الانتقام لأنفسهم، وظهر ذلك جليا خلال اضطرابات بداية القرن 5 هـ / 11م (48).

لكن موقف الأندلسيين العدائي للبربر لم يمنعهم من تقليدهم والإعجاب بهم خاصة في ميدان القتال والفروسية. وقد سبق أن أوردنا نصا يبين مدى إعجاب الحكم بهم، ولكن موقفه هذا سبقه إعجاب العامة بهم واستعمالها للسروج العدوية في ركوبها الخيل، وحاول توقيف الموجة، ثم إنه انجرف بها بدوره (49) .

يمكن أن نخلص من دراسة الصورة التي رسمت للبربري خلال العصر الوسيط من طرف أدبياته وخاصة الأندلسية، أنها صورة فلكورية وسلبية. تتميز بالتحامل والهجوم، بحيث وصف بضعف التدين والانحراف والجهل والحقد والجشع واللا إنسانية، كما انتقدت تقاليده بشدة، لكنه مدح خاصة بالجود وإكرام الضيوف والشجاعة والفروسية. وقد انعكست هذه الصورة على نظرة البربري لنفسه، بحيث صار يخجل من ذكر نسبه، ويعمل بكل الوسائل على إخفائه، وتعويضه بنسب عربي خاصة، وهذا الموقف، ربما وقف حاجزا أمام إبداعات البربر وخلقهم.

---

(48) نفسه، ص. 90 ـ 102 و 106.

(49) ابن حيان، المرجع السابق، ج.6، ص. 190–191.

نتائج القسم الأول

1 ـ عملنا في البداية على التعرف على أصول البربر، فاكتشفنا بعد تتبع المصادر القديمة والوسيطية والأبحاث الفلسفية للقرن 20 ، ثم الأبحاث الأنثربولوجية واللغوية، أن الاختلاف يسيطر على أغلب المواقف، لكن أغلب الآراء تميل نحو جعل أصل البربر يعود إلى أصل مشرقي فلسطيني، وأصل محلي افريقي اختلطا ليعطيا الإنسان البربري المتوسطي، وتتبعنا أيضا تسمية سكان شمال إفريقيا خلال العصر الوسيط، فوجدنا أن الإسم الشائع هو تسمية البربر و لم نجد من يرفضه أو يعارضه، لذلك قررنا أن نعتمده في هذا البحث كاسم رئيسي.

2 ـ خصصنا الفصل الثاني لنتتبع مراحل الاستقرار البربري بالأندلس، أو بصيغة أخرى الهجرة البربرية إلى هذه المنطقة واعتمدنا في دراسة هذا الموضوع على تقسيمه إلى دورات هجرية. وتمكنا من تحديد ثلاث دورات تمتد الأولى والثانية على القرن 2هـ / 8م، والثالثة على القرن 4 هـ / 10م وبداية 5 هـ /11م، بينما كان القرن 3 هـ / 9م فترة هدوء وتوقف للهجرة، وقد مكننا استعمال الدورات الهجرية من التخلص من الهجرات المفردة، والتعرف على الميل العام للهجرة، كما سمحت لنا بدراسة الهجرة المضادة، وكذلك التغيرات التي تحدث على مواطن البربر قبل استقرارهم النهائي في الأندلس. وقد اتضح لنا من خلال تتبع عوامل وأسباب الهجرات أنها كانت في الدورة الأولى مرتبطة بالفتح والجهاد والرغبة في الغنائم، بينما كانت في الدورة الثانية سياسية عسكرية، وكانت آخر دورة متنوعة العوامل : سياسية ـ عسكرية واقتصادية ودينية وعلمية.

3 ـ خصصنا الكلام في الفصل الثالث للحديث عن مواطن البربر في الأندلس. ففي البداية توقفنا عند أغلب الآراء حول هذه المواطن، فوجدنا أنها تقوم بالفصل بين مواطن عربية سهلية ملائمة، ومواطن بربرية جبلية وهضبية قاسية الظروف. وناقشناها، فتوصلنا إلى إثبات غلبة الطابع الجبلي على مواطن البربر مع وجود مواطن سهلية، واختلفنا مع الآراء السابقة حول تفسير عوامل اختيار هذه المواطن. فبعد نفينا لارتباطها بتقاليد بربرية واختيارها العفوي، بينا أن هذا الاختيار اجتمعت لتحدده عوامل ترتبط بعدم التوزيع الشرعي للأرض

في الأندلس وجهل البربر بتقاليد اقتسام الغنائم وحماسهم للفتح، ثم استراتيجية الفاتحين التي جعلت من البربر درعا بشريا أمام آخر المعاقل المسيحية في الشمال الغربي لشبه الجزيرة، وأخيرا الأحداث التاريخية التي عرفتها الأندلس والتي كرست هذا الاتجاه خاصة نحو المناطق الشمالية والشمالية الغربية والجنوبية. وتمكنا بعد تتبع الأخبار التي تقدمها المصادر من تحديد الكثافات البربرية في الأندلس.

4 ـ ناقشنا النظام الداخلي للبربر في الأندلس، فوجدناه يعتمد على النظام القبلي الذي يجعل العشيرة وحدته الأساسية، وتقوم فيه العلاقات على أسس دموية في إطار تنظيم انقسامي أبوي. وكانت علاقات الزواج داخلية، رغم أننا لم نستطع أن نؤكد على وجود زواج بابنة العم الشقيقة، ووجدنا زواجا خارجيا بين العرب والبربر وبين البربر والمولدين، لكنه زواج مصلحة سياسية أو اقتصادية ـ اجتماعية. وحاولنا أن نتتبع علاقات البربر الداخلية، لكننا اكتشفنا أنها علاقات عادية تتراوح بين التقارب والتعاون، والصراع والتنافر.

5 ـ يؤكد الكل أن الولاء والموالي لعبوا دورا مهما في دعم العرب في الأندلس، لذلك تتبعنا ولاء البربر للعرب، فوجدنا أن النوع الغالب عليه هو الحلف والجوار، بينما يقل ولاء النعمة والإسلام. ولاحظنا أيضا أن أكثر الاتحاديات البربرية ميلا إلى الولاء هي زناتة. وكان البربر يميلون في ولائهم إلى القبائل الشمالية المضرية سيرا مع ميزان القوى في الأندلس. أما من ناحية توزيع الموالي البربر في الأندلس فنجد أن المناطق الوسطى والجنوبية تعتبر من أكثر المناطق احتواء على الموالي البربر.

6 ـ حاولنا أن نتعرف على لغة بربر الأندلس فوجدنا أن الباحثين ينقسمون إلى قسمين: فريق يقول بتعريبهم، وفريق يقول بازدواجية لغتهم. فتتبعنا الجهود التي بذلها البربر من أجل التعريب وخلصنا في آخر المطاف إلى أنها غير كافية لإفقاد البربر لغتهم البربرية، وأكدنا على أنهم خاصة في البوادي قد حافظوا على لغتهم الأم. واستعملوا إلى جانبها اللغة العربية كلغة لمخاطبة الأجانب عن العشيرة والإدراة والثقافة والعبادة.

7 ـ أردنا أن نتتبع في الفصل الأخير الصورة التي رسمت للبربري عند رجال العصر الوسيط، وخاصة منهم أهل الأندلس. فاكتشفنا من مصادرنا القليلة، أن الصورة سلبية وقاتمة، بحيث انتقدت تدين البربري وعاداته وتقاليده، ولم تحمد له إلا شجاعته وكرمه. وبينا أن هذه الصورة قد نتجت عن صعوبة فتح المغرب وتبنيه للمذاهب الخارجية ثم تمسكه بتقاليده البربرية. وأظهرنا أن هذه الصورة قد انعكست على نفسية البربري الذي أصبح يخجل من ذكر نسبه، ويحاول بكل الوسائل إخفاءه والتخلص منه.

القسم الثاني

دور البربر في التطور السياسي للأندلس

الفصل الأول:
مساهمة البربر في
ترسيخ الوجود الإسلامي بالأندلس

كان البربر، منذ السنوات الأولى للفتح عنصرا فعالا وأساسيا في ترسيخ واستمرارية الوجود الإسلامي بالأندلس، فهم الذين ضموا هذه البلاد إلى حظيرة الإسلام عندما قادوا حركات الفتح، ثم كانوا بعد ذلك حراسا آمنين على هذه المكاسب أمام الاطماع وحركة الإسترداد المسيحية. وكانوا أيضا إلى جانب مؤسس الدولة الأموية منذ نشأة الدولة، ودعموا فيما بعد خلفاءه، وحتى تتضح لنا هذه المساهمة بشكل جلي وواضح، فسنعمل على تتبعها من خلال التعرف على المجهود الذي بذله البربر أثناء فتح البلاد، وكذلك مشاركتهم الدائمة في حمايتها، ثم موقفهم من مؤسس الدولة الأموية وما قدموه له من خدمات.

1- البربر الفاتحون

تجمع المصادر والدراسات الحديثة على أن البربر هم الذين تولوا كبر فتح الأندلس، وتعددت عبارات الثناء والمديح في حقهم فهذا عبد العزيز السالم يقول: «وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الفتوح العربية التي يتولى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس»[1]. أما دوزي فيقول: «لقد كانوا الفاتحين الحقيقيين للبلاد، أما موسى وأصحابه العرب فلم يعملوا أي شيء غير جني ثمار انتصار طارق والاثنا عشر ألف بربري على جيش القوط»[2] ويؤكد ذلك ليفي بروفنسال بإثباته أن فتح الأندلس عمل بربري محض[3].

(1) السالم، عبد العزيز، المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ج 2، ص. 270.

(2) Dozy (R), Histoire des musulmans d'Espagne, Maisonneuve, Paris, 1952,t 1, p.160.

(3) Lévi-Provençal (E), L'Espagne au 10ème siècle. Larose, Paris, 1932, p.9

وسبق للمصادر القديمة أن أكدت هذه الحقيقة بحيث نجد عند ابن عذاري نصا يثبت ذلك، وجاء فيه : «وقد اتفق الجميع فيما يظهر على أن متولي كبر فتح الأندلس وجله ومعظمه طارق بن زياد» [4].

وقد نال الفتح الإسلامي من تاريخ الأندلس أكبر الإهتمام، بحيث لا نكاد نتصفح مصدرا، تناول هذه البلاد وتاريخها، دون أن نجد فيه حديثا قليلا أو كثيرا عنه ورغم سعة الإهتمام، فإن المشكل يكمن في تكرار نفس المعلومات بين المصادر والاختلاف الذي يصل إلى حد التناقض في كثير من الجوانب، ثم إشباع الأخبار بالروح الملحمية، مما جعلها تتضمن مجموعة من الأخبار الخرافية، وأخيرا افتقارها إلى بعض التفاصيل الضرورية مثل، طرق الفتح وأطواره، وتواريخ انضمام المناطق وطريقة فتحها.

رغبة منا في توضيح مساهمة البربر في فتح الأندلس، ارتأينا أن نتوقف عندها بشكل متأني، بحيث ننبش أولا عن مصدر فكرة فتح الأندلس، ثم قيادة الفتح وخاصة زعيمها طارق بن زياد وأصول الجيوش، وأخيرا أهم المناطق التي ضمها الفاتحون الأوائل.

نفتتح هذه المناقشة بالبحث عن مصدر فكرة الفتح، فبعد العودة إلى المصادر نكتشف أن هناك اختلافا وتناقضا في الآراء ولكننا سعينا إلى تصنيف هذه الأقوال، فوجدناها تسير في ثلاثة اتجاهات.

يؤكد الاتجاه الأول على جعل فكرة الفتح من إبداع واختراع موسى بن نصير، بحيث أمر قائده وعامله على طنجة طارق بن زياد بالجواز إلى الأندلس بعد أن زوده بالجيوش الضرورية [5]. ويفهم من نص أورده ابن خلدون أن موسى وجه البربر لفتح الأندلس من أجل إخضاعهم، والقضاء على تمردهم الدائم[6].

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج 2، ص 5.

(5) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص.17.
ابن خلكان، وفيات الاعيان، دار الثقافة، بيروت، ج 5، ص 320.
ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، ج. 4، ص. 561.
ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، معهد الدراسات الإسلامي، مدريد، 1971، ص. 46.

(6) ابن خلدون، العبر. دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 4، ص. 144.

ويعزي الاتجاه الثاني فكرة الفتح لوالي سبتة يليان الغماري[7] وهو بذلك من جماعة الأفارقة الذين تبنوا الثقافة الرومانية، وتعاونوا مع الرومان في حكم مدن شمال افريقيا، وتختلف المصادر حول سبب دعوته المسلمين إلى فتح شبه الجزيرة الإيبيرية مع تأكيد أغلبها على مسألة رغبته في الإنتقام لشرف ابنته التي اغتصبها لذريق[8] كما تختلف أيضا حول الشخص الذي توجه إليه، فمجموعة تقول إنه استنجد بموسى بن نصير[9]، أما المجموعة الثانية، فتجعل وجهته مدينة طنجة حيث يوجد طارق بن زياد[10]. ويبدو أن هذا الرأي الثاني أكثر ترجيحا نظرا لقرب طارق من سبتة والأندلس وأيضا لأن المصادر تتحدث عن القائد الأعلى عند ذكر أعمال القواد الصغار التابعين له.

أما المجموعة الثالثة، فتنسب فكرة الفتح إلى طارق بن زياد، إما بسبب استنجاد أبناء الملك غيطشة به ضد لذريق مغتصب ملك أبيهم[11]، أو لأنه كان محبا في الجهاد ويعمل على نشر الإسلام وتوسيع أفقه[12]، أو لأن طارق توصل بأخبار ضعف الأندلس والاضرابات التي تعيشها بواسطة يليان أو غيره[13].

يظهر أن هذه الآراء تختلف إلا أنها لا تتناقض، وقد نرتبها بطريقة أخرى، فيليان يخبر طارقا بضعف الأندلس ويحرضه على فتحها، وطارق بدوره يبعث الإقتراح إلى قائده الأعلى موسى فيباركه ونرجح أن يكون هذا هو مسار تطور الفكرة لعدة اعتبارات، فكون موسى الوالي على كل شمال افريقيا يجعل المصادر تنسب إليه كل عمل أنجزه عماله على الجهات

(7) نفسه، ج. 4 ، ص. 239.

(8) نفسه، ج. 4، ص. 150، ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والزندلس، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص. 72. المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، البيضاء 1978، ص. 21.

(9) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 1، ص. 216، القلقشندي، صبح الأعشى، المؤسسة المصرية العامة، ج. 5، ص. 242.

(10) ابن عذاري، البيان، ج.2، ص.7. المراكشي، المعجب، ص. 21. ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص.72-73.

(11) الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص.42.

(12) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، رقم 558، ص. 116.

(13) الحميدي، جذورة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 3. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 34.

ويثبت هذا كون بعض المصادر تنسب إليه فتح الأندلس[14]، ولكن الأمر يجب فقط أن يحمل على المجاز، أما دور يليان، وإذا أخذنا بما تقرره المصادر، فلا يتجاوز حد لفت انتباه طارق، إذ لا يعقل أن يتحرك جيش إسلامي للانتقام لشرف «كافر» وهو لم يخضع بعد للمسلمين، وإنما دخل معهم في هدنة.

أما طارق بن زياد فإن وجوده بطنجة قد مكنه من التعرف على أخبار ضعف واضطراب الأندلس فرغب في الجهاد، فاستعان بخدمات يليان الذي يعرف البلاد جيدا وله من الدوافع ا لشخصية ما يجعله يخلص في نصائحه وإرشاداته، وما يثبت أكثر هذا المذهب هو أن المصادر عندما أثارت قضية خلاف موسى وطارق ربطته بهذا العامل فهذا الرقيق يقول: «وبلغ موسى أن طارق بن زياد فتح الأندلس ودخلها، فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة، فغضب غضبا شديدا» [15].

ويقول الحميري: «فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الخضراء منتهزا فرصة أمكنته، فدخلها وأمعن فيها، واستظهر على العدو بها، وكتب إلى موسى بن نصير بغلبته» [16] ويورد ابن كثير أن موسى «كتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره، ويأمره أن لايتجاوز مكانه حتى يلحق به» [17] وتوضح هذه النصوص أن طارقا قد تصرف وفقا لفكرته مُستفيداً من العلاقة التاريخية التي تربط شمال إفريقيا والأندلس.

يمكن أن نستنتج من كل ما سبق، أن فكرة فتح الأندلس قد راودت طارق بن زياد وهذه إحدى المهام الرئيسية التي توكل إلى الولاة، فكل واحد مكلف بتوسيع نفوذ الإسلام خلف أراضيه، فاستعان بخبرة يليان واجتاز البحر بعد أن حصل على موافقة قائده الأعلى. أو أنه أجل تلك الموافقة إلى ما بعد تحقيق أولى الانتصارات.

ويظهر الدور البربري أيضا من خلال قيادة الجيش، بحيث كان القائد المكلف بالفتح طارق بن زياد، فمن هو طارق هذا ؟ يحظى طارق بالثناء والمديح من طرف كل من تحدثوا

(14) مجهول، أخبار مجموعة، ص. 16.

(15) الرقيق، المرجع السابق ص. 44.

(16) الحميري، المرجع السايق، ص. 3.

(17) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، 1978، ص.83.

عنه كانوا قدماء أو محدثين. فصاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها» يقول عنه أنه كان محبا في الجهاد [18]، ويقول عنه الحجي: «كان طارق عسكريا ناجحا وقائدا ممتازا، مخلصا للاسلام متحمسا لنشره»[19]. وجاء عند ابراهيم بيضون كان «طارق دائما رجل المهمات الصعبة منذ أن عرفته الجبهة الإفريقية مقاتلا عنيدا وقائدا بارزا»[20].

وبالرغم من هذا المديح، فإن معلوماتنا عن حياة طارق وأطوارها ضعيفة، بحيث نجهل كل شيء عن بدايتها ونهايتها، وتقتصر معلوماتنا عنه على فتح الأندلس، وبعض أعماله في شمال إفريقيا.

تختلف المصادر حول أصله، بحيث ينسبه البعض إلى فرس همذان[21]. ويجعله آخرون من القبيلة العربية اليمنية الصدف [22]، ويجعله آخرون مولى لموسى بن نصير أو للصدف[23].

أما أغلب الروايات فتنسبه إلى بربر نفزة[24] وهو القول الأكثر ترجيحا والأقرب إلى الصواب، وقد أخذ به أغلب الباحثين المعاصرين[25].

وتختلف المصادر أيضا حول اسمه، فابن عبد الحكم يقول إن اسمه طارق بن عمرو[26] أما صالح بن عبد الحليم فيسميه طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم[27] ويسميه الحميري والإدريسي طارق بن عبد الله بن ونمو[28] ويبدو أن الرواية الثانية أكثر انتشارا وشهرة لذلك فهي الأكثر ترجيحا.

---

(18) مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص.116.

(19) الحجي عبد الرحمان، التاريخ الأندلسي، جامعة بغداد، 1976، ص. 47.

(20) بيضون إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص. 68.

(21) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 5. ابن الشباط، وصف الأندلس، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971، ص. 168.

(22) نفسه.

(23) المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص 238.

(24) نفسه، ابن عذاري، المرجع السابق، ج.2، ص. 5.

(25) الحجي، المرجع السابق، ص 47. مؤنس، حسين، فجر الأمدلس، الشركة العربية، القاهرة، 1959، ص 68.

(26) ابن عبد الحكيم، المرجع السابق، ص.80.

(27) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 5، ص.5.

(28) الحميري، الروض المعطار، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1960، ص. 539. الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج. 2، ص. 839.

ونجهل كل شيء عن بدايته، فحسين مؤنس يرى أنه ينتمي إلى أسرة أسلمت على يد عقبة بن نافع في شخص جده عبد الله[29]. وتورد بعض المصادر أنه كان على مقدمة جيش موسى بن نصير منذ أن خرج من افريقية في اتجاه المغرب الأقصى «فلم يزل يقاتل البربر، ويفتتح مدائنهم وبلدانهم حتى بلغ طنجة»[30].

وتختلف المصادر حول المهام الإدارية التي تولاها قبل فتح الأندلس، بحيث يذكر بعضها أنه كان واليا على سجلماسة[31]، بينما تؤكد الأغلبية على توليه طنجة التي اجتاز منها إلى الأندلس عام 92 هـ/ 711 م، وبعد إنجازه للفتح، سافر مع موسى إلى دمشق فغابت عنا أخباره فأنهى بذلك حياته كما بدأها مغمورا، ولا ندري سبب هذا الإهمال من قبل الخلافة الأموية. فهل هو ناتج عن ذلك التقليد السائد آنذاك والذي يعمل على إقصاء كل أعوان رجال الدولة المغضوب عليهم، أم لسبب آخر؟ يقدم لنا المقري تفسيرا بسيطا في نص جاء فيه «أراد سليمان بعد تعذيب موسى صرف سلطان الأندلس لطارق، فاستشار مغيث الرومي في شأنه، فقال عنه: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه و لم يروا أنهم كفروا». فتراجع سليمان[32]. فالنص يوضح أن إقصاء طارق كان ناتجا عن تخوف سليمان بن عبد اللملك من استقلاله بالأندلس، خاصة وقد شاهد بأم عينيه ما تلقاه موسى الذي قضى عمره لترضية بني أمية وخدمتهم.

لقد تحول طارق إلى بطل أسطوري نسجت حوله الأساطير، بحيث تذكر عدة مصادر أنه أثناء جوازه إلى الأندلس غفا فوق المركب فرأى النبي فبشره بالفتح وأوصاه بالرفق[33] كما وردت روايات تخبر بوجود تنبوءات لدى أهل الأندلس تعلم بقدومه وأوصافه[34].

وتثني المصادر على مكانة طارق الأدبية، حيث يقول عنه المقري «كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه»[35] وفي هذا الصدد يدخل الحديث عن إلقائه لخطبة أمام جيوش

(29) مؤنس، المرجع السابق، ص. 68.

(30) مجهول، أخبار مجموعة، ص. 14-15. المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 215.

(31) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 5.

(32) المقري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 12.

(33) ابن الشباط، المرجع السابق، ص. 179. ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 4، ص 56.

(34) قصة العجوز التي التقاها طارق، المقري، المرجع السابق ج. 4، ص 216.

(35) نفسه، ج. 1، ص. 215.

الفتح[36] وحتى لو صح أن طارقا يتقن العربية لقدم إسلام أسرته واحتكاكه بالعرب، فإن أغلب جيوشه لا يعرفون العربية، لذلك يستبعد أن يكون قد ألقاها. إذن، لقد كان قائد الفتح طارق بن زياد بن عبد الله النفزي البربري من افريقية والذي شغل عدة مناصب إدارية وقيادية كان آخرها فتح الأندلس وتوليها لمدة سنة تقريبا.

إلى جانب طارق تذكر المصادر قائدا آخر قد سبقه في حملة تجريبية عام 91 هـ / 710 م وهو طريف الذي تنسب إليه جزيرة طريف، ولكننا لا نملك عنه أخبارا كافية. فحتى الاسم يلفه الغموض، فهو تارة طريف، وتارة ثانية طريف بن مالك، وتارة أخرى أبو زرعة طريف[37]. وتضيف المصادر أنه مولى لموسى بن نصير[38]. وقد قاد حملة تجريبية مكونة من خمسمائة رجل، نزلت بسواحل الأندلس فغنمت وسبت وعادت تحمل الغنائم والأخبار عن طبيعة الأوضاع في البلاد.

سبق لنا في القسم الأول أن ناقشنا مكونات الجيش الفاتح مع طارق بن زياد فاستنتجنا أنه يتكون من 12 ألف مقاتل أغلبهم من البربر كما أبرزنا أيضا أن البربر لما توصلوا بأخبار الانتصارات الأولى لطارق ورجاله تدفقوا على المضيق بكل الوسائل مدعمين لجيوش الفتح، ويظهر أن عمل الفتح عمل بربري محض سواء في قيادته أو جنوده، فما هي أهم المناطق التي فتحوها ؟

بعدما تأكد طارق من إمكانية فتح الأندلس بفضل المعلومات التي توصل بها، وكذلك الإفادات التي قدمها له يليان حاكم سبتة الغماري، اجتاز المضيق انطلاقا من سبتة. فشرع في عملية الفتح، ففي بداية عمله أقام قاعدة خلفية بجبل طارق ببناء حسن شحنه بالعدة والرجال[39]، ثم انطلق بعد ذلك في اتجاه الشمال ليلتقي بالملك القوطي لذريق في معركة حاسمة جرت بكورة شذونة على وادي لكه، وقد استغرقت مدة اختلفت

---

(36) ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 321.

(37) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 4، ص. 561. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 4-5، المقري، المرجع السابق، ص. 214.

(38) نفسه.

(39) الحميري، المرجع السابق، ص. 224، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، ص. 117.

الروايات في تحديدها، بحيث جعلها بعضها يوما واحدا [40]، وجعلها آخر ثلاثة أيام[41]، في حين مددها آخرون إلى سبعة أيام[42]، وحددها فريق رابع في ثمانية أيام[43] ويبدو أن هذا الرأي الأخير أكثر صوابا، لأن المواجهة بين جيشين بتلك الأعداد الكبيرة التي تذكرها المصادر لن يمكن حسمها بسهولة وبسرعة، وسيتطلب الأمر عدة مواجهات، وكيفما كان الحال، فإن طارقا وجيشه حقق انتصارا حاسما فتح الطريق أمامه لاجتياح باقي البلاد دون مصاعب كبرى، فكل ما تبقى أمامه مجرد حصون ومدن يعتصم بها بعض المقاومين، ويتطلب استنزالهم بعض الصبر والتأني. لقد استطاع طارق في شوال من 92 هـ/ 711 م، ضم كورتي تاكرنا ومورور، ومن مدينة استجة قاعدة هذه الأخيرة سيرسل طارق الجيوش إلى مختلف الكور بعدما قسم جيشه إلى سرايا[44] وهكذا توجهت سرية بقيادة مغيث الرومي إلى مدينة قرطبة، وسرية ثانية في اتجاه رية وإلبيرة، بينما تختلف المصادر حول إرساله لسرية نحو جيان وتدمير، فإذا كان المقري يؤكد أن افتتحهما[45]، فإن آخرين يرفضون ذلك وينسبون الفتح لعبد الأعلى بن موسى بن نصير في السنة الموالية[46] أما طارق فسار في معظم الجيش نحو طليطلة قاعدة القوط، متوخيا السرعة من أجل تجنب أي تجمع جديد للقوط بها، فتمكن من فتحها دون مقاومة لأنه وجد أهلها قد غادروها[47] وفي هذه المدينة توقف طارق ليقضي فصل الشتاء، وربما لانتظار قائده موسى بن نصير، ويبدو أنه أثناء هذه الوقفة لم يكن عاطلا، بل كان يرسل الغارات إلى الأحواز يضمها مثل: وادي الحجارة وأمايا[48] وتذكر بعض المصادر أن طارق فتح أيضا مدينة اشبيلية[49] صلحا،

---

(40) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 7.

(41) نفسه، ص. 8.

(42) مجهول، ذكر سبب فتح الأندلس، ص. 4.

(43) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 8. ابن الشباط، المرجع السابق، ص. 135. النويري، تريخ المغرب الاسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء. 1985، ص. 205.

(44) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج. 4، ص.101. الكامل، ج. 4، ص. 563. أخبار مجموعة، ص. 19. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 9-11.

(45) المقري، المرجع السابق، ج، 1، ص. 243.

(46) ابن عسكر، بعض فقهاء مالقة وأدباؤهم، مخطوط الخزانة الملكية، رقم 11055 ص. 68.

(47) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 4، 564.

(48) أخبار مجموعة، ص.23. المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 248.

(49) المقري، المرجع السابق، ج 1، ص 243.

ولكن مصادر أخرى تدرجها ضمن المناطق التي فتحها موسى بن نصير عند جوازه[50]، ويمكن التوفيق بين هاتين الروايتين المتناقضتين بكون المدينة بعدما فتحت أبوابها خوفا من جيوش طارق عادت من جديد إلى التمرد والامتناع فأعاد موسى فتحها ثانية.

حتى نهاية شتاء سنة 92 هـ / 711 م استطاع طارق أن يفتح مجموعة من الكور أهمها : تاكرنا وموررور ورية وإلبيرة وقرطبة وطليطلة.

بعد جواز موسى بن نصير اتخذ طريقا آخر، فمر من غرب الأندلس مفتتحا هذه المناطق ويلتقي بطارق بمدينة طليطلة، وهنا تسهب المصادر في وصف الخلاف الواقع بين موسى وطارق وتصرف الأول القاسي اتجاه الثاني، ولا ندري هل كان صراعا حقيقياً أم هو من اختراع وأكاذيب مؤرخي العصر ؟ وكيفما كان الحال، فهذا الخلاف لم يكن ليؤثر على سير الفتوح، فموسى في أعماله كان فقط يكمل ما بدأه طارق، وأنه بعدما صفا الجو جعل طارقا على مقدمة جيوشه ليفتح مناطق في أقصى الشمال والشمال الغربي من الأندلس.

شارك البربر وقائدهم طارق في فتح الثغر الأعلى (سرقسطة وأعمالها) وبرشلونة وأربونة وبعض المناطق الواقعة جنوب جليقية وماردة وولبة واكشونبة ولشبونة وطرقونة[51]، وتوقفت الفتوح خاصة في جليقية باستدعاء موسى من الشام.

لم يتوقف دور البربر في الأندلس بتوقف أعمال الفتح، بل تحولوا إلى دور أخطر بتكفلهم بحماية مكتسبات الفتح، فقبل رحيل موسى، وكما سبق أن وضحنا ذلك، عمل على تكوين حصن بشري في مواجهة المناطق المسيحية[52]، وكان البربر مادته الأساسية وسيظلون جيوش الثغر عبر تاريخ الوجود الإسلامي بالأندلس يردون هجومات الأعداء، ويهاجمون أراضيهم، وقد اعترف لهم الأمراء والخلفاء الأمويون بهذا الدور، بحيث كانوا يسجلون لهم على حصونهم ومناطقهم ليتيحوا لهم فرص القيام بهذا الواجب[53].

(50) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 4، ص. 564.

(51) المقري، المرجع السابق، ج 1، ص. 256.255.

Luis G. de Valdeavellano. Historia de Espana, Ed. Alianza, Editorial, Madrid, 1988 t 1, pp. 375-376

(52) نفسه، ص. 218.

(53) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد، ج. 5، ص. 438/437 .
ابن حيان، المقتبس، من أنباء أهل الأندلس، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج.6، ص 203.

لقد كان فتح الأندلس فكرة بربرية جاء بها القائد طارق بن زياد، فنفذها بجيوش معظمها بربري وتمكن من فتح أغلب مناطق الأندلس باستثناء بعض الأجزاء غرب وشرق وأقصى شمال الأندلس ولما رحل القائد مع موسى إلى دمشق ترك جنده البربري يرعى ويسهر على مكتسبات الفتح، ويعمل على تجنيبها الدمار والنسف من طرف العدو المسيحي المتربص بها، لقد كان الفتح بربريا في كل شيء فكرة وقيادة وجيشا وفتوحات.

2- مساندة البربر لتأسيس الدولة الأموية

استفاد عبد الرحمان الداخل في تأسيس دولته الجديدة كثيرا من دعم ومساندة البربر قبل دخوله الأندلس، وبعد جوازه. ومادامت المرحلة الأولى لا تدخل ضمن شرطنا المكاني فلن يتجاوز كل كلامنا عنها بعض الإشارات، بينما سيتركز كلامنا على المرحلة الأندلسية.

منذ حلوله بافريقيا الشمالية، وجد عبد الرحمان بن معاوية الدعم والمساعدة، ورغم أن مصادرنا شحيحة في هذا الصدد، فإنها تتفق حول كونه قد قضى ردحا من الزمان عند أخواله نفزة لأن أمه راح من سبيهم، ويبدو أن الحديث يتعلق بأحدى فروع هذه القبيلة بافريقية(54). وأمام المخاطر المحيطة به، فرنحو الغرب فنزل عند قبيلة مغيلة على ساحل البحر المتوسط(55)، ونزل ضيفا على شيخها أبي قرة ابن وانسوس الذي حماه من رجال عبد الرحمن بن حبيب الفهري(56)، ومن مواطن مغيلة انطلق عبد الرحمن نحو الأندلس بعد أن مهد له دعاته في البلاد، ونزل بالمنكب بكورة رية. ويبدو أن عبد الرحمن بن معاوية قد حمل معه من سواحل افريقية مجموعة من الصنائع رغم أن المصادر لا تخبرنا، وما يؤكد لنا هذا هو كون بربري يدعى ميمون بن سعد مولى الوليد بن عبد الملك قد اجتاز معه، وعينه واليا على طليطلة(57)، كما أنه أوصى بعضهم بالإلتحاق به أو استدعاهم بعد

(54) النويري، المرجع السابق، ص. 57، أخبار مجموعة، ص. 57. ابن الابار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1965، ج. 1، ص. 35.

(55) لا نستطيع من خلال ماتقدم لنا هذه المصادر ضبط موقع هذه المنطقة وقد نرجح أن تكون على سواحل المغرب الأوسط مادامت قريبة من يد عبد الرحمان بن حبيب الذي جاء يفتش عنه عند شيخ قبيلة مغيلة.

(56) المقري، المرجع السابق، ج : 1، ص. 312-313. أخبار مجموعة، ص. 71-72.

(57) ابن الأبار، التكملة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955، ج.1 ، ص . 315.

سيطرته على السلطة، ليكونوا من مساعديه الاقربين ومنهم أسرة أبي قرة ابن وانسوس المغيلي[58].

عند نزوله بالمنكب، تلقى عبد الرحمن دعم وبيعة الموالي الأمويين مثل : جدار بن عمرو القيسي بأرجذونة قاعدة كورة رية وأبي عثمان بطرش بالبيرة وعبد الله بن خالد بالفنتين وكلهم عرب. وسارع الموالي البربر بدورهم إليه بحيث بايعه بنو الخليع المديونيون موالي يزيد بن عبد الملك بتاكرنا وأتوه في 400 فارس[59]. وفي كورة مورور التحق به سابق الرديف، جد بني سابق وهم من البرانس في طريقه إلى قرطبة [60]، وبايعه جد بني إلياس المغيليون موالي بني أمية وأتوه « في عدة كثيرة» بكورة شذونة [61]. و«انضم إليه بنو أمية بقرطبة، وكان منهم بيوتات لها وفر وثروة من البربر وغيرهم»[62]، وتلقى أيضا دعم إبراهيم بن شجرة البربري بمورور[63].

لقد اكتسب عبد الرحمن عند اقترابه من قرطبة قاعدة بشرية كبيرة مكونة أساسا من الموالي ويشغل البربر داخلهم مكانة مهمة لوفرة عددهم.

أثناء مواجهاته مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري، كان ضمن جيش عبد الرحمان عدد مهم من البربر، فإضافة إلى 400 فارس من بني الخليع، فهناك عدد كبير من مغيلة شذونة ومن برانس مورور وأتباع ابراهيم بن شجرة والموالي البربر بقرطبة، فجعل رجالة البربر والموالي الأمويين تحت قيادة عاصم العريان، وجعل فرسان البربر تحت قيادة إبراهيم بن شجرة الأودي[64] فهذه العناصر كلها شاركت في تحقيق نصر المصارة وإبلاغ عبد الرحمان إلى منصب الإمارة.

(58) المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص 312-313.
(59) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 50.
(60) نفسه، ص. 52.
(61) نفسه، ص. 50.
(62) أخبار مجموعة، ص. 84.
(63) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 56.
(64) أخبار مجموعة، ص. 1.

بعد تحقيقه للنصر، ظلت الأنـدلس تتقد جمرة من الثورات، فالتجأ عبد الرحمان من جديد إلى مواليه البربر لتهـدئة البربر الثـوار، وضمهم إلى صفه، وهكـذا فخلال ثـورة عبد الغفار بلبلة، استخدم عبد الرحمان مواليه من بني الخليع وبني وانسوس لاقناع البربر بالتخلي عن الثوار والانضمام إليه، فنجحوا في مهمتهم وأنهزم الثوار[65]، ونفس الدور قام به بنو ميمـون الذين استمـالوا البربر المسـاندين لحيوة بن ملامس الثـائر باشبيلة سنة 145 هـ/763م[66] لقد استطاع عبد الرحمان أن يكتسب أتباعاً جددا باستخدام مواليه البربر، كما أفشل ثورات هددت حكمه، وكان ممكنا أن تزعزع مركزه.

أمام كثرة الثورات التي واجهت عبد الرحمان تحت قيادة العرب وحتى عناصر من بيته الأموي، فقد عبد الرحمان ثقته فيهم فانحرف إلى اتخاذ الموالي واعتضد أيضا بالبربر، ووجه عنهم إلى العـدوة، فأحسـن لمن وفد عليـه إحسـانا رغب من خلفه في المتـابعة، قال ابن حيان «واستكثر منهم ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل صار بهم غالبا على أهل الأندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطدت»[67]. فالنص يوضح أن البربر قد اشتغلوا كمرتزقة في جيش عبد الرحمان عوض بهم العرب المنافسين له ويبدو من خلال النجاحات المتكررة التي حققها عبد الرحمان على الثوار المتعددين على مدى فترة حكمه أنهم لعبوا أكبر الأدوار وأهمها.

لقد كان البربر سندا كبيرا لعبد الرحمان الداخل أثناء مروره بالمغرب، وكذلك أثناء تحركاته في الأندلس، فقد ساهموا في تكوين أول قاعدة له بتقديم بيعتهم وتكوين أول عناصر جيشه، ولعبوا دورا دعائيا لحكمه من خلال جلب البربر الآخرين واستمالتهم إلى جانبه سواء في حالة السلم أو عند الثوراث، وأخيرا كان البربر ضمن جيشه المرتزق عنصرا رئيسيا وفعالا، وبذلك يكون البربر قد قدموا أكبر الخدمات لمؤسس الدولة الأموية، وسيظلون وخاصة الموالي، أوفياء للدولة في كل الفترات الحرجة.

(65) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 56.

(66) أخبار مجموعة، ص. 98-99.

(67) المقري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 36.

ننتهي إلى أن البربر، قد لعبوا دوراً فعالا في توطيد الحكم الإسلامي في الأندلس، فقد كانوا أصحاب فكرة الفتح ورواده ومنفذيه، ثم حماة مكاسبه بمواصلة الجهاد في الثغور، ورد هجومات المسيحيين وعندما ضعف حكم الولاة، وظهرت قيادة جديدة في شخص عبد الرحمان الداخل، دعموه معنويا بالبيعة وماديا بالقتال إلى جانبه كمجندين للكور وكدعاة له في أوساط إخوانهم وأبناء جلدتهم وكمرتزقة عوضوا الجيش القبلي الأقل ولاء وانقيادا، فساعدوه على تحطيم كل الثورات وإقامة دولة فتية رغم العداء المحيط به.

الفصل الثاني:
البربر في الإدارة الأموية

ينصب الاهتمام في هذا الفصل حول تحديد أهمية المشاركة البربرية في السهر على الشؤون الإدارية على عهد الأمويين، إضافة إلى الشؤون القضائية على اعتبار أن القضاء، رغم استقلاليته، يمثل جزءا من الجهاز الإداري العام.

رغم أن المادة التي نتوفر عليها في هذا الباب نادرة وقليلة، فقد تتبعنا مصادرنا وجمعنا شذراتها المتناثرة، فتكون لدينا انطباع عام بأن المعلومات التي حصلنا عليها شبه كاملة، خاصة في الفترة التي نتوفر فيها على مصادر متنوعة، ومايدفعنا إلى هذا الاعتقاد هو ارتباط هذه المهام بالجهاز الإداري والسلطة الحاكمة مركز اهتمام المصادر الوسيطية لذلك تأتي الأخبار عن الإداريين البربر عفوا ودون قصد، ويمكن أن نستثني من هذا ما يتعلق بقضاة الأحكام الذين يعينون على النواحي، والذين نشك أن أخبارنا عنهم ناقصة إلى حد ما.

اعتمدنا في تحليل محتويات هذا الفصل على تفريغ معلوماتنا في جدولين اثنين يحتويان على متغيرين: متغير الزمان الذي ربطناه بفترات حكم الأمراء والخلفاء الأمويين، ومتغير ثاني يركز على نوعية الوظيفة الإدارية أو القضائية ولمناقشة هذه المعطيات قسمنا الفصل إلى نقطتين رئيسيتين: البربر في الإدارة والبربر في الوظائف القضائية.

1- البربر في الإدارة الأموية

إن أولى الملاحظات التي يمكن إبداؤها على مشاركة البربر في تسيير الشؤون الإدارية تتمثل في قلة أعداد الأطر، بحيث لم نستطع أن نتعرف إلا على 44 منصبا يتوزعون على مدة حكم الأمويين، وهذا عدد قليل إذا قارناه بعدد الإداريين بصفة عامة، ويظهر أكثر هزالة عندما نكتشف أن عدد الأشخاص الذين تولوا هذه المناصب أقل بكثير لأن نفس الشخص يتولى عدة وظائف على عهد أمير واحد أو على عهد أميرين متعاقبين.

الوظيفة / الفترة	الحاجب	الوزير	الكتاب	الخزان	وإلى المدينة	وإلي العرض	الشرطة	ولاة الكور	مجموع
عصر الولاة									0
ع. الرحمان I								1	1
هشام II									0
الحكم I			1						1
ع. الرحمان II	1		2	1					4
الأمير محمد		1	3						4
الأمير المنذر									0
الأمير ع. الله		2	2		1				5
ع. الرحمان الناصر		3	4	2		3		2	14
الحكم المستنصر		2	1		1		3		7
هشام المؤيد (ال عامر)	1	1	1	1	1		2		7
سليمان المستعين		1			1				2

توزيع الإداريين البربر في الدولة الأموية

يتضح من تتبع الجدول أن البربر قد شغلوا كل أنواع الوظائف الإدارية المعروفة في الأندلس، من تلك الأكثر أهمية وهي الحجابة إلى أدناها أهمية كالولاية على الكور، ولكن مشاركتهم تتميز بتباين بين الفترات الزمنية، بحيث نجد أن القرن الثاني الهجري لايكاد يعرف وجودا لموظفين بربر، ولا يمثل نصيبه إلا 4,5 % من مجموع المشاركة البربرية (منصبان) وتزايدت المشاركة خلال القرن 3 هـ / 9 م بحيث صار نصيبه 29,5 % (13 منصبا) وبلغت المشاركة البربرية أوجها خلال القرن 4 هـ / 10 م وفي ظل الخلافة، بحيث صارت تمثل 65,9 % (29 منصبا)، ومن خلال هذا التوزيع يتبين أن البربر يزدادون اندماجا في الإدارة الأموية بشكل متوافق مع تطور التاريخ الأندلسي، وقد شكل منتصف القرن 3 هـ / 9 م، وخاصة عهد عبد الرحمان الثاني الانطلاقة الحقيقية لهذا الاندماج، ولعل هناك عوامل تقف وراء هذ التحول سنعود إلى دراستها بعد تتبع أهم الوجوه البربرية في الإدارة الأموية.

تنوعت المناصب التي تولاها البربر في الإدارة، فخلال القرن الثاني الهجري كانت وظائفهم بسيطة وتقتصر على منصبي الكتابة والولاية، إذ ولى عبد الرحمان الداخل ميمون بن سعد البربري مولى الوليد بن عبد الملك الذي دخل معه الأندلس على طليطلة[1]، بينما تولى كتابة الحكم الربضي بربري يدعى حجاج المغيلي، وكان كاتب ترسيل وهو مولى ليزيد بن طلحة العبسي[2].

وخلال القرن 3 هـ/9 م ازدادت أهمية مناصب البربر، وشغلوا مناصب عليا أرقاها منصب الحجابة، ويقول ابن خلدون عن دور الحاجب : «وأفرد للتردد بينهم [الوزراء] وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل هذا إلى آخر دولتهم [بنو أمية في الأندلس] فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب»[3]. ويظهر من النص أن الحاجب في الأندلس يقترب من مهمة رئيس الوزراء، وكان الذي تولاه بربري يدعى سفيان بن عبد ربه أو مهران[4] بن عبد ربه، وهو من بربر بيانة من مصمودة[5] وكان من أقادم صنائع عبد الرحمان قبل توليه الإمارة، فشغله قبل ذلك خازنا، ولما توفي حاجبه عبد الواحد بن مغيث تنافس وزراؤه حول خلافته، فأقسم عبد الرحمان ألا يولي أحدا منهم فاقرع بين خزانه، فخرج سهم سفيان فتولى الحجابة حتى وفاته عام 211 هـ / 826 م وقد أثنى ابن حيان كثيرا على خصاله، بحيث يقول عنه: «ولم يكن له قدم، وكانت له يقظة ومعرفة». ويضيف «كان من أكابر رجال أهل الخدمة الكفاة المشتغلين بأعبائها ممن جمع إلى الغناء والكفاية والعفة والأمانة»[6].

---

(1) ابن الابار، التكملة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955، ج. 1، ص. 315.

(2) ابن حيان، المقتبس، لجنة إحياء التراث الاسلامي، القاهرة، 1971، ج. 2، ص. 212.
مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558، ص. 149.

(3) ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، 1981، ص. 239-240.

(4) وردت هذه التسمية فقط عند ابن القوطية، ص. 84، ويرى محمود مكي أن اسم مهران جاء خطأ وأن اسمه هو سفيان، المقتبس، ج. 2، هامش، ص. 264.

(5) ابن حزم، الجمهرة، أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيرون. 1983، ص. 500.

(6) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص 165-167 و 213.

ويليه من حيث الأهمية منصب الوزارة، وللوزير في الأندلس مكانة خاصة، بحيث كان للأمويين مجلس للوزراء ولهم مجلس يجتمعون فيه لمناقشة أمور الدولة. ومن الذين تولوه حامد بن محمد بن سعيد الزجالي على عهد الأمير محمد «وكان أهلا لذلك لبلاغته وحسن معرفته»[7]. و «كان أديباً حليما عفا جميل الخصال»[8] وحامد هذا من بيت بني الزجالي وتولى الوزارة أيضا عبد الله بن محمد بن عبد الله الزجالي من نفس الأسرة للأمير عبد الله[9]، وكان من الوزراء أيضا سليمان بن محمد بن وانسوس المكناسي وهم من موالي سليمان بن عبد الملك[10]، وكان جده أصبغ رئيسا بماردة وثاربها على الحكم I فاستنزله، وترقى حفيده من بعده إلى هذا المنصب وكان مشهورا في «غنائه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه». كما كان «رجلا جليلا أديبا من رؤساء البربر، وكان أثيرا عند الأمير عبد الله» وكان ذا كبرياء ويرفض الإهانة[11].

واشتغل البربر أيضا بالكتابة خلال القرن 3 هـ وكلهم من بيت بني الزجالي، وهم الأب محمد بن سعيد الزجالي وابنيه عبد الله وحامد وحفيده عبد الله.

وكان عبد الله بن محمد بن عبد الله الزجالي قد تولى أيضا ولاية المدينة على عهد الأمير عبد الله[12].

فكما يلاحظ فعدد من تولى كل هذه المناصب (13 منصبا) سبعة أشخاص، أربعة منهم من بيت بني الزجالي، وكلهم أيضا زناتيون باستثناء الحاجب سفيان بن عبد ربه المصمودي كما أن ثلاثة منهم من الموالي والصنائع.

ومثل القرن 4 هـ / 10 م أوج المساهمة الإدارية البربرية، فعدد الإداريين على عهد

---

(7) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1، ص. 331، ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 104.
(8) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 173-174.
(9) نفسه، ج. 3 ، ص. 6. ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 122.
(10) ابن الأبار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963 ، ج. 1، ص. 160.
(11) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 226 - 227.
(12) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 6.
(13) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج. 7، ص. 59. المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 4، ص. 88.

الناصر لوحده يضاهي عدد كل الإداريين خلال القرنين السابقين، وأرقى المناصب التي تولاها بربري هو منصب الحجابة، وكان المتربع عليه هو أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي القيسي في بداية عهد هشام المؤيد، قبل أن ينكب ويعزل(13).

وتولى الوزارة على عهد الناصر محمد بن سليمان بن وانسوس(14)، وعبد الرحمان بن عبد الله الزجالي(15) ومحمد بن عبد الله الزجالي(16) أما على عهد المستنصر فشغل المنصب جعفر بن عثمان المصحفي وعبد الله بن عبد الرحمان الزجالي(17) الذي تولى أيضا لهشام المؤيد، ومات وزيرا سنة 375 هـ / 985 م.

واشتغل بالكتابة عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي وعبد الله بن محمد الزجالي(18) (ت 301 هـ / 913 م)(19).

ومحمد بن عثمان المصحفي وابنه جعفر السالف الذكر وكان الشاعر الأديب أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج كاتبا للمنصور(20).

وعين بربر آخرون في وظائف العرض والخيل وهما وظيفتان عسكريتان، وتولاهما عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي سنة 308 هـ / 920 م و 316 هـ / 927 م وعبيد الله بن عبد الله الزجالي سنة 314 هـ / 925 م(21) وتولى الخزانة محمد بن عبد الله الزجالي سنة 307 هـ / 919 م وعبد الرحمان بن عبد الله الزجالي سنة 316 هـ / 927 م(22).

---

(14) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 175، ابن حيان، المرجع السابق، المعهد الاسباني ـ العربي للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص.55.

(15) نفسه، ج. 5، ص.416.

(16) نفسه، ج. 5، ص. 209. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص 192.

(17) ورد عند ابن الفرضي بن عبد الله، ج. 1، ص. 278، وعند ابن حيان عبيد الله بن عبد الله (ت سنة 320 هـ) أما القاضي عياض فذكر عبد الله بن عبد الرحمان، ج. 6، ص. 295، وهو الذي نرجحه).

(18) ابن حيان، المقتبس، ج. 5، ص 471.

(19) مجهول، مدونة تاريخية على عهد الناصر، مدريد، غرناطة، 1980، ص. 47. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 158.

(20) الحميدي، المرجع السابق، ص. 110. ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 1، ص. 135.

(21) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 180 و 193 و 199.

(22) نفسه، ص. 175 و 177.

وكان جعفر المصحفي أيضا واليا للمدينة على عهد الحكم II وكذلك ابنه محمد[23] واحتكر المصاحفة منصب الشرطة طيلة عهد الحكم II وبداية عهد ابنه هشام[24].

وكان من البربر عدد من الولاة على عهد الناصر، ومنهم أحمد بن محمد الزجالي المتولي على اشبيلية سنة 317 هـ / 928 م[25]، وجعفر بن عثمان المصحفي والي ميورقة[26] وإلبيرة والمرية. وكان هناك عدد من البربر الذين يعملون في الظل خلف الشخصيات الكبرى ونذكر منهم ملحان بن عبد الله بن ملحان كاتب عيسى بن فطيس مؤدب الحكم بن الناصر[27] وعمر بن تاجيت كاتب بدر بن أحمد مولى الناصر[28] وتعتبر هذه المناصب مرتبة أولى نحو بلوغ مناصب أعلى وأرقى وأكثر شهرة.

أما في بداية القرن 5 هـ / 11 م، وخاصة على عهد المستعين، فرغم أن المصادر الأندلسية تنعت دولته بدولة البربر، فإن هذا لم يتكرس على الصعيد الإداري، بحيث لم نجد إلا اسما واحدا بربريا، وهو عمر بن عبد الله بن ذكوان أخو القاضي أبي العباس الذي وزر له[29]. قد يظهر لأول وهلة أن عدد الإداريين كبير، ولكن وقفة متمعنة توضح أن عددهم محدود جدا، لأن الكثيرين من هؤلاء الأشخاص الذين أوردنا أسماءهم تولوا مناصب متعددة فالوظائف التسعة والعشرين التي سجلناها تولاها فقط 14 شخصا وهذا يزيد من تأكيد قلة الإداريين البربر في الإدارة الأموية.

وبعد استعراضنا لأهم الوظائف والموظفين البربر في الإدارة الأموية يمكن أن نخرج بمجموعة من الاستنتاجات، أولها سيطرة بعض الأسر على الوظائف الإدارية، فقد احتكرت أغلب المناصب خلال القرن 3 وبداية 4 الهجريين أسرة بني الزجالي المديونية، وتحولت السيطرة خلال القرن الرابع إلى أسرة المصاحفة التي هيمنت على أغلب الوظائف

(23) نفسه، ص. 250 و 266. ابن حيان المقتبس، ج. 6، ص. 22.
(24) نفسه، ص. 254. نفسه، ص. 143 و 22.
(25) مدونة تاريخية، ص. 83. نفسه، ج. 5، ص. 253.
(26) ابن الابار، الحلة، ص. 258. العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965، ص. 81.
(27) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 734. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص. 303.
(28) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 55.
(29) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، الجزء 5، القسم الثاني، ص. 447.

على عهد الحكم المستنصر وبداية عهد ابنه هشام II. وبعدهما تأتي أسرة بني وانسوس إضافة إلى بعض الأفراد، وثانيها، كون أغلب الإداريين من البربر الزناتيين : مغيلة ومديونة ومكناسة، وثالثها، أن أغلب هؤلاء الإداريين موالي فكل الأسماء التي ذكرناها باستثناء أسرة بني الزجالي من الموالي البربر : بنو وانسوس موالي أمويين والمصاحفة موالي قيس وسفيان بن عبد ربه مولى عبد الرحمان II وصنيعته.

بدا لنا من خلال هذا التحليل أن المشاركة البربرية في الإدارة الأموية ضعيفة وجاءت متأخرة، لذلك سنعمل على تحديد بعض العوامل التي كانت وراء هذه المظاهر، ويمكن تصنيف هذه العوامل إلى نوعين : عامل خارجي وعامل ذاتي. يرتبط العامل الخارجي بالاحتكار والهيمنة التي مارسها العرب على جميع المناصب الإدارية والقضائية على حد سواء، وعارضوا تولى أي عنصر خارج عنهم لأحدها وحتى إن عين يتحركون بقوة ويمارسون مختلف أنواع الضغوط من أجل عزله. وتحتفظ لنا المصادر بعدة حالات من هذا النوع، ففي كتاب «قضاة قرطبة» نلتقي بالنص التالي: «أول من ولي قضاء الجماعة للخلفاء من الموالي فشق ذلك على العرب وتأثروا منه وتكلموا فيه»[30]، وكان هذا سنة 874 م / 250 هـ. ولما ولى الأمير محمد قومس النصراني ابن انتيان كتابته، كتب إليه محمد بن كوثر البليغ يطلب منه تولية أحد العرب بدله[31]. وينقل لنا الزبيدي بمناسبة حديثه عن أبي موسى الهواري «وكانت الخلفاء رضي الله عنهم لايقدمون للصلاة إلا العرب»[32].

وهذه الحالات كلها تثبت معارضة العرب لتولي عناصر غير عربية للقيادة ومساعدة الأمراء الأمويين لهم وكانت الأسر القديمة الخدمة للدولة في الدولة الأموية بدورها ترفض دخول أي عنصر آخر إلى أوساطها، وتعطينا حالة جعفر بن عثمان المصحفي أحسن مثال، حيث ساعدت الأسر القديمة في الوزارة مثل: بنوشهيد، ابن أبي عامر على إسقاطه ونكبته[33]. ولن يجد البربر وغيرهم المكان للمساهمة إلا بعد الضعف الذي أصاب العصبية

(30) الخشني، قضاة قرطبة، مكتبة المثنى، بغداد، 1372، ص. 101.
(31) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 102-103.
(32) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 254.
(33) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص. 161.

العربية خلال اضطرابات نهاية القرن 3 هـ / 9 م، واستغناء الخلفاء عن خدماتهم كما فعل الناصر مع الأسر العربية الكبرى بعد وقعة الخندق سنة 327 هـ / 936 م.

أما العامل الذاتي فيرتبط بالبربر أنفسهم إذ يميلون إلى العزلة والاستقلال عن الجهاز الإداري، بحيث كثرت تمرداتهم قبل منتصف القرن 3 هـ / 9 م، وربما كان هذا دليلا على بداية اندماجهم، كما كان البربر يتميزون بأنفة وكبرياء تتعارض مع الأخلاقيات المطلوبة في خدام السلطان من قبول إهاناته وكل تصرفاته دون معارضة ويتبين لنا ذلك من موقف سليمان بن محمد بن وانسوس المكناسي وزير الأمير عبد الله فقد سخر الأمير يوما من لحيته، فغضب وأعلن عن استقَالته من الوزارة[34] ولما جاء أحد الوزراء ليعيده إلى منصبه رد عليه بكلام طويل احتوى على العبارة التالية : «نعم لأني كنت حينئذ عبدا مثلك، وأنا اليوم حر»[35] فهو في هذه العبارة يعتبر خدام السلطان عبيدا، ولعل هذا التصور كان حاجزا نفسيا عرقل اندماج البربر في الإدارة الأموية.

ويرتبط بالبربر عامل آخر يتعلق بالمستوى الثقافي للبربر، فباستثناء بعض العناصر القليلة، فلا نجد من بينهم حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م علماء كبارا ولما ازداد المستوى الثقافي لعناصر كثيرة منهم أصبح بإمكانهم الدخول في الحياة الإدارية والقضائية. ونتوفر على مجموعة من الأمثلة تثبت ذلك، فمحمد بن سعيد الزجالي تولى كتابة عبد الرحمان الثاني بفضل علمه الواسع، وخاصة حفظه الواسع للشعر[36] وقد أورث الزجالي الكتابة والوزارة لأبنائه وأسرته من بعده، ونفس الشيء نسجله مع عباس بن ناصح الجزيري الذي طلب الخدمة من الحكم الربضي مستعملا علمه وأدبه، بحيث مدح الحكم وأكثر بشعر أصيل على طريقة العرب القدامى، فعينه قاضيا على الجزيرة[37] وأورث المنصب لبنيه. ونفس الشيء أيضا حصل لأسرة آل أبي عيسى التي سيطرت على مناصب العلم والقضاء في قرطبة طيلة القرنين الثالث والثلث الأول من الرابع الهجريين. ونضيف إلى

(34) الحميدي، المرجع السابق، ص. 226-227، ابن الابار، الحلة، ج. 1، ص. 123-124.

(35) نفسه، ص. 227.

(36) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 172-173.

(37) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للبحث، مدريد، 1992، ص. 284.

هذه العوامل عامل الولاء الذي ألحق البربر بالعرب وسهّل لهم عملية الالتحاق بهم لما ينجم عنه من تبني النسب العربي والمصاهرة وتبني التقاليد العربية واللغة، وهذه كلها عناصر مساعدة للبربر.

نخلص في آخر المطاف إلى أن هناك عوامل موضوعية تتعلق باحتكار العرب للمناصب الإدارية ودفعهم لكل من يحاول الحصول عليها، وعوامل ذاتية تتعلق بميل البربر إلى البعد عن السلطة وأنفتهم وكبريائهم وغزوفهم عن خدمة الآخرين ثم ضعف مستواهم الثقافي. لكن هذه العوامل بدأت تضعف انطلاقا من عهد عبد الرحمان الثاني بتراجع العصبية العربية وتكيف البربر مع الحياة الأندلسية وازدياد مستواهم الثقافي واندماج كثير منهم بالولاء، وهذا ساعد على تزايد عدد البربر في الإدارة الأموية انطلاقا من هذا العهد.

نصل في النهاية إلى أن المشاركة البربرية في الإدارة الأموية جاءت متأخرة نسبيا بحيث إننا لم نسجل مشاركة مهمة إلا انطلاقا من عهد عبد الرحمن II، وبلغت هذه المشاركة أوجها خلال عصر الخلافة، وقد شمل التمثيل البربري كل المناصب سواء العليا أو الدنيا ولاحظنا من خلال دراستنا أن هناك ثلاث أسر رئيسية هيمنت على المشاركة البربرية هي : الزجاجلة والمصاحفة وبنو وانسوس، وأن أغلب الاداريين زناتيون وموالي، واتضح لنا أن تأخر المشاركة البربرية ناتج عن الاحتكار العربي وتهرب البربر من الخدمة وميلهم إلى العزلة، ثم تأخر نبوغهم الثقافي، ولما ضعفت هذه العراقيل توسعت مشاركتهم.

2- البربر في الوظائف القضائية

سبق لنا في مقدمة الفصل أن وضحنا أن الأخبار التي نتوفر عليها عن القضاة البربر في الأندلس ناقصة خاصة مايتعلق بقضاة الكور والجهات. وسنتوقف عند المشاركة البربرية في هذا القطاع من خلال الجدول أسفله، وبواسطته سنتعرف على توزيعها الزمني وعلى نوعية المناصب التي تولوها.

الوظيفة / المدة	قاضي الجماعة	قاضي الأحكام	صاحب الرد	المشاور	صاحب السوق	مجموع
عهد الولاة						
ع. الرحمان I						
هشام II						
الحكم I		2				2
ع. الرحمان II		3				3
الأمير محمد		1				1
الأمير المنذر		1				1
الأمير ع. الله				5		5
ع. الرحمان الناصر	2	10	1	3		16
الحكم المستنصر	1	2	1	1	1	6
هشام المؤيد (ال عامر)	1	1	4	1		7
سليمان المستعين	1			1	1	3

توزيع الموظفين البربر على الوظائف القضائية

يبين الجدول أن بداية اشتغال البربر بوظيفة القضاء يعود إلى عهد الحكم الربضي، تماما كما سجلنا بالنسبة للإداريين. كما يظهر أن عصر الخلافة يعتبر عصر الأوج، ويتوزع هؤلاء الموظفون زمانيا على الشكل التالي : 27,27% في القرن 3 هـ / 9 م (12 موظفا) و 65,9% في القرن 4 هـ / 10 م (29 موظفا) و 6,8% على عهد المستعين (3 موظفين)، وهذا التوزيع يشبه مثيله عند الإداريين ويفسر هذا بنفس العوامل التي سبق أن وضحناها ووقفنا عندها.

وعندما نتوقف عند الوظائف التي شغلها البربر حسب تطورها الزمني، نجد أنهم في القرن 3 هـ / 9 م شغلوا مناصب متواضعة جدا كقضاة أحكام أو مشاورين فقط، أما خلال القرن الرابع، فقد ترقى البربر إلى أعلى المناصب، وتولى أفراد منهم قضاء الجماعة لمدة 38 سنة من هذا القرن إضافة إلى وظائف أخرى مثل : المظالم.

وقد تولى البربر كلى المناصب القضائية في الأندلس : قضاء الجماعة والرد وقضاء الأحكام والمشورة والحسبة (أحكام السوق) وسنعمل على التعرف على بعض الشخصيات الكبرى التي شغلت هذه المناصب.

نبدأ بقاضي الجماعة ويقصد به قاضي جماعة القضاة أو جماعة المسلمين وهو استعمال خاص بالأندلس دون أقطار العالم الإسلامي، ويذهب ليڤي بروڤنسال إلى أن الأمويين استعملوه فرارا من تقليد لقب قاضي القضاة العباسي[38]. ويلخص ابن خلدون مهام القاضي في هذا النص: «يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته»[39]. وإذا كانت هذه المهام تخص كل القضاة، فإن قاضي الجماعة يتميز بمستواه العلمي الرفيع، وتنفيذ أحكامه بفضل وجوده قرب الأمير ولذلك اعتبر بمثابة وزير للعدل تستأنف بعض قضايا الكور إليه. ومن أوائل البربر الذين تولوا الوظيفة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الليثي، وكان «حافظا للرأي، معتنيا بالاثار جامعا للسنن متصرفا في علم الاعراب»[40] وقد اشتغل قبل توليه لقضاء الجماعة مشاورا لأحمد بن بقي قاضي الجماعة وقاضيا لإلبيرة، ثم ولاه الناصر قضاء الجماعة سنة 326 هـ / 937 م[41] «فتولاه بسياسة محمودة، ورياسة في الدين مبرمة القوى محمودة، والتزم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود، والكشف عن البيان في السر، والصدع بالحق في الجهر، لم يستمله مخادع، ولم يكده مخاتل ولم يهب ذا حرمة ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أرباب السلطان وأهله، حتى تحاموا حدة جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه»[42]. و «كان محببا في العامة، مقربا لدى

(38) Lévi-Provençal (E), Histoire de l'Espagne musulmane, Ed. Maisonneuve, Paris, 1950, t 3, p.126.

(39) ابن خلدون، المقدمة، ص. 221-222.

(40) ابن الفرضي، الكرجع السابق، ج. 2، ص. 59.

(41) نفسه.

(42) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص 220.

الخاصة ومن الخليفة مؤتمنا على أسراره حتى بوأه فراش كرامة مع وزرائه مدنيا لمكانه من غير أن يوقع عيه اسم الوزارة فكان يحضرهم ممدا برأيه عند استدعائه» [43]. وكان الناصر يشغله في مهام مختلفة مثل السفارات إلى كبار الأمراء وأمانات الثغور والأطراف والإشراف عليها وبنيان حصون الثغور والتطلع على أحوالها وإرساله على رأس الجيوش، كما أشرف إلى جانب غالب[44] على بناء مدينة سالم[45] وقد توفي في أثناء خروجه إلى الثغر قرب طليطلة سنة 339 هـ / 949 م وبها دفن[46].

وخلفه في مكانه بربري آخر هو منذر بن سعيد البلوطي واستمر في القضاء حتى موته على عهد الحكم المستنصر سنة 355 هـ / 965 م، و «كان عالما فقيها، وأديبا بليغا وخطيبا على المنابر وفي المحافل مصقعا»[47] وتميز بصلابته في الحق وعدم هيبة لذي سلطة[48]. وكان متضلعا في علوم مختلفة ويأخذ بالمذهب الظاهري، لكنه يحكم وفق مذهب مالك[49] وأكثر من نقد الناصر في أبهته وفخامة مبانيه حتى أقسم ألا يصلي خلفه [50]، و« لم يحفظ له جور في قضية، ولا هوادة بسبب غاية»[51].

وكان قاضي الجماعة الثالث أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان وقد تولاه مابين (392 هـ - 400 هـ/ 1001 م - 1009 م)، وهو أول من اتخد لقب قاضي القضاة بالأندلس[52] وكان «صارما في حكمه، محمود الطريقة، عاقلا، عالما بمذاهب المالكية،

(43) القاضي عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980، ج. 6، ص. 98.

(44) غالب بن عبد الرحمن مواى الخليفة الناصر وأحد قواده الكبار شارك في حرب الحسن بن كَنون الحسني وقبض عليه سنة 364 هـ / 978 م. ساعد المنصور بن أبي عامر على الانفراد بالسلطة ثم تحاربا حروبا قتل فيها سنة 370 هـ / 980 م. ابن عذاري، ج. 2 ، ص 246 و 248 و 278-279.

(45) نفسه، ص. 99.

(46) نفسه، ص. 107.

(47) الحميدي، المرجع السابق، ص. 348.

(48) الخشني، قضاة قرطبة، ص. 175.

(49) النباهي، المرقبة العليا، دار الكاتب المصري، القاهرة، 1948، ص. 74.

(50) ابن خاقان، المرجع السابق، ص. 248.

(51) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 296.

(52) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 171.

ذا عفاف ونزاهة وبراءة من الريبة، وبعد همة، وفرط هيبة، فلقد كان في هذا في مرتبة الخليفة، و لم يقدر أحد ينقصه منها قلامة ـ على اختلاف الدول وحلول الفتن، إلى أن فارق الحياة ـ وهو أعلى الناس محلا»[53]. وقربه المنصور بن أبي عامر بحيث كان يستشيره في كل الأمور وجعله فوق رتبة الوزراء، ونفس الموقف اتخذه أبناء من بعده[54] وكان أيضا أبو العباس من شيوخ العلم يشتهر بيته بالعلم والرياسة والقضاء[55].

من خلال تتبعنا لبعض ملامح هذه الشخصيات البربرية التي تولت قضاء الجماعة اتضح أنها تشترك في خصال متعددة : العلم الواسع والعميق بمذهب مالك، والصرامة والتزام العدالة في أحكامهم، وارتفاع مكانتهم لدى السلطان والتزام مجالسه وتقديم المشورة، وهذه كلها خصال يفترض توفرها في قاضي الجماعة في الأندلس.

ويضاف إلى هؤلاء شخص آخر لانعرف عنه إلا اسمه ولاه المستعين بالله قضاء جماعته مشاركة مع يونس بن الصفار، وهو محمد بن خزر الزناتي، وهو من أعيان زناتة[56].

وشغل البربر أيضا منصب قضاء الأحكام في عدة مناسبات وخاصة في الكور، ومن أعيان القضاة عباس بن ناصح وابنه عبد الوهاب وحفيده محمد الذين تعاقبوا على قضاء الجزيرة الخضراء[57]، وعبد الرحمان بن موسى الهواري قاضي استجة في عهد الحكم I وعبد الرحمان II[58]، وفي عهد الناصر تولى منذر بن سعيد قضاء الثغور الشرقية[59] وأبو عبد الله محمد بن عبد الله قاضي الجماعة ؛ فيما بعد، ذلك أنه تولى أولا قضاء إلبيرة وبجانة وجيان وطليطلة[60]، وفضل الله بن سعيد بن عبد الله أخو منذر قاضي الجماعة

(53) نفسه، ج. 7، ص. 167.

(54) النباهي، المرجع السابق، ص. 85، نفسه، ج. 7، ص. 169.

(55) الحميدي، المرجع السابق، ص. 129.

(56) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص 157.

(57) الخشني، أخبار الفقهاء، ص. 284. الزبيدي، المرجع السابق، ص. 262.

(58) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 343. الخشني، أخبار الفقهاء، ص. 234.

(59) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 293.

(60) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 59. عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 97.

الذي استقضى على فحص البلوط[61] ومحمد بن سلامة بن حنين الصدفي البربري الهواري قاضي تطيلة[62]. ونافع بن محمد بن رحيق أول قاض للجزائر الشرقية وبعده عمه أحمد بن رحيق[63] ومعن بن محمد الأنصاري قاضي سرقسطة 326-330 هـ/937-941 م[64] ومحمد بن سعيد بن خالد قاضي فحص البلوط[65]، وأحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان قاضي فحص البلوط على عهد هشام الثاني[66] ويحي بن عبد الله بن يحيى الليثي الذي تولى القضاء لعدة مرات[67] وابن منذر قاضي ماردة.[68] ويلاحظ أن أغلب هؤلاء القضاة تولوا كور جنوب وجنوب شرق البلاد (الجزيرة ـ شذونة ـ إلبيرة ـ بجانة) والثغور الشمالية والشرقية (طليطلة ـ سرقسطة ـ تطيلة) وكذلك الجزر الشرقية وفحص البلوط، وهذا ربما يرتبط بكون كثير من هذه الكور ذات أغلبية بربرية في ساكنتها ولا تعرف منافسة العرب لبعدها عن العاصمة.

وشغل البربر أيضا وظيفة الرد أو المظالم، ويعرفها الماوردي بكونها تعني «قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة» ويحتاج صاحبها إلى «سطوة الحماة وثبت القضاة» [69] وكما يلاحظ فوظيفة الرد تقوم بالفصل في القضايا التي يعجز القضاة عن تنفيذها بالنظر «في البينات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي» [70]. ومن الذين تولوها يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي عندما كان أخوه قاضيا للجماعة بقرطبة[71] وعبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي الذي

(61) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 104-105.
(62) الخشني، أخبار الفقهاء،ص. 181.
(63) ابن الابار، التكملة، ج. 2، ص. 754.
(64) نفسه ، ص. 729.
(65) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج.1، ص. 37.
(66) ابن فرحون، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. 353.
(67) المقتبس، ج. 5، ص. 240.
(68) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. 97.
(69) ابن خلدون، المقدمة، ص. 222
(70) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 192.
(71) ابن حزم، طوق الحمامة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص. 45.

تولى الرد للحكم II وكان صليبا وعادلا وقد أعدمه المنصور بن أبي عامر بتهمة القيام مع عبد الرحمان بن عبيد الله بن الناصر سنة 368 هـ / 978 م – 370 هـ / 980 م [72] وتولاه في عهد هشام المؤيد من بني ذكوان عبد الله بن هرثمة بن ذكوان (368 هـ / 370 هـ) وابنه أحمد (370 هـ – 392 هـ) وابنه الثاني محمد (392 هـ – 400 هـ)[73].

ووجدنا ضمن مشاوري الأندلس عددا من البربر وتقوم هذه الوظيفة على تعيين عدد من الفقهاء إلى جانب القاضي يقدمون له المشورة والفتوى كتابة ويعينهم الأمير أو الخليفة وعددهم مابين اثنين وأربعة [74]. وقد نقل المرابطون هذا النظام فيما بعد عن الأندلس[75]. ومن الذين تولوا هذه الوظيفة عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي على عهد الأمير عبد الله[76] و «كان عاقلا كريما، عظيم الجمال والجاه، مقدما في المشاورة في الأحكام منفردا برئاسة البلد غير مدافع»[77] ثم محمد بن يحيى بن إسحاق ابن أخيه[78] وأحمد بن يحيى بن يحيى الليثي (ت 297 هـ / 909 م)[79] ويقول عنه ابن حيان: «وصير في جملة الفقهاء المشاورين في الأحكام ولما يكتهل في سنه لتبريزه في علمه، ولقب يومئذ بالثائر فلحق به»[80]. ويحيى بن عبيد الله بن يحيى الذي «كان يشاور في الأحكام مع أبيه، وكان مبجلا»[81]. ويحيى بن إسحاق بن يحيى بن يحيى الليثي[82]، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله قاضي الجماعة الذي كان مشاورا لأحمد بن بقي[83]. وكان منهم أيضا حسن بن سعد بن إدريس الكتامي الذي «كان يحضر الشورى» واعتزلها لأنه كان شافعي المذهب[84] وأبو العباس أحمد بن عبد الله

(72) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 166–167 و 175. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 32.
(73) نفسه.
(74) Lévi-Provençal (E), op. cit, p; 127
(75) المراكشي، المعجب، دار الكتاب، البيضاء، 1978 ص. 253.
(76) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 148.
(77) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 293.
(78) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 364.
(79) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص 24.
(80) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص.9.
(81) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 161.
(82) نفسه، الخشني، أخبار الفقهاء، 379.
(83) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 59.
(84) نفسه، ج. 1، ص . 110.

بن ذكوان[85] وأبو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الأصيلي الذي شغل الشورى في آخر عهد الحكم II[86] وحسين بن محمد بن سلمون المسيلي «وكان حسن التفقه، وقد نوظر عليه في المسائل، وكان لا يحسن سواها، وكان عفيفا متواضعا» «وقد ولاه المستعين سليمان الشورى»[87].

وقد بقي أخيرا، ذكر البربر الذين اشتغلوا بالحسبة أو أحكام السوق وتقوم هذه الوظيفة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقوم بها شخص يعينه والي المسلمين ويتدخل في كل أمر «ليس فيه سماع بينة ولا إنفاد حكم»[88] ولكن الوظيفة صارت تحيل على مراقبة الأسواق ومايتعلق بها من غش ومكاييل وموازين ويولى في مناصبها ذوو الخبرة في هذا الميدان[89] وقد احتفظت لنا المصادر باسمين بربريين توليا هذه الوظيفة وهما، إسماعيل بن زيد زوج أخت أبي العباس أحمد وأبي حاتم ابنا ذكوان، وهو «أحد وجوه قرطبة المتقدمين في ا لشعر والعربية، وولي أحكام السوق بها في أيام الخليفة الحكم»[90] وأبو علي حسن بن محمد بن عبد الله بن ذكوان، وقد تولى حسبة قرطبة أيام الفتنة «وكان ثقة، عارفا بالحكومة، ذا حزامة ونزاهة. عاطلا من العلم والأدب»[91]. ويبدو أنه تولى المنصب بفضل خبرته لا علمه.

يلاحظ أن البربر قد شاركوا في كل الوظائف القضائية أوالتابعة للقضاء، ومن خلال تتبعنا الدقيق لمن تولوها، نجد أنها محتكرة من طرف أسر تأتي على رأسها أسرة آل أبي عيسي المصمودية ثم أسرة منذر بن سعيد البلوطي، وأخيرا أسرة آل ذكوان انطلاقا من سنة 368 هـ/ 978 م، إضافة إلى بعض الأسر في الكور : آل عباس بن ناصح بالجزيرة وآل رحيق بالجزائر الشرقية.

---

(85) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 167.

(86) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، ج. 1، ص. 213.

(87) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1 ، ص. 148.

(88) ابن خلدون، المقدمة، ص. 225.

(89) السقطي، اداب الحسبة، المطبعة الدولية باريس، 1931، ص. 9-10. ابن عبدون، مؤلف في الحسبة، ، عدد أبريل ـ يونيو 1934، ص. 210-211.

(90) صاعد، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، مصر. ص. 106.

(91) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 176.

في آخر هذا الفصل يمكن أن نستنتج أن المشاركة البربرية في تسيير الأندلس إداريا وقضائيا جاءت متأخرة، وانطلقت منذ عهد عبد الرحمان الثاني، بينما حققت أوجها في عهد الخلافة، واتضح أن هذا ارتبط بعوامل متنوعة تتصل باحتكار العرب للمناصب وفرار البربر من الخدمة نتيجة الكبرياء والأنفة، ثم تأخر نبوغهم الثقافي. ومباشرة وعند ضعف هذه العوامل بدأ البربري يظهر بشكل أوسع. وتبين أن البربر قد شغلوا كل أنواع المناصب الإدارية والقضائية رغم قلة أعدادهم، كما وجدنا أن هناك أسرا سيطرت على الوظائف الإدارية وهم : الزجاجلة والمصافحة وآل وانسوس، والوظائف القضائية وهم : آل أبي عيسى وآل منذر بن سعيد وآل ذكوان وآل عباس بن ناصح وآل رحيق، وأغلب هذه الأسر زناتية ومن الموالي. ورغم اقتناعنا بأهمية المشاركة البربرية فإنها تبقى ضعيفة إذا ما قورنت بمساهمة عناصر أخرى خاصة العربية، إذ لو قمنا بعملية حسابية بسيطة لعدد الوزراء في أي سنة من عهد الناصر لوجدناه يفوق أو يساوي عدد الوزراء البربر عبر عمر الدولة الأموية كله.

الفصل الثالث:
البربر جيش الأندلس

عند فتح شبه الجزيرة الإيبيرية كان معظم الجيش بربريا، وإليه ينسب فتح وإخضاع معظم نواحي الأندلس، لكن جواز العناصر العربية انطلاقا من دفعة موسى بن نصير إلى موجة الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيري، حول ثقل العمل العسكري إلى أيديهم وخاصة منهم الشاميون الذين وزعهم الحسام بن ضرار الكلبي على كور الأندلس الجنوبية والجنوبية الشرقية، وسجلهم في الديوان كجند مرتزق. إلا أن هذا الإجراء لم يمنع العناصر الأخرى من العرب والبربر من المشاركة في الغزوات والأعمال العسكرية، ويبقى الفرق متعلقا فقط بالمكافأة الخاصة بكل طرف.

لقد كان البربر، دون شك، يشاركون ضمن مجندي الكور من غير أهل الديوان لكن دورهم في الجيش سيبرز أكثر من خلال ارتزاقهم في الجيش الأموي منذ تأسيس الدولة حتى سقوطها، بل وفي عهد ملوك الطوائف وقد برز منهم جماعة من القواد الذين اشتهروا بالبأس والشجاعة.

شأن المواضيع الأخرى، فهذا الفصل بدوره يعاني من شح المادة التاريخية والتي لا تتجاوز شذرات متفرقة هنا وهناك وكعادتنا، سنعمل على التقريب بينها لتوضيح معالم هذا الجانب من حياة البربر في الأندلس.

1- البربر في جيش الكور

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، كان البربر جيش الفتح الرئيسي وجيش الأندلس حتى سنة 123 هـ / 740 – 741 م عندما قامت الثورة البربرية والتحق بالأندلس جيش الشام المحاصر بسبتة بقيادة بلج بن بشر القشيري ولما التحق أبو خطار الحسام بن ضرار الكلبي بولاية الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان والي إفريقية عمل على إخراج الشاميين من

قرطبة بتوزيعهم على كور البيرة ورية وشذونة واشبيلية وجيان وباجة وتدمير[1]. فصاروا جيشا إقطاعيا. وسجلوا في الديوان مقابل أراضي والإعفاء من أعشارها، وصاروا ملتزمين بحضور كل الغزوات برزق محدد ونظام مضبوط [2].

رغم تحول الشاميين إلى جيش نظامي، فإن هذا لم يمنع البلديين (عرب وبربر) من المشاركة في الغزو تحت ألويتهم إذ «كان أهل البيوتات منهم يغزون كما يغزو الشاميون»[3]. وتحتفظ لنا المصادر بعدة إشارات تؤكد كلها على أن البربر كانوا يشاركون في الغزوات بجيش من قبائلهم وتحت ألويتهم. وقد تميز وضع المقيمين في الثغور، وخاصة الثغر الأوسط والسهلة بكونهم ـ ربما ـ يعيشون نفس الأوضاع التي كان عليها جند الشام، وإذا كنا لا نملك معلومات واضحة عن ذلك قبل القرن 4 هـ / 10 م، فإن وقوعهم في الثغر وتعرضهم الدائم لهجومات المسيحيين وردهم على هذه الهجومات ومايكلفهم من نفقات كبيرة، ونظرا للأهمية التي تعطى للجهاد في الأندلس، قد يدفع بعض الأمراء إلى إخضاعهم لنفس النظام. أما خلال القرن 4 هـ / 10 م، فإن ابن حيان ينقل لنا إجراء قام به الناصر في النص التالي يدل على إقطاعهم بلادهم مقابل العمل العسكري، وجاء فيه : «فقسم بلادهم [آل ذي النون ـ آل زروال ـ آل غزوان ـ آل رزين ـ وآخرين] بينهم حصصا، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام سجلاتهم تضمينا وترفيها، ثم لا يغبهم بالصلات إذا وفدوا وبالهدايا إذا بعدوا، فلا يأتلون في طاعة مع حفظ أنفسهم منها جهدا، ولا يألون عدوهم وعدو المسلمين» ويضيف أنهم «وراثها عن الاجداد والآباء»[4].

ونفس الإجراء سيتكرر على عهد الحكم المستنصر[5] وهذا الإجراء فرض عليهم حضور كل الغزوات، ولا يقبل منهم أي عذر عند التخلف عنها، وربما، أن نص ابن حيان يحيل أيضا على كون ظاهرة الإقطاع فيهم قديمة.

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 33.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج. 1، ص. 103.

(3) نفسه.

(4) ابن حيان، المقتبس، المعهد العربي الاسباني للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص 437-48.

(5) نفسه، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 203.

ولايقتصر أمر مشاركة البربر في جيش الكور على الثغور، بل إننا نتوفر على إشارات أخرى تهم باقي المناطق الأخرى. وينقل لنا صاحب «أخبار مجموعة» قصة حفص بن ميمون المصمودي الذي شارك في إحدى غزوات الأمير محمد إلى سرقسطة وفاخر غالب بن تمام فقتله، و لم يكن لوحده، بل وجد معه أخوه وهب وعشيرته، وقد صرح وهب بعد مقتل أخيه بقوله: «والله لئن لم تغضب لنا قريش ليغضبن لنا سبعون ألف سيف»[6]. كما أن المؤرخين عند حديثهم عن المشاركين في الغزوات يوردون عبارات تدل على مشاركة بربر الكور، فمثلا يقول ابن حيان في حديثه عن غزوة الناصر سنة 322 هـ / 933 م: «استشهد قوم من المسلمين، رحمهم الله، فيهم نفر من العرفاء والبربر والطنجيين وغيرهم»[7].

ويقول أيضا بصدد حديثه عن سنة 362 هـ/ 972 م: «ثم قبائل البربر والنزاع من أهل العدوة ووفود الأمصار»[8]، فهذا الفصل بين البربر والطنجيين أو النزاع من أهل العدوة يدل على أن المقصود بالبربر ليسوا هم المرتزقة، وإنما مجندو الكور تمييزا لهم عن البربر المرتزقة.

ويتضح الأمر بشكل أكثر من خلال نص لابن القوطية جاء فيه: «ووصل الخبر إلى بني الخليع موالي يزيد بن عبد الملك بتاكرنا، فأتوه في أربعمائة فارس، ثم تقدم يريد [عبد الرحمان الداخل] شذونة فتلقاه جد بني الياس في عدد كثير» [9]. وهذا دليل قاطع على أن البربر كانوا يشاركون في جيش الكور منذ عهد الفتح وحتى بعد إصلاح الحسام بن ضرار، واستعدادهم الدائم للغزو. وسيستمر هذا التقليد في بني إلياس، بحيث سنجد عبد الكريم بن إلياس المغيلي الشذوني ضمن جيش الأمير المنذر المحاصر لابن حفصون قبل موته سنة 275 هـ / 888 م، وكان يقود قومه، وبموته انسحب إلى قلعة ورد، واسجل له الأمير عبد الله ولابنه محمد بعد موته على القلعة، والتزم بحضور الصوائف في قومه[10].

(6) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 103.

(7) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 341.

(8) نفسه، ج. 3، ص. 120.

(9) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعين، ص. 50.

(10) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1965، ص. 113.

ويضاف إلى ماسبق الاستعداد الذي وجدناه لدى البربر للاندماج في أي ثورة بحمل السلاح، ولولا الاستعداد والاحتكاك الذي يخضعون له لما أمكن ذلك، ولن يكون هناك دافع إلى هذا الأمر غير التجنيد في جيوش الكور. وقد يكون النظام القبلي بدوره دليلا على هذه المشاركة على اعتبار أن كل عشيرة تتكلف بحماية نفسها أولا من جيرانها، والاستجابة لنداء حلفائها، أو لمنادي الجهاد في البلاد كلها.

يبدو أن الشواهد التي أوردناها تعمل في اتجاه تأكيد المشاركة البربرية في جيش الكور، كما تجعلنا نشك في كون بربر الثغر قد حصلوا على وضعية مشابهة لوضعية المجندين الشوام بحيث يقاطعون على أراضيهم ويعفون من العشور ويرتزقون 200 دينار بعد كل غزوة ويسجلون في جيوش الثغر(11). أما باقي البربر، فيبدو أنهم يشاركون في هذا الجيش، ولكنهم لا يستفيدون من نفس الامتيازات بحيث يؤدون العشر مع سائر أهل البلد، ويغزون في ألوية معقودة، فيتلقون 100 دينار فقط، ولا يتلقى غير المعقود لهم أي شيء سوى نصيبهم من الغنيمة، ولا يكتبون في الديوان(12).

نخلص إلى أن البربر كانوا يشاركون في جيش الكور القبلي، لكن دون تسجيل في ديوان الجند أو الاستفادة من كل الامتيازات. إلا أن دور البربر في الجيش لن يظهر بشكل جلي وقوي إلا في إطار الارتزاق.

2- البربر مرتزقة في جيش الأندلس

تتفق كل الدراسات التي تناولت موضوع الارتزاق في الجيش الأندلسي، خاصة الأموي، على أن البربر كانوا دائما عنصرا أساسيا فيه. فليڤي بروڤنسال يقول : «... بلاد البربر الغربية خزان لاينفذ للرجال»(13). ونفس القول يكرره باحث إسباني بدوره(14). ورغم الإجماع على أهمية الدور البربري في جيش الأندلس، فإن هناك مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى توضيح ومنها: متى بدأ اشتغال البربر في الجيش الأموي كمرتزقة؟ ما هي

(11) ابن الخطيب، المرجع السابق، ج. 1، ص. 103.
(12) نفسه.

(13) Lévi-Provençal (E). Histoire de l'Espagne, éd. Maisonneuve, Paris, 1950, t. 2, p. 261
(14) Consuelo Lopez-Monillos, Los berberes zanata en la historia y la legenda, Revue, Al-Andalus, t 42, fax 2, 1977, p. 305.

الدوافع التي كانت وراء جلب الأندلسيين للبربر؟ ما نوع المعاملة التي يتلقاها الجيش؟ ما هو موقف العامة منهم؟ وما هي نظرتهم إلى عملهم كمرتزقة ؟

تجمع المصادر الأندلسية على أن بداية ظهور الارتزاق في جيش الأندلس كانت على عهد الحكم I. وقد كون فرقة تدعى الحشم ويطلق عليهم الخرس لجهلهم اللغة العربية لأنهم صقالبة[15]. إلا أن تتبع محتويات المصادر بدقة يوضح لنا أن الارتزاق في الجيش الأموي كان أقدم ويعود إلى عهد عبد الرحمان الداخل، بحيث أورد المقري نصا يوضح ذلك، وجاء فيه: «استوحش (عبد الرحمان I) من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دغل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية، واعتضد أيضا بالبربر، ووجه عنهم إلى بر العدوة، فأحسن لمن وفد عليه إحساناً رغب من خلفه في المتابعة قال ابن حيان: واستكثر منهم ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالبا على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطدت»[16]. ويضيف ابن سعيد أن «الذي أشار عليه باصطناع البربر واتخاذ العبيد ليستعين بهم على العرب» هو بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان[17]. ويكفي أن يشير المقري إلى اعتماده على ابن حيان والتمعن في سبب اتخاذه لهذا الجيش لتتأكد لدينا صحة هذا النص، وقد سبق للاسباني Isidio de las Cagigas أن أكد محتوياته أيضا[18].

لقد كان، إذن، أول استعمال للمرتزقة في الأندلس يعود إلى عهد عبد الرحمان الداخل، وكان البربر العنصر الأساسي لمرتزقته، وبهم أثبت دعائم دولته.

ولم يقتصر اتخاذ المرتزقة على الدولة في عهد عبد الرحمان الأول، بل إن بعض منافسيه الثائرين عليه كان لهم مرتزقة استعانوا بهم في حروبهم معه، مثل : عبد الرحمان بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي[19].

---

(15) عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. Lévi-Provençal (E), op.cit, t. 3, pp. 71-73.79.

(16) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، ج. 4، ص. 36.

(17) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1 ، ص. 60.

(18) Isidio de las Cagigas, Minorias etnico-religiosas, Instituto de estudios africos, Madrid, 1948, livre 1, t 1, p. 107.

(19) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 4، ص. 158. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 54.

وتختفي عنا الأخبار عن أي استعمال للمرتزقة البربر حتى عهد الأمير المنذر باستثناء استعمال سليمان بن عبد الرحمان لبعض البربر في حروبه ضد الحكم الربضي[20].

وكذلك ما يشير إليه محمود علي مكي من أن عبد الرحمان الثاني استعان «بكثير من رجالات الرستميين وقوادهم في الأندلس نفسها» [21].

ويتحدث ابن حيان عن وجود مرتزقة في عهد الأمير المنذر كحرس خاص له، وقد جاء ذلك بمناسبة موته وتعيين أخيه عبد الله، وجاء في كلامه : «فأنفذ الخدم البربر فيه إلى قرطبة وهو خليفة فيها يوحون إليه بشأن أخيه فطار بجناح الإشفاق على العسكر الجماع ووافى سريعا إليه، فأدخله الخدم إلى أخيه بداخل المضرب، ووقفوه على موته واجلسوه مكانه»[22]. وقد كان ذلك سنة 275 هـ / 888 م.

وفي عهد الأمير عبد الله وردت إشارات صريحة إلى وجود مرتزقة في جيشه. فخلال انتصار للقائد محمد بن أبي عبدة سنة 284 هـ / 897 م، يذكر ابن حيان أنه قتل «من أهل العسكر طنجي واحد»[23] وأثناء مواجهة جيش السلطان لابن حفصون سنة 291 هـ / 902 م، «قتل من رجال السلطان طنجي واحد»[24]. وخلال غزوة المنتلون «تداعى البربر الطنجيون الذين كانوا غزوا مع القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى النزوع إلى مدينة بلدة إلى ابن حفصون وتداعى الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد على المنتلون إلى النزوع إلى ابن هذيل، ولحقوا بأهل الكفر والخلعان»[25]. وكل هذه الإشارات توضح أن البربر المرتزقة كانوا عنصرا أساسيا وفعالا في جيش الأمير عبد الله على اعتبار تعدد الثوار في البلاد، وكذلك عجزه عن جمع مجندي الكور.

وكان للمنافس الأول والخطير للأمير عبد الله عمر بن حفصون بدوره مرتزقة بربر،

(20) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 70.
(21) محمود علي مكي، الخوارج في الأندلس، مجلة تطوان، عدد 1، 1956، ص. 172.
(22) ابن حيان، المرجع السابق، بولس كتنر الكتبي، باريس، 1973، ج. 3، ص. 2.
(23) نفسه، ص. 122.
(24) نفسه، ص. 143.
(25) نفسه، ص. 147، ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص.147.

حيث ورد عند ابن حيان عند حديثه عن هزيمته سنة 284 هـ / 897 م، «فقتل له طنجي (...) ونزع من أصحابه إلى العسكر ثلاثة عشر طنجيا»[26].

يتضح جليا أن البربر صاروا عنصرا أساسيا في جيوش الأندلس في الثلث الأخير من القرن 3 هـ / 9 م. بحيث صار كل فريق يستنجد بهم لمهاجمة أو دفع أعدائه. وإذا كنا لا نملك إلا معلومات يسيرة عن الأمير عبد الله وابن حفصون، فمن المرجح أن يكون لفرقاء آخرين مرتزقة من البربر.

وتوسع ارتزاق البربر في جيش الأندلس خلال القرن 4 هـ / 10 م. فعبد الرحمان الناصر احتفظ بالمرتزقة الذين ورثهم عن جده[27] كما استجلب رجالا آخرين، ولكنه ـ حسب ابن حيان ـ التزم سياسة حذرة بحيث «لا يستخدم من البربر إلا أراذلهم وعبدانهم من أشابتهم وأساودهم موقعا عليهم اسم الطنجيين مقتصرا بهم على أدنى الملاحق، قاصرا لهم على أقل الرواتب، مصرفا لهم في أشق الخدمة»[28]. ولا نملك معلومات دقيقة عن أعداد البربر المرتزقة ولا عن قبائلهم. لكن التجنيد لم يخضع فقط لهذه القاعدة التي ذكرها ابن حيان مادام الناصر قد استخدم أيضا زعماء بربرا وأشراف قبائلهم خاصة منهم من فروا من المطاردة الفاطمية، ومن مشاهيرهم حميد بن يصل الزناتي الذي التحق بالناصر 336 هـ / 946 م[29].

ونهج الحكم الثاني نفس السياسة في بداية حكمه حتى أنه عاقب فارسا استعمل سرجا عدويا[30]. ولكنه غير سياسته في السنوات الأخيرة من حكمه لما اكتشف تفوقهم في ركوب الخيل والفروسية، فوسع استعمالهم، بحيث صار منهم، في جيشه «رجال مقدمون في البأس والرجولة اقترن بهم عما قليل رجال هؤلاء الحسنيين، فاستكمل بهم فئة بربرية ضخمة تعززوا بالمستأمنين قبل إليه من صبابة بني برزال المقدمين على جماعتهم في

(26) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3 ، ص. 121.
(27) نفسه، ج. 5 ، ص. 63 و 88.
(28) نفسه، ج. 6، ص. 190.
(29) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 215.
(30) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص 190.

البأس والنجدة»[31]. ويوضح النص مدى استكثار الحكم الثاني من المرتزقة البربر والتجائه إلى التجنيد القبلي بدل الأفراد الذين اعتاد سلفه استخدامهم، وبهذا يكون عهده منعطفا حاسما في تاريخ الارتزاق البربري في الأندلس، وقد بلغ عدد الفرسان البربر في عهده مايقرب 700 من فارس[32] يوضعون تحت قيادة جعفر بن علي بن حمدون[33].

وفي عهد الوصاية العامرية على الخليفة هشام الثاني، عمل المنصور بن أبي عامر على تقوية مركزه، فالتجأ إلى الاستكثار من الصقالبة والبربر في الجيش، حتى أنه استدعى قبائل بربرية بأكملها، وتكون مرتزقته من أبناء صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال[34] إضافة إلى مصامدة وبربر آخرين. ويحدد الصفدي عدد المرتزقة البربر في جيشه في 4200 فارس[35]. أما ابن الخطيب فيحددهم في خمسة آلاف : ثلاثة آلاف فارس وألف راجل من رقاصة السودان الداخلين في عدادهم[36]. وكان البربر يشغلون ميمنة جيش المنصور ابن أبي عامر[37].

وقد قرب المنصور البربر وصاروا خاصته «وبطانته، وهم أظهر الجند عنده وأعلاهم مرتبة»[38]. كما كانوا منادميه ومسايريه في كل الأوقات واللحظات[39]. وسيستمر هذا الحال على عهد ابنيه عبد الملك وعبد الرحمان، بل في عهد المستعين بالله وبني حمود. ولما سقطت الخلافة «كان في كل بلد جملة منهم، اقتسموا قواعد الأرض مضربين بين ملوكها، فلا يقاتل الأعداء إلا بهم، ولا تسكن الأراضي إلا بجوارهم»[40].

---

(31) نفسه، ص. 190-192.
(32) نفسه، ص. 192-193.
(33) نفسه، ص. 48. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، دار المكشوف، بيروت، 1956، ج. 2، ص. 63.
(34) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 189.
(35) الصفدي، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز شتايز بفسبادن، 1962، ج.3، ص. 313.
(36) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 102.
(37) نفسه، ص. 63.
(38) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 279.
(39) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج. 7، ص.79.
(40) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 203.

لقد لعب البربر المرتزقة دورا كبيرا في الجيش الأندلسي الأموي منذ عهد عبد الرحمان حتى نهاية الخلافة الحمودية بقرطبة، بحيث كان الإقبال عليهم في كل العصور، ويبرر هذا الإقبال، دون شك، بميزات خاصة لديهم. فما هي أسباب الرغبة الأندلسية في المرتزقة البربر ؟

إن موقع الأندلس الذي جعل منها ثغرا إسلاميا يعرف صراعا مستمرا بين الإسلام والمسيحية قد جعل الاهتمام بالعمل العسكري يزداد أكثر ويستمر، وبذلك كانت الأندلس تحتاج دائما إلى جيوش فكانت تجلبهم من العدوة المغربية أو من وسط أوربا.

وإذا تتبعنا الفترات التي يزداد فيها الاهتمام بالمرتزقة بصفة عامة، نجد أنها فترات اضطراب في الأندلس: تأسيس الدولة الأموية وفتنة نهاية القرن 3 هـ / 9 م، وازدياد حملات الجهاد في عهد الناصر، ورغبة آل عامر في قمع المعارضة خاصة العربية. فهذه العوامل تثبت حاجة الأندلس إلى المرتزقة ولكن لماذا الإقبال على البربر ؟

لقد عاشت شمال إفريقيا خاصة خلال القرن 4 هـ / 10 م، اضطرابات شديدة ناتجة عن الصراع الحاد بين الفاطميين والأمويين وأتباعهم من زناتة، فاضطر كثير من البربر إلى الفرار والالتجاء إلى الأندلس والانخراط في الجيش تماما كما حدث لبني برزال. كما أن الأندلس تحظى بسمعة طيبة في المغرب. فكانت تمارس جاذبية قوية على البربر الذين يعيش الكثيرون منهم في ظروف اقتصادية صعبة. ويوضح لنا ابن عذارى ذلك في هذا النص : «يجيء الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف فيبدل له بلباس الخز الطرازي وغيره، ويركب الجواد العتيق، ويسكن قصرا لم يتصور له في منامه مثله» [41]. وكان البعض منهم يتطلع إلى الجهاد في سبيل الله.

فهذه العوامل سهلت فقط عملية جلب البربر من قبل الأمويين، لذلك فنحن لم نجب بعد عن السؤال الذي طرحناه. لعل الجواب يكمن في الخصال العسكرية الرفيعة للبربر بحيث يتميزون بالصلابة والصبر وسرعة الحركة وإتقان الفروسية، ويحدد ابن حيان هذه

(41) نفسه، ج. 2، ص. 279.

الخصال متحدثا عن موقف الحكم الثاني منهم «فمنحهم الله قبوله، وحسن عنده زيهم، واستنبل تخفيفهم في مراكبهم، وانكماشهم في ثقلهم، ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم»(42). ويضاف إلى هذا وفاء البربر وتفانيهم في خدمة من يحسن إليهم، وقد عبروا عن شكر النعمة في عهد المنصور بطرق شتى.

كانت حاجة الأندلس إلى الرجال واضطراب أوضاع شمال افريقيا وفقرها، ثم خصال البربر العسكرية الرفيعة عوامل متداخلة ساهمت في كثرة المرتزقة البربر في الأندلس واستمرارية تواجدهم في الجيش الأموي، هذا دون أن نغفل عامل القرب الجغرافي لشمال افريقيا من الأندلس.

وقد تميزت معاملة الأمويين للبربر بالقسوة والدونية، وقد سبق لنا أن أوردنا نصا لابن حيان يحدد لنا معالم هذه المعاملة، وأهم ما تضمنه : توليتهم أدنى المراتب وتقديم أدنى الأجور واستعمالهم في الأعمال الشاقة(43). ويضاف إلى هذا أنهم يعاقبون بقسوة عقب كل خطأ. ففي شهر رمضان من عام 361 هـ / 971 م، قام صراع بين البربر وباقي الجند أثناء استعراض فعوقب البربر بالسجن والضرب وربما القتل(44). ولم تقتصر هذه المعاملة على السلطة بل إن باقي الجند كانوا يكرهون البربر ولا يدخرون أية فرصة للاشتباك بهم(45)، ويكيدون لهم عند السلطان، فمثلا اتهم واضح وجوه بني برزال بالأدهان والتواطؤ مع زيري بن عطية المغراوي مستهدفا الإيقاع بهم، فاستطاعوا تبرئة أنفسهم أمام المنصور(46). كما كانوا يقسون في معاملتهم حتى في الاستعراضات، ويخبرنا ابن حيان عن حادثة من هذا النوع حدثت في شعبان من عام 364 هـ / 974 م بحيث وقع «افتراس وليد بن عبد الملك بن موسى بن الطويل الثغري لقرنه مديان بن الخير بن خزر البربري بمركز رمح أصاب به ما بين كتفيه، فسقط جريحا» فأمر الحكم الثاني بسجنه(47). وهذا الحدث ليس صدفة،

(42) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 192-193.

(43) نفسه، ص. 190.

(44) نفسه، ص. 78.

(45) نفسه.

(46) مجهول، مفاخر البربر، ص. 29.

(47) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 223.

على ما يبدو، إنما هو مظهر من مظاهر التنافس بين الجيش البربري المرتزق وجيوش الثغر الخائفين من منافسته.

وكانت العامة أيضا تحقد على البربر، بحيث تتعصب عليهم ويوضح ابن حيان ذلك في هذا النص: «دار بين الطنجيين والملحقين من طوائف الجند عند اجتماعهم بباب السدة من قصر قرطبة تنازع أفضى إلى التصايح، فتطاول بعضهم على بعض، واختلط بهم سواد أهل قرطبة متعصبين، فنالت الطنجيين جراحات فاشية»[48].

لكن هذا الحقد والكراهية يرافقه إعجاب من قبل الأندلسيين، وقد سبق وأن أوردنا نصا يوضح مدى إعجاب الحكم بالبربر وطريقة ركوبهم؛ بحيث كان يشرف على تداريبهم من قصره معبرا عن إعجابه. ومس هذا الإعجاب عناصر أخرى، ويقول ابن حيان في ذلك : «حتى لوقعت عينه (الحكم الثاني) يوما في موكب له كان إلى الزهراء وطنه على غلام له راكب على فرس بسرج عدوي الصنعة، لطيف دفتي المجلس، قصير قربوسي المركب: المقدم والمؤخر»[49]. فهذا خادم للحكم، لا ينقصه المال لنبرر موقفه برخص السرج العدوي، يستعمل آليات بربرية في ركوبه، وربما كان هذا التصرف يشمل فئات واسعة من فرسان الأندلس. وتميزت معاملة المنصور وابنه للبربر، بحيث يغدق عليهم الهبات والعطايا ويقطعهم الضياع، كما اتخذ منهم منادمين وجلساء[50]. وفرض عبد الرحمان شنجول على جيوش الأندلس اتخاذ الزي البربري باستبدال القلانس بالعمائم[51].

ولم يكن المرتزقة البربر جاهلين لطبيعة دورهم ونوعية المعاملة التي يتلقونها من قبل المجتمع الأندلسي، لذلك كانوا يتعاملون مع الأمور والأحداث بنوع من النفعية وإعطاء الأسبقية للمصلحة الخاصة. وصار همهم الأساسي هو الحصول على المال كأجر أو هدايا. لذلك كانوا يميلون إلى جانب كل من يملكه، خاصة في فترة الاضطرابات. ففي

(48) نفسه، ص. 78.

(49) نفسه، ص. 190.

(50) ابن عذاري، ج.2، ص. 278. وابن بسام، ج.7، ص.79.

(51) النويري، تاريخ المغرب الاسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985، ص. 127.

عهد الأمير عبد الله، وخلال غزوة المنتلون سنة 298 هـ / 910 م، أو 299 هـ / 911 م، «اتفق أن تهافت الطنجيون الذين في العسكر على النزوع إلى الخبيث ابن حفصون وابن هذيل»[52] ونفس الموقف وقفوه مع ابن حفصون سنة 284 هـ / 897 م، أثناء هزيمته أمام جيش السلطان، حيث فر من جيشه 13 طنجيا[53].

حتى في عهد الوصاية العامرية حيث حظي البربر بمكانة رفيعة ومعاملة خاصة وجدنا هذه الخاصية ملازمة لهم. فعندما أعلن الوزير عيسى بن علي القيام بانقلاب ضد عبد الملك المظفر «ساعده على ذلك جماعة من الطائفتين الأندلسيين والبرابرة»[54]. وعندما ثار محمد بن عبد الجبار المهدي بقرطبة سارع البربر إلى التخلي عن ولي نعمتهم عبد الرحمان شنجول والالتحاق بالحاكم الجديد. وفي ذلك يقول ابن عذاري : «فاتفقوا على إسلام عبد الرحمان إليهم. وطلب السلام من بوادرهم»[55]. ونفس الموقف وقفوه مع المستعين بالله إذ تخلوا عنه وانضموا إلى علي بن حمود الإدريسي الذي قتله فيما بعد.

لقد كان البربر، إذن، واعين بطبيعة وضعيتهم في الأندلس، ولذلك تعاملوا مع الأوضاع حسب مصالحهم الخاصة، يدافعون عن القوي الذي يدفع المال ويوفر الحماية بتفان، ويتخلون عن المغلوب والضعيف دون أن تكبلهم حسناته السابقة باحثين عن غيره.

شكل البربر منذ عهد عبد الرحمان الداخل عنصرا أساسيا في الجيش الأموي، بحيث ساعدوا الأمراء على حل مشاكلهم السياسية والقيام بواجباتهم الدينية الخاصة بالجهاد. لكن الأندلسيين كانوا يعاملونهم دائما بدونية وينزلون بهم أقسى العقوبات على أدنى الأخطاء. وجلبت لهم مكانتهم العسكرية عداوة باقي جيوش الأندلس وعامة السكان، رغم أن هذا الحقد قد اقترن بالإعجاب والتقليد. وظلوا في أخلاقهم أوفياء لتقاليد الارتزاق في الجيش عبر التاريخ، البحث عن المال والميل مع القوي والتخلي عن الضعيف والفارغ اليد والخزائن.

(52) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 147.
(53) نفسه، ص. 21.
(54) ابن عذاري، البيان، ج. 3، ص. 30.
(55) نفسه، ص. 67-68.

3- قواد بربر بارزون في الأندلس

الحق أننا لانتوفر على كثير من الأسماء التي نبغت في هذا الميدان، ولهذا فسنقتصر في كلامنا على الحديث عن بعض الأشخاص الذين نتوفر على أخبار أحسن عنهم. ونضع على رأس المجموعة القائد الأول طارق بن زياد قائد الفتح، وقد سبق لنا أن توقفنا عنده في الفصل السابق، وذكرنا أهم خصاله.

واشتهر في عهد عبد الرحمان I ابراهيم بن شجرة الاودي الذي جعله عبد الرحمان قائدا على الفرسان البربر أثناء معركة المصارة ضد عبد الرحمان بن يوسف الفهري[56]. وقد ولي بعد ذلك على قومه بمورور، ثم ثار على عبد الرحمان سنة 163 هـ / 780 م، فقتله بدر مولى عبد الرحمان بعد قتال شديد وعنيف و «كان نجدا» [57].

واشتهر أيضا إرزاق بن منت المصمودي صاحب وادي الحجارة، ويتمتع بجمال فائق، وصاهره موسى بن موسى القسي التطيلي لأجل استمالته إلى جانبه، فلم ينجح في ذلك. و «كان إرزاق من أرمى الناس برمح». رمى صهره الذي هاجمه بسهم فقتله، ونال رضى الأمير محمد[58].

وذاع صيت يحي بن ضريس الصنهاجي المقيم ببلكونة على عهد الأمير عبد الله، وقد عرفه الناس بصدمته لابن حفصون، والتي أبطلت يده، فلم يأكل بها ما بقي من عمره، وكان حوالي 30 سنة[59].

وظهرت أسماء كبرى في عهد آل عامر وبعده المستعين بالله. ومنهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي «ليث الحروب، وفل الوقائع، ورجل القبيل قاطبة دهاءا وحزما وحصافة ونكراء وصبرا واقداما ورأيا»[60]. واشتهر بالعدل والانصاف وحكم غرناطة

(56) نفسه، ج. 2، ص. 47 . مجهول، أخبار مجموعة، ص. 81.
(57) نفسه، ص. 101.
(58) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 117-118.
(59) ابن حزم، جمهرة، دار الكتب العلمية،بيروت، 1983، ص. 502.
(60) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 228.

وعظم قدره لدى الناس خاصة وعامة، وقتل المرتضى المرواني[61]. ويحكى عن ذكائه أن المرتضى لما زحف إلى غرناطة كتب إليه يدعوه إلى طاعته، فرد عليه على ظهر كتابه بسورة «الكافرون» ثم كتب إليه يهدده، فرد عليه بنفس الطريقة بسورة «التكاثر»[62]. وهذا يدل إضافة إلى ذكائه على علمه الواسع وتبحره في العلوم الدينية. وقد أنهى حياته بالأندلس بالرحيل عنها سنة 410 هـ / 1019 م ـ 1020 بسبب الحنين إلى وطنه وعشيرته. وقد تميز موقف ابن حيان منه بالقسوة، حيث اتهمه «بالظلم والجور والاستحلال بالمحارم والقسوة»[63].

واشتهر أيضا ابن أخيه حباسة بن ماكسن بن زيري بن مناد الذي «كان شهما صليبا بهمة من البهم، كريما في قومه، أبيا في نفسه، صدرا من صدور صنهاجة»[64] وقد قتل في موقعة رمداي بين أهل قرطبة والمستعين بالله عام 402 هـ / 1011 م، ولكثرة مانال أهل قرطبة منه في ساحات القتال، فقد حقدوا عليه بعد قتله، حيث مثلوا بجثته وقطعوا بعض أعضائه وشووا كبده وأحرقوا جثته[65]. و«بلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله، ورأت أن دماء أهل قرطبة جميعا لا تعدله»[66].

وكان أخوه حبوس أحد الوجوه العسكرية الكبرى، وكان «وقورا حليما، فظا مهيبا، نزر الكلام، قليل الضحك، كثير الفكر، شديد الغضب، غليظ العقاب، شجاعا حسن الفروسية، جبارا متكبرا داهية، واسع الحيلة كامل الرجالية»[67]. ويضاف إلى هذا أنه كان «يصغي إلى الأدب»[68]. وهو الذي خلف زاوي في حكم غرناطة وأورثها لعقبه من بعده.

ومن المشاهير في هذا العصر عماد الدولة أبو عبد الله محمد بن خزرون من بني يرنيان الثائر بقلسانة سنة 402 هـ/ 1011 م و «كان فتاكا هتاكا قتالا سفاحا»[69].

---

(61) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج. 2، ص. 106.
(62) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 30.
(63) نقلا عن ابن بسام، المرجع السابق، ج. 2، ص. 588.
(64) ابن الخطيب، الإحاطة، ج. 1، ص. 486.
(65) نفسه، ص. 486 ـ 487.
(66) نفسه.
(67) ابن بسام، المرجع السابق، ج. 1، ص. 460 و 461.
(68) ابن سعيد، المغرب، ج. 2، ص. 107.
(69) ملحق البيان المغرب، ج. 3، ص. 294.

وتعرفنا على آخرين فقط من خلال أسمائهم مثل: عبدوس بن الخير ومقاتل بن عطية ومسعود بن أبي الغمر وثعبان بن أحمد الكتامي وحسين بن ابراهيم الخليع(70).

وما يلاحظ أن أغلب هؤلاء القواد البربر كانوا منعوتين بالشجاعة والفروسية والشدة والبأس، مع أن المؤرخين كانوا متحاملين عليهم في بعض الأوصاف، لأنهم القادة الفعليين لمعسكر سليمان المستعين خلال الفتنة. وتميز معظم القادة بالذكاء والدهاء والعلم خاصة بنو زيري وعلى رأسهم عميدهم زاوي بن زيري. كما وجدنا بعضهم يحمل بعض خصائص قواد الأندلس من اهتمام بالأدب وحضور مجالسه.

خلاصة الكلام، لقد تمكنا خلال هذا الفصل من توضيح معالم المشاركة البربرية في الحياة العسكرية الأندلسية، بحيث تعرفنا على أن البربر كانوا عنصراً حاضرا ضمن مجندي الكور رغم أنهم لم يكونوا من الكور المجندة الخاصة بأهل الشام. كما اتضح لنا أن المرتزقة البربر كانوا دائما حاضرين في جيش الإمارة الأموية، وكانوا عنصرا رئيسيا في هذا الجيش، بالرغم مما جلبه لهم عملهم من سوء معاملة وقسوة وحقد. وقد نبغ من هؤلاء البربر قادة اشتهروا بالبأس والفروسية والشجاعة والدهاء لعبوا أحسن الأدوار.

(70) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 122-123.

الفصل الرابع:
المعارضة البربرية

تميز العهد الإسلامي في الأندلس بكثرة الثورات والاضطرابات، وقد اختصت القرون الأولى باصطباغ هذه التمردات بطابع قبلي، بحيث يحركها زعماء العشائر والأسر الكبرى ويساهم فيها كل أبناء مجموعتهم إضافة إلى حلفائهم من العشائر الأخرى. ولم يكن البربر الذين يعيشون في ظل نظام مشابه بعيدين عن هذه الثورات والتمردات.

إن معلوماتنا عن الثورات البربرية في الأندلس تقتصر أساسا على ما تقدمه كتب التاريخ العام، ونظرا لاتجاه هذه الكتب الرسمي[1] وموالاتها للحكام وإغضائها الطرف عن النقط السوداء في فترات حكمهم، فإن المعلومات التي تقدمها تبقى محدودة ومشوهة في أغلب الأحيان. وهذا انعكس على أخبار الثورات البربرية وغيرها، بحيث نجدها قليلة ومتكررة بين المصادر وتركز أساسا على ما يرتبط بحملات السلطة المركزية ضدها. وهذا الاتجاه يحكم على الدارسين المعاصرين بالتقيد بمنهج معين بل، ويفرض نظرة معينة اتجاه هذه الثورات. وقد سجلنا أن أغلب من درسوا الثورات البربرية إما يكررون ما جاء في المصادر بعجالة أو يقتصرون على نتائج الأبحاث الكلاسيكية مثل أعمال دوزي وليڤي بروڤنسال.

سار كل من درسوا الثورات البربرية في الأندلس على نهج كرونولوجي حولي، بحيث يقدمون معلوماتهم وفق تسلسلها الزمني، ولا يتكبدون عناء البحث عن رابط آخر بين هذه الحركات يضعون على أساسه تصنيفا أكثر قوة وعلمية. فحتى صاحب «ثورات البربر في الأندلس»[2]. والذي خصصه لهذا الموضوع لم يبذل مجهودا في هذا الاتجاه. وسعيا منا إلى وضع تصنيف جديد، فقد ارتأينا أن نعتمد على أهداف الحركات الثورية من أجل تصنيفها. وهكذا حددنا ثلاثة مجموعات من الثورات : الثورات الانفصالية والثورات

(1) نقصد بالاتجاه الرسمي انشغالها مثل الحكام تماما بوحدة الجماعة، ورفض كل صوت مخالف ولا يسير في هذا الاتجاه.

(2) حمدي عبد المنعم محمد حسين، ثورات البربر في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1993.

القبلية (تمردات) وثورات الحلف، وأخيرا خصصنا آخر الفصل للحديث عن دور البربر في اضطرابات بداية القرن 5 هـ / 11 م.

1- الثورات الانفصالية

نقصد بهذا النوع من الثورات تلك التي تطلعت إلى الاستقلال عن الحكم المركزي أو إسقاطه معتمدة على مذاهب معارضة للمذهب الرسمي. وقد قامت هذه الثورات تحت غطاء مذهبين : الشيعي والخارجي، وهما يختلفان عن مذهبي الأوزاعي ومالك السائدين في البلاد. وقد تضمن هذا النوع ثلاثة ثورات تعد من أكبر الثورات التي عرفتها الأندلس وهي : ثورة 123 هـ / 740 ـ 741 م، وثورة شقيا بن لقيا المكناسي في شنتبرية ثم ثورات الجزيرة المتكررة.

1.1- ثورة البربر عام 123 هـ / 740 م

تعد أولى الحركات الثورية التي عرفتها الأندلس منذ الفتح. ونظرا لقدمها الزمني، فإن الأخبار حولها ضعيفة ونادرة. وأكثر الرويات تفصيلا تلك الواردة عند صاحب «أخبار مجموعة»، أما باقي المصادر فاقتصرت في أحيان كثيرة على إشارات عابرة أو كررت مادة المصادر التي سبقتها كما نجد عند ابن عذاري والمقري. وقد تأثرت بذلك أبحاث المعاصرين التي لا تخصص للموضوع إلا كلاما قليلا، ولكن أهم ما ميزها هو التأويلات المتعددة التي احتوتها حول أسبابها وتطوراتها.

انطلقت الثورة عندما وصلت إلى الأندلس أخبار ملاحم البربر في شمال افريقيا والانتصارات التي حققوها بقيادة ميسرة المطغري وخليفته حبيب بن حميد الزناتي على حساب الجيوش العربية[3]. ويشير دوزي وحسين مؤنس إلى أن هذه الأخبار وصلت إليهم بواسطة مبعوثين ورسلا خوارج انتقلوا من المغرب إلى الأندلس وشجعوهم على الثورة[4].

---

(3) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص.42. المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج.4، ص.19.
(4) مؤنس حسين، فجر الأندلس، الشركة العربية، القاهرة، 1959، ص.159.
Dozy (R), Histoire des musulmans d'Espagne, Ed. Naisonneuve, Paris, 1952, t 1, p. 16.

ويحتمل أن يكون هذا الرأي قريبا من الصحة لعدة اعتبارات. فخوارج المغرب الذين انتصروا على الجيوش الأموية بشمال افريقيا على نهري سبو وشلف يرغبون في تدعيم هذا النصر، وربما كان وجود عناصر عربية في الأندلس خطرا يهددهم من الخلف، لذلك فسيكون من الأجدى والأسلم عسكريا وسياسيا التخلص من هذا التهديد. أما الاعتبار الثاني، فيتعلق بوقت انطلاق الثورة في الأندلس، بحيث انفجرت في أقصى الشمال الغربي وأقصى الجنوب في نفس الوقت مما يفترض نوعا من التنسيق والتخطيط المسبق.

اتخذت الثورة شكل مطاردة للعناصر العربية في شمال غرب الأندلس في جليقية واسترقة والثغر الأدنى، فاتجه أغلبهم نحو العاصمة قرطبة[5]. ثم اتجه الجيش البربري «نحو طليطلة قاصداً السيطرة عليها، والتوجه بعد ذلك نحو العاصمة قرطبة مركز السلطة». واستطاع هذا الجيش إلحاق هزائم متكررة بجيوش عبد الملك بن قطن والي الأندلس، فصار خطرهم جاثما على قرطبة[6]. وفي نفس الوقت، كان بشذونة جمع آخر من البربر يزحف نحو قرطبة[7].

أمام الهزائم المتكررة لجيوشه، وتهديد البربر لقرطبة من الشمال والجنوب، التجأ عبد الملك بن قطن إلى الاستنجاد بأعدائه المحاصرين بسبتة وهم جنود بلج بن بشر الشاميون الذين احتموا بهذه المدينة فرارا من إبادة البربر[8]. وقد استجابوا بسرعة فحلوا بالأندلس متعطشين إلى الدماء ونيل الثأر من البربر. وقلب وصول الشاميين إلى الأندلس موازين القوة، بحيث بدأ البربر في التراجع. ففي البداية انهزم جمع شذونة وشتت رجاله[9]. ثم وقع اللقاء الحاسم في نواحي طليطلة على وادي سليط وفيه أبيد البربر وشتت جمعهم «وقتلهم العرب بأقطار الأندلس حتى الحقوا فلهم بالثغور وخفوا عن العيون»[10]. ويضيف صاحب «أخبار مجموعة»: «وقتلوهم قتلا ذريعا افنوهم به، فلم ينج منهم إلا الشريد»[11].

---

(5) مجهول، أخبار مجموعة، ص. 42.
ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983. ج.2، ص.30.
(6) أخبار مجموعة، ص. 42.
(7) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 31. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت، بيروت، 1965، ج. 5، ص. 251.
(8) نفسه، ص. 30. أخبار مجموعة، ص. 43. المقري، المرجع السابق، ج.4، ص. 19.
(9) نفسه، ص. 31. ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 251.
(10) المقري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 20.
(11) أخبار مجموعة، ص. 47.

على أننا لا يجب أن ننظر إلى هذه الأقوال كحقيقة، بل إن فيها كثير من المبالغة، مادام البربر سيعيدون الكرة بعد قليل.

وتختلف المصادر حول قادة الثورة، فابن حيان يقول: «ونصبوا عليهم إماما»[12]. أما صاحب «أخبار مجموعة» فيذكر أن اسم زعيم البربر هو ابن هدين[13]. ويورد صاحب «فتح الأندلس» اسم زقطرنق[14]. في حين تقتصر رواية رابعة على الإشارة إليه بالزناتي[15]. فأي الروايات أصح؟ لا يبدو أن هذه الروايات تتعارض ويمكن التوفيق بينها باعتبار أن البربر وضعوا على رأسهم زعيما من أصل زناتي، ولكن هل هو ابن هدين أو زقطرنق ؟ قد يكون الاثنان على اعتبار أننا وجدنا أن للبربر تجمعين اثنين: واحد في أحواز طليطلة والآخر بشذونة.

ولا تقدم لنا المصادر رأيا مباشرا عن سبب اندلاع الثورة ماعدا كونها حقدا على العرب والرغبة في إبادتهم وكذلك اقتداء بثورة شمال افريقيا[16]. فماذا يمكن أن نستنتج من هاتين الإشارتين؟

من ناحية الحقد على العرب يمكن أن نبحث عنه في طبيعة العلاقة التي جمعت الطرفين خلال الثلاثين سنة التي مرت على الفتح، فقد سبق لنا أن وضحنا أن فتح الأندلس كان فكرة وعملا بربريا، وهذا يقتضي أن يكون البربر أكثر المستفيدين من الفتح، ولكننا، فيما سبق، رأينا أن الثروات خاصة لم تقتسم بشكل عادل ومتوافق مع الشرع الاسلامي، بل سيطر كل أناس على أرض حسب قوتهم، وأيضا فرض على البربر الاستقرار بالثغور لحماية مكاسب الفتح. وهذا خلق نوعا من عدم التوازن بين ماحصل عليه العرب، وما وقع بيد البربر ولد حقدا في نفوس البربر. وهذا أمر أكدت عليه أغلب الأبحاث التي تناولت الموضوع[17] ويضاف إلى هذا أن البربر الذين يشكلون أغلبية العنصر الدخيل، لم

(12) نقلا عن المقري، المرجع السابق، ج. 4، ص 19.
(13) أخبار مجموعة، ص. 43.
(14) نقلا عن السا لم، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص. 158.
(15) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص 31.
(16) نفسه، ص. 30. أخبار مجموعة، ص. 42. النفح، ج. 4، ص 19.
(17) السا لم، المرجع السابق، ص. 124.

يمنحوا ولو مرة قيادة البلاد، وتعرضوا للتهميش وسوء المعاملة والإهانات المتكررة من قبل العرب المتعصبين لعروبتهم دون إعارة أي انتباه لتعاليم الاسلام المساواتية[18] وهذا زاد من حقدهم.

أما من ناحية تأثرهم بصدى ثورة إخوانهم بشمال إفريقيا فيجعلنا نفكر في تبنيهم الأفكار الخارجية التي رفع شعارها بربر المغرب. ويؤكد أحد المؤرخين المتأخرين ذلك في قوله: «وأصل ذلك كله النزعة الخارجية»[19]. وقد يدعم هذا المذهب بعض التصرفات التي قام بها الثوار البربر، ويوضح لنا النص التالي بعضها: «فلما بلغ البربر إقبال الجيوش إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة، ولكي لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا»[20]. و مايذكره النص من اقتدائهم بميسرة يؤكد تبنيهم للنزعة الخارجية. وسبق أن أوردنا الرأي الذي يقول أن الأندلس تلقت دعاة خوارج من المغرب خلال هذه الفترة.

لقد كانت هذه الثورة ناتجة عن عوامل سياسية واقتصادية ومذهبية ـ دينية، تطورت عن انعدام التوازن والعدالة في توزيع الثروات والعلاقة بين العرب والبربر، فنتج عن ذلك تذمر استغلته الحركات المتطرفة خاصة الخارجية لتفجير الوضع.

كانت لهذه الثورة انعكاسات قوية على الوجود البربري في الأندلس، وكانت أولاها قيام ثورات أبرزها تلك التي قادها إبنا عبد الملك بن قطن ضد بلج بن بشر، وانضمام البربر إليها لنيل ثأرهم[21]. وثانيتها الإبادة والمطاردة التي تعرض لها البربر، وقد أثر هذا دون شك على أعدادهم. وثالثتها، تغير بعض مواطن البربر الذين هربوا نحو الثغور الشمالية والشمالية الغربية وأقصى الجنوب، وهاجر بعضهم إلى المغرب[22]. ورابعتها، نتيجة نفسية

(18) Marie- Claude Gerbet, l'Espagne au Moyen âge, éd. Armand Colin, Paris, 1992, p. 55. Isidio de Las Cagigas, Minorias - etnico - religiosas, Instituto de Estudios Africos, Madrid, 1948, Livre I, t. 1, p. 88. Dozy, op. cit, t. 1., p. 16.

(19) الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، مطبعة دار الكتاب، البيضاء، 1954، ج. 1، ص. 111 - 2.

(20) أخبار مجموعة، ص. 44.

(21) نفسه، ص. 46. ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص 259، ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 31 و 33.

(22) سبق أن وضحنا هذا بشكل موسع عند تناولنا لموضوع الهجرات البربرية إلى الأندلس. ويمكن العودة إليه في الفصل الثاني من القسم الأول.

ترتبط بتغيير البربر لنظرتهم، بحيث لن نلتقي بثورة بربرية محضة إلا بعد اختفاء الجيل الذي شارك في هذه الثورة.

لقد كانت ثورة 123 هـ أول ثورة في الأندلس قادها البربر للتعبير عن رغبتهم في استعادة حقوقهم الضائعة مغلفين حركتهم بغلاف فكري ديني خارجي. وقد خلفت انعكاسات ديمغرافية وسياسية على البربر، بحيث كرست السيطرة العربية، وزادت من تهميش البربر والإلقاء بهم إلى المناطق الهامشية والثغرية.

2.1- حركة شقيا المكناسي

تعد أطول الثورات التي عرفتها الأندلس منذ فتحها حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م. وقد سببت مشاكل كثيرة للإمارة الأموية الفتية، كما تطلبت من عبد الرحمان الأول استعمال كل خططه من أجل إخمادها. ورغم خطورتها، فإن الأخبار عنها تظل ضعيفة، وخاصة منها ما يتعلق بالإطار الفكري والحماس الذي أثارته في أوساط البربر، وشخصية الزعيم وطبيعة علاقته بأتباعه. وإذا كنا لا نعرف عنها إلا أشياء قليلة، فهذا لن يمنعنا من إثارة الأسئلة حولها.

تكاد المصادر وبعدها الدراسات الحديثة تجمع على أن اسم متزعم هذه الثورة هو شقيا بن عبد الواحد المكناسي[23]. لكن صاحب «أخبار مجموعة» يجعل اسمه سليمان بن عبد الواحد[24]. فأي الطرفين على صواب: الأغلبية أم صاحب الرأي الأخير؟ إن تأمل اسم «شقيا» يجعلنا نكتشف أنه من المصدر «شقاء» و الفعل «شقي»، وهذا يجعلنا نشك في أن يكون هذا النعت تعبيرا عن موقف المؤرخين الذين سبق وأن أبرزنا نزوعهم نحو وجهة النظر الرسمية. ويساعدنا في هذا أن مؤرخي العصر الوسيط كانت لهم عادة إطلاق مثل هذه الأسماء القدحية على الثوار أو المغضوب عليهم من قبل السلطان [25].

(23) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 605. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص. 165.
(24) مجهول أخبار مجموعة، ص. 97.
(25) انظر ابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ج. 3، ص. 31 و52 و 95 و141 و 216 و 243. وابن صاحب الصلاة، المن بالأمامة، ص. 329.

وبذلك نرجح أن يكون اسم القائد هو سليمان بن عبد الواحد المكناسي من شنتبرية بشرق الأندلس. وتذكر المصادر أنه اتخذ اسما آخر هو عبد الله بن محمد، وانتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. وكان في بدايته معلما للصبيان في الكتاب[26]. فهل اتخاذه لهذا النسب يعني تمذهبه بالمذهب الشيعي ؟

إن التسمية تعطي الانطباع بذلك، والمصادر أيضا تنعته بالفاطمي[27]. وكل الدراسات المعاصرة تؤكد على تمذهبه الشيعي. ويقول العبادي عن حركته : «ولعل هذه الثورة أول محاولة لإقامة دولة شيعية في المغرب الإسلامي»[28]. ويمكن أن نستنتج طابع ثورته الديني من خلال الدعم الكبير الذي حظي به في المناطق الممتدة من شنتبرية إلى رمادة. ولاتذكر لنا المصادر أي إشارة إلى حدوث مواجهة بينه وبين سكانها ماعدا جيوش السلطان، بل تورد خبر انضمام عدة مدن إليه وطردها لعمالها، وأكثر من كل هذا فإن القائد أبا عثمان عبيد الله بن عثمان أرسل إليه رسولا يدعى وجيه الغساني أثناء حملته سنة 160 هـ / 877 م، فاستطاع الفاطمي اقناعه بدعوته والانضمام إليه، بل ودافع عن دعوته بعد قتله[29]. وكل هذه الأدلة تجعلنا نقتنع بأن له مذهبا له تأثير كبير على النفوس، ويعد المذهب الشيعي أكثرها احتمالا. كما أن شخصية سليمان المكناسي شخصية قوية، وله تكوين مذهبي عالي مكنه من ممارسة تأثير كبير على أتباعه، وجلب أتباع جدد لحركته ودعوته.

كانت انطلاقة سليمان بن عبد الواحد من منطقة شرق الأندلس، وتوجهت أولى أعماله العسكرية نحو احتلال مدينة شنتبريه بعد قتل سليمان بن عثمان[30]. فارتفع ذكره، وبدأت المدن، خاصة ذات الأغلبية البربرية، تبايعه. وهكذا انضمت إليه قورية وماردة بقيادة أبي مزكانة عباس بن قلعوش المصمودي الذي سلمه عامل السلطان أبي زعبل، وانضمت إليه أيضا مدلين[31]. بحيث صارت المناطق الممتدة من شنتبرية حتى ماردة تابعة له.

---

(26) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 605. ابن خلدون، العبر، ج.4، ص. 157.
(27) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 54.
(28) العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ص. 110.
(29) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص. 22 – 23.
(30) النويري، تاريخ المغرب الاسلامي، دار النشر المغربية، البيضاء. 1985 ، ص.65. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص 59. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص 54.
(31) أخبار مجموعة، ص. 97. نفسه، ج. 2، ص. 54-55.

اعتمد الفاطمي في تحركاته على حرب العصابات، بحيث يتجنب مواجهة جيوش السلطان عند قدومها، ويهاجم عند انسحابها، «فكان إذا أمن انبسط، وإذا خاف صعد الجبال بحيث يصعب طلبه»[32]. وقد مكنته هذه الخطة من الصمود لمدة عشر سنوات أو تزيد قليلا (150 هـ / 767 م ـ 160 هـ / 777 م).

استعمل عبد الرحمان الداخل وسائل مختلفة للقضاء على ثورة الفاطمي، ففي البداية اعتقد أنها ثورة عادية يسهل اخمادها، فكلف عامله على طليطلة سليمان بن عثمان بإخمادها[33]. لكن انهزام عامله وتوسع الحركة نحو الغرب، جعله يحس بخطورتها، فبدأ بإرسال الحملات من قرطبة. وقاد أول الحملات بنفسه سنة 152 هـ / 769 م، وبعث مولاه بدرا في السنة الموالية، ثم قاد حملة جديدة سنة 155 هـ / 772 م. وتبين أن هذه الحملات أيضا عاجزة عن القضاء عليه. ورغم حفاظه على حملاته، التجأ عبد الرحمان إلى سلاح أقوى كان هدفه حرمان الثائر من قاعدته البشرية، واستخدام وسيلتين اثنتين: الأولى تفريق كلمة البربر بتعيين وال منافس له في المنطقة يدعى هلال بن عامر المديوني. وفي ذلك يقول ابن عذاري: «وقلده أمر الفاطمي المتقدم الذكر، فكان في ذلك الراحة منه، وتفرقت بفعله ذلك كلمة البربر، وانحلت عقدة الفاطمي وانصرف من شنت برية إلى الجوف» [34]. وكان هذا سنة 155 هـ / 772 م، وكما يلاحظ فقد ظهرت اثاره مباشرة، بحيث اضطر سليمان بن عبد الواحد إلى مغادرة مهد ثورته، وبذلك بدأت حركته في التراجع. والثانية، وهي إبعاد أتباعه عنه بعقابهم بحيث: «أنزل بكل من شايعه أو دخل في شيء من أمره النكال وهو يخرب ويحرق وينسف»[35]. بحيث «دوخ بلاد البربر وقتل منهم خلقا كثيرا وأذلهم، وأخذ أبامزكانة المصمودي، وهو عباس بن قلعوش»[36]. لقد كانت هذه الإجراءات كافية لإضعاف سليمان بن عبد الواحد، وتضاف إلى هذا الحملات الدعائية التي تظهره كثائر وخارج عن الجماعة وكافر، لهذا بدأ يفقد قاعدته البشرية خاصة وقد عضتهم قسوة

(32) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 5، ص. 605.
(33) نفسه
(34) ابن عذاري، ج. 2، ص. 55.
(35) أخبار مجموعة، ص. 97.
(36) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 55.

حملات السلطان، واظطر أخيرا إلى الانزواء في قرية العيون بشنتبرية، حيث سيغتاله رفيقان له هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد الأسود [37]. ولا يستبعد أن يكون عبد الرحمان الداخل وراء هذا الاغتيال خاصة، وقد كان سلاحه المفضل ضد الثوار القائمين ضده مستخدما إغراءات مادية. ورغم موت الفاطمي، فقد استمر أحد أتباعه وهو وجيه الغساني في الثورة معتصما بجبال إلبيرة حتى قتله[38].

لقد استطاع سليمان بن عبد الواحد المكناسي الذي تبنى المذهب الشيعي أن يستغل الشعور الديني القوي في الثغرين الأوسط والأدنى وينظم حركة سياسية دينية استمرت أكثر من عقد من الزمان. وقد استطاع أن يضم هذه المناطق الواسعة بفضل مذهبه وخطته العسكرية القائمة على حرب العصابات. وللقضاء عليه استعمل عبد الرحمان الأول العمل العسكري وتفريق أتباعه بتعيين زعماء جدد منافسين له أو باستعمال سياسة الأرض المحروقة، ثم الدس والمكيدة التي انتهت باغتياله وإنهاء حركته الخطيرة.

3.1- ثورات كورة تاكرنا

عرفت هذه الكورة سلسلة من الثورات انطلاقا من عهد هشام الرضى حتى عهد الأمير محمد، وإذا كنا لا نتوفر على الدوافع الكامنة وراء كل الثورات، فإن ابن القوطية يخبرنا أن واحدة منها كانت تحت غطاء خارجي[39]. ولهذا نرجح أن هذه الجبال الواقعة شمال مدينة الجزيرة الخضراء كانت مكمنا وموطنا للمذهب الخارجي. ويتحرك أصحابه كلما أحسوا بضعف السلطة المركزية أو انتشار مظالم تتعارض مع دعوة الاسلام. وما يزيدنا تمسكا باعتقاد كونها خارجية هو القسوة الكبيرة التي يواجه بها الثوار، وربما، كان سببها التعصب المذهبي، كما أن وقوف عباس بن ناصح البربري ضد الثوار رغم أنهم بربر[40]، قد يتعلق باختلاف مذهبي أساسا.

(37) ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 6، ص. 49. أخبار مجموعة، ص. 101. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 158.
(38) حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص. 23.
(39) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعين : 71.
(40) نفسه.

كانت أولى الثورات تلك التي قادها ثوار تاكرنا على عهد هشام الرضى سنة 178 هـ / 794 ـ 795 م[41]. وقد خلع البربر الطاعة و «أغاروا على الناس وقتلوا وسبوا»[42]. وقطعوا الطرق، على أن الحذر لازم في التعامل مع هذه الأخبار. ويظهر أن الثورة هددت نفوذ السلطة الأموية، مما جعل هشام الأول يتدخل بقوة، بحيث قام القائد عبد القادر بن أبان بقتل «أكثرهم وفر سائرهم إلى طلبيرة وترجيلة، وأقامت تاكرنا وهي إقليم رندة وبلادها خالية قفرا سبع سنين»[43].

وفي عهد الحكم الربضي، قامت من جديد ثورة بجبال الجزيرة «تشبه مذاهبهم مذهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية»[44]. وقد أثارت هذه الثورة مخاوف المالكيين وخاصة زعيمهم بمدينة الجزيرة الخضراء عباس بن ناصح الثقفي البربري، فنظم شعرا يغري فيه الحكم بالثوار، وجاء فيه[45]:

صل بالافيل الذي ربوا لفتنتهم

من قبل أن يرحلوه نحونا جذعا

فاستجاب الحكم لندائه «وخرج بنفسه حتى أتى الجزيرة، ونزل على بابها وحمل السيف على أكثر أهلها»[46].

وفي عهد عبد الرحمان الثاني، ثار حبيب البرنسي بجبال الجزيرة سنة 236 هـ / 851 م[47]، واجتمع حوله عدد من الأتباع، فأغار على قرى رية وغيرها «فأشاع الأذى ونهب وقتل»[48]. فأرسل إليه الأمير عبد الرحمن القائد عباس بن مضا، فوجد البربر

---

(41) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 160. ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 6، ص. 144. ابن عذاري، المرجع السابق،، ج. 2، ص. 64. النويري، المرجع السابق، ص. 77.
(42) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 64.
(43) نفسه. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 160.
(44) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 71.
(45) نفسه.
(46) نفسه، ص. 72.
(47) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 82. ابن الأثير، المرجع السابق، ج. 7، ص. 57. ابن حيان، المقتبس، ج. 2، ص. 198.
(48) نفسه.

المحيطين به قد هزموه، وتغلبوا على حصنه، فافترق أصحابه فدخل في أغمار الناس واختفى أمره[49]. «فكتب الأمير عبد الرحمان إلى عمال الكور بالبحث عنه»[50]. وهذا الطلب من قبل الأمير يدل على أن حبيب لم يكن رجلا عاديا، بل هو داعية يمكنه أن يثير القلاقل في أي منطقة حل بها لذلك يفرض القبض عليه لحسم دائه. وهذا، ربما، يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من أن أغلب هذه الثورات قامت تحت لواء الخارجية.

رغم أن جبال كورة تاكرنا عرفت ثورات خارجية أقلقت راحة السلطان، فإنها كانت ثورات صغيرة وقصيرة ومحدودة المجال، مما سهل قمعها من قبل السلطان وتقتيل أبنائها بقسوة.

لقد قاد البربر عدة ثورات تحت غطاء مذهبين معارضين للمذهب الرسمي في الأندلس (الأوزاعي والمالكي بعده)، وهما المذهب الخارجي والمذهب الشيعي. وكانت هذه الثورات تهديدا خطيرا للسطلة المركزية. لذلك استخدمت وسائل متنوعة تشترك كلها في القسوة لإخمادها. وقد انتهى هذا النوع من الثورات منذ عهد عبد الرحمان الثاني فلم نعد نسمع عنها، وقد يدعم ما سبق وأن استنتجناه من اندماج البربر في المجتمع الأندلسي انطلاقا من منتصف القرن 3 هـ / 9 م.

2- التمردات القبلية

يتميز هذا النوع من الثورات بقلة طموح أصحابها، وعادة ما تنتج عن أسباب طارئة مثل: الاحتجاج على ثقل الجباية والانتصار للكرامة والأنفة القبلية والاقتداء بالأقران. ويلخص ابن الخطيب ذلك في قوله: «والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأولى: منعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم، والثاني: علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة احتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الإذغان لبعض، والثالث : الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والملك الأعظم من ملك

(49) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 90. نفسه، ج.2، ص. 198.
(50) نفسه.

النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض»[51]. فالنص يوضح أن الثورات مرتبطة أساسا بطبيعة النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد بالأندلس، وهو النظام القبلي، وقد شارك البربر بعدة ثورات من هذا النوع.

ففي عهد عبد الرحمان الأول، ثار ابراهيم بن شجرة بمورور. وكان قبل ذلك، من الذين دعموه، وقاتل إلى جانبه على رأس فرسان البربر، ثم عينه على قومه بمورور. لكنه، ولسبب نجهله تمرد سنة 163 هـ / 780 ـ 1 م فأرسل إليه الأمير قائده بدرا فقتله بعد قتال عنيف ومقاومة شديدة[52].

وثار أصبغ بن عبد الله بن وانسوس المكناسي بماردة سنة 190 هـ / 806 م ويعيد ابن عذاري سبب ثورته إلى إيقاع الحكم الأول به في خصومة له مع أحد أعدائه. وقد استمرت ثورته سبع سنوات[53] وكرر الحكم الكتابة إليه يدعوه إلى الطاعة. ويحتفظ لنا ابن سعيد بنص رسالة وجهها إليه من إنشاء الكاتب فطيس بن عيسى[54]. ويبدو أن هذه الرسائل قد طمأنته وأكدت له أمانه، فأنهى تمرده ورحل بأهله إلى قرطبة[55]. «ثم فسح له في الاختلاف إلى ضياعه بماردة حتى التأث أمرها واضطربت حالها»[56]. ومن خلال تملكه لعدة ضياع، يظهر أصله وشرف أسرته، بحيث يعتبرون من وجهاء مدينة ماردة، ولذلك تراه يرفض العقوبة وسيكون لأحفاده مكانة بين وزراء قرطبة.

وفي سنة 200 هـ / 816 م، ثار بناحية مورور بربر، فأرسل الحكم أحد قواده فأخمد التمرد وقتل قائده.

وتجددت ثورة ماردة سنة 213 هـ / 828 م، بزعامة محمود بن عبد الجبار بن راحلة من بني طريف المصامدة[57] وكانت إلى جانبه أخته جملة أو جميلة[58]. وقد ابتدأت الثورة بقتل عامل

(51) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 36.
(52) أخبار مجموعة، ص. 101. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 56.
(53) نفسه، ص. 72.
(54) ابن سعيد، المقتطفات من أزاهر الطرف، الهيئة المصرية العامة، 1984، ص. 84.
(55) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 72.
(56) نفسه.
(57) الحجي، العلاقات بين ثوار الأندلس واسبانيا المسيحية، مجلة الأبحاث، العدد 1، 1965، ص. 52.
(58) ينفرد ابن القوطية من بين المصادر بإيراد كون جميلة معارضة لأخيها محمود، بحيث كانت تدعو إلى الطاعة وأخوها إلى الانشقاق، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 89.

المدينة، وخلق اضطرابات بالمدينة وأحوازها، واحتجز الثوار أيضا رهائن السلطان[59]. وحاصر السلطان عبد الرحمان الثاني المدينة لمدة أربع سنوات قبل أن تدخل على محمود[60] الذي فر مع أخته جميلة إلى ألفونسو الثاني، فقضى معه سبع سنوات[61]. ثم تمرد على ألفونسو، فاحتل حصن سانت كريستين وكان يهاجم منه الأراضي المسيحية[62]. وحاصره ألفونسو فقتله في رجب 225 هـ / 840 م. ويذكر ابن سعيد تعبيرا عن شجاعته أنه «بقي مجدلا في الأرض حينا، وفرسان النصارى قيام على ربوة يهابون الدنو إليه ويخافون أنها حيلة منه»[63] لقد كانت هذه الثورة نموذجا للثورات الناتجة عن رفض الخضوع للسلطان، ووجدت المساندة من المسيحيين لتدوم كل هذا الوقت. خلال اضطرابات النصف الثاني من القرن 3 هـ / 9 م، شارك البربر في الثورات إلا أنهم كانوا في أغلب الأوقات من الثوار الصغار الذين يقتصرون على حصن صغير احتماء من الثوار الآخرين، ولا يستثنى منهم إلا بنو ذي النون.

ومن الثوار نجد بني هابل الأربعة بكورة جيان وهم منذر بن حريز بن هابل وإخوته هابل وعامر وعمر[64]. وقد سيطر منذر على حصون بغتويرة ومرغيطة وشنت اشتبين، واستقر هابل بحصن مرهريطة وعامر بحصن تابع لحصن شنت اشتبين[65]. وقد كان بنو هابل يتقلبون بين الطاعة والعصيان، فعندما تغزوهم الصوائف يطيعون، وعندما تبتعد يعودون إلى سابق عهدهم من المعصية[66]. واستمروا على هذه الحال حتى مجيء الناصر فاستنزلهم وسجلوا في الديوان، فاستشهد عمر في قتال باجة سنة 317 هـ / 928 م وعامر في سنت مانكش سنة 327 هـ / 938 م[67]. أما هابل فقد اسجل له الناصر على حصن مرهريطة[68]. وقد «حسنت طاعتهم وخدمتهم»[69] في عهد الناصر.

(59) النويري، المرجع السابق، ص. 95 ـ 96.
(60) نفسه، ص. 96. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج. 1، ص. 48.
(61) نفسه.
(62) Dozy, op.cit, t 1, p. 139
(63) ابن سعيد، المغرب، ج. 1، ص. 48.
(64) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص 136.
(65) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص 28.27.
(66) نفسه، ص. 27-28. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 9، ص. 136.
(67) نفسه، ص. 28 ـ 29.
(68) نفسه، ص. 28.
(69) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 136.

وثار عمر بن مضم الهترولي الملاحي بقرية الملاحية من كورة جيان، وكان في بدايته جنديا في حضرة جيان، ثم ثار وانضم إلى سعيد بن هذيل صاحب المنتلون والذي غدر به وسلمه للقائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة الذي أمنه وحمله إلى قرطبة[70].

وبكورة إلبيرة ثار إبنا مهلب سعيد وخليل، واستمرا على حالهما إلى أن أنزل الناصر أحفادهما[71]. وقام بأحواز مرسية يعقوب بن أبي خالد التوزاري، وكان منافسا لعامر بن أبي الجوشن من بني ذي النون، فاستنزله الناصر سنة 311 هـ / 922 م، وألحق بالديوان، قبل أن يقتل في وقعة بنبلونة في السنة الموالية[72].

وفي عام 265 هـ / 878 م، ثار بكور رية والجزيرة وتاكرنا يحي الجزيري، فاستنزله هاشم بن عبد العزيز وحمله إلى قرطبة [73].

وفي الثغر الأدنى، قامت عدة ثورات أهمها: حركة ماردة بقيادة مسعود بن تاجيت المصمودي. وقد قام باحتلال المدينة بعد انتزاعها من جنود عرب وكتاميين، فنزلها بقومه[74]. ودخل في حرب طاحنة مع عبد الرحمان بن مروان الجليقي بسبب مساندته لبعض الثوار البربر ضده[75]. وكانت الهزائم التي تلقاها من الجليقي وراء إضعاف ابن تاجيت، وأشهرها هزيمة لقنت[76]. وقد ورث عبد الله بن عبد الرحمان عداء أهل ماردة وحاصر المدينة لعدة أشهر قبل فكه[77]. وحاصر الناصر ماردة، وألحق بابن تاجيت هزائم متكررة، فاضطر بعد هزيمة حصن الحنش سنة 316 هـ / 927 م[78] إلى إعلان الطاعة. فبعث ابن تاجيت الفقيه ابن منذر، فحصل على الأمان لأهلها، والتحرير من الوظائف المخزنية، وتعيينه هو قاضيا[79].

(70) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 25. السالم، تاريخ المسلمين، ص. 256.
(71) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص 137.
(72) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 190 و 193.
(73) ابن عذاري، البيان، ج. 2، ص. 103.
(74) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص 171. ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص 238 - 239.
(75) نفسه.
(76) نفسه.
(77) نفسه.
(78) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص 238 - 239.
(79) نفسه، ص. 240.

ولحق ابن تاجيت «بقرطبة في بني عمه وأهله فصار في المصاف، على توسعة من الرزق والنزول والمنازل والجاه، واستقرت به الدار» [80].

وفي حصن أم جعفر ثار فرانك بن لب بن خالد النفزاوي بعد «استدعاء قومه ليرأسهم لما هاجت الفتنة، فلحق بهم وقدموه عليهم فدبر أمرهم تسعة أعوام»[81]. وكان قبلها مقيما في قرطبة. وخلفه بعد موته ابن عمه عيسى بن قوطي لمدة اثني عشر سنة، وخلفه بدوره ابن عمه زعال بن يعيش لمدة عشرين سنة التزم خلالها الدعوة للأمير عبد الله ورفض دفع الجباية[82]. وجاء بعده ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطي لمدة خمس سنوات، استنزله بعدها الناصر سنة 316 هـ / 927 م [83].

وكانت مكناسة الأصنام في حالة ثورة، وكان مركزها قرية قسولة «من أمهات قراهم وأكثرها خيلا ورجلا وعدة، وكانت كهفا لقاطعي السبل وملاذا للمفسدين في الأرض»[84]. وكان شيخها ابن فرج ينظم الغارات ضد أراضي عبد الله بن عبد الرحمان الجليقي، فدخلا في معارك شديدة انتهت بانتصار ابن مروان وتدمير قرية قسولة وقتل رجالها سنة 303 هـ / 914 م[85]. كما تعرضت مكناسة لهجومات أردون بن ألفونسو في نفس السنة، وربما كان ذلك تنسيقا مع ابن مروان[86].

وفي لشبونة ثار ابن عوسجة على السلطان[87].

ويلاحظ أن ثوار غرب الأندلس لم ينفضوا أيديهم من الطاعة، ولكنهم توقفوا عن دفع الجباية. وكان أغلبهم مدفوعا إلى الثورة للدفاع عن أنفسهم من هجومات ابن مروان الجليقي وقشتالة.

---

(80) نفسه، ص 241.
(81) نفسه، ج. 3، ص. 23.
(82) نفسه، ص. 22 - 23.
(83) نفسه، ج. 3، ص. 23. وج. 5 ، ص. 239.
(84) نفسه، ج. 5، ص. 118 - 119.
(85) نفسه، ص. 119.
(86) نفسه، ص. 120.
(87) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 7531، ص. 180.

وعلى الطريق بين اشبيلية وقرطبة وفي أحواز قرمونة، ثار بربري يدعى الطماشكة، وكان يقطع الطريق ويهاجم الجيران[88].

وفي الثغر الأوسط كان أكبر الثوار البربر وهم بنو ذي النون. وكانت بدايتهم على عهد الأمير محمد الذي اسجل لسليمان بن ذي النون على قومه، وكلفه بضرب طليطلة سنة 260 هـ / 874 م[89]. وخلفه ابنه موسى فاستطاع أن يمد سيطرته على شنت برية وحصن وبذة بكورة جيان[90]. وكان ابن أخيه عامر بن أبي الجوشن قد سيطر على شاطبة الجزيرة من كورة بلنسية ومدينة بلنسية[91]. وكان معارضا لباقي أبناء عمه. وقد صار لبني ذي النون نفوذ كبير في الثغر الأوسط وشرق الأندلس. وانضموا إلى الناصر سنة 303 هـ / 914 م بعد توقف لمدة ثلاث سنوات[92]. وكانت طاعتهم على تمريض، واضطر الناصر إلى معاقبتهم في عدة مناسبات، قبل أن يستقيموا في منتصف العشرينيات. وسنعود إلى هذه الأسرة بشكل مفصل في الفصل الموالي.

اتضح من خلال تتبع هذه التمردات أنها كانت بقيادة زعماء قبائل، وكانت تطمح في أغلب الأحيان إلى التخلص من عبء الجباية والاحتماء من هجومات الثوار الأخرين، خاصة وقد عجز السلطان عن نشر الأمن في البلاد. والبربر هنا لا يختلفون عن باقي ثوار الأندلس في تصرفاتهم وطموحاتهم. وهذا مؤشر آخر يدعم ما سبق أن أكدنا عليه في عدة مناسبات، بأن البربر بدأوا يندمجون في الجو الأندلسي انطلاقا من منتصف القرن 3 هـ / 9 م.

3- ثورات الحلف

ينصب الاهتمام في هذه النقطة على التعرف على الثورات التي كان فيها البربر مجرد حلفاء لثوار فعليين، اما لحلف قديم أو لمصلحة مشتركة أو لخوف من الثائر القوي. كانت أولى الثورات من هذا النوع، تلك التي شارك فيها البربر إلى جانب أمية وقطن

(88) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص 70،
(89) نفسه، ج. 3، ص. 18.
(90) نفسه، ص. 17.
(91) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد 1965، ص. 14،
(92) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 19.

إبني عبد الملك بن قطن عام 124 هـ / 742 م. وكان هدفهم نيل ثأرهم من الشوام، وقد تجمعوا بماردة، وحاصروا بها ثعلبة بن سلامة العجلي(93). وانتهت بهزيمة الثوار وإذاعة القتل والسبي في البربر(94).

ودعم البربر الحباب بن رواحة ضد عامل سرقسطة الصميل بن حاتم وحاصروه بشدة سنة 137 هـ / 755 م، وبعد ذلك فك حصاره(95).

وفي سنة 141 هـ / 759 م، هرب عبد الرحمان بن يوسف الفهري من قرطبة، فجمع جمعا من المؤيدين بماردة أكثرهم البربر، لكنه انهزم وقتل أتباعه بأحواز طليطلة، ثم جمع ابنه من جديد، وانهزم بدوره عند قلعة رباح(96).

ودعم البربر حيوة بن ملامس الحضرمي سنة 145 هـ / 763 م في ثورته باشبيلية، فاستمالهم عبد الرحمان باستخدام مواليه بني ميمون، فانهزموا عن الثائر، لكن عبد الرحمان كافأهم بقتلهم «ولم يبق على أحد لا بربري ولا عربي»(97).

وكان في جيش عبد الغافر الثائر بلبلة بربر، واستعمل عبد الرحمان من جديد مواليه البربر من بني الخليع وبني وانسوس وغيرهم لاستمالتهم ودفعهم إلى التخلي عن الثائر ففعلوا وانهزم بفعلهم(98).

وفي عام 163 هـ / 781 م، ثار عبد الرحمان بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي، فاجتمع إليه بربر تدمير، لكنه انهزم أمام جيوش السلطان، واعتصم بجبل بلنسية، حيث اغتاله أحد أصحابه البربر(99).

وشارك البربر أيضا في ثورة سليمان بن عبد الرحمان ضد الحكم الأول ما بين 182 هـ / 799 م و 185 هـ / 802 م، قبل أن ينهزم وتسكن حركته.

---

(93) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 33 ـ 34. أخبار مجموعة، ص. 46.
(94) نفسه، ص. 34. المقري، المرجع السابق، ج. 4، ص. 20.
(95) نفسه، ص. 42.
(96) نفسه، ص. 49، المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 308. أخبار مجموعة، ص. 80.
(97) أخبار مجموعة، ص. 98.
(98) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 55. ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 55 ـ 56.
(99) نفسه، ص 55 ـ 56. ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6، ص. 54.

خلال فتنة نهاية القرن 3 هـ / 9 م، شارك البربر إلى جانب عدد من الثوار الكبار. ففي إشبيلية انقسم البربر إلى فريقين، بحيث حالف البرانس تحت قيادة جنيد بن وهب القرموني كريب بن خلدون اليمني، بينما حالف البتر المضريين والمولدين، وذلك عام 276 هـ / 889 ـ 90 م[100].

واستطاع ابن حفصون بفعل شعاره الرامي إلى تحرير السكان من سيطرة العرب والذي يقول فيه : «طال ما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم ! وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم!» [101] ويضيف ابن عذاري «فكان ابن حفصون لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره. فكانت طاعة أهل الحصون بهذا الوجه»[102] واستطاع ابن حفصون بهذه الوسيلة أن يستميل عددا كبيرا من الزعماء العرب والبربر والمولدين الذي رأوا فيه المخلص. إلا أنه استعمل أيضا القوة لإجبار آخرين على الانضمام إليه. ومن الذين أرغموا على الانضمام إلى ابن حفصون أبو حرب ابن شاكر البرنسي بحصن البلاط بالجزيرة الخضراء وكان «من أحسن الناس تمسكا بالطاعة»[103] لكن ابن حفصون هاجمه، فقاتله أبو حرب حتى قتل، فغادر أصحابه الحصن سنة 279 هـ / 892 م[104].

لكن آخرين انضموا إليه بمحض إرادتهم مثل بني الخليع بقيادة عوسجة التاكرني سنة 276 هـ / 889 م[105]. وسيتخلى عنه بعد عشر سنوات عند إعلانه المسيحية. «وأظهر الميل إلى الطاعة وانتبذ إلى حصن قنيط، فصار حربا لابن حفصون[106]. واستنزله أحمد بن محمد بن أبي عبدة سنة 293 هـ / 906 م[107].

(100) ابن حيان، المرجع السابق، ج.3، ص. 68.
(101) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 114.
(102) نفسه.
(103) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 89.
(104) نفسه.
(105) نفسه، ص. 54.
(106) نفسه، ص. 128.
(107) نفسه، ص. 142.

وأخيرا ثار البربر مع أحمد بن معاوية بن محمد الأموي المعروف بابن القط، وكان قد رفع شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله[108]. وكان خروجه سنة 288 هـ / 901 م. وقد نشر دعوته في فحص البلوط وجبل البرانس شمال قرطبة. واستغل رغبة بربر الثغرين الأوسط والأدنى في جهاد العدو المسيحي الذي توقف نتيجة الفتنة، فجمعهم حول دعوته[109]. إلا أن حلفاءه الرئيسيين كانوا نفزة بزعامة زغلل بن يعيش. لكن هذا التحالف سينفك عند أول مواجهة للعدو، فانهزم ابن القط وقتل في رجب عام 288 هـ / 901 م[110].

لقد كانت مشاركة البربر في هذا النوع الأخير من الثورات ثانوية، وكانت أيضا أهدافهم منها محدودة، إما لنيل ثأر أو أداء حق حلف أو من أجل تجنب شر الثوار الأقوياء أو للجهاد. ولهذا وجدناهم قليلي الحماس والوفاء، وقدمتهم لنا المصادر في معظم هذه الثورات كخونة يسرعون إلى الهزيمة عند اللقاء. وهذا عكس موقفهم في الثورات الانفصالية والتمردات.

4- البربر في فتنة بداية القرن 5 هـ / 11 م.

تعددت الآراء والمذاهب حول تحديد ماهية هذه الفتنة وكذلك المسؤوليات فيها. وتذهب أغلب الآراء الأندلسية إلى تسميتها بالفتنة البربرية وتحميل البربر مسؤولية اندلاعها. ويقول ابن حيان : إن البربر اعتدوا على البلاد «اعتداء أصارهم إلى ماهم الآن بصدده : من إبطال الخلافة وتفريق الجماعة والتمهيد للفتنة والإشراف بالجزيرة على الهلكة»[111]. ونفس الرأي يكرره ابن خاقان[112]. لكن تيارا آخر يحمل المسؤولية لمحمد بن عبد الجبار المهدي، ومن أعضائه ابن عذاري الذي يقول : «فكان هذا من فعل السفيه ابن عبد الجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس

(108) نفسه، ص. 133.
(109) نفسه، ص. 134.
(110) نفسه، ص. 136.
(111) نفسه، ج. 6، ص. 193 ـ 194.
(112) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 274.

بالفتنة البربرية، ولو سموها بفتنة ابن عبد الجبار لكان الأحق والأولى»[113]. أما ابن الأبار فقال قبله : «محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد»[114].

ونفس الاختلاف نجده يعم الدراسات المعاصرة، بحيث يحمل البعض البربر مسؤولية الفتنة والاضطراب وتجزيء الأندلس مثل: H.Terrasse[115]. ولكن حمدي عبد المنعم يحمل المسؤولية لابن عبد الجبار[116]. ويلقي عنان المسؤولية على الطرفين[117].

وحتى نتمكن من فهم موقف كل طرف نحاول أن نتتبع تطور أحداث الاضطرابات منذ بدايتها حتى سيطرة المستعين بالله على الحكم سنة 403 هـ / 1012 م.

عندما فجر محمد بن هشام بن عبد الجبار ثورته بقرطبة سنة 399 هـ / 1008 م، كان البربر بأحواز طليطلة مع عبد الرحمان شنجول. فلما بلغهم الخبر نفضوا أيديهم منه، وفي ذلك يقول ابن عذاري :«فرأى البربر أمرا لايدرون تأويله، وأيقنوا أن لا مدخل لهم في قتال أهل قرطبة، فحصول أموالهم وأهليهم بأيدي أهل البلد، فاتفقوا على إسلام عبد الرحمان إليهم وطلب السلامة من بوادرهم»[118]. وعندما وصل موكبه إلى منزل هانئ شمال قرطبة تركه عامة البربر والتحقوا بقرطبة[119]. ولكنهم فوجئوا هناك بابن عبد الجبار الذي بدل أن يحتضنهم لدعم دولته الفتية سلط عليهم عامته، فأساءت معاملتهم دون التمييز بين زعمائهم وعامتهم[120]. لذلك ازدادت مخاوف البربر وأحسوا بالندم والغيظ، فاتصل بهم هشام بن سليمان وشجعهم على الثورة معه ضد المهدي، فاستجابوا له وحاصروا القصر ليوم وليلة لكنهم هزموا وقتل زعيمهم [121]. وسلط المهدي العامة على دور البربر فنهبتها

(113) نفسه، ج. 3، ص. 76.

(114) ابن الابار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 2، ص. 5.

(115) Terrasse (H), Islam de l’Espagne, éd. Librairies Plon, Paris, 1958 p. 111.

(116) حمدي عبد المنعم، دولة بني برزال بقرمونة، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1990، ص. 28.

(117) عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام بالأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1960، ج. 2، ص. 589-590.

(118) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 67.

(119) نفسه، ص. 71.

(120) نفسه، ص. 75. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج.2، ص. 112.

(121) نفسه، ص. 51. نفسه، ص. 112 - 113.

وقتلت كل من قدرت عليه رغبة في الجائزة التي خصصها المهدي لكل من قتل بربريا [122]. فاضطر البربر إلى مغادرة المدينة في اتجاه الثغر.

التحق سليمان بن الحكم بن سليمان الأموي بالبربر فنصبوه على أنفسهم خليفة، ولقبوه المستعين بالله، واتصلوا بواضح بمدينة سالم، وطلبوا منه عقد صلح بينهم وبين ابن عبد الجبار مقابل تعيين سليمان وليا للعهد، ولكنه رفض ذلك وحاول القبض عليه، فاكتشف البربر خطته وقاطعوه[123].

وفرض واضح على البربر حصارا غذائيا بمنع السكان من تزويدهم بالغذاء، فاضطروا إلى الاتصال بشانسو بن غرسية بن فردلند قومس قشتالة، فتعاقدوا معه على مساعدتهم بالغذاء والسلاح لاحتلال قرطبة مقابل حصون يستعيدها[124] وتمكن البربر بفضل دعمه من دخول قرطبة وفر المهدي منها إلى واضح قائد الثغر، وبويع المستعين بقرطبة سنة 400 هـ / 1010 م.

اتصل المهدي بقومس برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه ارمنجول (ارمقند عند العرب)، فحصل على دعمه وهاجم قرطبة، فهزم البربر، ودخل المدينة. وعندها خرج البربر بأهليهم في اتجاه الجنوب قاصدين العودة إلى العدوة المغربية[125].

لكن المهدي تتبعهم قصد إبادتهم، فهزموه عند وادي آره في ذي القعدة 400 هـ/1010 م[126]. وانسحب إلى قرطبة فبدأ في تحصينها استعدادا للحصار. وبعد نصر وادي آره، اتجه البربر إلى احتلال جميع الكور الواقعة جنوب وجنوب شرق قرطبة مستهدفين تقوية مركزهم، وتوقيف دعمها لقرطبة. وهكذا تدخلوا في مالقة وإلبيرة والجزيرة، وكانوا يحطمون كل من يعارضهم، فهجرها كثير من سكانها والتجأوا إلى قرطبة للاحتماء بها[127]. ثم بعد ذلك

(122) النويري، المرجع السابق، ص. 135.
(123) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 85.
(124) نفسه، ص. 8. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج.2، ص. 113.
(125) نفسه، ص. 94-95. نفسه، ص. 114.
(126) نفسه، ص. 96. نفسه.
(127) نفسه، ص. 102.

حاصروا قرطبة دون أن يفقدوا أمل الصلح مع أهلها[128]. أما قرطبة، فرغم الحصار والجوع الذي تعاني منه والمكائد السياسية التي أودت بحياة ابن عبد الجبار وبعده واضح وعودة هشام المؤيد إلى السلطة، فإن السكان والفقهاء كانوا يعارضون فكرة الصلح وبلغوا من تشددهم ضد الصلح إلى حد قتل كل من يذكر كلمة صلح[129].

وأخيرا قرر البربر قيادة هجومهم الأخير في شوال 403 هـ / 1012 م، فدخلوا المدينة، وكان القاضي أبو العباس أحمد بن ذكوان قد أخذ أمانا للسكان[130]، فأعلن المستعين بالله خليفة على الأندلس. ثم قسم البربر غنائم جهدهم فيما بينهم، بحيث أنزلت صنهاجة إلبيرة ومغراوة الجوف وبنو برزال وبنو يفرن جيان وذواتها وبنو دمر وازداجة شذونة ومورور[131]. وقد رافقت دخول قرطبة مذابح انتقامية أودت بحياة عدد من الرجال والنساء والعلماء والعامة.

تنتهي المرحلة الأولى من الفتنة وهي التي تهمنا أكثر، بانتصار البربر وخليفتهم المستعين، فماذا يمكن أن نستنتج بالنسبة لتحديد المسؤوليات؟

نبدأ أولا بالوقوف عند البيت الأموي. أولهم محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي الذي قاد الثورة معتمدا على عامة قرطبة. وتقدم المصادر بعض ملامح شخصيته التي تتميز بالاستهتار والمجون والحقد والتسرع، وقد ورث هذا عن فترة شبابه، حيث كان «يعاشر في مدة استهتاره قوما من الصعاليك»[132]. وهذا جعله يجهل الآداب السطانية، ويفتقر إلى الحكمة والتأني والذكاء وهي شروط ضرورية لمن يتولى الحكم، خاصة في فترة غليان شعبي. لذلك لم يستطع التحكم في الأمور، بل أكثر من ذلك انساق مع التصور الشعبي البسيط وحقد على البربر الذين «كانت الأموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم للعامري وتنسب إليهم تغلب المنصور وبنيه على أمرهم فسخطتهم القلوب»[133]. و لم يفهم أن البربر شوكة يمكن الاستفادة منهم لدعم دولته، ويستخدمهم كمرتزقة كما استخدمهم من سبق وبالإساءة إليهم بدأ زمام

(128) نفسه، ص. 107.
(129) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص. 116.
(130) نفسه، ص. 118. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 111.
(131) نفسه، ص. 113- 114.
(132) النويري، المرجع السابق، ص. 128.
(133) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص 192.

الأمر يفلت من يده. أما باقي زعماء الأمويين فقد كانوا ضعافاً، و لم يجد فيهم أهل قرطبة من يصلح للخلافة لمدة 22 سنة. لقد أصبح كل واحد يفكر في نفسه، ويرغب في نيل الخلافة دون التفكير في مصير حكم أسرتهم. وهذا الضعف جعلهم يدعمون البربر ويقدمون لهم الشرعية الضرورية لتحريكهم في البداية في شخص هشام بن سليمان، ثم سليمان بن حكم. وقد نجزم أن هذه الشرعية من أكبر العوامل التي شجعت ودعمت البربر في تحركاتهم، ويمكن أن نستنتج أن البيت الأموي قد استنفذ طاقاته في نهاية القرن 4 هـ / 10 م. فلماذا هذا التدمير ؟ تحتفظ لنا المصادر بصور من المعاملة التي عومل بها الأمويون في ظل الحكم العامري، فالنويري يقول: إن المنصور «تخوف من بني أمية أن يثوروا به فأخذ في تقتيلهم صغارا وكبارا (...) حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، وفرق الباقين في البلاد والبوادي»[134]. وقبل موته أوصى ابنه عبد الملك بالحفاظ على هذه المعاملة[135]. ولهذا يمكن أن نستنتج أن ضعف البيت الأموي وخلوه من الرجال الأكفاء كان نتيجة مباشرة للاستبداد العامري.

أما البربر، فينظرون إلى أنفسهم كمرتزقة يخدمون الخلافة، ولا يرتبطون بأحد، ولهذا وجدناهم يتخلون عن عبد الرحمان شنجول ويلتحقون بالمهدي الثائر بقرطبة. إلا أن أهل الأندلس لم يفهموا الأمور بهذه الصورة، وحملوا البربر تبعات مالحقهم من متاعب الاستبداد العامري. كما أن الحقد القديم للبربر ظهر خلال هذه الفترة بشكل واضح، وسبق لنا أن رأينا أن الخلفاء يسيئون معاملتهم ويكيد لهم أهل الأندلس وتكرههم العامة. ولهذا لم يكن أي طرف من المجتمع يرى مبررا لمسامحتهم، بل وتطلعوا إلى الانتقام منهم.

ونستغرب كثيرا عندما نجد أن العداء لم يقتصر على عقليات العامة البسيطة، بل إن العلماء والمشايخ لم يقلوا عنهم تعصبا. فأحد العلماء «استقبلهم شاهرا سيفه يناديهم: الي ! الي ! ياحطب النار، طوبي لي إن كنت من قتلاكم، حتى قتلوه»[136]، واعتبر أهل الأندلس كل من قتله البربر شهيدا، فابن بشكوال يتحدث عن أحد العلماء بقوله: «ثم ختم الله له آخر ذلك كله بالسعادة فقتله البرابرة يوم تغلبهم على قرطبة»[137]. وقد مات عدد كبير من العلماء وهم يقاتلون البربر مع المهدي أو دفاعا عن قرطبة سنة 403 هـ / 1012 م.

(134) النويري، المرجع السابق، ص. 123.
(135) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج. 2، ص. 81.
(136) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج 2، ص. 460.
(137) نفسه.

هذه المواقف كلها كانت تدفع البربر إلى الدفاع عن أنفسهم، وكان طبيعيا أن يردوا على العنف بالعنف والقسوة بحيث قتلوا الآلاف أثناء دخولهم قرطبة الأول والثاني، وخلال غاراتهم على كور الأندلس. وكما يلاحظ فدورهم في الفتنة جاء عفويا وتطور وفقا لموقف المهدي وأهل قرطبة.

ويمكن أن نفهم هذه المواقف المتطرفة على ضوء السياسة التي انتهجها العامريون، فقد ضربوا بعض عناصر المجتمع ببعض، وخلقوا الحقد فيما بينها، كما أفقدوها توازنها، فصارت النفوس غاضبة وحاقدة لا يعرف التسامح إليها طريقا.

نصل في آخر المطاف إلى أن الفتنة التي عرفتها بداية القرن 5 هـ / 11 م، كانت نتيجة أساسية للاستبداد العامري الذي أضعف البيت الأموي، وخلق الحقد في النفوس وأفقدها توازنها. وكان البربر ضحية الحقد على الاستبداد، ودفعوا إلى هذه الحروب دون رغبة منهم أو نية مسبقة.

لقد شارك البربر في أحداث الأندلس بثورات متنوعة الأهداف والمطامح. وكان الصنف الأول يهدف إلى الانفصال عن الجماعة تحت غطاء المذهبين الشيعي والخارجي. أما الصنف الثاني فكان عبارة عن تمردات تتطلع إلى التخلص من الجباية أو رفض الخضوع للسلطة أو الاحتماء من الأقران. والصنف الثالث الذي يستجيب لمتطلبات الحلف والجوار، وفيه كان البربر أقل وفاء وقتالية.

وقد لاحظنا أن البربر قد تخلوا عن تطلعاتهم الانفصالية انطلاقا من القرن 3 هـ / 9 م. وصارت أغلب ثوراتهم من نوع الثورات القبلية مشابهين في ذلك باقي سكان الأندلس. وبذلك يتأكد لنا اندماج البربر الذي بدأ انطلاقا من منتصف القرن 3 هـ / 9 م في المجتمع الأندلسي.

وتبين لنا عند متابعتنا لاضطرابات مطلع القرن 5 هـ / 11 م، أنها كانت نتيجة مباشرة للاستبداد العامري الذي ولد الحقد في النفوس ووتر العلاقات بين مختلف فئات المجتمع، فأفقدها توازنها. وكان البربر ضحية لهذا الحقد، ودفعوا إلى حروب لم يكونوا وراء اندلاعها.

الفصل الخامس:

المشاركة البربرية في الحياة السياسية الأندلسية:

نموذجا أسرة بني الزجالي وأسرة بني ذي النون

نهتم من خلال هذا الفصل بتتبع مسيرة أسرتين بربريتين شاركتا في الحياة السياسية في الأندلس منذ القرن 3 هـ / 9 م. ونعتقد أن هذه الدراسة ستعطينا أهم ملامح المشاركة البربرية في التطور السياسي في البلاد. فبنو الزجالي اشتغلوا في الإدارة، وشغلوا مناصب متنوعة جعلتهم أحد ركائز الإمارة الأموية، فهم بذلك يقدمون صورة عن تعاون البربر. أما بنوذي النون فكانوا أسرة أميرية هيمنت على تطور أحداث شنتبرية وتقلبوا بين الطاعة والتعاون والعصيان والقطيعة، وهذه صورة ثانية للدور البربري في التطور السياسي للأندلس.

نعترف أن معلوماتنا عن هاتين الأسرتين محدودة، ويعتبر مؤلفا ابن حيان وابن عذاري أهم مصادرنا. كما أننا عند تتبعنا للأسرتين، سنركز على العناصر التي برزت في المجال السياسي دون غيرها. وستمر دراستنا بعدة مراحل: الأصول العرقية للأسرة ـ تاريخ وصولها إلى الأندلس إن أمكن ـ تاريخ بداية حياتها السياسية ـ أهم وجوهها السياسة والمناصب التي شغلتها ـ وضع شجرة نسب.

1- أسرة بني الزجالي الإدارية

تختلف المصادر حول أصل الأسرة القبلي. فابن الفرضي يرى أنهم من بتر البرانس دون تحديد لإسم عشيرتهم أو قبيلتهم[1]. وينسبهم ابن حيان وابن سعيد إلى بني يطفت من نفزة[2]. أما

(1) نقلا عن ابن حيان، المقتبس، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1971، ج. 2، ص. 172.
(2) نفسه، ص. 171، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج. 1، ص. 330.

ابن حزم فيرى أنهم من مديونة[3]. في حين ينسبهم ابن خلدون إلى ورفجومة[4]. وتتفق كل هذه الآراء حول انتمائهم إلى البتر وبالذات إلى الكنفدرالية الزناتية، بينما يختلفون حول إسم القبيلة أو العشيرة. وإذا كنا نؤكد على شهرة كل هؤلاء المؤرخين بالدقة في الأخبار والضبط في معلوماتهم، فإننا نرجع ماذهب إليه ابن حزم أولا لقدمه، وثانيا لاهتمامه بالأنساب والتدقيق فيها. وبذلك نثبت أن بني الزجالي من مديونة الزناتية.

يبدو أن هذا الفرع من مديونة قد عبر إلى الأندلس في دفعة طارق بن زياد أو التي جاءت بعدها، مع أننا نميل إلى أن يكونوا من الدفعة الثانية بناء على الموطن الذي نزلوه وهو تاكرنا، مادمنا قد أثبتنا أعلاه أن أغلب مرافقي طارق قد نزلوا في الثغور الشمالية. ويبدو أن هذا القبيل قد تكيف مع الحياة الأندلسية وشارك في أنشطتها المختلفة بما فيها الصوائف. وفي إحداها سيبتسم الحظ لمؤسس هذا البيت محمد بن سعيد.

يدعى مؤسس هذا البيت محمد بن سعيد الزجالي، ويذكر ابن حيان أن اسمه وارشكين ويعرف بحمدون ويلقب بالاصمعي[5]. وقد أطلق عليه هذا اللقب «لعنايته بالأدب وحفظه للغة. وكان من أقوم أهل زمانه بها. وكان له حظ وافر من البلاغة، ونصيب حسن من صوغ القريض»[6]. و«كان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ، يضرب بحفظه الأمثلة»[7]. ويذكر أن أحد الشعراء جاءه مادحا فحفظ شعره عندما كان يلقيه، فأنكر عليه أن يكون صاحب القصيدة، قبل أن يخبره بالحقيقة[8].

كان أول اتصال لمحمد بن سعيد بالأمويين يعود إلى إحدى غزوات الأمير عبد الرحمان الثاني عندما تعثرت به دابته فامتثل ببيت شعري لم يتذكر سوى عجزه، فافتقد صدره عند كل رجال العسكر، فلم يجده إلا عند محمد هذا[9]. فاستدعي إلى

(3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 500.
(4) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 4، ص. 151.
(5) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 171.
(6) نفسه، ص. 172.
(7) نفسه، ص. 173.
(8) نفسه، ص. 173 ـ 174. وهذه الحادثة تذكرنا بحادثة مشابهة وقعت لأبي تمام شاعر المعتصم العباسي.
(9) نفسه، ص. 172. ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 330.

السرادق «فأعجب الأمير ما كان عنده وراقه بيانه وشكله (...) فلما جالسه وحدثه ازداد قبولا له ورغبة فيه، فاستخدمه واستخصه، ثم استكتبه بعد حين لسره»[10]. وقد عينه الأمير في البداية كاتبا للوزراء، فاستعفى منه، فعينه في كتابته الخاصة [11]. ويذكر ابن حيان أنه كتب لابنه أيضا[12]. ويضيف ابن سعيد أنه وزر له أيضا[13]. لكن ابن حيان نفسه ينفي هذا الأمر عندما يورد أن محمد بن سعيد توفي سنة 228 أو 232 هـ[14]. وهذا يجعل من المستحيل أن يكون قد كتب أو وزر للأمير محمد. وقد مكن هذا الاتصال بيت بني الزجالي من الالتحاق بأشراف الدولة، فهو بذلك «مؤسس بيت من بيوت الشرف بقرطبة من غير قدم في الدولة»[15]. وقد انتقل إلى قرطبة وفشا فيها نسله وصار لهم ربض خاص ومقبرة بالمدينة[16].

قد يبدو صعود محمد بن سعيد صدفة، إلا أن التمعن في تكوينه الأدبي الرفيع وقوة ذكائه وذاكرته، ودراسته واهتمامه بمهنة الكتابة، يجعلنا نفترض أن يكون قد وضع نصب عينيه هذا الهدف، فتحين الفرص التي واتته في هذه المناسبة، وقد يكون قام بعدة محاولات فاشلة، قبل نجاحه هذا.

خلف محمد بن سعيد إبنين هما : عبد الله وحامد، وكلاهما كاتب نحرير خدم السلطان. إلا أن عبد الله مات بعد ستة أشهر من الخدمة فقط[17]. أما حامد فقد ترقى أكثر من سلفه وكتب ووزر للأمير محمد و «كان أهلا لذلك لبلاغته وحسن معرفته»[18]. وكان أيضا شاعرا. وقد لزم الوزارة حتى موته سنة 268 هـ / 881 م[19]. وكانت له مكانة رفيعة في الأدب، واشتهرت بلاغته بين كتاب الأندلس، وينقل لنا ابن القوطية حادثة تثبت ذلك

---

(10) نفسه، ص. 173.
(11) نفسه.
(12) نفسه، ص. 171.
(13) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 331.
(14) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 174 و 216.
(15) نفسه، ص. 170 - 171.
(16) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 5، ص. 366. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية، القاهرة، 1954، ج. 1، ص. 279.
(17) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 171.
(18) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 331.
(19) ابن حسان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 171.

فعندما عين الأمير محمد قومس بن انتيان النصراني في كتابته احتج العرب وغضبوا، وكتب إليه محمد بن الكوثر البليغ يطلب تولية أحد العرب، ومنهم حامد بن محمد الزجالي[20].

في عهد الأمير عبد الله، كان في بيت بني الزجالي كاتب أيضا هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد الزجالي الذي عين سنة 287 هـ / 900 م[21]. كما تولى أيضا الوزارة وولاية المدينة[22]. ولما تولى عبد الرحمان الناصر الخلافة أقره في الكتابة حتى وفاته سنة 301 هـ / 913 م[23].

وفي عهد عبد الرحمان الناصر، وخاصة في العشرين سنة الأولى من حكمه، هيمن آل الزجالي على كثير من المناصب الإدارية، واشتهر منهم عدد من الرجال. ومن أكثرهم تقلبا في المناصب وخدمة للسلطان عبد الرحمان بن عبد الله الزجالي، فقد عينه الناصر سنة 300 هـ / 912 م في خطة العرض مشاركة مع محمد بن سليمان بن وانسوس وعمر بن محمد بن غانم[24]. وفي عام 308 هـ / 921 م ولي العرض من جديد[25]. وتولى الخزانة سنة 316 هـ / 927 م، وعزل عنها سنة 320 هـ[26]. وولي الوزارة عام 325 هـ / 937 م[27]. وولي الكتابة في عام 329 هـ / 941 م[28]. وفي سنة 344 هـ / 955 م، «قلد الوزير الكاتب عبد الرحمان الزجالي النظر في تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات وينفذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك»[29]. لقد صار الكاتب الخاص للخليفة، وظل يجمع بين الوزارة

---

(20) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 102 ـ 103.

(21) نفسه، ص. 122. ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 171. مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 588، ص. 179،

(22) ابن القوطية، المرجع السابق، ص. 122. ابن حيان، المرجع السابق، المكتبة الشرقية، باريس، 1937، ج. 3، ص.6.

(23) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 158. ابن حيان، المرجع السابق، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد 1979، ج. 5، ص. 89. مجهول، مدونة تاريخية على عهد الناصر، مدريد، غرناطة، 1950، ص. 47.

(24) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 159.

(25) نفسه، ص. 180.

(26) نفسه، ص. 197 و 208.

(27) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 416.

(28) نفسه، ص. 471.

(29) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 220.

والكتابة. ويبدو أنه كان من أبرع الكتاب وأبلغهم وأكثرهم اتقانا لفنه. وقد وجدناه يكتب بعض الرسائل المتعلقة بمواضيع خطيرة مثل رسالة التنديد بمذهب ابن مسرة [30]، وفيها أظهر قوته الأدبية وثقافته العالية. ونجهل تاريخ وفاته، لكننا نرجح أن يكون مابين 344 هـ / 955 م و350 هـ / 960 م مادام لم يذكر ضمن كتاب الحكم الثاني.

وشغل أخوه محمد بن عبد الله بدوره عدة مناصب. ففي رمضان عام 307 هـ / 919 م، ولاه الناصر خزانة المال[31]. وتولى خطة الوزارة في جمادى الأولى عام 314 هـ / 925 م، ثم توفي في شعبان عام 315 هـ / 926 م وعمره 53 سنة[32].

وتولى عبيد الله بن عبد الله العرض سنة 314 هـ / 925 م والمواريث في السنة الموالية [33]. وفي سنة 316 هـ / 927 م، ولي الخيل[34]. وتوفي في رمضان 320 هـ / 931 م وعمره 41 سنة وهو يتولى المواريث والبنيان[35].

وكان أحمد بن محمد بن عبد الله الزجالي «قد تصرف في الخدمة، وله أدوات وحركة»[36]. وقد ولي كورة اشبيلية سنة 317 هـ / 928 م. وتوفي عام 320 هـ / 931 م[37].

ومن رجال هذه الأسرة الذين لا نعرف عنهم أي شيء أحمد بن حامد، وتوفي عام 319 هـ / 930 م[38].

وفي عهد الحكم المستنصر تولى عبيد الله بن عبد الرحمان الوزارة سنة 361 هـ / 971 م[39]. «وكان خيرا فاضلا حالما طاهرا عالما، كثير الخير والمعروف، طويل الصلاة،

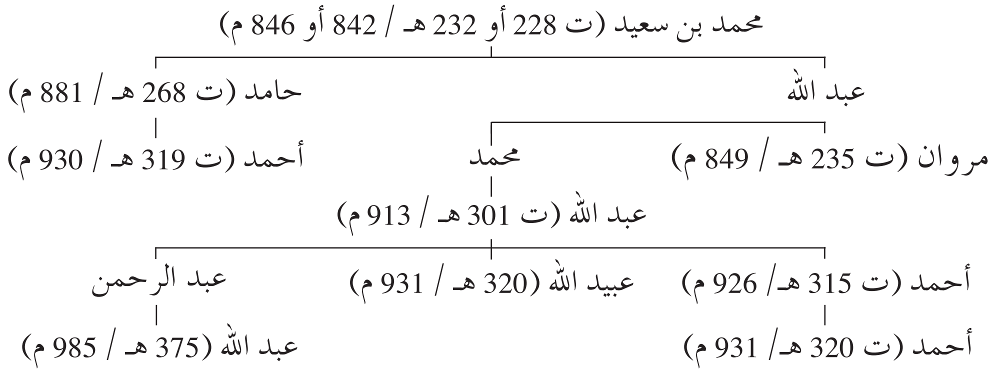
---

(30) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 25 ـ 29.
(31) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص 175.
(32) نفسه، ج. 2، ص. 192 و 195. ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 209.
(33) نفسه، ص. 193.
(34) نفسه، ص. 199.
(35) نفسه، ص. 208.
(36) نفسه.
(37) نفسه. ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 253. مدونة تاريخية في عهد الناصر، ص. 83.
(38) نفسه، ص. 206.
(39) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 82.

يقال أن قدميه تفطرتا صديدا من طول قيامه»[40]. وقد كانت تقواه وورعه وراء تعيينه وزيرا. وثبته هشام المؤيد في منصبه حتى وفاته سنة 375 هـ / 985 م ودفن بمقبرة أسلافه[41].

ويظهر وكأن ميل عبيد الله هذا إلى الورع والزهد يشكل مظهرا لتراجع أسرته واتجاهها نحو النهاية. ويعتبر هذا آخر وجوهها البارزين، رغم أن ابن بسام يشير إلى وزير من هذه الأسرة في أواخر عهد الأمويين يدعى أبا الوليد الزجالي[42].

لقد كان تاريخ أسرة بني الزجالي نموذجا لتعاون البربر مع الدولة الأموية، ومساهمتهم في تسيير الشؤون الإدارية للبلاد. وقد ترقت إلى هذه المكانة بفضل مؤسسها محمد بن سعيد الذي بذل طاقاته للتعلم وإتقان العربية وأصول الكتابة. وبعده صارت الأسرة غيورة على هذا الرصيد تتوارثه، بحيث صاروا يتواجدون ضمن كتاب الأمراء منذ عهد عبد الرحمان الثاني حتى عهد الحكم الثاني. ويؤكد لنا تاريخ هذه الأسرة تلك النتيجة التي توصلنا إليها سابقا والمتعلقة باندماج البربر في الجهاز الإداري الأموي انطلاقا من منتصف القرن 3 هـ / 9 م، بفضل مكاسبهم الثقافية التي أعطتهم مكانا خاصا إلى جانب العرب.



شجرة نسب لأهم الإداريين من بني الزجالي

(40) عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فاضلة المحمدية، 1982، ج. 7، ص. 295. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1 ، ص. 279.

(41) نفسه، ج. 7، ص. 296، ج. 1 و ص. 279.

(42) ابن حيان، المقتبس، ج. 2، هامش ص. 280- 281. ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج. 1، ص. 333.

2- أسرة بني ذي النون الأميرية

ينتمي بنو ذي النون إلى قبيلة هوارة[43]. وينتسبون إلى حمير بالحلف[44]. وقد استقر جدهم السمح بن ورد بالأندلس بقرية أقاقلة بكورة شنت برية منذ جوازه مع طارق بن زياد[45]. وكان اسم الجد الذي تنتسب إليه الأسرة زنون وهو اسم شائع في البربر، فتصحف مع مرور الزمان، وصار ذو النون[46]. وقد تمكنت هذه الأسرة بفعل وجودها في الثغر من تكوين ثروة مادية كبيرة ومعنوية أهم، بمشاركتها في الجهاد وامتلاك الأراضي والبراعة في الفروسية والشجاعة في القتال[47]. فتصدرت باقي الأسر في هذه المنطقة. وكان زعيم الأسرة سليمان بن ذي النون «وجه قومه»[48] خلال منتصف القرن 3 هـ / 9 م.

كان أول اتصال للأسرة بالسلطة الأموية على عهد الأمير محمد، عندما مر على مواطن ذي النون عائدا من الثغر الأعلى، فمرض له خصي، فتركه لسليمان ليمرضه، فعالجه ثم حمله إلى قرطبة فـ «أجزل صلته وأسجل له على ناحيته وارتهن منه موسى ولده»[49]. ولا تذكر لنا المصادر تاريخ هذا التسجيل. إلا أننا نملك السنوات التي سافر فيها الأمير محمد إلى الثغور الشمالية. فقد قاد ثلاث حملات إلى طليطلة أعوام 239 هـ / 853 م و 240 هـ / 854 م و 244 هـ / 858 م[50]. ولكنه كان فقط يتوقف عند طليطلة والثغر الأوسط. والرواية السابقة تؤكد على أنه اتصل ببني ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى. والرحلة التي قام بها إلى هذا الثغر كانت سنة 259 هـ / 873 م[51]، ولذلك نرجح أن يكون التسجيل لبني ذي النون قد تم في هذه السنة. وما يدفعنا إلى هذا الترجيح أولا هو أن الحدث تم قبل عام 260 هـ مادام

---

(43) ابن حزم، جمهرة، ص. 500.

(44) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 18.

(45) نفسه.

(46) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، دار المكشوف، بيروت، 1959، ج. 2، ص. 177. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص 276، مجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1932، ص. 43.

(47) تناولنا هذه النقطة بشكل مفصل عند دراستنا للتنظيم الاجتماعي للبربر في القسم الأول.

(48) ابن حيان، المقتبس، ج. 3، ص. 18.

(49) نفسه، ابن سعيد، المرجع السابق، ج.2، ص. 11. ابن بسام، الذخيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج. 7، ص. 142 ـ 143.

(50) ابن عذاري، المرجع السابق، ج.2، ص. 94 و 95 ـ 96.

(51) نفسه، ص. 101.

قد كلف بني ذي النون في هذه السنة بتأديب طليطلة،وثانيا، ففي سنة 258 هـ «كانت في الثغر ثورات وحركات» [52]. وفي السنة الموالية قبض على مطرف بن موسى بن قسي وبنيه وقتلهم في قرطبة، وكانت طليطلة تتأجج ثورة .. وهذا يعني أن الأسر التي كانت تتعاون مع السلطة في الثغر الأعلى صارت ضدها، فكان على الأمير البحث عن مرتكز جديد. ودون شك، فقد توصل بمعلومات عن قوة بني ذي النون، فافتعل حادثة الخصي لجلبهم إلى جانبه، فأسجل لسليمان على قومه في سنة 259 هـ / 873 م. وبذلك دخل تطور هذه الأسرة مرحلة جديدة.

ظل بنو ذي النون متمسكين بالطاعة ما تبقى من عمر أولهم سليمان (ت 264 هـ / 877 م)[53] وخلفه إبنه أبو الجوشن الذي توفي سريعا، وخلفه أخوه موسى الذي كان رهينة في قرطبة [54]. وظل على الطاعة بقية عهد الأمير محمد[55]. وكان بنو ذي النون يقومون بدورهم كولاة للسلطة المركزية. ففي سنة 260 هـ / 874 م كلفهم الأمير محمد بتأديب طليطلة، فالحقوا بأهلها هزيمة قوية، ثم توالت بعد ذلك الصراعات بين أهل طليطلة وبني ذي النون[56]. كما أنهم شاركوا في أعمال أخرى خاصة جهاد المسيحيين. وقد اكتسبوا سمعة كبيرة وشهرة كانت وراء نفوذ الأسرة وقوتها.

كانت المواجهات ضد طليطلة وراء ظهور قوة الأسرة، لذلك انتظر موسى موت الأمير محمد، وانقسام الأندلس ليعلن بدوره عن ثورته. وقد تلقى عدة دعوات من المناطق المجاورة لحمايتها وتولية أمراء عليها خاصة شرق الأندلس[57]. ويبدو أن ثورته اتخذت شكل توقف عن دفع الجباية وتنفيذ أوامر السلطان، أما الدعوة له والتبعية الرمزية فقد حافظ عليها. ومما يؤكد ذلك مشاركة ابني عمر بن ذي النون في صائفة للسلطان على كورة تدمير سنة 283 هـ / 896 م[58]. وقد توسع نفوذه وأصبح يشمل شنتبرية وجزءا من

(52) نفسه.
(53) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 18.
(54) نفسه.
(55) ابن خلدون، العبر، ج. 4، ص 168.
(56) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 17.
(57) العذري، ترصيع الأخبار، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1965، ص. 14.
(58) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 117.

جيان وبعض نواحي بلنسية، كما تحالف مع بعض ثوار تدمير وبعث إليهم ابن أخيه عامر بن أبي الجوشن بالجيوش[59]. ودخل في صراع حاد مع عبيد الله بن أمية بن الشالية حول حصن ديمه قبل انهزام الفتح[60].

وقد خلفه أبناؤه يحي والفتح ومطرف.

كان يحيى في حصن والده وَلْـمَهْ «وكان أسنهم وأرأسهم، فكان أكثرهم شرا وأشهرهم نفسا وأجرأهم على السلطان وألهجهم بالمعصية وأثقلهم وطأة على الرعية وأدومهم على قطع السبيل وإشاعة الفساد في الأرض، وسفك الدماء وافتراص الرفاق له في ذلك أخبار شنيعة»[61] ودون أن نأخذ بكل ما ورد في النص يمكن أن نستنتج أن يحيى كان قوي السلطان والمراقبة لأراضي حكمه ورعيته والحفاظ عليها من الأضداد. وقد قدم بيعته إلى الناصر سنة 303 هـ / 915 م، وساعده في قتل حليفه على قلعة رباح محمد بن عبد الله البكري الرباحي، فأسجل له الناصر على بلده ولمه[62]. وتوقف سنة 312 هـ عن المشاركة في حملة الناصر على بنبلونة، فتعرض لهجوم الجيش، لكن الناصر عفا عنه وثبته في مكانه[63]. وتعرض من جديد لغزو السلطان سنة 314 هـ / 925 م إثر اعتدائه على خلف بن عبدوس المعروف بابن قطين صاحب حصن سرته، وقتله، فاستنجدت أخته بالناصر فعاقبه مع أهل بيته، وقتل كبيرهم محمد بن محمد بن ذي النون[64]. ونظرا لاستمرار ضعف طاعته، فقد استنزله عبد الحميد بن بسيل وحمله مع أهله إلى قرطبة سنة 321 هـ، فصفح عنه الناصر وأثبته في العرفاء برزق واسع، واستشهد في غزوة سرقسطة سنة 325 هـ / 936 م[65].

ونزل الفتح حصن اقليش وعمره. ودخل في صراع مع أهل طليطلة، وتبادل معهم الغارات. وقد توقف عن بيعة الناصر سنة 300 هـ / 912 م، وهاجم قلعة رباح، فأرسل إليه

(59) العذري، المرجع السابق، ص. 18.

(60) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 10. ابن الابار، الحلة السيراء، الشركة العربية للطابعة، القاهرة، 1963، ج. 1، ص. 230.

(61) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 3، ص. 17.

(62) نفسه، ص. 19.

(63) نفسه، ج. 5، ص. 187. ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 189.

(64) نفسه، ص. 203. نفسه، ص. 191.

(65) نفسه، ج. 3، ص. 19. ج. 5، ص. 324.

الناصر عباس بن عبد العزيز فهزمه، فانكمش بحصنه اقليش[66]. وفي عام 303 هـ اغتاله أحد أصحابه أثناء رده لغارة لأهل طليطلة لثأر كان له عنده[67] وخلفه يحي بن الفتح[68].

واستقر مطرف بن موسى في حصن وبذة شمال شرق جيان، وكان أبوه قد أقطعه له منذ عهد الأمير عبد الله، فبناه وحصنه، «فكان أجمل أهل بيته مذهبا وأقومهم طريقة، أحمد الناصر لدين الله مذهبه (...) فأسجل له على بلده ورفع حاله، فحضر معه أكثر مغازيه»[69] و «كان مطرف بن موسى فردا في الشجاعة ومحلا من النسب»[70]. وقد أسره شانجه البشكنسي سنة 311 هـ / 923 م ففر من سجنه وعاد إلى سابق عهده[71]. وحضر غزوة الخندق وأبلى فيها البلاء الحسن، فأسجل له الناصر بعدها على مدينة الفرج. ومات على ولايته سنة 333 هـ / 944 م[72]، ويبدو أن ابنه عامر قد خلفه في عمله، ويؤكد هذا وصول كتاب منه إلى الناصر يخبره بما فتح الله عليه في المشركين سنة 335 هـ / 946 م، وبعث برؤوسهم[73]. وكان الناصر قد عين ابنه الآخر قاسم على قلعة خليفة الحديثة البناء سنة 328 هـ / 939 م[74].

ومن بني ذي النون أيضا نذكر يحي بن أبي الفتوح الذي خلف أباه الفتح سنة 303 هـ/ 915 م، وقد عينه الناصر على كورة شنت برية عام 317 هـ / 928 م[75].

ومن مشاهير بني النون عامر بن أبي الجوشن القائد الذي استخدمه ابن عمه أبو الفتوح في دعم أحد حلفائه في كورة تدمير[76]. ثم استماله قائد السلطان، فسار معه إلى قرطبة، ونالته جفوة، فعاد إلى شنت برية. فضاق به أبو الفتوح وأخرجه إلى بعض

(66) نفسه، ج. 5، ص. 53 ـ 54. مدونة تارخية، ص. 32 ـ 33.
(67) نفسه، ج. 3، ص. 18.
(68) نفسه، ج. 5، ص 196.
(69) نفسه، ج. 3، ص. 19.
(70) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 4، ص. 168.
(71) نفسه. ابن حيان، المرجع السابق، ج 5، ص. 187.
(72) نفسه، ج. 3، ص. 19.
(73) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 214.
(74) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 456.
(75) نفسه، ص. 254.
(76) العذري، المرجع السابق، ص. 14.

حصون بلنسية عاملا [77]، ثم تغلب على شاطبة والجزيرة من كورة بلنسية ومدينة التراب أو بلنسية، وفشل أبو الفتوح في استنزاله، فأعلن طاعته للناصر سنة 924 هـ / 312 م، ونكث. ثم توسط له يحي بن أبي الفتوح لدى الناصر فأمنه. وحمله عبد الرحمان بن عبد الله الزجالي مع أهله إلى قرطبة، وبها توفي بعد أن تجاوز عمره مائة سنة[78].

ويظهر أن الفتح بن يحي قد عين محل والده بعد عزله سنة 321 هـ / 932 م[79]. واستمر في ولايته حتى سنة 329 هـ / 939 م، عندما اعتدى على أراضي عمه المطرف، فشكاه إلى الناصر، فاستنزله من حصن اقليش وكل الحصون التي يحكمها[80].

وقد انتهت سياسة المد والجزر بين الناصر وآل ذي النون عندما اتخذ قرار التسجيل لهم ولغيرهم في كل سنة عقب معركة الخندق سنة 327 هـ / 936 م[81]. ونفس السياسة سيسير عليها الحكم الثاني، بحيث نجده في سنة 363 هـ / 973 م، يسجل لمطرف بن اسماعيل بن عامر بن ذي النون على حصنه وأكثر حصون كورة شنت برية وقراها[82].

وقد حافظ بنو ذي النون على مكانتهم في عهد العامريين «فكان منهم من يقود الجيوش ويلي الأعمال والبلاد، وكان منهم في آخر أمد الجماعة وال بكورة شنت برية»[83]. واشتهر منهم في هذه الفترة المضراس بن ذي النون وابنه اسماعيل[84].

وتولى اسماعيل بن المضراس اقليش وقلعة كونكه في عهد المستعين بالله، ثم ولاه الوزارة[85]. وكان من أوائل الثوار في بداية القرن 5 هـ / 11 م، عندما استدعاه سكان طليطلة الذين كرهوا جور ابن متيوه فخلعوه، ونصبوا اسماعيل هذا لعدله[86].

---

(77) نفسه.
(78) نفسه.
(79) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 5، ص. 331.
(80) نفسه، ص. 457.
(81) نفسه، ص. 437-438.
(82) نفسه، ج. 6، ص. 150.
(83) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 276.
(84) ابن بسام، المرجع السابق، ج. 7، ص. 142.
(85) نفسه، ص. 143.
(86) ابن عذاري، المرجع السابق، ج.3، ص. 276 ـ 277. ابن الخطيب الأعمال، ج. 2، ص. 177. إبن سعيد، المغرب، ج. 2، ص. 11.

لقد أبرز لنا تطور أسرة بني ذي النون أهم ملامح تطور المجموعات البربرية في الأندلس. ففي البداية استقرت بالبلاد وحاولت أن تتكيف مع ظروفها، فاستطاعت أن تحصل على نفوذ مادي ومعنوي مكنها من الحصول على ثقة السلطان الذي سجل لها على منطقتها. وتزايد نفوذ الأسرة أكثر، فرفضت الخضوع للسلطة المركزية خاصة في عهد الأمير عبد الله. وتميزت علاقتها بالناصر بالمد والجزر، وانتهت في آخر المطاف إلى التوافق بالتسجيل لأبناء الأسرة على مناطقهم بشكل وراثي. وهذا حافظ لهم على مكانتهم فيما تبقى من عمر الدولة الأموية. وسيكون هذا البيت من أوائل الثوار في مطلع القرن 5 هـ / 11 م. وهذه شجرة لأشهر رجال هذه الأسرة.

شجرة نسب المشاهير من أسرة بني ذي النون

ورد

السمح (الداخل إلى الأندلس)

اسماعيل

الهيثم

طوريل

سليمان

ذو النون

سليمان (ت 264 هـ / 877 م)

أبو الجوشن (ت 264 هـ / 877 م) — موسى (ت 295 هـ / 907 م)

أبو الجوشن:
- عامر
  - ؟*
  - اسماعيل
  - مطرف
  - ؟**
  - المضراس
  - اسماعيل (من ملوك الطوائف)

موسى (ت 295 هـ / 907 م):
- يحيى (ت 325 هـ / 936 م)
  - الفتح
- الفتح (ت 303 هـ / 915 م)
  - يحي
- مطرح (ت 333 هـ / 944 م)
  - عامر
  - قاسم

(*) لاندري هنا المقصود بعامر هذا الذي أشرنا إليه أم عامر بن مطرف.

(**) لاتزودنا مصادرنا بشجرة كاملة لذلك لم نستطع الحسم في هذا الجزء من الشجرة، وضعنا علامة استفهام تعبيرا عن شكنا.

(***) يلاحظ أن تواريخ وفاة وترتيب الأمراء من هذه الأسرة غير كامل، وهذا يرتبط بشح المصادر التي تأثرت، ربما ببعد المنطقة عن العاصمة، واضطراب الأحوال في فترة الدراسة، ثم كثرة الأحداث والثورات التي عرفتها الأسرة، وهذا ما يلاحظ جليا من خلال تتبعها أعلاه.

لقد قدم لنا هاذان النموذجان أهم الملامح التي طبعت المشاركة السياسية للبربر. فهما أولا يقدمان صورة عن تأخر هذه المشاركة إلى منتصف القرن 3 هـ / 9 م. وهما ثانيا، يبينان أن المشاركة تحققت بعد أن حققت الأسرتان نموا كافيا الأولى في ميدان الأدب والكتابة واللغة والثانية في الميدان العسكري. وهما ثالثا، تشيران إلى أن اندماج البربر في الإدارة الأموية جاء عفويا وفقا لحوادث بسيطة (بيت شعر ـ تمريض الخصي). وهما رابعا يبينان أن المشاركة اتخذت وجها إداريا محضا مع آل الزجالي، وأوجها سياسية وعسكرية وإدارية مع بني ذي النون. وهما أخيرا يبينان أن البربر كانوا كباقي أهل الأندلس يتقلبون بين الطاعة والعصيان، وهذا يثبت مدى الاندماج الذي تحقق لهذه العناصر داخل المجتمع الأندلسي واصطباغها بملامحه وخصائصه.

نتائج القسم الثاني

قام تصنيفنا لفصول هذا القسم على أساس عنصر الانتماء للجماعة أو الخروج عنها. وهكذا كانت الفصول الأولى ترتبط بالجانب الأول أما الفصل الرابع فيعبر عن الجانب الثاني. بينما كان الفصل الأخير إبرازا للنتائج التي سبق وأن توصلنا إليها خلال الفصول السابقة بدراسة أسرتين بربريتين.

في البداية انصب اهتمامنا على معرفة دور البربر في ترسيخ الحكم الاسلامي بالأندلس. فتتبعنا دورهم في الفتح، فوجدناهم أصحاب الفكرة ومنفذيها، وعلى يدهم تحققت أغلب الفتوح. و لم يكتف البربر بهذا، بل كرسوا حياتهم للدفاع عن مكتسبات الفتح. ولما جاء عبد الرحمان الداخل وجد البربر إلى جانبه، بحيث كانوا من أوائل مبايعيه وقاتلوا معه يوسف بن عبد الرحمان الفهري، ثم مارس مواليه البربر الدعاية في أوساط إخوانهم البربر للانضمام إليه في أوقات الحرب والسلم، فكانوا بذلك إحدى الوسائل الناجعة التي خلصته من عدد من المعارضات والثورات. وبصفة إجمالية فالبربر كانوا منذ البداية في خدمة الوجود الاسلامي بالأندلس، وظلوا أوفياء لذلك على امتداد تاريخ الأندلس.

في الجانب الثاني وقفنا عند المساهمة البربرية في الإدارة الأموية في ميداني الإدارة السياسية والقضاء، فاكتشفنا أنها جاءت متأخرة و لم تظهر إلا في عهد الأمير عبد الرحمان الثاني، وعرفنا أن سبب التأخر، ارتبط بالاحتكار العربي للمناصب. وميل البربر إلى العزلة والأنفة من الخدمة، ثم قلة ثقافتهم، ولما بدأت هذه العراقيل تضعف بدأت الوجوه البربرية تظهر في الإدارة، ولكنها ظلت قليلة مقارنة مع العرب. وظهر لنا أيضا أن المشاركة الإدارية والقضائية انحصرت في أسر كبيرة أغلبها من الموالي والزناتيين، منها : بنو الزجالي والمصاحفة وبنو وانسوس وآل ابن أبي عيسى وآل منذر بن سعيد وآل ذكوان وآل عباس بن ناصح بالجزيرة وآل رحيق بالجزر الشرقية.

وخصصنا الفصل الثالث لإظهار المشاركة البربرية في الميدان العسكري، فتبين لنا أنهم كانوا يشاركون في جيش الكور دون أن تكون لهم نفس امتيازات الكور المجندة

الخاصة بالشاميين، مع أن أهل الثغر الأوسط، ربما، كان لهم نفس الوضع، إلا أن المشاركة البربرية في الجيش ظهرت أكثر فاعلية في جانب الارتزاق في الجيش، بحيث كان البربر دائما عنصرا حاضرا في جيش الأمويين منذ عهد عبد الرحمان الأول حتى عهد المستعين بالله. ويعود إقبال الأمويين على المرتزقة البربر إلى خصال البربر القتالية، وسهولة جلبهم. وقد كانوا يعاملون بقسوة ويتلقون أجورا ضعيفة ويعانون من احتقار وحقد باقي عناصر المجتمع : جندا وعامة. وهذا ما جعلهم يتعاملون مع الظروف بنفعية محضة، فوفاؤهم ضعيف، وكانوا يميلون مع القوي الذي يملك المال. وبرز منهم عدد كبير من القادة اشتهروا بشجاعتهم وفروسيتهم ودهائهم وذكائهم.

وجاء الفصل الرابع ليبين لنا الوجه الآخر للبربر، وهو وجه الانفصال عن الجماعة ومعارضة السلطة الشرعية. وقد ميزنا في ثوراتهم بين تلك التي تتطلع إلى الانفصال والقطيعة والتي قامت تحت غطاء المذهبين الخارجي والشيعي، ولكن هذا النوع توقف انطلاقا من منتصف القرن 3 هـ / 9 م، وكان الصنف الثاني عبارة عن تمردات قبلية ذات مطالب جبائية أو دفاعا عن الشرف والكبرياء، وكان البربر في هذه الثورات أوفياء للجو الأندلسي، مما يبين اندماجهم فيه، وتميز الصنف الثالث بصدوره عن واجبات الحلف والجوار، ولذلك كان البربر أقل وفاء وقتالية، وعادة ماكانوا يخونون حلفاءهم. وخصصنا آخر الفصل لتحديد دور البربر في اضطرابات بداية القرن 5 هـ/ 11 م، فاتضح لنا أنهم كانوا فقط ضحية الاستبداد العامري الذي زرع الحقد في نفوس المجتمع، وأفقد السكان توازنهم، فصار بعضهم يضرب بعضا دون تفكير وروية، وتساوى في ذلك الخلفاء والمشايخ والعلماء والعامة.

وفي آخر فصل قمنا بدراسة تطور أسرتين بربريتين تتبعنا من خلالها النتائج التي سبق وأن توصلنا إليها، فتبين لنا توافقها إلى حد بعيد.

كانت أكبر خلاصة تلك التي وضحت لنا أن تاريخ البربر في الأندلس ينقسم إلى قسمين : فترة ما قبل منتصف القرن 3 هـ / 9 م، وفيها كان البربر مهمشين ومعزولين، وما بعد هذا التاريخ، حيث بدأ البربر يندمجون في المجتمع الأندلسي، وصاروا أندلسيين. لقد كان تاريخ منتصف القرن 3 هـ / 9 م، فترة حاسمة في تاريخ الوجود البربري في الأندلس.

القسم الثالث

البربر والحياة الثقافية في الأندلس

الفصل الأول:
أهم خصائص المشاركة العلمية للبربر

لم يبق البربر في معزل عن الميدان العلمي، بحيث وردت أسماء كثير من رجالاتهم ضمن النخبة الأندلسية التي تعاطت للعلوم، وخصصت حياتها لجمعه داخل وخارج الأندلس وكذلك لنشره وتطويره.

بعد الدراسة المعمقة لمصادرنا اتضح أن ما تحتوي عليه بشأن المشاركة العلمية للبربر شيء قليل، إذ لم يتجاوز عدد الشخصيات المترجم لها 108 شخصية علمية، ولا نخفي أننا لم نعمل على إحصاء إلا الأسماء التي يشار إلى نسبها البربري في أحد المصادر صراحة، و لم نتجاوزها بسبب انعدام وسيلة ناجعة ومفيدة تساعدنا على التحقيق في نسب بعض من نشك في انتمائهم البربري، ولا نشك في أن هذا العدد، رغم قلته، سيعطينا صورة تقريبية عن واقع دور البربر في العلوم.

وتعد كتب التراجم والأنساب أكثر المصادر اهتماما بهذا الجانب وقد اتضح بعد تتبع ما أوردته أن «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي يأتي على رأس اللائحة (38 ترجمة) وبعده ابن بشكوال في صلته (31 ترجمة) والقاضي عياض في «ترتيب المدارك» (29 ترجمة) وبعدهم صاحب «مفاخر البربر» والخشني في «أخبار الفقهاء» (12 ترجمة)، ثم مغرب ابن سعيد (10 تراجم) أما باقي المصادر فلا تورد إلا معلومات عن شخصية واحدة أو شخصيتين.

ولا نستطيع أن نجزم بأن هذا العدد الذي جمعناه يشمل كل علماء البربر في الأندلس خلال فترة الدراسة خاصة وقد سبق لنا في فصل سابق أن أوضحنا أن الأنساب البربرية تعرضت للطمس طواعية أو إهمالا، وأن فئة العلماء هي الأكثر تهافتا وإسراعا إلى تبني أنساب عربية. ويدعم هذا الرأي تلك الإشارات التي ترد في بعض المصادر والتي تؤكد على وجود علماء لا نملك إلا أسماءهم أو مجرد تلميح إلى وجودهم، فهذا ابن حزم يقول

عند حديثه عن بني عبد الوهاب الصنهاجيين : «كان منهم قواد وكتاب وفقهاء»[1] ولا نجد بعد ذلك في أي مصدر ذكرا لأحد هؤلاء العلماء، كما يذكر صاحب مفاخر البربر أسماء علماء دون تحديد لتخصصاتهم أو اهتماماتهم العلمية[2]. وما سبق يجعلنا نقر بأن اللائحة التي نتوفر عليها غير كاملة، وإنما تمثل عينة من العلماء البربر يمكن من خلالها أن نكتشف خصائص العمل العلمي البربري في الأندلس.

أثناء تصنيفنا لهؤلاء العلماء فكرنا في طريقة ملائمة، فتبادرت إلى الذهن فكرة التصنيف على أساس تاريخ الوفاة. ولكن نموذج إرفوا[3]، والانتقادات الموجهة إليه بشأن التصنيف على أساس تاريخ الوفاة[4] فتح أعيننا على عيوب كثيرة لهذا النوع من التصنيف، لذلك التجأنا إلى تصنيف آخر يستوحي بعض عناصره من تقسيم الطبقات الذي سار عليه بعض العلماء ومؤلفي العصر الوسيط وقد ركزنا في هذا التصنيف على فترة إبداع وعطاء العلماء، فجمعنا كل الذين قدموا ابداعاتهم وعطاءاتهم العلمية في فترة زمنية متزامنة أو متقاربة في طبقة واحدة، وبناء على ذلك قسمنا العلماء البربر الأندلسيين إلى خمس طبقات :

ـ **الطبقة الأولى** : تشمل كل الذين عاشوا منذ عهد عبد الرحمان الداخل حتى نهاية القرن 2 هـ / 8 م.

ـ **الطبقة الثانية** : تشمل كل الذين عاشوا وأبدعوا منذ أواخر القرن 2 هـ / 8 م حتى نهاية عبد الرحمان الثاني (حوالي 240 هـ / 854 م).

ـ **الطبقة الثالثة** : عاش رجالها فيما تبقى من القرن 3 هـ / 9 م.

ـ **الطبقة الرابعة** : يمثلها كل من أبدعوا ما بين بداية القرن 4 هـ / 10 م ومنتصفه.

ـ **الطبقة الخامسة** : تشمل الرجال الذين أبدعوا من منتصف القرن 4 هـ / 10 م حتى نهاية فترة الدراسية.

---

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 502.

(2) مجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934، ص. 60 ـ 63.

(3) Urvoy (D), Le monde des Ulémas Andalous, Librairie Droz, Genève, 1978.

(4) Turqui (Abdel Magid), Théologien et juriste de l’Espagne musulmane, Maisonneuve et Larose, Paris. 1982, p. 368.

وينصب اهتمامنا في هذا الفصل على محاولة استكشاف بعض الخصائص التي طبعت المشاركة العلمية البربرية من حيث توزيعها الزمني والجغرافي والقبلي ثم دور الرحلة العلمية في الأوساط البربرية في الأندلس.

1- التوزيع الزمني للعلماء البربر:

الطبقات	العدد	النسبة %
الطبقة 1 (138 ـ 180 هـ)	1	0.92
الطبقة 2 (180 ـ 240 هـ)	8	7.40
الطبقة 3 (240 ـ 300 هـ)	17	15.71
الطبقة 4 (300 ـ 360 هـ)	36	33.33
الطبقة 5 (360 ـ بداية ق. 5 هـ)	46	42.59
المجموع	**108**	**100**

توزيع العلماء البربر زمانيا

يوضح الجدول أعلاه أن العلماء البربر كانوا حاضرين في الحياة الثقافية الأندلسية منذ انطلاقتها بحيث نجد ممثلا عنهم منذ القرن 2 هـ / 8 م لكن الانطلاقة كانت متعثرة وضعيفة، وكلما تقدمت السنين، كلما زادت أهمية المشاركة وتوسعت. ويمكننا أن نميز داخل هذه المسيرة بين فترتين، ماقبل سنة 240 هـ / 854 م والتي تشمل الطبقتين الأولى والثانية، حيث لايتجاوز عدد العلماء البربر 9 أشخاص (8,32 %) ويعتبرون من بين النخبة العلمية الأندلسية الأولى التي أرست قواعد الثقافة الأندلسية من أمثال عمر بن حمدون المغيلي الذي كان يعيش على عهد عبد الرحمان الداخل[5] ويحيى بن يحيى الليثي وأبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري وعباس بن ناصح الثقفي، وكل هؤلاء كانوا ممن رحل إلى المشرق، وتعلم هناك، ثم عاد لينشر علمه في الأندلس، ونقتصر على شهادة للزبيدي عن أبي موسى الهواري للتدليل على ريادة هؤلاء والتي جاء فيها أنه أول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس[6]، ثم ما بعد سنة 240 هـ / 854 م وتشمل الطبقات

(5) ابن الفرضي، تاريخ العماء والرواة للعلم، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954، ج. 1، ص. 366.
(6) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة ، 1973، ص. 253.

الثالثة والرابعة والخامسة، حيث صار عدد المثقفين في كل طبقة ضعف مثيله في الطبقة التي قبلها. وبلغ مجموع العلماء تسعة وتسعين عالما (91,62 %)، ويمثل القرن 4 هـ / 10 م أوج العطاء الثقافي البربري مادام يحتكر ثلاثة أرباع الأسماء التي تمثل العينة التي نعتمد عليها في هذه الدراسة (82 عالما).

إن هذا التطور الذي أظهرناه يبين أن الانطلاقة العلمية البربرية كانت في منتصف القرن 3 هـ / 9 م، وأنها بلغت الأوج خلال القرن 4 هـ / 10 م وهذا يحيلنا على ماسبق لنا تسجيلها في ميادين أخرى، ودون شك، فقد ساعدت على هذه الانطلاقة المتأخرة عوامل معقولة.

لا نملك إشارات واضحة في المصادر تبين لنا ذلك، غير أن إلقاء نظرة على كتب التراجم تظهر لنا أن الحياة الثقافية في الأندلس خلال الفترة الممتدة من الفتح حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م كانت متواضعة وبسيطة، ويتأكد ذلك من خلال عدد العلماء القليل وبساطة تكوينهم، فالأندلس خلال هذا الزمان كانت لا تزال تعيش عالة على المشرق الذي له تأثير عميق على كل نواحي الحضارة الأندلسية[7] وهذا جعل التعليم وطلب العلم في غاية الصعوبة، ولم يكن بإمكان أي كان أن يحصل عليه لما يفرضه من مشقة الرحلة ونفقاتها. ويتأكد لنا هذا جليا عندما نتتبع عدد من رحلوا لطلب العلم في المشرق، فخمسة من بين ثمانية رجال يمثلون الطبقة الثانية كلهم هاجروا لطلب العلم، بينما تقلص العدد في الطبقة الموالية ليصبح فقط الثلث (6 من 17)، وهذا يؤكد من جهة أن الأندلس ظلت حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م تعرف نقصا وضعفا في المراكز التعليمية ومن جهة ثانية، أن المشرق هو مصدر العلم، وبذلك يتأكد أن ضعف المشاركة البربرية تدخل في إطار ضعف شامل للحياة الثقافية الأندلسية حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م.

ويضاف إلى هذا العامل، ماسبق وأن أثبتناه من كون أغلبية البربر تستقر في البادية، وهذا قلل اهتمامهم بالثقافة والاحتكاك برجاله، ويتضح لنا هذا أكثر إذا علمنا أن رواد المشاركة البربرية في الميدان الثقافي كانوا إما من قرطبة (4 علماء) أو من كور يعيش فيها

(7) ليڤي بروڤنسال، الحضارة العربية في اسبانيا، دار المعارف، 1985، ص. 73.

البربر إلى جوار العرب (رية ـ موررور ـ تاكرنا) أما الكور التي يمثلون فيها أغلبية فلن تساهم إلا في فترات متأخرة.

نخلص في آخر تحليلنا إلى أن المشاركة العلمية للبربر مرت بمرحلتين :

مرحلة تمتد حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م، حيث كانت المشاركة ضعيفة وبسيطة، وكان رجالها من بين رواد الحركة العلمية بالأندلس، ومرحلة ثانية بعد منتصف القرن 3 هـ / 9 م وفيها توسع النشاط العلمي البربري وبلغ مرحلة الأوج خلال القرن 4 هـ / 10 م. واتضح أن هذا التأخر في النبوغ يرتبط بعامل عام يتعلق بضعف الحركة العلمية بالأندلس حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م وعامل خاص يتعلق بقلة اهتمام البربر بالعلوم واستقرارهم بالبادية. وربما أن قدم الفترة جعل كتب التراجم لا تنقل لنا أخبارا مهمة عنها، ليس فقط بالنسبة للبربر، بل لكل أهل الأندلس.

2- التوزيع الجغرافي لعلماء البربر:

يظهر الجدول أسفله أن التوزيع الجغرافي لعلماء البربر في الأندلس غير متكافىء رغم أنه يشمل كل المناطق والجهات. وتهيمن قرطبة وبلاد الموسطة على القسم الأكبر بحيث تحتضن 67 عالما (62,03 %) وقد ظلت في كل الفترات تحتضن أكثر من نصف العلماء. وبعدها تأتي كورة موررور بثمانية رجال (7,40 %) وقد برز دورها العلمي خاصة خلال القرن 4 هـ / 10 م، رغم أن مشاركتها سجلت منذ وقت مبكر، ويأتي الثغر الأوسط في مرتبة ثالثة بسبع علماء (6,48 %)، وبدأ دوره انطلاقا من الطبقة الثالثة. وتليه كورتا تاكرنا وإلبيرة (3,70 %) والثغر الأعلى وجيان (2,77 %) وشرق الأندلس (1,85 %) ثم أخيرا كورتا رية وتدمير (0,92 %).

ويلاحظ أن هذا التوزيع يوافق إلى حد بعيد توزيع الكثافات السكانية البربرية في الأندلس، حيث نجد المناطق الأربعة الأولى كلها مناطق ذات كثافات سكانية بربرية عالية، إضافة إلى كونها من أهم المراكز العلمية في الأندلس (قرطبة وكورة موررور) كما أن هذه المناطق تعرف استقراراً للعناصر العربية، ودون شك، فالاحتكاك المبكر بالعرب ولد لدى بربرها رغبة في العلم، لذلك زادت أهمية مشاركتهم عن باقي الكور والمناطق.

الكورة / الطبقة	الموسطة (قرطبة)	الثغر الأوسط	الثغر الأدنى	الثغر الأعلى	الثغر الأندلس	مورور	تاكرنا	البيرة	تدمير	جيان	رية	أندلس
الطبقة 1 (138 ـ 180 هـ)											1	
الطبقة 2 (180 ـ 240 هـ)	5					1	1					1
الطبقة 3 (240 ـ 300 هـ)	10	1		1			2		1	1		1
الطبقة 4 (300 ـ 360 هـ)	21	1	3	2	2	3	1	1		2		
الطبقة 5 (360 ـ بداية ق. 5 هـ)	31	5	3			4		3				
المجموع	**67**	**7**	**6**	**3**	**2**	**8**	**4**	**4**	**1**	**3**	**1**	**2**

التوزيع الجغرافي للعلماء البربر في الأندلس

يمكن أن نثبت أن توزيع العلماء البربر جغرافيا يتوافق مع توزيع مواطنهم في الأندلس، بحيث تزداد أهمية عدد العلماء في المناطق حيث ترتفع الكثافات البربرية، وحيث الحياة الثقافية نشيطة ومزدهرة مثل قرطبة ومورور.

3- توزيع العلماء البربر حسب انتماءاتهم القبلية

الطبقات	مصامدة	صنهاجة	زناتة	بربر دون انتماء
الطبقة 1 (138 - 180 هـ)	0	0	1	0
الطبقة 2 (180 - 240 هـ)	4	1	3	0
الطبقة 3 (240 - 300 هـ)	8	1	4	4
الطبقة 4 (300 - 360 هـ)	10	3	11	12
الطبقة 5 (360 - بداية ق. 5 هـ)	2	9	20	15
المجموع	**24**	**14**	**39**	**31**

توزيع العلماء البربر حسب انتمائهم القبلي

يقدم الجدول صورة عن مساهمة كل مجموعة قبلية بربرية في الحياة الثقافية الأندلسية. وتحتل الرتبة الأولى المجموعة الزناتية (36,11 %) وبعدها البربر الذين يجهل انتماؤهم القبلي (28,70 %) ومصمودة (22,22 %) ثم صنهاجة (12,96 %).

سبق لنا عند تناول مسألة الولاء أن وضحنا أن سبق الزناتيين يعود إلى كثرة أعدادهم بالأندلس واستعدادهم للاندماج في الحضارة الجديدة أكثر من باقي المجموعات القبلية البربرية الأخرى. إلا أننا عندما نتتبع هذا التوزيع زمانيا يعطينا صورة أخرى، حيث نجد أن مصمودة كانت رائدة، بحيث كان رجالها يمثلون نصف رجال الطبقتين الثانية والثالثة. أما دور زناتة فلم يتضح إلا خلال القرن 4 هـ / 10 م، حيث صاروا أغلبية رجال الطبقتين 4 و 5. ونفس الملاحظة يمكن تسجيلها بالنسبة لصنهاجة والذين لم يذكر انتماؤهم.

ولا يظهر لنا الجدول حقيقة أخرى تتعلق بتوزيع هؤلاء العلماء حسب انتمائهم الأسري فأغلب العلماء البربر ينتمون إلى عدد محدود من الأسر التي كونت تقاليدها العلمية

وتوارثت العلم في رجالها، ومن أشهرها أسرة آل أبي عيسى المصمودية التي أسسها يحيى بن يحيى الليثي والتي تعتبر من أكبر الأسر العلمية الأندلسية حتى منتصف القرن 4 هـ / 10 م، وأسرة القاضي منذر بن سعيد الزناتية وأسرة بني ذكوان وآل الزجالي وآل عباس بن ناصح الثقفي. ولو تتبعنا عدد العلماء الذين ينتمون إلى هذه الأسر لاتضح أنهم يمثلون أكثر من ثلث العينة التي نتوفر عليها.

ويظهر توزيع العلماء البربر حسب ولائهم حقائق أخرى، ويقدم لنا الجدول التالي أرقاما بشأن ذلك.

الطبقات	العلماء	الموالي منهم	النسبة %
الطبقة 1 (138 - 180 هـ)	1	1	100
الطبقة 2 (180 - 240 هـ)	8	5	62,5
الطبقة 3 (240 - 300 هـ)	17	10	58,82
الطبقة 4 (300 - 360 هـ)	36	15	41.66
الطبقة 5 (360 - بداية ق. 5 هـ)	46	6	13.04
المجموع	**108**	**37**	**34.25**

مساهمة الموالي البربر في الحياة العلمية الأندلسية

يظهر من المعطيات الواردة في الجدول أن الموالي البربر ساهموا بقسط كبير في الحياة العلمية الأندلسية، بحيث يمثلون أكثر من ثلث (34,25 %) العلماء البربر. إلا أن هذا الدور عرف تطورا عكسيا، إذ كلما تقدم التاريخ الأندلسي كلما قل دور الموالي البربر وضعف، فقد كان حتى نهاية القرن 3 هـ / 9 م يمثل أكثر من النصف، لكنه في القرن 4 هـ / 10 م يقل عنه، بل صار فقط 13,04 % في الطبقة الخامسة، ويرتبط هذا السبق بكونهم استفادوا من علاقة الولاء، فانفتحوا على الثقافة العربية الاسلامية، ولكن توسع الحياة الثقافية في الأندلس أتاح الفرصة لباقي العناصر فبدأ دورهم يضعف.

يقدم التوزيع القبلي للعلماء البربر مايلي :

ـ يمثل الزناتيون المرتبة الأولى وبعدهم المصامدة فالصنهاجيون.

ـ لعب المصامدة دور الريادة والسبق، بحيث كان رجالهم سباقين في الميدان، و لم يتراجع دورهم إلا خلال القرن 4 هـ / 10 م.

ـ تأخر نبوغ الزناتيين والصنهاجيين حتى القرن 4 هـ / 10 م.

ـ تهيمن على المشاركة البربرية في الميدان العلمي مجموعة من الأسر الكبرى التي توارثت العلم واحتكرته في رجالها (آل أبي عيسى ـ آل منذر بن سعيد ـ آل ذكوان ..).

ـ لعب الموالي البربر دورا فعالا في الحياة الثقافية خاصة في القرن 3 هـ / 9 م قبل أن يتراجع دورهم خلال القرن الموالي.

4- اهتمام البربر بالرحلة العلمية إلى المشرق

الطبقات	افريقية	مصر	الحجاز	العراق	اليمن	الشام	عدد م.
الطبقة 1 (138 ـ 180 هـ)							
الطبقة 2 (180 ـ 240 هـ)	1	3	5	1			5
الطبقة 3 (240 ـ 300 هـ)	5	6	3	4			8
الطبقة 4 (300 ـ 360 هـ)	1	6	6		1	1	6
الطبقة 5 (360 ـ بداية ق. 5 هـ)		4	7	3	1	1	9

الرحلة العلمية البربرية إلى المشرق

يظهر الجدول أن عدد المهاجرين إلى المشرق عرف تطورا مستمرا. فقد كان في الطبقة الثانية (5 أشخاص 62,5 % من مجموع رجالها) وهم : يحيى بن يحي الليثي وابنيه محمد واسماعيل وأبو موسى الهواري وعباس بن ناصح. وصار عددهم في الطبقة الثالثة 8 أشخاص (47,05 %)، وهاجر من رجال الطبقة الرابعة 6 أشخاص (16,6 %) ومن رجال الطبقة الخامسة 9 أشخاص (19,56 %). وإذا كان تطور الأعداد يبرز استمرار تطور وتزايد أهمية الهجرة إلى المشرق، فإن نسبة المهاجرين توضح أن الرحلة كانت تفقد

أهميتها مع تقدم التاريخ لصالح المتعلمين بالأندلس. وصارت الهجرة حكرا على أولئك الذين يبحثون عن التميز عن أقرانهم واكتساب مكانة خاصة في الأوساط الأندلسية.

ويعطينا الجدول أيضا نظرة عن المراكز المشرقية التي استقطبت الأندلسيين والبربر منهم خاصة. فالحجاز ومصر ظلا مركزي الجاذبية الرئيسيين، بحيث استمرت الرحلة إليهما على طول فترة الدراسة، وبعدهما تأتي العراق وإفريقية، ولكننا نلاحظ أن دور افريقية تراجع انطلاقا من الطبقة الثالثة، ولعل سيطرة الفاطميين عليها والعداء القائم بين الأمويين والفاطميين كان وراء تجنب الأندلسيين لزيارتها لطلب العلم. وخلال القرن الرابع الهجري ظهرت وجهات أخرى وهما اليمن والشام. فكيف يمكننا تفسير هيمنة الحجاز ومصر واستمرار دورهما كقبلة لطلبة العلم الأندلسيين ؟ لا يمكن تفسير ذلك إلا أولا، بكون الحجاز مركز حج المسلمين، لذلك كان أهل الأندلس يجمعون بين أداء هذه الفريضة وطلب العلم. وثانيا لأنه مركز المذهب المالكي الذي صار المذهب الرسمي للأندلس منذ نهاية القرن 2 هـ / 8 م ولذلك كان أهل الأندلس يقصدونه لطلب المذهب والعلم به. أما مصر فهي أولا طريق إلى الحجاز، وثانيا مركز للمذهب المالكي، حيث إن تلاميذة مالك الكبار كانوا من المصريين وعلى رأسهم عبد الرحمان بن القاسم. ويضاف إلى كل هذا أن مصر والحجاز أقرب إلى الأندلس من العراق واليمن.

نخلص في آخر كلامنا في هذا الفصل إلى أن المشاركة العلمية البربرية قد تميزت بمجموعة من الخصائص نجملها فيما يلي :

فعلى صعيد التوزيع الزمني ظهر أن البربر كانوا دائما حاضرين في الحياة الثقافية الأندلسية منذ نشأتها وحتى سقوط آخر معقل منها. إلا أنه يجب التمييز بين مرحلة ما قبل منتصف القرن 3 هـ / 9 م، حيث كانوا أقلية وما بعدها إذ تزايدت أعدادهم بشكل كبير، وبلغ التزايد أوجه خلال القرن 4 هـ / 10 م. واتضح لنا أن هذا الاختلاف مرتبط بعامل موضوعي يرتبط بتطور الثقافة الأندلسية، حيث كانت ضعيفة حتى منتصف القرن 3 هـ / 9 م وظلت تعتمد على تلقي العلم بالمشرق، وما بعده عندما توسعت وكثر عدد المراكز التعليمية بالأندلس، وصار بإمكان أهلها أن يتعلموا ببلدهم، وعامل ذاتي يتعلق بكون البربر قد نزلوا في معظمهم البوادي وأقاموا بها، وهذا قلل من اهتمامهم واحتكاكهم

بالحياة الثقافية، و لم يبرز الرجال الأوائل منهم إلا في المراكز التي تعرف نشاطا علميا مثل قرطبة أو التي احتكوا فيها بالعرب وتولدت لديهم الرغبة في العلم كمورور.

أما على الصعيد الجغرافي فتأكد أن المناطق التي تعرف كثافات بربرية مهمة كانت أكثر مساهمة في الحياة العلمية خاصة منها مراكز العلم مثل قرطبة وبلاد الموسطة عامة وكورة مورور والثغر الأوسط.

وأظهر التقسيم حسب الانتماء القبلي أن زناتة تحتل المرتبة الأولى، وهذا يفسر بكثرة عدد رجالها بالأندلس وانفتاحها المبكر على العرب. ولكن الريادة كانت للمصامدة الذين مثلوا نصف رجال الطبقتين الثانية والثالثة. كما اتضح أن أغلب العلماء البربر ينتمون إلى أسر علمية كبيرة توارثت العلم وتناقلته، وكان للموالي دور بارز خاصة في الفترات الأولى ولكنه بدأ يتراجع بتقدم الحياة العلمية بالأندلس.

واهتم البربر أيضا بالرحلة العلمية إلى المشرق، حيث كانت واسعة في أوساطهم حتى نهاية القرن 3 هـ / 9 م، ثم ضعف دورها رغم استمرارها خلال القرن الموالي. وقد كان أغلب الطلاب يتوجهون إلى الحجاز ومصر كمركز وطريق للحج وموطن لعلماء المذهب المالكي الذي تبناه أهل الأندلس. وتوجهت قلة منهم إلى افريقية والعراق واليمن والشام. ويمكننا أن نسجل أن هذه الخاصية يمكن أن تنطبق على كل أهل الأندلس وليس فقط على البربر منهم.

الفصل الثاني:
العلوم التي اشتغل بها البربر

اتضحت لنا في الفصل السابق مجموعة من الخصائص التي ميزت المشاركة العلمية للبربر، إلا أننا لم نتناول العلوم التي اجتذبتهم وبرعوا فيها. لهذا فسنعمل في هذا الفصل على التوقف عند أهم التخصصات التي اهتم بها البربر مع ذكر لبعض الرجال الذين نبغوا في كل علم. والجدول أسفله يقدم لنا تلخيصاً لذلك.

تخصص / طبقة	ع.قرآن	ع. حديث	فقه	ع. عربية	شعر	نثر	ع. كلام	هندسة	حساب	فلك	زراعة	منطق	تاريخ
الطبقة 1			1										
الطبقة 2	1		6	3	2	2				1			
الطبقة 3	2	1	12	3	4	6							
الطبقة 4	2		24	9	10	6	1	2	1		1	1	
الطبقة 5	5	4	35	6	8	10	2	1	2				3
المجموع	10	5	78	21	24	24	3	3	3	1	1	1	3
النسبة	9,25	4,62	72,2	19,44	22,2	22,2	2,7	2,7	2,7	0,9	0,9	0,9	2,7

العلوم التي اشتغل بها البربر

يوضح الجدول أن البربر قد تعاطوا لكل العلوم السائدة آنذاك بالأندلس والعالم الاسلامي سواء منها الدينية أو اللغوية أو العقلية أو التاريخ. لكن العلوم الدينية حظيت بالقسط الأوفر. حيث يمثل العلماء الذين اشتغلوا بها وتخصصوا فيها أكثر من 80 % (87 عالماً)، وتتكون أساسا من علوم القرآن وعلوم الحديث مع سيطرة واضحة للفقه.وتليها الآداب (الشعر والنثر) ب 44,44 % (48 عالما)، وبعدها العلوم اللغوية بـ 19,44 % (21 عالما)، ثم الهندسة والحساب والطب والفلك والزراعة والفلسفة والمنطق والتاريخ.

ويظهر من خلال توزيع هذه العلوم زمانيا أن الطبقات الثلاث الأولى لم تشتغل إلا بالعلوم الدينية خاصة علوم القرآن والفقه، والعلوم اللغوية والآداب. ولم تشمل اهتماماتهم باقي العلوم إلا خلال القرن 4 هـ / 10 م. وسنوجه اهتمامنا إلى كل تخصص وما حققه البربر فيه مع ذكر لبعض الرجال الذين نبغوا فيه.

1- العلوم الدينية

1.1- الفقه

يبرز الجدول أعلاه أن الفقه سيطر على أكبر عدد من العلماء (78 عالما) بنسبة 72,2 % ويرتبط هذا التوجه بالأساس بالمكاسب المادية التي يوفرها الفقه لصاحبه، حيث يفتح أمامه آفاق العمل القضائي والإداري. ولهذا نرى أهل العصر الوسيط يتهافتون على تعلمه ويبرز لنا هذا النص للتادلي ذلك كما يلي : «ودرس [أبو محمد عبد العزيز التونسي] الناس الفقه، ثم تركه لما رآهم نالوا به الخطط والعمالات. وقال : صرنا بتعليمنا لهم كبائع السلاح من اللصوص»[1] واعتبره الغزالي علم الدنيا وتحامل على رجاله[2]. ولم يكن أهل الأندلس والبربر غافلين عن هذه الحقيقة، لهذا كان المهتمون به يشكلون الأغلبية في كل الطبقات.

بعد دراستنا لتراجم من تعاطوا للفقه أمكننا بكثير من التجاوز تصنيفهم وفقا لمكانتهم العلمية في ثلاث فئات. ويجب أن نعترف أننا تساهلنا كثيرا في التصنيف لأن مرتكزنا فيه هي تلك العبارات القيمية الواردة عند كتاب التراجم، ونحن نعرف أنها ليست دقيقة تماماً. وبعضها صار مألوفاً لديهم يكررونه عند الحديث عن كل الشخصيات رغم اختلافها.

تتكون الفئة الأولى من الفقهاء الذين حظوا بمكانة عالية، ليس فقط في أوساط العلماء البربر، بل في البلاد الأندلسية، وقد ارتكزنا في دمج أي شخص ضمن هذه المجموعة على عدة معايير منها : تنويه التراجم بهم وإكثار الكلام عنهم وتبوئهم لمكانة الفتوى والتأليف الواسع ومعرفة بالمذاهب والجدال فيها والرئاسة في العلم. ومن أوائل المنتمين إلى هذه

(1) التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، منشورات كلية الاداب، الرباط، 1984، ص. 92
(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج. 1، ص. 17.

النخبة عبد الرحمان بن موسى الهواري الذي كان يهيمن على الفتوى و «إذا قدم قرطبة لم يفت يحيى ولا عيسى ولا سعيد بن حسان حتى يرحل عنها» توقيرا له واعترافا بتقدمه في العلم [3] وكان قد رحل إلى المشرق ودرس على مالك بن أنس ورجال آخرين في المدينة وولاه عبد الرحمان II قضاء استجة [4]. وحظي يحيى بن يحيى بمكانة عالية في الأندلس لكونه «أول من أدخل كتاب الموطإ مكملا مثقفا بالسماع»[5] وقد سافر إلى المشرق ودرس على مالك وتلامذته بالحجاز ومصر وهيمن على الفتوى بالأندلس بعد عيسى بن دينار[6] «و لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى، وسمع منه مشايخ الأندلس في وقته» [7].

وعلت مكانة آخرين بفضل التحاقهم بالشورى لعلمهم وذكائهم مثل : أحمد بن يحيى بن يحيى (ت 297 هـ / 908 م)[8] الذي «صير في جملة الفقهاء المشاورين في الأحكام ولما يكتهل في سنه لتبريزه في علمه، ولقب يومئذ بالثائر»[9]. واحتل ابن عمه يحيى بن اسحاق مكانة مماثلة، واشتهر بتأليفه لكتاب في اختلاف أقوال مالك حظي بعناية كبيرة من قبل الأندلسيين ولخص أكثر من مرة[10]، وسما قدر عبيد الله بن يحيى (ت 298 هـ) إذ كان «مقدما في المشاورة في الأحكام منفردا برياسة البلد غير مدافع»[11] وكان ابنه يحيى إلى جانبه في الفتوى والمشاورة والرياسة في العلم [12].

وخلال القرن 4 هـ / 10 م صار احتلال الصدارة يتطلب شروطا علمية عالية ترتكز على التعمق في العلم واتساع المعرفة، فهذا محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى

(3) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954، ج. 1، ص. 300.
عياض، ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط. 1968، ج. 3، ص. 343.

(4) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 8.

(5) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، رقم 558، ص. 149.

(6) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 179. الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 348.

(7) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 176.

(8) نفسه، ج. 1، ص. 24. عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 160.

(9) ابن حيان، المقتبس، بولس كتنر الكتبي، باريس، 1973، ج. 3، ص. 9.

(10) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 161، الخشني، المرجع السابق، ص. 379.

(11) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 293.

(12) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 161.

(ت 339 هـ/ 950 م) «كان حافظا للرأي معتنيا بالآثار جامعا للسنن، متصرفا في علم الإعراب ومعاني الشعر»[13]. وكان قد سافر إلى المشرق، وعمق معرفته في مصر والحجاز وإفريقية ثم عاد وتولى قضاء الجماعة فزادت مكانته[14].

واشتهر آخرون من خلال تبنيهم لمذاهب أخرى إضافة إلى معرفة بالمذهب المالكي وكذلك بدفاعهم عن آرائهم، ومنهم منذر بن سعيد الذي «كان عالما (...) مائلا إلى القول بالظاهر قويا على الانتصار له»[15]. وألف كتبا مهمة تعبر عن مذهبه وسعة علمه ومنها: «الإبانة عن حقائق أصول الديانة»[16] وسار على نهجه حسن بن سعد بن إدريس بن رزين الكتامي (ت 332 هـ / 943 م) و «كان يذهب إلى النظر وترك التقليد ويميل إلى قول محمد بن إدريس الشافعي، وكان يحضر الشورى، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين، ترك شهودها ولزم بيته، وسمع الناس منه كثيرا»[17]. وكان سهل بن ابراهيم بن سهل بن نوح بن خمار (ت 387 هـ / 996 م) «قاضيا زاهدا عاقلا ذكيا (...) بصيرا بالمذاهب»[18].

وحظي بعضهم بالتأليف الواسع في الفقه على المذهب المالكي كما حصل لمحمد بن عبد الله بن عيسى بن ابراهيم المري المعروف بابن أبي زمنين، إذ «كان ذا حفظ للمسائل، حسن التصنيف للفقه وله كتب كثيرة ألفها في الوثائق (...) وولع الناس بها وانتشرت في البلدان»[19].

والتحق بهؤلاء بعض ممن اشتهروا بعلو الرواية، كما كانت حالة يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي المشهور بـ «سمو درجته في العلم واعتلاء منزلته في الرواية» ورحل إليه الناس من جميع الكور، وكان مجلسه أكبر المجالس العلمية في قرطبة[20].

(13) النباهي المالقي، المرقبة العليا، دار الكاتب المصري، القاهرة. 1984، ص. 59.
(14) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 96 ـ 98.
(15) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 348.
(16) نفسه، ص. 349.
(17) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 129 ـ 130.
(18) نفسه، ج. 1 ، ص.226.
(19) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج. 2، ص. 458.
(20) ابن حيان، المرجع السابق، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 216.

اتضح من خلال تتبعنا لرجال هذه الفئة الأولى أنهم كانوا على مكانة عالية من العلم مع اختلاف مستواه ما بين رجال القرنين الثالث والرابع، فالأوائل مكتفون بمعرفة المذهب المالكي وخاصة الموطإ، أما الأواخر، فعلمهم أوسع واتصالهم به يتجاوز المذهب المالكي إلى غيره من المذاهب.

وكان رجال الفئة الثانية أقل مستوى من سابقيهم، وقد خصتهم كتب التراجم بأوصاف نذكر منها ما يلي : التفنن في المسائل وحفظها وتملك الرواية واتساعها والاشتهار بالعلم وتبوء رياسة البلد في الفقه، وهؤلاء كانوا ممن لهم قسط محترم من الفقه، وأهل بعضهم لتولي القضاء والتدريس، ومنهم أحمد بن عبد الله بن ذكوان الذي كان «من شيوخ أهل العلم، مذكور بالفضل ومن أهل بيت فيهم علم ورياسة والقضاء يتردد فيهم»[21]. ويضيف أبو الخيار الشنتريني الداودي أنه لم يستبحر في الحفظ وحذق في الحكومة بالدربة ولا يقدر على مناظرته أحد و «كان أكبر ما فيه عقله ورأيه»[22]. ومنها أحمد بن خلوف المسيلي الذي كان حافظا للمسائل[23] ومحمد بن حمدون الأموي المغيلي[24] وهشام بن محمد بن أبي رزين الشذوني الحافظ «للمسائل مفتي شذونة وما والاها، وكان يرحل إليه للسماع[25]» وحسين بن محمد بن سلمون المسيلي الذي امتاز بـ «حسن التفقه، وقد نوظر عليه في المسائل، وكان لا يحسن سواها»[26].

وتضم الفئة الثالثة العدد الكبير من الفقهاء، وكلهم فقهاء صغار، لهم معرفة متواضعة بالفقه، وتتحدث عنهم المصادر بنوع من الغموض، فهي تكتفي بذكر بعض شيوخهم دون تعليق على مكانتهم كما هو حال ابراهيم بن حارث بن عبد الملك بن مروان الأنطي المقري[27]، وخلف بن يوسف بن نصر المغيلي[28]. وعبد الله بن عبد الرحمان الزجالي[29]

(21) الحميدي، المرجع السابق، ص. 129.
(22) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 168.
(23) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 77.
(24) نفسه، ج. 1 ، ص 364.
(25) نفسه، ج.2 ، ص. 172.
(26) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج 1، ص 179.
(27) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص 29.
(28) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص 161.
(29) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 295.

أو تنعتهم بحفظ المسائل والفقه مثل : علي بن أبي حلى المكناسي[30] وأحمد بن بتري القرموني[31] وفئة أخرى لا تذكر المصادر أنها تلقت علما، ولكن تولت القضاء مثل : نافع بن محمد بن رحيق السماتي[32] وعمر بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان[33] ومحمد بن سعيد بن خالد البلوطي[34].

خلاصة القول إن الفقه كان أغلب على البربر في الأندلس، وأن فئة قليلة منهم استطاعت النبوغ والتفوق ومنافسة باقي الجماعات الاثنية خاصة العربية في الزعامة، أما الأغلبية فتكونت من فقهاء صغار وذوي تكوين ضعيف.

2.1- علوم القرآن

كما يظهر من الجدول، فعدد من اشتغلوا بعلوم القرآن قليل ولا يتجاوز عشرة رجال (9,25 %) ويلاحظ أن نصفهم ينتمي إلى الطبقة الخامسة، وقد نبحث عن الفروع التي تخصصوا فيها، فنجد أن أغلبهم لم يهتم حقيقة بهذه العلوم، إنما يكتفي بحفظه أو ترتيله أو تعليمه، ومن أشهر من تعاطوا لدراسة القرآن أبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري المشهور بحفظه «للفقه والتفسير والقراءات»[35] وألف كتابا في تفسير القرآن[36]. ومنذر بن سعيد الحافظ لكتاب الله والعالم بدقائقه والمكثر للاستشهاد به[37] وألف كتابي «أحكام القرآن» و «الناسخ والمنسوخ» في هذا العلم[38] ويحيى بن اسحاق بن يحيى الليثي (ت 303 هـ / 915 م) الذي «كان متصرفا في العربية واللغة والتفسير، نبيها»[39] وسهل بن ابراهيم بن سهل بن نوح وكان «عالما بمعاني القرآن»[40].

---

(30) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، مصر، 1949، ج. 5، ص. 98.
(31) ابن الأبار، التكملة، ج.1، مطبعة السعادة، مصر، 1955، ص. 11.
(32) نفسه، ج. 2، ص. 754.
(33) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج.5، ص. 447–448.
(34) الخشني، المرجع السابق، ص. 165.
(35) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 300.
(36) نفسه.
(37) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص. 295.
(38) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 229.
(39) عياض، المرجع السابق، ج 6، ص. 161.
(40) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 226.

واقتصر آخرون على حفظ القرآن وتجويده كما هو شأن عبد السلام بن سمح بن نابل[41] وعبد الله بن يوسف بن نامى الرهوني القرطبي[42]. واكتفت جماعة ثالثة بتعليمه مثل حسين بن فتح النكوري الاشبيلي المؤدب بالقرآن[43] وسرواس بن حمود الصنهاجي معلم القرآن[44].

كان اهتمام البربر بالقرآن متواضعا وضعيفا من حيث عدد المهتمين به وكذلك طبيعة الاهتمام، إذ إن أغلبهم كان فقط من المقرئين والمعلمين للقرآن.

3.1- علوم الحديث

يظهر أن الاشتغال بالحديث كان ضعيفا ولم نجد من رجاله سوى خمسة رجال (4,62 %)، وكلهم من رجال الطبقة الخامسة باستثناء واحد الذي يصنف ضمن رجال الطبقة الثالثة، ولا يمكن تبرير هذا الأمير بإعراض أو إهمال من قبل البربر، بل المسألة أعمق وأوسع، فأهل الأندلس صبوا اهتمامهم على الفقه ودرسوه من كتب الفروع دون العودة إلى أصوله الأولى (الكتاب والسنة) ولم تظهر بالبلاد مدرسة للحديث إلا خلال القرن 3 هـ / 9 م على يد محمد بن وضاح وبقي بن مخلد[45].

ومن المشتغلين بالحديث أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الألبيري الذي قال عنه ابن عفيف : «كان من كبار المحدثين» وأضاف ابن مفرج: «كان من أجل أهل وقته حفظا للرأي ومعرفة بالحديث واختلاف العلماء»[46] وسعيد بن عثمان بن أبي سعيد المعروف بابن القزاز «وكانت له عناية بالحديث»[47] وأبو محمد عبد الله بن ابراهيم الأصيلي القرطبي (ت 390 هـ / 999 م) وكان «عالما بالكلام والنظر منسوبا إلى معرفة الحديث» وكان يدرس كتاب البخاري رواية أبي زيد المروزي[48] وسهل بن ابراهيم الاستجي

(41) نفسه، ص. 333.
(42) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 262.
(43) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص . 134.
(44) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 231.
(45) مؤنس، حسين، شيوخ العصر بالأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة. 1965، ص. 43- 45.
(46) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 184.
(47) ابن بشكوال، الصلة، ج. 1، ص. 208.
(48) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج. 1، ص. 213.

المشهور بالعلم «بمعاني القرآن والحديث»[49] وأخيرا يحيى بن اسحاق بن يحيى الليثي (ت 303 هـ) وهو من ذوي العناية بالحديث[50].

لقد كانت للبربر مشاركة فعالة في العلوم الدينية ونبغ منهم رجال كبار خاصة في الفقه الذي حظي بنصيب الأسد. ويرتبط هذا التوزيع بالتقاليد العلمية في الأندلس والتي تحظي الفقه على حساب باقي العلوم الدينية الأخرى.

2- الآداب

تحتل الآداب المرتبة الثانية بعد العلوم الدينية، إذ بلغت نسبة المشاركة 44,44 % (48 عالما) ونسجل أن اهتمام البربر بالاداب ظل حاضرا منذ بداية مشاركتهم الثقافية، مع تزايد أعداد المهتمين بتقدم التاريخ.

1.2- النثر

يمثل الأدباء ضمن النخبة العلمية البربرية نسبة (22,22 %) وقد انطلقت المشاركة البربرية مع منتصف القرن 3 هـ / 9 م ثم بلغت الأوج في عهد الخلافة، ولا تسمح لنا مصادرنا بأن نضع تصنيفا دقيقا ومتينا لهؤلاء، ولكننا مع ذلك اعتمدنا على اشتغال الأدباء بمنصب الكتابة[51] وأوصاف المصادر لنقسمهم إلى فئتين.

يدخل ضمن الفئة الأولى أولئك الكتاب الذين تولوا منصب الكتابة، ومن أشهرهم وأوائلهم أبو عبد الله محمد بن سعيد الزجالي الذي كتب لعبد الرحمان الثاني، وكان يلقب بالاصمعي لعنايته بالأدب ولحظه الوافر من البلاغة[52] وابنه حامد الذي يشهد له ابن سعيد بأهلية تولي الكتابة لبلاغته وحسن معرفته[53]، واشتهر من هذا البيت أيضا عبد

(49) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص 226.
(50) الخشني، المرجع السابق، ص. 379.
(51) يمكن أن نعتمد على هذا المعيار في التصنيف خاصة إذا علمنا أن منصف الكاتب في العصر الوسيط يحظى بمكانة عالية ويفرض على صاحبه مستوى عاليا من البلاغة والبيان، لذلك يحق أن نعتبر الكتاب من صفوة الأدباء في عصرهم.
(52) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 172.
(53) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1، ص. 331.

الرحمان بن عبد الله الزجالي الذي قلده الناصر «النظر في تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات وينفذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك»[54] وكاتب الترسيل حجاج المغيلي كاتب الحكم الربضي[55]، وأشهرهم على الاطلاق جعفر بن عثمان المصحفي، فابن خاقان يقول عنه: «له أدب بارع»[56] ويضيف ابن الابار: «كان مقدما في صناعة الكتابة مفضلا على طبقته بالبلاغة»[57]. ويلحق بهؤلاء جماعة أخرى من الكتاب الصغار الذين سبق لنا الحديث عنهم في الفصل السابق.

وتحتوي الطبقة الثانية أولئك الذين أثنت عليهم كتب التراجم وعلى أدبهم بصيغ مبالغة واستحسان واضح، كما يقول عياض عن محمد بن عبد الله بن يحيى الليثي: «وكان يتصرف في علم الأدب تصرف إتقان»[58] أو كما نعت سعيد بن عثمان بن أبي سعيد ابن القزاز «من أهل الأدب البارع مقدما فيه»[59] ووسم آخرون بالافتنان في الأدب مثل محمد بن عبد الله بن أبي زمنين[60]، وسليمان بن وانسوس المكناسي[61] ويشار إلى آخرين بالخطابة والبلاغة مثل منذر بن سعيد[62]، وابنه سعيد[63] وثابت بن حزم العوفي السرقسطي[64].

لقد كثر عدد من اشتغل بالنثر من علماء البربر بالأندلس، واستطاعت نخبة منهم أن ترقى إلى مراكز الصدارة وتنافس غيرها من الأدباء العرب وغيرهم.

2.2- الشعر

لقد نبغ من البربر عدد متوسط من الشعراء (24 شاعرا) وظهر من خلال تتبع تطور أعدادهم التاريخي أن أوائلهم ظهروا ضمن الطبقة الثانية ثم تكاثروا بعد ذلك.

(54) ابن عذاري، البيان المغرب دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 220.
(55) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 212.
(56) ابن خاقان، مطمح الأنفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص. 157.
(57) ابن الابار، الحلة السيراء الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963، ج. 1، ص. 259.
(58) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 98.
(59) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج.1، ص. 206
(60) عياض، المرجع السابق، ج.7، ص. 184.
(61) ابن الابار ، الحلة السيراء، ج 1، ص. 160 ـ 161.
(62) ابن خاقان، المطمح، ص. 238.
(63) ابن الابار، المرجع السابق، ج. 1، ص. 208.
(64) الخشني، المرجع السابق، ص. 67.

من خلال قراءة للأوصاف التي وردت في تراجم الشعراء البربر، يتضح أن بعض الأسماء تجاوزت بشهرتها حدود الأندلس، وبلغت المشرق، وذاع صيتها في العراق، ومن هؤلاء عباس بن ناصح المصمودي الجزيري الذي عاش على عهد الحكم الربضي وابنه عبد الرحمان الثاني «وكان عالما شاعرا أثيرا عند الخلفاء المروانيين»[65] وقد أكثر في مدح الحكم الأول، وكان يسلك في «أشعاره مسالك العرب القديمة»[66]. ورحل مرتين إلى المشرق والتقى هناك الاصمعي والحسن بن هانيء الذي اعترف له بالفضل والجودة في الشعر، كما كان كثير الارتباط بأشعار أهل المشرق، بحيث لا يتوقف عن السؤال عن جيدها كل طارئ على الأندلس[67] واعتبره الرازي «فحل شعراء الأندلس». وكان يأخذ عنه شعراء قرطبة[68].

وذاع صيت شاعر آخر بربري أندلسي هو أحمد بن محمد بن العاص القسطلي وأثنى عليه كل كتاب التراجم دون استثناء، فهذا الصدفي يعتبره من فحول الشعراء والعلماء المغاربة[69]، وشبهه الثعالبي بالمتنبي[70] وقد كان شاعر المنصور بن أبي عامر وابنيه وابن عبد الجبار والمستعين والقاسم بن حمود وبني هود ومجاهد العامري[71] ويفتخر به أهل الأندلس، فهذا أحدهم يقول: «لو قلت أنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد». ويضيف «لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي»[72].

وينضم إلى هذه الفئة جعفر بن عثمان المصحفي صاحب الخاطر المسارع إلى نظم القريض[73] «وله شعر كثير مدون يدل على تمكنه من الإجادة وتصرفه في أفانين البيان»[74] وقد وردت نماذج من أشعاره في عدة مصادر[75].

(65) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 324.
(66) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 340 - 341.
(67) نفسه، الخشني، المرجع السابق، ص. 284.
(68) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 324.
(69) الصفدي، الوافي بالوفيات، دار النشر، فرانز شتايز بفسبادن، 1962، ج. 8، ص. 49 - 53.
(70) الثعالبي، يتيمة الدهر، مطبعة السعادة، القاهرة، 1956، ج. 2، ص. 104.
(71) انظر مقدمة ديوانه لمحمود علي مكة، المكتب الاسلامي، 1389، ص. 21 - 79.
(72) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 42 - 43. الحميدي، المرجع السابق، ص. 113 - 114.
(73) ابن خاقان المرجع السابق، ص. 157.
(74) ابن الابار، الحلة، ج. 1، ص. 259.
(75) نفسه، النفح، ج. 4، ص. 90. جذوة المقتبس، ص. 188. ابن عذاري، ج. 1، ص. 266 - 271.

وإلى جانب هؤلاء الفحول يقف عدد من الشعراء ينظمون شعرا حسنا دون أن يرقى إلى مستوى المجموعة الأولى. ومنهم عبد الوهاب بن عباس بن ناصح وابنه محمد وحفيده عبد الوهاب وكلهم كانوا مطبوعين في قول الشعر ويجيدونه[76] ومحمد بن عبد الله بن أبي زمنين المتفنن في قرض الشعر[77] والمنذر بن سعيد صاحب الأشعار المطبوعة[78].

واهتمت جماعة أخرى بالشعر، ولكن بنقده مثل أحمد بن دراج القسطلي السالف الذكر، وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي الذي كان عالما بمعاني الشعر ومقرضا له[79] وملحان بن عبد الله بن ملحان القرطبي الراوية للأشعار والعالم بالعروض[80] ووليد بن عيسى بن حارث بن سالم المعروف بالطنجي «وكان بصيرا بالشعر، حسن الاستنباط لمعانيه، جيد النظر فيه، شرح شعر أبي تمام الطائي، وشعر مسلم بن الوليد، وأخذ الناس عنه هذه المشروحات، وكان مؤدبا بعيد الاسم في التأديب يتنافس فيه الملوك»[81].

كان للبربر اهتمام متنوع بالشعر، فمنهم من نظمه ونبغ فيه وذاع صيته في المشرق ونظمه آخرون وأحسنوا، بينما اهتم به آخرون فشرحوه ونقدوه.

3- علوم اللغة

تأتي علوم اللغة في مرتبة ثالثة، وبلغ عدد اللغويين 21 رجلا (19,44 %) وظهر اهتمام البربر بالعلوم اللسانية منذ وقت مبكر، وظلت أهميتها تتزايد لتبلغ الأوج في القرن 4 هـ / 10 م. إلا أن مقارنة عدد اللغويين البربر بمثيله عند العرب بالخصوص، تظهر لنا قلة وتفاهة عدد من اشتغلوا بهذه العلوم.

---

(76) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 341، ج. 2، ص. 45.
الخشني، المرجع السابق، ص. 266.
(77) عياض المرجع السابق، ج. 7، ض. 184.
(78) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 295.
(79) النباهي، المرجع السابق، ص. 59.
(80) ابن الابار، التكملة، ج. 2، ص. 734.
(81) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 159.

عند الوقوف عند النعوت التي تصدرها كتب التراجم في حق اللغويين البربر نجدها تتحدد في خمسة أوصاف : نحوي ولغوي وعارف بالاعراب وحافظ للعربية وعارف لها وتدريس أحد كتب اللغة المشهورة. وقد نستخرج من الأوصاف السابقة أهم فروع اللغة التي اهتم بها البربر وهي : النحو وفقه اللغة وعلم المعاني، لكننا نشك في أن يكون المترجمون قد حرصوا على التدقيق في تخصص كل عالم لغة. وبذلك نرجح أن تكون كل هذه النعوت إحالة على شيء واحد وهو دراسة علوم اللغة العربية وخاصة منها فرع النحو.

أوضحت لنا المصادر أن بعض رجال البربر كان لهم السبق في ميدان اللغة. ومنهم: أبو موسى عبد الرحمان بن موسى الهواري الاستجي الذي رحل إلى المشرق فالتقى بالاصمعي وأبي زيد وغيرهم و «داخل الاعراب في محالها»[82] واشتهر بفصاحته وإتقانه للاعراب[83]. وذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين[84]. وعباس بن ناصح المصمودي الثقفي الذي رحل به أبوه إلى مصر والحجاز في طلب اللغة ولقي الاصمعي وعلماء بصريين آخرين في العراق[85]. وكان الحكم الربضي معجبا بفصاحته كثير التقريب له[86] واعتبره الزبيدي من أهل الفصاحة في اللسان والعلم باللغة والعربية[87]. وكان ثابت بن حزم العوفي السرقسطي (ت 313 هـ / 924 م). «يبصر العربية بصراً جيدا» وهو أول من أدخل كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي إلى الأندلس. وسافر إلى المشرق والتقى بعلماء كثيرين في مصر والحجاز والعراق[88]. واشتهر أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي بـ «تفننه في ضروب علم اللسان إذا فاوهته في ذلك وجدته يقظا عالما حافظا صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه متقد الذهن شديد الحفظ للغة بصيرا بالعربية حسن الايراد لما يحمله»[89].

---

(82) نفسه، ج. 1، ص. 300.
عياش، المرجع السابق، ج. 3، ص. 343.
(83) نفسه.
(84) الزبيدي، طبقات، ص. 253 - 254.
(85) الخشني، المرجع السابق، ص. 284.
(86) نفسه.
(87) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 262.
(88) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 172.
(89) الخشني، المرجع السابق، ص. 67 - 68.

نعتقد أن النماذج التي أوردناها أعلاه قد أعطتنا صورة عن مدى اهتمام بربر الأندلس باللغة العربية وعلومها، ورغم أننا لم نتبين أكثر الفروع جذبا لهم، فإننا نرجح أن يكون النحو. والصورة المرسومة مقنعة إلى حد ما في جانبها القيمي وليس الكمي. لقد سبق أن رأينا أن هذا الاهتمام يرتبط بمسألة التعريب ورغبة البربر في استكمال تعريبهم بإتقان لغة العرب، إضافة إلى ارتباط علوم اللغة الوثيق بالعلوم الدينية إذ هي وسيلة لفهمها.

4- العلوم العقلية

يوضح الجدول أن مساهمة البربر في هذه العلوم ضعيفة جدا، فلا يتجاوز عدد الأشخاص الذين تعاطوا لدراستها 7 رجال (6,48 %) ويتوزعون بين الحساب والهندسة والفلك والزراعة. وكلهم من رجال القرن 4 هـ / 10 م باستثناء واحد يدخل في الطبقة الثانية.

من المشتغلين بعلم الحساب عبد الله بن محمد المغيلي القرطبي[90] (ت 334 هـ / 945 م) وكان منعوتا بمعرفة الحساب[91] وغالب بن محمد بن عبد الرحمان بن نهيك الهواري الاشوني الذي «كانت فنون الحساب أغلب عليه»[92]. ثم سهل بن ابراهيم بن سهل بن نوح بن خمار الاستجي الحافظ للحساب[93].

واهتم بالهندسة عبد الرحمان بن زيد المعروف بالاقليدي من أسرة آل ذكوان، وكان متقدما فيها[94]. واسماعيل بن تاجيت وأخوه اللذان اهتما بصناعة القسم التي أخذاها عن محمد بن الفرج صاحب الذراع، وبرعا فيها[95].

(90) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 20.
(91) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 267.
(92) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 2، ص. 448.
(93) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 226.
(94) صاعد، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، القاهرة، ص. 106.
(95) ابن الابار، التكملة، ج. 1، ص. 178، ربما يقصد بصناعة القسم هنا تمسيح الأرض وقياسها ويؤكد ترجيحنا هذا ورود كلمة ذراع في لقب الأستاذ، وهو وحدة لقياس المساحة

واشتهر في الفلك عباس بن ناصح المصمودي الجزيري الذي يقول عنه ابن سعيد أن «له مشاركة في التعاليم»[96]. ويضيف أن عبد الرحمان الثاني بعثه في التماس الكتب القديمة، فأتاه بالسندهند وغيرها منها. وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها، ونظر هو فيها[97]. واشتهر بالاعتماد في قضائه على علم النجوم حيث ـ كما يقول صاحب مفاخر البربر ـ «لا يقضي حتى يقيم الطالع فما أراه علم النجوم قضى به»[98]. وتظهر كل هذه الشهادات أسبقيته في العلم وبراعته فيه وتدريسه لأهل بلده، ونبغ في المنطق عبد الرحمان بن اسماعيل بن زيد الاقليدي واختصر الكتب الثمانية في المنطق[99] وإذا كنا لا نملك معلومات واسعة عنه، فإن تلخيصه لهذه الكتب ربما يثبت عمق معرفته، خاصة وقد طلبه بالمشرق وغاب هناك طويلا[100].

وفي ميدان الزراعة ظهر اسم واحد هو عبد الله بن محمد المغيلي العالم بالزراعة[101].

5- علوم أخرى

حملت مصادرنا أسماء بعض الرجال ممن لهم اهتمامات أخرى مثل التاريخ (الأخبار) والكلام والفلسفة.

ومن مشاهير الأخباريين البربر في الأندلس محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المتفنن في الأخبار[102] وأحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحباب النحوي وكان عالما بالأخبار وحافظا وضابطا لها[103]، وعبد الله بن هرثمة بن ذكوان القرطبي، وكان «حافظا للمشاهد والأيام»[104].

(96) ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 324.
(97) نفسه، ص. 45.
(98) مجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934، ص. 62.
(99) صاعد، المرجع السابق، ص. 106.
(100) نفسه.
(101) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 267.
(102) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 184.
(103) ابن بشكوال، المرجع السابق، ج. 1، ص. 20.
(104) عياض، المرجع السابق، ج. 7، ص. 266.

وفي الكلام اشتهر منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة وابنيه حكم وعبد الملك. وكان حكم كما ينقل ابن حزم «رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم (...) وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهما بهذا المذهب أيضا»[105].

خلاصة الكلام، لقد شارك البربر في كل الفروع العلمية المعروفة في الأندلس وهيمن الفقه والآداب واللغة على اهتماماتهم، بينما ضعفت مشاركتهم في العلوم العقلية. ولا نعتقد أن هذه الظاهرة تقتصر فقط على البربر، بل هي سمة أندلسية عامة. ومكنتنا دراستنا لمشاركة البربر في هذه العلوم من التعرف على شخصيات نبغت في تخصصاتها، وحصلت على مراتب عالية في الأندلس كلها، بل إن بعضهم علت مكانته ووصلت سمعته إلى المشرق في الفقه والشعر واللغة... وهذه القيمة الواضحة لإنجازات البربر، ربما غطت وعوضت النقص الكمي المشاهد والملاحظ عليها. كما أن بعضهم كان رائدا في علمه ومثبتا لهذا العلم بالأندلس خاصة في ميدان الفقه حيث يظهر يحيى بن يحيى الليثي كمثال.

(105) ابن حزم، طوق الحمامة، المكتبة التجارية الكبري، مصر، ص. 44 ـ 45.

الفصل الثالث:

البربر والتجديد المذهبي في الأندلس

ينصب اهتمامنا في هذا الفصل على مسألة إدخال ونشر مذاهب جديدة في الأندلس لكن من وجهة مشاركة شخصيات بربرية في هذا العمل، وقيامها بالدور الفعال في ذلك ويقدم كل من يحيى بن يحيى الليثي المصمودي ومنذر بن سعيد البلوطي أحسن نموذجين، فكلاهما كان وراء نشر مذهب جديد بالبلاد. فالأول بسلطته العلمية القوية ومساعدة رجال السلطة يساهم بالقسط الأوفر في نشر المذهب المالكي ويحوله إلى مذهب رسمي لأهل الغرب الإسلامي عامة. أما الثاني فقد وضع اللبنات الأولى للمذهب الظاهري الذي سوف تكون الأندلس خلال القرن 5 هـ / 11م مع ابن حزم أقوى مراكزه في العالم الإسلامي.

نعترف منذ الانطلاقة أن ما توفره لنا مصادرنا في هذا الباب أقل مما يطمح أي باحث إلى الحصول عليه، مع إقرارنا بأن هاتين الشخصيتين نالتا حظوة كبيرة لدى كتاب التراجم والمؤرخين لتاريخ الأندلس فكل المصادر تقريبا خصصت لهما حديثا قليلا أو كثيرا.

حتى نتوصل إلى إظهار دورهما، وجهنا الاهتمام إلى الوقوف عند أطوار حياتهما وتكوينهما العلمي وعلاقتهما بالسلطة الزمنية، ثم جهودهما من أجل نشر المذهب الذي يتبنيانه ويدافعان عنه.

1- يحيى بن يحيى الليثي والمذهب المالكي في الأندلس

1.1- حياته

ينتمي يحيى الليثي إلى أسرة مصمودية بربرية استقرت في قرطبة منذ الفتح الإسلامي للأندلس[1]. ولد بقرطبة على ما يبدو، مادامت المصادر لا تذكر أي شيء عن مكان ولادته

(1) سنعرف بالأسرة بشكل مفصل في الفصل الأخير من القسم، لذلك اقتصرنا هنا على ذكرها فقط.

وتاريخها. لكن استقرار أسرته بقرطبة يدفعنا إلى افتراض ولادته بها دون تردد لولا أن اعتراضا يواجهنا. ويتعلق الأمر بتولي والده يحيى لولاية الجزيرة الخضراء لعبد الرحمان الداخل. ونجهل بداية هذه الولاية، رغم أنها انتهت بوفاته سنة 179 هـ / 795 م [2] وبذلك نجد أنفسنا عاجزين عن تحديد المدينة التي ولد بها مع أننا نرجح مدينة قرطبة.

أما تاريخ ولادته، فيمكننا أن نستنبطه من عمره عند وفاته، فالخشني يذكر أنه توفي عن سن 82 سنة عام 234 هـ / 848 م [3] ويورد ابن الفرضي أنه توفي سنة 233 هـ أو 234 هـ [4]، ونجد عند ابن سعيد والحميدي سنة 234 هـ [5] ويورد عياض رواية ابن الفرضي [6] وكذلك يفعل المقري [7] ، ويظهر أن أغلب الروايات تؤكد على سنة 234 وأن عمره 82 سنة، وبذلك يكون تاريخ ولادته إما سنة 151 هـ أو 152 هـ / 769 م أو 770م.

لقد عاش يحيى بن يحيى الليثي ما بين سنتي 151 ـ 152 هـ و 234 هـ /848م.

2.1- حياته العلمية

بدأ يحيى تعليمه بمدينة قرطبة في حلقة زياد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون وكان مقربا منه، حيث نصحه بالتفرغ للعلم واجتهد في تعليمه، ثم نصحه بالرحيل إلى المشرق لطلب العلم، بل وأقرضه المال الضروري للرحلة كما درس أيضا على يحيى بن مضر [8].

رحل يحيى بن يحيى الليثي سنة 178 أو 179 هـ / 795م، وهناك درس على مالك لمدة سنة أخذ عنه كتاب الموطإ إلا أقله خلالها، وحضر جنازته هناك [9]. وقد عاد ثانية إلى

---

(2) عياض، ترتيب المدارك، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج. 3، ص. 380.

(3) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 365.

(4) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج. 2، ص. 177 ـ 8.

(5) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1، ص. 163.
الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 384.

(6) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 393.

(7) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج. 2، ص. 217.

(8) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 380. ابن الفرضي، المرجع السابق، ص. 179. الخشني، المرجع السابق، ص. 348.

(9) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 380.

زيارة المشرق ليلتقي بتلاميذ مالك بمصر والحجاز، وأخذ عن سفيان بن عيينة بمكة والليث بن سعد وعبدالله بن وهب وعبد الرحمان بن القاسم وأنس بن عياض أبو ضمرة بمصر [10] ويضيف عياض نافع بن أبي نعيم القارئ وعبد الله بن نافع وحسين بن ضميرة والقاسم بن عبد الله العمري [11].

بعد تعلمه بالأندلس ورحلتيه إلى المشرق، استقر يحيى بن يحيى بقرطبة، وبدأ يشق طريق المجد والشهرة في عالم العلم بالأندلس.

3.1- علاقته بمالك

قبل رحيله إلى المشرق، رسم يحيى بن يحيى الليثي صورة مشرقة وبراقة لمالك بن أنس، فسار إليه مشتاقا إلى رؤيته والأخذ عنه، فلما حضر حلقته العلمية زاد إعجابه به وتقرب إليه، ويظهر أن علاقته به قد توطدت، حيث إن الشيخ كان يعرفه معرفة شخصية، ودون شك فذكاؤه ورغبته الجامحة في العلم كانت وراء ذلك، وما يثبت لنا ذلك هو قصة الفيل التي أظهر فيها يحيى تمسكه وتعلقه بمالك وارتفاع قدره في عين الشيخ الذي لقبه على إثر ذلك بعاقل الأندلس [12].

أخذ يحيى كثيرا من الأمور عن مالك، فقلده في هيأته إذ كان «يشبه سمته سمت مالك » [13] كما «أخذ في نفسه وهيئته ومقعده هيئة مالك» [14] وعمل على التجمل في ملبسه عند الرواية أو في الأعياد والجمع ولقاء الأمراء، إذ كان «يلبس الوشي الرفيع، يريد القطني ثمنه المال العظيم في الأعياد، والدخول على الأمراء [15] تماما كما يفعل مالك ويشبه مجلسه في وقاره وهيبته مجلس مالك [16].

---

(10) نفسه، الخشني، المرجع السابق، ص. 348، ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 177.
(11) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 380.
(12) نفسه، ص. 383. ابن سعيد، المرجع السابق، ج. 1، ص. 163.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ج. 6، ص. 144.
(13) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 383.
(14) ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 144.
(15) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 391.
(16) الخشني، المرجع السابق، ص. 359.

خلال ملازمته لمالك، أخذ يحيي عنه كتاب الموطإ غير أبواب من كتاب الاعتكاف يشك في سماعها منه، فيرويها عن زياد بن عبد الرحمان [17]. وتجمع كل الأقوال على الثناء على رواية يحيى بن يحيى للموطإ، فصاحب «ذكر بلاد الأندلس وفضلها» يقول: كان «أول من أدخل كتاب الموطإ للأندلس مكتملا مثقفا بالسماع يحيى بن يحيى الليثي» [18]، ويضيف ابن خلكان «أن أشهر روايات الموطإ وأحسنها رواية يحيى» [19] ويعتبره المقري «أشهر رواة الموطإ وأحسنهم رواية» ويضيف أن «روايته للموطإ مشهورة حتى أن أهل المشرق الآن [عصر المقري] يسندون الموطإ إلى روايته كثيرا مع تعدد رواة الموطإ» [20].

إلا أن هذا الثناء لم يكن ليغطي بعض الانتقادات الموجهة إلى رواية يحيى فالخشني ينقل أنه أخطأ في الموطإ في 36 موضعا [21]، ويضيف عياض أن روايته تضمنت بعض الأوهام، فكلم فيها و لم يغيرها [22]، فهل هي أخطاء ارتكبها في روايته؟ أم هي من ضمن الأشياء التي خالف فيها التلميذ أستاذه؟

رغم حب يحيى لمالك وتقديره له، فلم يمنعه ذلك من الاختلاف معه في عدة أشياء، مثل: رفض القنوت في صلاة الصبح أخذا برأي الليث، والقضاء بالشاهد مع اليمين وبعث الحكمين، كما يقبل كراء الأرض بما تنبته (المقاسمة) [23].

لقد اكتسب يحيى من خلال ملازمته لمالك وتقليده في تفاصيل حياته، وروايته العالية عنه مكانة عالية جعلت منه قبلة لأهل العلم في الأندلس، وأكسبته احترام كل أهل البلد عامة وخاصة.

(17) نفسه، ص.348. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 179.
(18) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558.
(19) ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 2، ص. 144.
(20) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 217–218.
(21) الخشني، المرجع السابق. ص. 348 .
(22) عياض، المرجع السابق، ج.3، ص. 380.
(23) نفسه، ص. 383، الخشني، المرجع السابق، ص. 348.

4.1- علاقته بالأمويين

عـاد يحيى مـن رحلتـه العلمية الثانية، عـلى ما يظهر في بـداية الثـمانينيات مـن القـرن 2 هـ / 7م، وبدأ يبحث له عن مكان في الأوساط العلمية، لكن تطور أحداث قرطبة خاصة توتر العلاقة بين الحكم الربضي والفقهاء، أربك حساباته، وأخر تصدره للساحة العلمية، لقد كان ممن اتهموا بالمشاركة في أحداث الربض فخاف على نفسه، وفر إلى مدينة طليطلة، حيث أجاره سعيد بن عبدوس الفقيه، ومنع الحكم منه رغم إلحاحه في طلبه [24] ، ثم استجار بولي العهد عبد الرحمان بن الحكم، فحصل له على الأمان من والده وأعيدت إليه أملاكه [25] ، وعاد إلى قرطبة ليعيش حياة توافق مع السلطة.

بعد الربض، صار يحيى من بين من تدور عليهم الفتيا في عهد الحكم الأول وخاصة ابنه عبد الرحمان الثاني و«غلب يحيى بن يحيى على جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمان وألوى بإيثاره، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلزمه الولد لأبيه، فلا يستقضي قاضيا ولا يعقد عقدا ولايمضي في الديانة أمرا إلا عند رأيه وبعد مشورته» [26]. ولكن هذه المكانة لم تكن دون مقابل ذلك أن يحيى بن يحيى صار من عناصر تثبيت حكم الأسرة الأموية لنفوذه الكبير على الرعية خاصة وعامة.

وينقل لنا ابن حيان صورة عن تلك العلاقة بين الطرفين بأسلوبه الدقيق المعهود قائلا عن يحيى : «لا يأتلي في ذكر إحماد سيرته، ووصف معدلته، وتزيين آثاره لدى رعيته، وتحضيضهم على طاعته، واستنهاضهم لتكاليفه، يتأتى لذلك بلطف تناوله وسلامة جانبه وكأنه لايقصده، ويـرى السلطـان منفعته، فيـزداد في إعـظام قـدر الشيـخ يحـيى بصيرة ولا ينقض لرياسته مريرة» [27].وكان يحيى يسارع إلى الاستجابة لأوامر السلطان حتى تقلده الرعية خاصة عند

(24) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 392 و123. الخشني، المرجع السابق، ص. 360، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 73.

(25) الخشني، المرجع السابق، ص. 361.

(26) ابن حيان، المقتبس، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971، ج. 2، ص. 180.

(27) نفسه.

الدعوة إلى الغزوات التي كان يشارك فيها بنفسه، ولما ثقل جعل ابنه عبيد الله محله [28]، كما كان يتكفل بحل بعض النزاعات القبلية، حيث سار في صلح بين قبائل شرق الأندلس [29].

لم يكن يحيى يرغب من السلطان في أكثر من النفوذ والمكانة، وترفع عن كل مطلب مادي أو ولاية دينية أو سياسية، فهو يرفض هبات السلطان ويعتذر عن قبولها [30] ، كما رفض تولي القضاء رغم إلحاح عبد الرحمان الثاني، واكتفى بدور الفتيا [31] وهذا الموقف لم ينقصه شيئا، بل زاد مكانته علوا وحوله إلى حاكم في مخالفات القضاة [32] .

لقد كانت علاقات يحيى بالسلطة بعد حادثة الربض في أعلى مستوى إذ تبادل الطرفان المصالح، السلطان ولاء الرعية بتدخل يحيى، ويحي النفوذ العلمي والمعنوي في البلاد، وهذا دون شك سيساعده كثيرا في نشر مذهبه.

5.1- جهوده لنشر المذهب المالكي

تحتفظ المصادر بشهادات تثبت أن يحيى لعب دورا كبيرا في انتشار مذهب مالك بالأندلس. فالذهبي يقول:« به انتشر مذهب مالك بناحيته» [33] . أما ابن حزم فيقول : «مذهبان انتشرا في مبدإ أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة (...) ومذهب مالك بن أنس عندنا في بلاد الأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لايلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ممن كان على مذهبه» [34]. وواضح من النص أن يحيى استعمل القضاء والوظائف المرتبطة به من أجل نشر مذهبه، فلا يمكن لغير المُتَفَقِّهِ في المذهب المالكي أن يلي خطة قضائية، وهذا سيدفع الناس إلى الاجتهاد والعمل على تعلم هذا المذهب والتفقه فيه، وبذلك يزداد

(28) نفسه، ص. 183.

(29) الخشني، المرجع السابق، ص. 365.

(30) الخشني، قضاة قرطبة، مكتبة المثنى، بغداد، 1372، ص. 62.

(31) نفسه، ص. 15.

(32) نفسه.

(33) الذهبي، العبر في خبر من غبر دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1961، ج. 1، ص. 419–420.

(34) ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 144.

انتشارا في أقطار البلاد، وقد سبق أن رأينا أن الفقه كان أكثر العلوم استقطابا لأهل الأندلس ومعهم كل رجال العصر الوسيط.

واستغل يحيى أيضا علو روايته وصلابتها للموطإ ليجعل الناس يعجبون به ويقبلون عليه ويتبعوه [35]، و«كان إمام أهل بلده، المقتدى به، المنظور إليه، المعول عليه» [36].

اشتغل يحيى بالتدريس، حيث كان مجلسه موقرا ومهيبا و«سمع منه مشايخ الأندلس في وقته» [37] و«تفقه به جماعة لايحصون، وروى عنه غير واحد» [38].

وساعده في تحركاته فضله وعبادته وورعه، ويذكر ابن خلكان أنه كان مجاب الدعوة، وكان الناس يستسقون بقبره بعد موته [39]، وهذا يبرر المكانة التي كانت له في الأوساط الشعبية خاصة في قرطبة.

بعد موته، سهر أبناؤه وأحفاده على نشر المذهب، وتناقلوا الموطأ تواترا وكان آخر من يرويه منهم يحيى بن عبدالله بن يحيى بن يحيى الليثي في القرن 4هـ /10م (ت 367هـ/977م).

لقد تمكن يحيى بن يحيى الليثي بفضل علاقته الوثيقة بمالك وقوة روايته ومتانتها، وعلاقته بالسلطة ونفوذه الكبير عند عبد الرحمان الثاني، تمكن من نشر وتوسيع أفق المذهب المالكي بالأندلس. واستعمل في ذلك حصر ولاية القضاء على الفقهاء المالكيين، مما زاد من العناية به كما درسه معتمدا على خصاله الحميدة لإيصال رسالته إلى الناس. وبعد موته تكفل أبناؤه وأحفاده بالسهر على إتمام رسالته.

2- منذر بن سعيد والمذهب الظاهري

يعتبر منذر بن سعيد البلوطي الممثل الأول للمذهب الظاهري بالأندلس [40] وقد وضع الأسس الأولى لهذا المذهب في البلاد ودافع وناضل من أجل استمراره.

(35) عياض، المرجع السابق، ج.6، ص. 144.
(36) نفسه، ص. 382.
(37) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج.2، ص. 177.
(38) الحميدي، المرجع السابق، ص. 384.
(39) ابن خلكان، المرجع السابق، ج.6، ص.145.
(40) ليڤي بروڤنسال، الحضارة العربية في اسبانيا، دار المعارف، 1985، ص. 162–163.

1.2- أصله

تختلف المصادر حول القبيلة البربرية التي ينتمي إليها منذر، فابن الفرضي ينسبه إلى كزنة [41]، ويجعله النباهي من عناصر نفزة [42] أما ابن حزم فينسبه إلى بني هذيل من سوماتة المديونية [43] ونفس المذهب يذهبه ابن خلدون [44].

فهذه الآراء تنقسم إلى قسمين : قسم أول يجعله كزنيا نفزيا وقسم ثاني يجعله من سوماتة المديونية وهو رأي ابن حزم وابن خلدون، ونظرا لمكانة كلا الرجلين في ميدان الأنساب، فإننا نرجح قولهما في منذر.

يظهر أن جده الأول قد استقر في فحص البلوط منذ عهد الفتح، وحافظت الجماعة على تماسكها القبلي، ويظهر أن منذر بن سعيد هو الذي هاجر إلى قرطبة في طلب العلم مع أخيه فضل الله، فأسسا بيتا علميا بهذه المدينة.

ولد منذر بن سعيد سنة 273 هـ /887 م عند تولي منذر بن محمد الأموي الإمارة [45]، لكن المقري يورد تاريخ 265 هـ / 878 [46]، إلا أن هذا التاريخ يبدو غير دقيق، ونرجح التاريخ الأول لاعتبارات أولها أن القرينة التي تذكرها المصادر لتحديد تاريخ ولادته (تولي منذر) مما يأخذ قسطا مهما من اهتمام الناس، لذلك فمن السهل تذكر حدث وقع متزامنا أو قريبا منه، وثانيها أن من قالوا به أقرب عهدا من فترة عيش منذر على خلاف الثاني، وثالثها بناء على تاريخ وفاته وعمره عند ذلك، فكل المصادر تتفق على أن منذرا توفي سنة 355 هـ / 965 م وعمره 82 سنة، وبعملية حسابية بسيطة سيتضح أن تاريخ ولادته سيكون 273 هـ / 887م.

(41) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 6، ص. 144.
(42) النباهي، المرجع السابق، ص. 66.
(43) ابن حزم، الجمهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 500.
(44) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 138.
(45) ابن خافان، مطمح الأنفس، ص. 238. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 144. ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت 1983، ج. 2، ص. 250.
(46) المقري، المرجع السابق، ج. 1، ص. 348.

2.2- تكوينه العلمي

بدأ منذر حياته العلمية بالأندلس وخاصة بمدينة قرطبة التي هاجر إليها من فحص البلوط لطلب العلم، فتلقى كتاب الموطإ من عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي قبل سنة 298 هـ / 910 م (47)، كما أخذ عن غيره من الأندلسيين، وهذا مكنه من التفقه في المذهب المالكي والقدرة على القضاء وفقا لأحكامه (48).

رحل مع أخيه فضل الله سنة 308 هـ /920 م إلى المشرق، فسمع بمكة من محمد النيسابوري كتاب «الإشراف في اختلاف العلماء» ومن أبي العباس بن ولاد كتاب «العين» للخليل بن أحمد، ومن أبي جعفر النحاس بمصر (49) ، وقد ركز أثناء رحلته على تعميق تكوينه في اللغة والفقه (50)، وقد تمكن خلال سنتين قضاهما هناك من الحصول على علم واسع «في ضروب من العلم» و«كان فقيها، وأديبا بليغا وخطيبا على المنابر وفي المحافل مصقعا» (51).

3.2- علاقته بالسلطة

يظهر أن منذر بعد عودته من المشرق، قد صار في قرطبة من بين زمرة العلماء التي تدخل على السلطان في الحفلات والمناسبات، وهذا مكنه من حضور استقبال الناصر لرسل الروم في حفل كبير، عجز فيه أبو علي القالي عن إلقاء خطبة وكذلك محمد بن عبد البر الكسنياني، فقام منذر من تلقاء نفسه وارتجل خطبة بديعة نالت إعجاب كل الحضور بمن فيهم الخليفة الناصر (52) ، وكانت تلك الخطوة فاتحة عهد جديد في علاقته بالسلطان والوظائف المخزنية.

ولاه الناصر سنة 330 هـ / 940 م قضاء جميع الثغور الشرقية، وصار قاضي قضاتها يشرف على قضاة وعمال هذه المنطقة وينظر في المختلفين من بلاد الإفرنج وإليها (53).

(47) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 142. النباهي، المرجع السابق، ص. 47.
(48) نفسه.
(49) نفسه.
(50) الحميري، الروض المعطار، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص. 95.
(51) الحميدي، المرجع السابق، ص. 348.
(52) نفسه، الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، 1973.
(53) ابن حيان، المقتبس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص. 488.

وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزهراء [54] ثم صار قاضيا للجماعة بعد موت أبي عبدالله محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي سنة 339 هـ / 949م واستقر بالمنصب حتى وفاته في عهد الحكم المستنصر سنة 355 هـ / 966 م [55].

وكان منذر كثير الجرأة على الناصر كثير الوعظ له، حيث نهاه غير ما مرة عن حياة البذخ والمبالغة في فخامة البنيان حتى أن الناصر أقسم ألا يصلي خلفه بجامع الزهراء دون عزله [56]، ولكن موقف السلطان هذا لم يؤثر على منذر بن سعيد لأن الخليفة يرى في وجوده إلى جانبه ورقة رابحة، تثبت الرعية وتخضعها لأوامره دون عناء، لأنها ترى في استخدامه لهؤلاء دليلا على عدله.

4.2- علاقته بالمذهب الظاهري

كل الذين تناولوا الحديث عنه يذكرون أنه يتبنى هذا المذهب ويدافع عنه. فابن الفرضي يقول : «كان مذهبه في الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك التقليد (...) وكان عالما باختلاف العلماء، وكان يميل إلى رأي داود بن علي بن خلاف العباسي ويحتج له» [57]. ويؤكد الزبيدي ذلك بقوله إنه «يتفقه بفقه أبي سليمان داود القياسي الإجتهادي ويؤثر مذهبه ويحتج لمقالته، وكان جامعا لكتبه» [58]. أما الحميدي فيقول عنه: «كان مائلا إلى القول بالظاهر، قويا على الانتصار لذلك» [59].

إذا كانت هذه الشهادات تكاد تطمئننا بإجماع الناس حول مذهبه الظاهري فإن ما يستغرب له هو أن يصدر عن الممثل الأول للمذهب الظاهري في الأندلس، وحتى في العالم

(54) ابن خاقان، المرجع السابق، ص. 245.

(55) نفسه، الخشني، قضاة قرطبة، ص. 175.

(56) المقرب، المرجع السابق، ج : 1، ص. 312-313. أخبار مجموعة، ص. 71-72.

(57) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 144.

(58) المقرب، المرجع السابق، ج : 1، ص. 312-313. أخبار مجموعة، ص. 71-72.

(59) المقرب، المرجع السابق، ج : 1، ص. 312-313. أخبار مجموعة، ص. 71-72.

الإسلامي ابن حزم الظاهري ما يناقض ذلك، حيث يقول بعد ذكره لأبنائه : «كان أبوهم قاضي القضاة منذر بن سعيد متهما بمذهب الإعتزال أيضا» [60] . فكيف يمكننا توضيح ذلك؟ إن أول ملاحظة يمكن إبداؤها هي أن أهل الأندلس لا يتهمون منذرا بمذهب الاعتزال، ولكن بالمذهب الظاهري، فكيف، إذن استعمل ابن حزم الكلمة؟ هل هو تحريف من نساخ الكتاب، أم أن ابن حزم العارف بالمذهب الظاهري، بعد دراسته لمنذر وإنتاجه اكتشف أنه يميل إلى الاعتزال أكثر من ميله إلى المذهب الظاهري لذلك استعمل النعت في كتابه هذا، أو أن ابن حزم غضب من موقف منذر من المالكيين حيث كان يقضي وفق مذهبهم [61] فأراد أن يبعده عن مذهبه. وعلى كل فكيفما كان السبب، فما بلغنا عن منذر يثبت أنه مختلف عن المالكيين في تصوراتهم ونظرتهم إلى العلم[62] .

يعود اتصاله ـ على ما يبدو ـ بالمذهب إلى السنتين اللتين قضاهما في المشرق، حيث تعرف على كتاب «الإشراف» من النيسابوري [63] واكتسب القدرة على الجدل إذ يقول عنه الزبيدي : «كان ذا علم بالجدل، حاذقا فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب، ثابت الحجة» [64]. أما صاحب الروض فيقول : «كان نظارا لايقنع بالتقليد» [64] لكن منذرا لم يكن أول من اعتنق المذهب في الأندلس، إذ سبقه إلى ذلك عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت 272 هـ / 886 م) لكنه لم يكن يعمل على نشره أو الدفاع عنه [66] وقد اتضح نهج منذر المعارض لموقف المالكيين من العلم من خلال أبيات شعرية من نظمه جاء فيها [67]:

عذيري من قوم إذا ما سألتهم ... دليلا يقولوا هكذا قال مالك

فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ... وقد كان لا تخفى عليه المسالك

---

(60) ابن حزم، طوق الحمامة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص. 45.

(61) النباهي، المرجع السابق، ص. 74-75 .

(62) إن مؤرخا للمذهب المالكي مثل عياض لايذكره ضمن رجال المذهب رغم علمه به وحكمه وفقه.

(63) ليڤي بروڤنسال، المرجع السابق، ص. 162—163.

(64) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 295.

(65) الحميري، المرجع السابق، ص. 95.

(66) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص. 439.

(67) الحميري، المرجع السابق، ص. 95-96.

فإن قلت قال الله ضجوا وأعولوا علي وقالوا أنت خصم مماحك

وكذلك من خلال مؤلفاته التي اختار فيها عناوين ومواضيع جديدة، وهما : «الانباه على استنباط الأحكام من كتاب الله» و«الإبانة عن حقائق أصول الديانة» و«الناسخ والمنسوخ» (68) ويتضح من خلال عنواني الكتابين اهتمامه بتأصيل الدين بالعودة إلى أصله الأول كتاب الله الذي يحفظه ويعلم دقائقه ويستشهد به كثيرا (69).

تميز منذر بن سعيد بتوازنه وأسلوبه الجيد في التعامل مع الوسط الأندلسي، فقد سبق وأن ذكرنا أنه يحترم مذهب أهل الأندلس المالكي ويقضي به محتفظا بمذهبه لنفسه، كما كان «حسن الخلق، خفيف الوطأة، سهل الجانب وكثير الدعابة، منطلق البشر حتى أنه استراب بباطنه من لايعرفه» (70) وأسلوب الرفق هذا كفيل بأن يساعده على نشر مذهبه وتبليغ أفكاره، لكن منذرا ـ على ما يبدو ـ لم يعمل على نشره، بل اكتفى أساسا بالإحتماء والدفاع عن صحة معتقده، وقصر نشاطه على وسطه الأسروي والمقربين منه، فالنباهي يقول عنه : « يحتج بمقالته ويأخذ بها لنفسه» (71). ويضيف المقري: «فكان يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقالته ويأخذ به في نفسه وذويه» (72). ويبدو أن جهوده في أسرته قد أثمرت كثيرا، حيث سار على نهجه أبناؤه، ويقول فيهم ابن حزم: « وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه. وكان أخوه عبد الملك بن منذر متهما بهذا المذهب أيضا» (73) لكن لماذا لم يعمل منذر على نشر مذهبه خارج أسرته؟ قد يكون ذلك أولا مرتبطا برغبته في الحفاظ على مكانته ورتبته كقاض للجماعة، فهو يتوفر على ذكاء كبير، ويرفض أن يهمش، ويفقد حظوته بعد أن بذل كل ما في وسعه للوصول إلى مرتبته، ويرتبط بهذا العامل موقف أهل الأندلس من المذاهب المخالفة لمذهب مالك المتسم بالرفض، ونشم من الأبيات التي أوردناها أعلاه أن منذرا دخل معهم في جدال

(68) الحميدي، الجذوة، ص. 348. الزبيدي، المرجع السابق، ص. 295.

(69) نفسه.

(70) النباهي، المرجع السابق، ص. 72. ابن خاقان، المرجع السابق، ص. 254.

(71) نفسه، ص. 47.

(72) المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 228.

(73) ابن حزم، طوق الحمامة، ص. 45، وقد أعدم عبد الملك الذي كان متوليا للرد بقرطبة سنة 368 هـ /978م.

لم يثمر أي نتيجة. ورغم موقفه هذا، فلم يسلم من مطاردة المالكيين، ويصرح في الأبيات التالية [74]:

هذا المقال الذي ماعابه فند ... لكن قائله أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرحا ... لكنني منهم فاغتالني النكد

لولا الخلافة أبقى الله مهجتها ... ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

والأبيات تظهر أنه تعرض للمضايقة ونكد عليه عيشه، وربما، أن حماية السلطان هي التي حالت دون سقوطه.

لقد كان منذر واضع أسس المذهب الظاهري بالأندلس رغم أنه لم يعمل على نشره وتوسيع أفقه رغبة في المناصب والحظوة، وخوفا من دسائس المالكيين ومضايقاتهم، فاقتصر نشاطه الدعائي على أسرته، وترك ابنيه حكم وعبد الملك يحملان المشعل وقد طال عمر الأول حتى سنة 420 هـ / 1029 م [75].

كان ليحي بن يحيى الليثي ومنذر بن سعيد دور كبير في نشر المذهبين المالكي والظاهري بالأندلس، وإذا كان يحيى قد جاء في فترة فراغ أو على وجه التدقيق ضعف مذهبي في البلاد، فاستغل نفوذه العلمي وسلطته لينشر هذا المذهب، ويحوله إلى مذهب رسمي لأهل الأندلس، فإن منذراً قد جاء في فترة قد ترسخ فيها المذهب المالكي وتقوى، و لم يعد الأندلسيون يقبلون بغيره، فاضطر إلى نشره في أسرته للحفاظ على وجوده في الأندلس قبل أن يستلم مشعله ابن حزم في القرن الموالي.

(74) الزبيدي، المرجع السابق، ص. 296.

(73) ابن بشكوال، الصلة، مطبعة روخس، مدريد، 1882، ج. 1، ص. 149.

الفصل الرابع:
بعض عناصر التأثير البربري في حضارة الأندلس

إن تحديد مدى تأثير مجموعة معينة في حضارة ما يطرح صعوبات جمة، فبعد التقائها بما حملته الجماعات الأخرى يتم الاندماج والانصهار بين هذه المكونات فتفقد كل واحدة شخصيتها المستقلة لتصير جزءا من الشخصية الرئيسية الجديدة. وعادة ما ترافق عملية الانصهار تغيرات ضرورية قليلة أو كثيرة يجعل من الصعب العودة بكل عنصر إلى حضارته أو مجموعته الأصلية، ويزداد الأمرصعوبة وتعقيدا إذا كانت الجماعات الملتقية تتوفر على حضارات متشابهة ومتقاربة. وإذا كان الكل يؤمن بأن الحضارة فعل جماعي، فهم يتفقون حول صعوبة تحديد مساهمة كل عنصر من أفراد الجماعة. ولا يبتعد بناء الحضارة الأندلسية عن هذه الحقائق، ذلك أنها نتجت عن تداخل عناصر مختلفة ومتنوعة حملتها كل الجماعات التي شاركت في بنائها مع اختلاف أهميتها. والحقيقة أن دور العرب في هذه الحضارة أكثر وضوحا وبروزا من باقي الجماعات، وذلك لكونهم العنصر المهيمن والمؤثر في البلاد، لاختلاط الحضارة العربية بالإسلام مما سهل عملية تمثلها من قبل كل المسلمين، وكذلك لوفرة المصادر حول مساهمة العرب وندرتها بالنسبة لغيرهم.

إن تخصيص كلامنا في هذا الفصل للدور البربري في هذه الحضارة لا نطمح من خلاله إلى الوصول إلى تحقيق نتائج كبيرة لما نعرفه من الصعوبات التي تقف دون ذلك، ولكننا نريد به طرح إشكالية الحضور البربري في الحضارة الأندلسية. وسيمر طرحنا لهذا الموضوع عبر استعراض لبعض الشهادات التي قدمها المحدثون بشأن المساهمة البربرية، وإبراز بعض عناصرها من خلال الإشارات الواردة في المصادر مع تقويم أخير للمشاركة البربرية.

1- شهادات ناقصة

إن كل من يتتبع ما يقال في موضوع الحضور البربري في الحضارة الأندلسية يكتشف بسرعة طابع الحذر والتردد الذي يطبع كلام من شاركوا في الموضوع، بحيث يجدون أنفسهم

في صراع داخلي بين إيمانهم بأهمية المشاركة وعجزهم عن الحصول على أدلة تدعم مذهبهم أو يجدونها ناقصة وأقل دقة مما يفتح الأبواب لاحتمالات متعددة، ونورد هنا نماذج من هذه الشهادات.

عندما نتوقف عند مقالM.Ch. Delaigue حول التأثير البربري في الخزف الأندلسي[1]، تلفت انتباهنا خلاصته التي جاء فيها : « فبعد أن أحاطت الدراسة بمميزات الخزف البربري، انكبت خاصة على التمعن في زخرفة خمس قطع من أواني الأندلس مبينة تجانسها مع الزخرفة البربرية. لكن عملية المقارنة تبرز بعض المشاكل خاصة فيما يتعلق بتقنية الصناعة فزخرفة خزفيات الأندلس تنتمي إلى ماهو معروف بالخزف المقولب بإفريقيا الشمالية، لكنها مطبقة على مواد مصنوعة بالدولاب. ثم علينا أن ندرك أن التشابه في الشكل وفي الزينة يمكن أن يأتي من تقاليد متوسطية مشتركة، أو أنها حصيلة تقنية مماثلة لا تمكن من تنويع الإنتاج»[2]. توضح الخلاصة أن الباحثة تعبت كثيرا في دراسة هذه القطع ومقارنتها بالخزف البربري، ولما توصلت إلى نتائج إيجابية تعطي الانطباع بالتشابه والتماثل، وبقي عليها فقط أن تؤكد وجود التأثير البربري، لم تتجرأ على فعل ذلك، والتزمت جانب الحذر، وصرحت فقط بإمكانية وجوده.

ويذهب باحث آخر إسبانيJ.M. Cuenca Torba إلى أن دور البربر في حضارة الأندلس يثير التقدير والإعجاب، ويحتل مكانة يعجز عن تقديرها ويأخذ النظام القبلي الذي عرفته الأندلس كنموذج، ويرى أن البربر هم الذين دعموه بقوة، ولكنه يعود فيستدرك أن هذا الدور لا يجب أن ينسينا دور العرب والشوام خاصة [3].

ويرى Montgomery Watt ضرورة أخذ المساهمات البربرية الممكنة في التشكيلة الثقافية الأندلسية رغم الصعوبات التي تقف دون تحديدها، ويأخذ بدوره نموذجا نظام الدروشة الذي انتقل إلى الأندلس من المغرب البربري [4].

(1) Delaigue (M. Ch), Possible influence berbère dans la céramique médiévale de la région de Valence. R; Bulletin d’archéologie marocaine, t. 15, 1983-1984, pp. 493-522.

(2) Ibid, p. 522.

(3) Cuenca Torba (J. M), Andalucia : Historia de un pueblo, Espasa- Calpé, Madrid, 1982, P. 185.

(4) Montgomery Watt, Historia de la Espana Islamica, alianza Editorial, Madrid 1965, p. 186.

توضح الشهادات أعلاه طبيعة المواقف المتخذة من المشاركة البربرية في الحضارة الأندلسية، حيث يجد الباحثون أنفسهم في موقف متناقض، فهم يؤمنون ويقرون بأهميتها، لكنهم عاجزون عن التأكيد أو الجزم بذلك، ويلتزمون موقف التردد والحذر، ولعل شح المصادر كان له أبرز الأثر في ذلك، وقد نشط هذا الاختلاف الدراسات الأندلسية عن البربر في العقود الأخيرة وكثرت المقالات والبحوث بشأنه [5].

2- نماذج من التأثير البربري في حضارة الأندلس

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالمادة التاريخية التي نتوفر عليها في الموضوع قليلة وتافهة، ولا تتجاوز في أحسن الأحوال إشارات متناثرة هنا وهناك، وفي موضوع التأثير الحضاري تزداد شحا وندرة، مما يجعلها دون مستوى طموحات الباحثين، لكننا مع ذلك سنستغل بعض الإشارات المتوفرة لفتح نافذة على الموضوع.

نبدأ هذه الملاحظات بالتعرض للجوانب المادية خاصة ما يتعلق منه بالصناعة والفلاحة، وفي هذا الصدد يحتفظ لنا أصحاب كتاب «بيوتات فاس الكبرى» بنص في غاية الأهمية لكونه يلقي الضوء على هذا الجانب بوضوح ويقول النص: «أما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك. وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل، والحملان في الأسواق، وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق وخرز الدلاء، وجلب الماء والبناء، وطبخ الجير والجبس ونحو ذلك» [6].

فالنص غني بالإشارات والمعطيات الكاملة في ميدان المشاركة البربرية في حضارة الأندلس، وهو يبرز أن أغلب المهن الصغرى خاصة في المدن من تخصص البربر وأهمها : صناعة الفحم وضفر الحلفة وخدمة السلال وفتل القنب والحبال والشطاطيب وصناعة المحاريث والبراذع

(5) Guichard (P), Faut-il en finir avec les berbères de Valence, Al - Qantara, Vol 11, fax 2, 1990, pp. 472-473..

(6) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 24.

وخرز الدلاء وطبخ الجير والجبص والبناء، وليس من الصدفة أن نجد البربر يتقنون هذه الصنائع، كما أن الأمر لايتعلق ــ كما نعتقد ـ بعزوف أهل الأندلس عن الاشتغال بها، ولكن الأمر يرتبط بكون البربر الذين انتقلوا إلى الأندلس في معظمهم من البوادي المغربية حيث يسود النظام القبلي، وحيث ينعدم التكامل الإقتصادي، بل إن كل الأشخاص يشتغلون بحقولهم، وكل واحد يصنع أدواته التي يحتاجها باستثناء تلك التي تتطلب تقنية عالية، ولما انتقل البربر إلى الأندلس حملوا معهم حرفهم هذه، وعندما استقر بعضهم في المدن اشتغلوا بها، ويمكن أن نثبت أن البربر بعملهم هذا قد أغنوا الموروث الصناعي الأندلسي بتطوير ونشر هذه الصناعات البسيطة والضرورية للحياة اليومية في المدن والبوادي على حد سواء.

ويشير النص إلى أن البربر اشتغلوا بمهنة البناء، وتدعم هذا إشارة أخرى، وردت عند ابن حيان جاء فيها : «وارتقى في حصن منتشاقر من البربر جملة فبناه وحصنه»[7] ويحيل النص على فترة النصف 2 من القرن 3 هـ / 9 م وبالضبط سنة 276 هـ / 889 م حيث كان البربر متخصصين في تحصين قلاع وحصون الإقطاعيين ومن بينهم هذا الذي يشير إليه النص يحيى بن صقالة القيسي بكورة إلبيرة، فما هو نوع البناء الذي يستخدم في التحصين؟ قد يكون متعلقا بالتابية. وهذا النوع من البناء كان منتشرا بشكل واسع بالأندلس [8] وربما كان مما نقله البربر من المغرب إلى شبه الجزيرة الإيبرية. ويقوي هذا المذهب ما ورد في نص متأخر يعود إلى بداية القرن 7 هـ /13م، وينسب هذا النوع من البناء للبربر ويجعله طريقة خاصة بالمغرب [9]. فهل يملك صاحبه من العلم ما يجعل كلامه حجة؟

في الميدان الفلاحي أوضح النص أن البربر يساهمون بقسط منه، بحيث ينتجون الحبوب ويربون الأبقار والنحل والدجاج، لكن هذا الأمر ليس بغريب على باقي الجماعات، ولهذا فسنبحث عن التأثير البربري في جانب آخر. أورد أحد المؤرخين الإشارة التالية : «فلقي في طريقه[محمد بن إبراهيم بن حجاج سنة 301 هـ / 913م] أغناما لأهل قرطبة، فأغار عليها،

(7) ابن حيان، المقتبس، المكتبة الشرقية، باريس، 1937، ج. 3، ص. 61.

(8) Bazzana (A). Les Maisons d’Al Andalus, Collection de la Casa de Velazquez, Madrid, 1992, t 1, pp. 76-77.

(9) ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر، بيروت، 1956، ج. 3، ص. 121.

وحملها معه إلى قرمونة» [10]. فإلى أي شيء يشير النص؟ فالنص يبرز وجود ظاهرة الرعي الجماعي لماشية أهل قرطبة تحت إشراف راع أو جماعة من الرعاة، فما علاقة البربر بهذا الأمر؟ فالبربر كانت لهم عادة في قراهم تقوم على جمع قطيع أغنام وماعز أهل القرية، ويتوالى أبناء القرية في حمله إلى المراعي يوميا [11]، ويبدو أن البربر قد نقلوا عاداتهم هذه إلى الأندلس، فأخذ بها أهل الأندلس، وتبناها أرباب الماشية.

ويتوصل بيير كَيشار إلى وجود نظام الدورة في السقي في شرق الأندلس [12] ، وسبق للباحث أن أكد أن البربر يشكلون أغلبية في هذه المنطقة [13] ، فهل نستنتج من هذا أن البربر هم الذين أدخلوه إلى المنطقة؟ من المحتمل أن يحدث ذلك خاصة وأن بربر شمال إفريقيا يعرفون هذا النوع من نظام الري، ويقدم لنا البكري وصفا له في منطقة توزر بإفريقية جاء فيه : «ثم ينقسم كل نهير من هذه الأنهار الثلاثة إلى ستة جداول وتتشعب من تلك الجداول سواقي لا تحصى كثرة تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها على بعض شيئا كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع فتر يلزم كل من يسقي منها أربعة أقداس مثقال في العام، وبحساب ذلك في الأكثر والأقل، وهو أن يعمد الذي تكون له دولة السقي إلى قدس في أسفله ثقبة بمقدار ما يسده وتر قوس النداف فيملؤه بالماء ويعلقه، ويسقي حايطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفذ ماء القدس ثم يملؤه ثانيا وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدسا» [14]. وهذه الطريقة منتشرة في كل نواحي المغرب الأقصى بما فيها الواحات الجنوبية، أيمكن أن نثبت أن البربر هم الذين نقلوه إلى الأندلس؟ ليس من السهل إثبات ذلك لأن شمال إفريقيا وشرق شبه الجزيرة الإيبيرية بل والجنوب المتوسطي لأوروبا تتشابه كثيرا في كل شيء، فالمناخ متوسطي شبه جاف، والسكان متشابهون فمثلا عندما تقرأ كتاب «فلاحو اللانكدوك» للباحث لوروي

(10) ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 130.

(11) Basset (H) & Terrasse (H), Sanctuaires et forteresses Almohade : I; Tinmel Hespéris, vol. 14, 1924, p. 10.

(12) Guichard (P), Les musulmans de Valence, Institut français de Damas, 1991, t 1, p. 231.

(13) Guichard (P), peuplement de la région de Valence, Mélange de la Casa de Velazquez, Vol 5, 1969, p. 123.

(14) البكري، المغرب في ذكر افريقية والمغرب، مكتبة المثني، بغداد، ص. 149.

لادوري [15] تحس وكأنك تقرأ عن سكان المغرب. ويضاف إلى هذا ما يذهب إليه المدافعون عن استمرار التأثير الروماني، بحيث يمكن أن نفترض بناء على مذاهبهم أن النظام تطور في ظل الامبراطورية الرومانية في المنطقتين، وهما مستعمرتان رومانيتان، وبذلك يصبح من الصعب الحسم في أمر أصل هذا النظام، مع ترجيحنا لكونه قد ينتقل من جنوب الحوض المتوسطي لكونه أكثر جفافا وحاجة إلى تنظيم المياه واستغلالها.

وفي ميدان استخراج المعادن، كانت الأندلس منطقة نشيطة، وقد تطورت تقنيات استخراجها مما ساعد على ارتفاع الإنتاج [16]. ويستغرب أن تكون كل مناطق استخراج المعادن مناطق آهلة بساكنة بربرية، فصاحب «المعجب» يقول: «وما بين دانية وشاطبة موضع يسمى أوربة على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد» [17] ويورد ابن الفقيه: «وبها معدن الزيبق في موضع يقال له فحص البلوط، ومن معدن الزيبق إلى قرطبة خمسة أيام وأهلها بربر» [18]. ويورد البكري :«وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد بموضع يعرف بالصنهاجيين من كورة تدمير» [19] . وتشتهر مـدينة قسطنطينية شمـال غـرب قرطبة بمناجم الرخام والحديد [20]. فكل هذه الإشارات تثبت أن البربر يستقرون في مناطق استخراج المعادن، وهذا يجعلنا نستنتج مباشرة أنهم كانوا اليد العاملة المستغلة في استخراج وتصفية هذه المعادن، وتطوير تقنيات ذلك بالبلاد، هذا رغم أننا لا نتوفر على أي شاهد إثبات في هذه المسألة.

وفي المجال العسكري نجد عند ابن حيان نصا مهما يحيل على وجود تأثير بربري في الفنون العسكرية الأندلسية. وورد فيه :« ... وأشد ذيادا لغلمانه وأحشامه وأجناده عن التشبه بالبرابرة والتشكل بشكلهم والاستعمال لشيء من زيهم في ملابسهم ومراكبهم، حتى لوقعت عينه يوما في موكب له كان إلى الزهراء وطنه على غلام له راكب على فرس بسرج

(15) Le Roy Ladurie (E), Les paysans de Languedoc, Champs Flammarion, Paris, 1969.

(16) Lombrad (M), L'Islam dans sa première grandeur, Champs Flammarion, Paris, 1971, pp. 149-200

(17) المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص. 511.

(18) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1320، ص. 87.

(19) البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، دار الرشاد، بيروت، 1968، ص. 128.

(20) الإدريسي، نزهة المشتاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج. 2، ص. 581، الرازي، وصف الأندلس، مجلة الأندلس عدد 18، مجلة 1، 1953، ص. 83.

عدوي الصنعة، لطيف دفتي المجلس، قصير قربوسي المركب : المقدم والمؤخر، لم يسبق العبد إلى مثله، فأنكره إنكارا شديدا وازور عنه و لم يتمالك إلا أن سار فيه إلى حاجبه جعفر الصقلبي وهو إلى جانبه منكرا غفلته عن تغييره، وتقدم إليه بإغلاط عقاب العبد، وإحراق السرج بدار الجند قدام من حضر منهم إثر نزوله، إشاعة لإنكاره، فنفذ ذلك لوقته، واشتد العجب من غلظ نكيره، وارتدع من شاهد ذلك عن امتثاله مع استحسان أكثرهم». ويضيف «فمنحهم الله قبوله، وحسن عنده زيهم، واستنبل تخفيفهم في مراكبهم، وانكماشهم في ثقلهم، ورأى أن أخذهم بذلك في آلتهم أليق بصناعتهم وأرفق بخيولهم، حتى لظل أيام علته يشرف عليهم من قصبة دار الرخام، المرسوم صحنها باعتراض الجند أيام إعطائهم، يتطلع على فرسان البرابر، إذا تحركوا للعب، شاخصا إليهم معجبا بهم، فيقول لمن حوله : انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم» [21].

إن هذا النص الطويل يحمل أهمية في مثل طوله، لما يقدمه لنا من إشارات حول تأثر أهل الأندلس بالفنون العسكرية البربرية خاصة خلال القرن 4 هـ / 10م، وأهم ما تضمنه:

ـ إعجاب الأندلسيين بفنونهم وتقليدهم رغم تحريم السلطات لذلك.

ـ انضمام السلطان إلى صف المعجبين بالفن البربري، وموافقته على تقليدهم.

ـ انتشار استعمال السرج العدوي الذي أثار إعجاب ابن حيان لجماله وخصائصه.

ـ خفة ملابس وعدة الفارس البربري عكس لباس الأندلسي الثقيل.

ـ إتقان البربر لركوب الخيل.

لقد كانت خصائص الفارس البربري وعدته محل إعجاب أهل الأندلس، وهي دون شك، قد انتشرت بشكل واسع حتى في أوساط الفرسان الأندلسيين الذين سبق وأن رأينا أنهم يحقدون على البربر. ويضاف إلى هذا استعمال الجيش للأخبية البربرية في مخيماته [22] لما تتميز به من متانة ومنع لتسرب مياه المطر.

(21) ابن حيان، المقتبس، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 191-193.
(22) نفسه، ص. 40.

وفي مجال اللباس، فالبربر الذين اجتازوا إلى الأندلس احتفظوا بزيهم المتميز، ويتضح ذلك من خلال هذا النص : «واحضرهم محمد إلى نفسه، فألبسهم القلانس والأردية وأمرهم أن يزيلوا زيهم، وأن يتزينوا بزي جار ويخلعوا العمائم ففعلوا» [23] وهو يتحدث عن جماعة من البربر انضمت إلى ابن عبد الجبار. ولعل العمامة قد صارت زيا قوميا للبربر في الأندلس [24] رغم أنها ليست في الأصل زيهم [25]، ولكن استعمالها في الأندلس ارتبط بهم. وعند تقريب عبد الرحمان بن محمد بن أبي عامر للبربر أمر أهل الأندلس بأن يزيلوا القلانس ويلبسوا العمائم مستعملا التهديد لتنفيذ أمره [26]، وهو بهذا يعطي للبربر دورا في التأثير في زي أهل الأندلس.

ويورد السقطي إشارة صغيرة في ميدان الأغذية، حيث يقول : «ومتى قصد أن يكون الشواء قويا يؤكل بالسكين كعادة البربر في الإختيار» [27]. وهذا نموذج واحد فقط على ما يبدو من الأطعمة التي نقلها البربر إلى الأندلس، وصارت جزءا من النظام الغذائي للبلاد.

وفي الجانب الفكري، كان للبربر تدخل في ثقافة أهل الأندلس. فقد سبق وأن وضحنا في الفصل السابق كيف أن يحي بن يحي ومنذر بن سعيد أثرا على مذاهب أهل الأندلس، فرغم أنهما لم يأتيا بشيء من بلاد البربر، ولكن كونهما بربريين يجعل مساهمتهما تتسم بطابع بربري. و لم يقتصر الأمر على هذين المذهبين، بل إن البربر زرعوا في الأندلس مذاهب أخرى خاصة من غير السنية. فالمذهب الشيعي ظهر لأول مرة في الأندلس على يد بربري وبوسط بربري، وكان حامله سليمان بن عبد الواحد المكناسي الذي يقول محمود علي

(23) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 2، ص.82.

(24) عنان، محمد عبد الله، تاريخ دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1969، ج. 2، ص. 575.

(25) جاء في كتاب «قضاة قرطبة» ما يلي: «سئل يحي بن يحي عن لباس العمائم، فقال: هي لباس الناس في المشرق، وعليه كان أمرهم في القديم»، الخشني، مكتبة المثني، بغداد، 1953، ص. 56—57 . وأورد الونشريسي حديثا نبويا يقول : «اعتموا تزدادوا حلما» وأضاف أن العمامة من زي العرب. المعيار المعرب، ج. 2، دار الغرب الإسلامي، الرباط، 1981، ص. 255.

(26) ابن عذاري، المرجع السابق، ج. 3، ص. 48.

(27) السقطي، آداب الحسبة، المطبعة الدولية، باريس، 1973، ص. 40.

مكي عن ثورته : «أبرز ثورة بالأندلس صريحة التشيع أو منحلة له تتفجر في وسط بربري في منطقة شنتبرية بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي» [28].

ونفس الشيء يقال عن المذهب الخارجي الذي قاد البربر أولى ثوراتهم تحت لوائه منذ سنة 123 هـ / 1740 م. كما كانت جبال الجزيرة معقلا له حتى نهاية عهد عبد الرحمان الثاني. وقد تدعم هذا المذهب بهجرة بني برزال إلى الأندلس حاملين معهم مذهبهم الخارجي الإباضي [29] في بداية عقد الستينيات من القرن 4 هـ / 10م. ويقدم النص التالي لابن حزم أهم المبادئ التي يتبناها إباضية الأندلس : «وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش [30]. ويوجبون القضاء على من نام نهارا في رمضان فاحتلم، ويتيممون وهم على الآبار التي يشربون منها إلا قليلا منهم. وقال أبو إسماعيل البطيحي وأصحابه وهم من الخوارج أن لا صلاة واجبة إلا ركعة واحدة بالغداة وركعة أخرى بالعشي فقط ويرون الحج في جميع شهور السنة، ويحرمون أكل السمك حتى يذبح، ولا يرون أخذ الجزية من المجوس ويكفرون من خطب في الفطرة والأضحى ويقولون إن أهل النار في النار في لذة ونعيم وأهل الجنة كذلك» [31] .

لقد أكدت لنا الإشارات السابقة أن البربر شاركوا في وضع أسس حضارة الأندلس، وطبعوها في كثير من الجوانب خاصة الجانب المادي منها. لكن هذه الإشارات في الواقع تافهة وقليلة مقارنة مع أهمية هذه الحضارة. لذلك يواجهنا سؤال ملح ويتعلق بالعوامل الكامنة وراء هذه الندرة.

---

(28) مقدمة كتاب «درر السمط» لابن الآبار، مطبعة كريماديس، تطوان، 1972، ص. 10.

(29) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 192.

(30) عادة مغربية لا تزال موجودة في الجنوب المغربي حتى الوقت الراهن، وتحرم أكل القضيب على الرجال دون النساء.

(31) ابن حزم الفصل في الملل والنحل، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1347، ج. 4، ص. 144. عندما نقارن كثيرا من هذه العقائد نجدها عند برغواطة المغرب في تامسنا. انظر البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص. 134–141.

3- ملاحظات أخيرة حول دور البربر الحضاري

أوضحت لنا فصول القسمين الثاني والثالث، وخاصة الفقرة السابقة من هذا الفصل أن البربر كانوا حاضرين في مجالات الحضارة الأندلسية الإجتماعية والثقافية والإدراية والحضارية بصفة إجمالية، ولكن ما لوحظ هو أن هذا الدور جاء متأخرا، إذ لم تظهر معالمه إلا بعد منتصف القرن 3 هـ / 9م ، وبشكل أوسع خلال القرن الموالي. كما لوحظ أن المساهمة كانت قليلة وأحيانا جد نادرة ونفترض أن تكون العوامل التالية وراء هذا التأخر والضعف في الميدان الحضاري.

يرتبط العامل الأول بمشكلة المصادر، فهي من ناحية لا تنقل لنا عن البربر إلا شذرات قليلة جدا، وهذا كفيل بأن يخفي المشاركة البربرية في هذا الميدان. ومن ناحية ثانية، فاهتمامها بالعناصر الحضارية يبقى عاما وعرضيا. ويزيد هذا الأمر تعقيدا إذا تأكدنا من وجود عناصر تشابه كثيرة بين العرب والبربر، وما بين ساكنة حوض البحر الأبيض المتوسط. وهذا ما يجعلنا نتردد في كثير من الأحيان عند إصدار حكم حول مصدر عنصر حضاري معين. وهو أيضا ما يفسر تردد الباحثين عامة.

ويتعلق العامل الثاني بمكانة البربر ونظرة أهل الأندلس إليهم. فقد سبق لنا في القسم الأول أن بينا أن الموقف من البربر كان موقف احتقار وحقد وسخرية. لهذا عزف الناس عن أخذ أي شيء عن البربر أو تقليدهم. وحتى إن حدث، فهو يمر دون اعتراف أو إظهار. وهذا يفسر لنا بهيمنة النموذج العربي، الذي ارتبط بالنموذج الإسلامي، فكوّنا نموذجا قويا لايصمد أمامه أي نموذج آخر. وقد ظهر هذا الرفض واتخذ الخلفاء خاصة الناصر والمستنصر في بداية عهده إجراءات من أجل منع الأخذ عنهم أو تقليدهم. ولا نشك في أن الرفض ازداد أكثر بعد اضطرابات بداية القرن 5 هـ / 11م. وأغلب مصادرنا تعود إلى ما بعد هذه الفترة.

وانعكس موقف أهل العصر الوسيط على البربر، فشعروا بشعور دونية، فأصبحوا بدورهم يبحثون عن الأخذ عن النموذج العربي، فوجهوا بموقفهم المتخاذل هذا ضربة قوية لنموذجهم. كما أن البربر وحتى منتصف القرن 3 هـ / 9م كانوا يعيشون في جو منغلق

وحذر. وخلال هذه الفترة كانت معالم الحضارة الأندلسية تتكون وتكتمل. وهذا فوت عليهم فرصة المشاركة في وسمها.

وعند الوقوف عند المجالات التي ظهرت فيها مساهماتهم بقوة وهي الفلاحة والصنائع الصغيرة، يظهر لنا عنصر آخر يتعلق بضعف الحضارة البربرية وبساطتها، لذلك عجزت عن مواجهة الحضارة الأقوى، وانطبق على البربر ما يسميه ابن خلدون بولع المغلوب بتقليد الغالب [32].

ننتهي في آخر كلامنا إلى أن المساهمة البربرية في حضارة الأندلس حاضرة وموجودة رغم بساطتها بفعل ندرة الأخبار في المصادر وهيمنة النموذج العربي وضعف الحضارة البربرية وانغلاق أهلها. وقد ثبت لدينا أن إبراز هذه المساهمة في ظل الصورة التي تقدمها المصادر حاليا أمر صعب يدفع الكثير من الباحثين إلى التردد والتزام الحذر واستعمال أسلوب الترجيح بدل التأكيد والإثبات في خلاصاتهم.

(32) ابن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، 1981 ص. 147.

الفصل الخامس:
أسرة علمية بربرية أندلسية
آل أبي عيسى [1]

طبعت تاريخ الأندلس، وفي جميع الميادين، أسر كبيرة توارث أبناؤها مراتب وزارية أوقضائية أو علمية... وقد ساهمت بقسط وافر في خدمة الحياة العلمية بالأندلس. وحرص أبناؤها على استمرار بزوغهم العلمي في التخصص الذي اختارته الأسرة. وقد سبق لنا عندما تناولنا موضوع المشاركة السياسية للبربر أن توقفنا عند مجموعة من الأسر التي كان لها الدور الكبير في هذا المجال. ونفس الملاحظة سجلناها بالنسبة للميدان العلمي، ذلك أن عددا محدودا من الأسر تهيمن على قسط كبير من الإنتاج العلمي البربري. ومنها : أسر منذر بن سعيد البلوطي وآل ذكوان وآل عباس بن ناصح وآل الزجالي وغيرهم. لكن أشهرهن على الإطلاق، ليس على المستوى البربري فقط بل على المستوى الأندلسي هي أسرة آل أبي عيسى المصمودية التي هيمنت على الساحة العلمية، خاصة في ميدان الفقه لما يقرب من قرنين من الزمان.

كان لشهرة الأسرة دور كبير في اهتمام المصادر بأبنائها، ومكننا ذلك من تحصيل معلومات كثيرة، ولو على الأقل من نوعية المعلومات التي يهتم بها المترجمون. وقد استمر هذا الاهتمام منذ عهد مؤسس الأسرة يحي بن يحي حتى وفاة آخر من نبغ منها سنة 367 هـ / 977م.

أسس أسرة آل أبي عيسى يحي بن يحي الليثي (152هـ / 769 م ـ 234 هـ / 848م) الفقيه المالكي وأحد من نشروا المذهب بالأندلس. وقد سبق لنا أن عرفنا به في الفصل الثالث، لذلك فلن نعود إليه هنا إلا عرضا.

(1) أنجزت باحثة إسبانية مقالا حول هذه الأسرة اهتمت فيه أساسا بدورها العلمي.
Marin, (Manuela), Una familia de Ulemas cordobeses, los Banu Abi'Isa, Al-Qantara, vol 6, fasc. 1-2, 1985, pp. (291-320).

لدراسة تاريخ هذه الأسرة العلمية، ارتأينا أن نتوقف عند مجموعة من النقط أهمها : أصل الأسرة واستقرارها بالأندلس والوضعية الاقتصادية والاجتماعية للأسرة وتطور علاقاتها بالأمويين ورجالها الذين نبغوا في ميدان العلوم، ثم بعض الملاحظات حول التقاليد التي توارثتها الأسرة وحافظت عليها.

1- أصول الأسرة واستقرارها بالأندلس

ينتمي بنو أبي عيسى إلى فرع أصادة المصمودي من قرية لدية قرب قصر عبد الكريم[2] شمال المغرب الأقصى. وينفرد ابن خلدون بنسبتهم إلى مصامدة الأطلس الكبير[3] . وهو كما أظهرت الهجرات خطأ منه. وتتفق كل المصادر حول استقرار هذه الأسرة بالأندلس منذ الفتح، غير أنها تختلف حول اسم من اجتاز من أجدادها. فالقاضي عياض يذكر أن يحي بن وسلاس هو أول من دخل مع ابن أخيه نصر بن عيسى في جيش طارق، ثم التحق بهما كثير[4] . أما ابن خلكان فيجعل الداخل مع طارق كثير بن وسلاس[5] . ويوافقه ابن الخطيب[6] وكذلك ابن عبد الملك الذي يرى أن أول من دخل هو كثير بن وسلاس وأخوه يزيد [7] . ويظهر أن أغلب الروايات تتفق حول كون كثير أول المهاجرين منهم، واستقر بقرطبة وصار من أسر الموالي القوية بالأندلس.

ينتسب آل أبي عيسى إلى ليث بالولاء. وتختلف المصادر مرة ثانية حول سببه حتى أن الأصيلي يقول : « لايعلم على الصحة سبب ذلك » [8].ويذهب رأي أول إلى أن وسلاس أسلم

(2) ابن عبد الملك الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج. 1، ص. 188.
مجهول، مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934، ص. 60.
(3) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 6، ص. 299.
(4) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 379.
(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان دار الثقافة، بيروت، ج.6 ، ص. 143.
(6) ابن الخطيب، الإحاطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج. 4، ص. 373.
(7) ابن عبد الملك، المرجع السابق، ج.1، ص. 190.
(8) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص.379.

على يد يزيد بن عامر الليثي الكناني، فانتمى في قبيلته [9]. ويرى فريق ثان أن سببه هو نزول آل أبي عيسى بنزل ليث كنانة فانتموا إليهم بالحلف [10]. وكيفما كان الحال فالولاء حصل بالحلف إما بالإسلام أو المجاورة.

وتنعت هذه الأسرة ببني أبي عيسى. فمن هو هذا الرجل الملقب بأبي عيسى؟ فالخشني يرى أن صاحب الكنية هو والد يحي بن يحي[11]، ويوافقه الأصيلي في مذهبه هذا [12]. ويرى ابن الفرضي أن صاحبها هو كثير جد يحي ويوافقه آخرون [13] . وإذا كان كثير هو مؤسس هذا البيت في الأندلس، وأن أصحاب الشهادة من الموثوق بهم، فإننا نرجح أن يكون هو المكنى بأبي عيسى وإليه تنتسب الأسرة كلها.

2- الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للأسرة

إن سبق أسرة آل أبي عيسى إلى الأندلس وولائهم لليث كنانة ثم استقرارهم بقرطبة قد أعطاهم مكانة مهمة بين أسر الموالي ذات النفوذ بقرطبة، والتي اعتمد عليها عبد الرحمان الداخل لإثبات نفوذه بالمدينة، حيث يقول عنها صاحب «أخبار مجموعة» : و«انضم إليه بنو أمية بقرطبة، وكان بها منهم بيوتات لها وفر وثروة من البربر وغيرهم [14]». وما يدفعنا إلى السير في هذا الاتجاه هو كون يحي بن كثير الليثي التقى بعبد الرحمان الأول قبل دخوله قرطبة وأرسله بكتب إلى قرطبة [15]. وعلى ما يبدو فهذه الكتب تتعلق بدعوة أهل المدينة للاستجابة لدعوته والتمهيد لدخوله المدينة. وهذا دور سبق لنا وأن أثبتنا في فصل سابق أن

(9) نفسه، ابن عبد الملك المراكشي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 188، ابن الخطيب، المرجع السابق، ج 4، ص. 373.
(10) ابن الخطيب، المرجع السابق، ج. 4، ص. 373.
(11) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص. 348.
(12) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 379.
(13) نفسه، ص. 380، ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954، 177/2. ابن خلكان، المرجع السابق، ج. 6. ص. 143. ابن عبد الملك، المرجع السابق، ج. 1، ص. 521.
(14) مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 84.
(15) الخشني، المرجع السابق، ص 348.

البربر قاموا به خدمة للأمير الجديد ونجحوا في مناسبات متعددة. ولا نعتقد أن هذا اللقاء جاء صدفة، بل إن يحي هذا خرج إلى عبد الرحمان لضمان مكانة أسرته وأهله. وفعلا فقد تحقق له ذلك وحفظ لأسرته جاهها ومكانتها (16).

كانت ثروة هذه الأسرة في عهد يحي بن كثير مكونة أساسا مما يجنيه من خلال عمله الإدراي، حيث سار في سفارة إلى الشام، وتولى الجزيرة لعبد الرحمان الأول (17) . أما يحي فلم يكن راضيا عن مال والده، وأخذ منه بعد موته ما طاب منه (18)، وربما كان الأمر متعلقا بالإرث الأسروي. ووجه اهتمامه إلى التجارة، حيث كان ينتقل في كور الأندلس للتجارة كما أشار إلى ذلك ابن سعيد عرضا (19). كما أنه نصح ابنه عبيد الله بالتعاطي للتجارة والاهتمام بها (20). وقد كانت ليحي ثروة كبيرة صادرها منه الحكم بعد هيج الربض قبل أن يعيدها إليه (21) وكان يرفض هبات السلطان، ويعتذر عن قبولها لعدم حاجته إليها (22). كما أنه يلبس فاخر الثياب، وتزوج من امرأة من أهل اليسار بقرطبة (23). وكل هذه الإشارات توضح أن يحي بن يحي كان من كبراء قرطبة ووجهائهم ليس فقط بعلمه، بل قبل ذلك بماله وثروته.

وورث عبيد الله أباه في الإشتغال بالتجارة وسعة المال، إذ اهتم بالتجارة بناء على نصيحة وتشجيع والده يحي. وسافر في تجارته إلى المشرق وخاصة إلى بغداد (24). ويصفه عياض بأنه كان عظيم المال والجاه (25). واشتهر عبيد الله بتعظيمه لأهل الدنيا والإقبال عليهم والإنقباض عمن لا يملك متاعها (26)، مع أنه كان جوادا تضرب بكرمه المثل. وينقل لنا عياض أنه تصدق

(16) ابن خلدون، المرجع السابق، ج. 6، ص. 299.
(17) الخشني، المرجع السابق، ص. 348.
(18) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 380.
(19) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج. 1، ص. 149.
(20) الخشني، المرجع السابق، ص. 230.
(21) نفسه، ص. 361.
(22) الخشني، قضاة قرطبة، مكتبة المثنى، بغداد، 1372، ص. 62.
(23) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 391.
(24) نفسه، ج. 4، ص. 421. الخشني، المرجع السابق، ص. 229.
(25) نفسه.
(26) الخشني، المرجع السابق، ص. 231.

بثلث ماله مرة وثانية وثالثة [27]. وهذا دليل على اتساع ونشاط أعماله التجارية وارتفاع أرباحه التي تمكنه بسرعة من تعويض ما أنفقه في سبل البر. والأمثلة عن جوده كثيرة [28]. كما أنه إضافة إلى التجارة كان يملك أراضي زراعية، حيث نجده يتصدق على فقير بغلة خراج أرحائه [29]. وقد احتفل الناس بجنازته لجوده ومكانته الإجتماعية الرفيعة وعلمه، فحضرها كل الناس وحتى اليهود والنصارى والمرضى، وأهل الكور [30] . ويلخص ابن عبد ربه خصاله في هذه الأبيات من مرثيته [31] له :

بموت أبي مروان ماتت عوائد	من الخير ليست بعده بعوائد
لقد فجع الإسلام منه بناصر	كما فجع الأيتام منه بوالد
بكته اليتامى والأيامى وأعولت	عليه الأسارى داميات السواعد

واحتفظ رجال هذا البيت بثروتهم وجاههم بعده، فالقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يحي كانت له أراضي واسعة بالبادية [32] . وكان أخوه يحي بن عبد الله «من سراة الناس، حسن المركب والملبس والهيئة والصورة والأخلاق، كريما يطعم الطلبة إذا تم مجلس مناظرته من ثمار بستانه، وينشطهم للأكل فإن فضل شيء دفعه إلى الغرباء يحملونه إلى منازلهم» [33].

لقد كان بيت آل أبي عيسى من أغنى بيوتات قرطبة، حيث توارث أبناؤه الثروة والجاه، وظلوا على تلك الحال حتى القرن 5 هـ / 11م كما يؤكد ذلك ابن حزم [34]. وقد اكتسبوا هذه

(27) عياض، المرجع السابق، ج. 4، ص. 422—423.
(28) انظر المرجع نفسه، ص. 423.
(29) نفسه.
(30) نفسه، ص. 423. الخشني، المرجع السابق، ص. 230.
(31) الخشني، المرجع السابق، ص.230.
(32) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 107. ابن خاقان، مطمح الأنفس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص.26.
(33) نفسه، ص.106.
(34) ابن حزم، الجمهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص.500.

الثروة من العمل الإداري وخدمة السلطان والتجارة واستغلال الأراضي الزراعية، ويمكن أن نشير وبحذر كبير إلى أن مصدر ثروتهم قد انتقل من التجارة كأساس إلى استغلال الأراضي الفلاحية خاصة خلال القرن 4 هـ / 10م.

3- علاقة الأسرة بالسلطة الأموية

لا نملك معلومات واضحة عن علاقة أسرة آل أبي عيسى بالولاة الأندلسيين قبل قيام الإمارة الأموية. غير أننا أشرنا أعلاه إلى أن هذه الأسرة ـ ربما ـ كانت من إحدى الأسر الكبيرة في المدينة، خاصة من الموالي. وهذا قد يعطيها دورا داخل الجهاز الإداري. لكننا لانستطيع إثبات هذا الأمر. وتبقى علاقاتها بالإمارة الأموية هو العنصر الذي نستطيع التدليل عليه.

كان أول اتصال بين آل أبي عيسى والأمويين قد تم بين يحي بن كثير وعبد الرحمان الداخل، عندما خرج الأول إلى الثاني الذي حمله برسائل إلى أهل قرطبة قصد التمهيد لحكمه. وبعد سيطرة عبد الرحمان على السلطة، ظل يحي مرتبطا به، فأرسله إلى الشام إلى أخواته هناك [35] . ثم ولاه الجزيرة وشذونة، واستمر في ولاية الأولى حتى موته سنة 179هـ أو 180 هـ / 796 م أو 797 م [36] .

بعد عودة يحي بن يحي من المشرق، وبدأ نجمه يسطع في سماء الأندلس، ويتهيأ لتبوء مكان الصدارة، فاجأه حادث الربض الذي طارد فيه الحكم الفقهاء، وقتل عددا منهم، وكان فتح أخو يحي من القتلى [37]. أما يحي فقد فر والتجأ إلى طليطلة، وأجاره الفقيه سعيد بن عبدوس ومنع الحكم منه. قبل أن يتوسط له ولي العهد عبد الرحمان، فأمن وأعيد عليه ماله. ولما عاد صار من عظماء قرطبة، وهيمن على الفتوى، وصار كل القضاة يولون على يديه وبرأيه [38] وأرسله عبد الرحمان للتوسط بين قبائل شرق الأندلس المتصارعة [39]. وشارك في

(35) الخشنيي المرجع السابق، ص. 348.
(36) نفسه، عياض، المرجع السابق، ج.3، ص. 379-380.
(37) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 188.
(38) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص.80.
(39) الخشني، المرجع السابق، ص. 365.

غزوات الأمير باستمرار، ولما ضعف جعل ابنه عبيد الله مكانه (40) . لقد تحول يحي إلى سلطة ثانية في البلاد، ولكن ذكاءه ولياقته جعلت الأمير راضيا على هيمنته.

وفي عهد الأمير عبد الله احتل أربعة من أبناء هذا البيت منصب الشورى.

ويأتي في مقدمتهم عبيدالله بن يحي الذي كان « مقدما في المشاورة في الأحكام منفردا برئاسة البلد غير مدافع» (41). وابنه يحي الذي شوور معه واستفتي (42) وأبني أخويه يحي بن إسحاق (43) ، وأحمد بن يحي بن يحي بن يحي (44).

وفي ظل الخلافة تولى يحي بن عبد الله بن يحي قضاء البيرة وجيان وطليطلة (45) وشغل منصب صاحب الرد في عهد ولاية أخيه محمد لقضاء الجماعة (46). واشتغل أخوه محمد بمناصب القضاء في بجانة وطليطلة وجيان وإلبيرة وأمانة الكور (47) والمشورة للقاضي أحمد بن بقي بقرطبة (48) وأخيرا قضاء الجماعة ما بين 326 هـ /937م و 339 هـ / 950م، و«تولاه بسياسة محمودة، ورياسة في الدين (...) والتزم الصرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود (...) و لم يهب ذا حرمة ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أسباب السلطان وأهله حتى تحاموا جانبه» (49) . وقد نال حظوة كبيرة عند الخليفة الناصر، حيث جعله في

(40) ابن حيان، المقتبس، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1971، ج. 2، ص. 181.
(41) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 293.
(42) ابن الفرضي، ج. 2، ص. 182.
(43) نفسه.
(44) نفسه، ج. 1، ص. 34.
(45) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 102. ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج. 4، ص. 373.
(46) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 108.
(47) نفسه، ص. 97.
(48) نفسه.
(49) ابن خاقان، المرجع السابق، ص. 259.

مرتبة الوزراء، وجعل له مجلسا معهم. وكثر إرساله في السفارات إلى الإمارات وأمانات الثغور وبنيان الحصون في الثغور وتفقد أحوالها وقيادة جيوش الجهاد [50].

وكان أخوهما أحمد، واليا للناصر على حصن مجريط، وغزا مرتين، استشهد في الثانية، ودفن بطليطلة [51].

نخلص إلى أن أسرة آل أبي عيسى كانت موالية للأمويين وظلت في خدمتهم منذ نشأة الإمارة حتى ضعف الأسرة في منتصف القرن 4 هـ / 10م، و لم تظهر لحظة خلاف بين الطرفين إلا في حادثة الربض. وقد تولوا مناصب الولاية والقضاء والشورى والسفارة.

4- علماء أسرة أبي عيسى

لانجد في مصادرنا ما يفيد بأن هذه الأسرة كانت تهتم بالعلم قبل مؤسسها الحقيقي يحي بن يحي. إلا أننا نشك في أن يكون يحي بن كثير ممن تعلموا ودرسوا ولو على الأقل، في قرطبة. لكنه لم يكن يرى العلم ضرورة، و لم يحظ بعناية خاصة لديه. ولهذا فلم يكن هو من نصح ابنه بالتعلم، بل إن الأمر حصل من الفقيه زياد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون [52] وقد أوضحنا سابقا أنه التقى بمالك وتلامذته بالحجاز ومصر، وحمل عنه الموطأ، ونشر مذهبه في الأندلس، كما كان حجة في العلم بالمذهب وكثر تلامذته بالبلاد.

كان ليحي بن يحي الليثي خمسة أبناء كلهم ذكروا بالعلم، رغم اختلاف مستوياتهم، باستثناء واحد، وهو يحي الذي لم نعرفه إلا من خلال نسب أبنائه وأحفاده. ولا تتجاوز معرفتنا به اسمه، أما غير ذلك فنجهله. وتوفي اثنان في حياة أبيهما، بينما عاش بعده اثنان.

أول أبناء يحي هو محمد، وبه يكنى، وهذا يدفعنا إلى اعتباره أكبر أبنائه. وقد بدأ حياته العلمية بالأندلس، ونرجح أن يكون قد أخذ عن والده مادامت المصادر لا تزودنا بما يفيد

(50) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 98–99.

(51) ابن الآبار، التكملة، مطبعة السعادة، مصر، 1955، ج. 1، ص. 12.

(52) عياض، المرجع السابق، ج. 3، ص. 380.

ذلك. ثم رحل إلى افريقية ومصر حيث التقى سحنون ورجالا من أصحاب مالك، وبعد ذلك جاور بمكة حيث توفي [53]. ويظهر أن ذلك كان قبل سنة 234 هـ / 848م، مادام قد التقى سحنون الذي توفي في هذه السنة، كما أنه مات قبل أبيه يحي. وقد اشتهر بزهده وعلمه بالفقه [54].

وكان الإبن الثاني ليحي هو إسماعيل الملقب بأبي القاسم، وقد روى عن أبيه، واشتهر بالأدب والشعر، وتوفي بدوره في حياته أبيه (قبل عام 234 هـ / 848م) [55] .

ومنهم إسحاق بن يحي. وقد سمع من أبيه يحي، و لم يكن، على ما يبدو، يحمل نصيبا كبيرا من العلم، ولكنه مع ذلك يحمل رواية مادام ابنه يحي قد أخذ عنه [56] ، وكانت وفاته سنة 261 هـ / 874-5 م [57].

وآخر أبناء يحي عبيد الله المكنى بأبي مروان. وقد روى عن أبيه بالأندلس. ثم رحل إلى المشرق للتجارة والحج، وسمع في بغداد من أبي هاشم محمد بن يزيد الرفاعي، وبمصر من محمد بن عبد الرحيم البرقي[58]. «وكان فقهه فقه الشيوخ، و لم يكن بالراسخ فيه» [59] . وكان آخر من روى عن أبيه يحي، لذلك كثر تلامذته والرواة عنه، وانفرد برئاسة البلد غير مدافع [60] . وكانت وفاته سنة 298 هـ / 910م [61].

وشمل الجيل الثالث من هذه الأسرة أربعة رجال، كلهم ممن حمل العلم ورواه، وهم : يحي بن إسحاق ويحي بن عبيد الله وأحمد بن يحي وعبد الله بن يحي. أولهم يحي

(53) ابن الآبار، المرجع السابق، ج. 1، ص. 356. المقري، المرجع السابق، ج. 2، ص. 349.
(54) نفسه.
(55) نفسه، ج. 1، ص. 178.
(56) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 160.
(57) نفسه، ج. 4، ص. 424. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 85.
(58) نفسه، ج. 4، ص. 421. نفسه، ج. 1، ص. 293. الخشني، المرجع السابق، ص. 229.
(59) نفسه.
(60) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 293.
(61) نفسه.

بن عبيد الله المكنى بأبي عبد الله. وتخلو المصادر من أي معلومات أو إشارات حول تكوينه وأساتذته، ولكننا نفترض أن يكون قد أخذ عن أبيه عبيد الله وغيره من معاصريه من علماء قرطبة آنذاك. وسافر في رحلة إلى الحج [62]. وعلى عادة أهل الأندلس، فالظاهر أنه جمع بين العلم والحج، والتقى بأعلام المالكية في مصر والحجاز. وأهله علمه لاحتلال منصب المشاورة إلى جانب أبيه في عهد الأمير عبد الله، وكانت وفاته عام 303 هـ / 915 م [63].

وثانيهم، يحي بن إسحاق بن يحي، أبو إسماعيل الملقب بالرقيعة. وقد أخذ عن أبيه، ورحل إلى العراق، حيث التقى إسماعيل بن اسحاق القاضي[64] وأحمد بن زهير[65] وبإفريقية يحي بن عمر وبمصر محمد بن أصبغ بن الفرج [66]. وقد جمع علما واسعا في رحلاته هذه، حيث كان يتصرف في العربية واللغة والتفسير، وألف كتابا مهما في اختلاف مالك وأقواله، ونال، فيما بعد، اهتمام أهل الأندلس، إذا اختصره محمد وعبد الله ابني أبان بن عيسى، ثم اختصر هذا الاختصار أبو الوليد محمد بن رشد [67] . وصار من المشاورين لدى القضاة والحكام [68] وكانت وفاته سنة 303 هـ / 915 م، مع أن الرازي يقدم رواية أخرى تجعلها سنة 293 هـ / 905 م [69] . لكن الرواية الأولى أرجح.

أما الثالث، فهو أحمد بن يحي بن يحي بن يحي الملقب بالثائر، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح وعمه عبيد الله [70] واشتغل بالأدب والشعر والفقه [71]. وشوور مع

(62) نفسه، ج. 2، ص. 186.

(63) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 161. نفسه.

(64) الخشني، المرجع السابق، ص. 379.

(65) عياض، المرجع السابق، ج. 5، ص. 160. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 186.

(66) نفسه.

(67) نفسه، ص. 161.

(68) نفسه.

(69) نفسه. ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2. ص. 186.

(70) نفسه، ص. 160، نفسه، ج. 1، ص. 24، ابن حيان، المقتبس، ح.3، ص. 8.

(71) نفسه.

طبقة عمه عبيد الله، وتفوق على كثير منهم، وهذا ما أعطاه لقبه السابق. وتوفي معتبطا سنة 297 هـ /909 م وعمره 47 سنة (72).

والرابع منهم عبد الله بن يحي بن يحي بن يحي الليثي، ولا نعرف عنه إلا القليل. وسمع من الخشني وإبراهيم بن قاسم بن هلال ومحمد بن وضاح وابن عمه يحي بن عبيد الله (73). وربما كان من العلماء الوجهاء، حيث يذكر المراكشي أن ابنه أحمد قد روى عنه مع أنه استعمل اسم عبيد الله (74) بدل عبد الله. ونجهل تاريخ وفاته، وربما كان هو الذي ذكر في عقد صلح محمد بن هاشم التجيبي بسرقسطة سنة 326 هـ / 937 م (75). فلذلك نشك في أن يكون قد عاش بعد هذه السنة.

وكان الجيل الرابع يضم أربع شخصيات، هم آخر من نبغ من هذا البيت. وهم أحمد ويحي ومحمد أبناء عبد الله بن يحي بن يحي بن يحي وأحمد بن محمد بن يحي بن عبدالله.

يروي أحمد بن عبد الله بن يحي عن عم أبيه عبيد الله (76). ويشير إليه الرازي بالشهرة والتقدم في اللغة وحتى الشعر والعناية بالعلم (الفقه) (77). وقد ولاه الناصر حصن مجريط مرتين استشهد في الثانية سنة 324 هـ / 935 م، ودفن بطليطلة (78) أو طلمنكة كما يذكر ابن الآبار (79). ويظهر أن الرواية الثانية أكثر صحة، لأن الغزو يجب أن يتم في اتجاه الشمال حيث الأراضي المسيحية التابعة لقشتالة. وبعد موته نقل إلى أقرب مدينة إسلامية وهي طلمنكة.

ومن هذا الجيل يحي بن عبد الله بن يحي الذي درس بقرطبة على عم أبيه عبيد الله بن يحي ومحمد بن عمر بن لبابة وأسلم بن عبد العزيز وأحمد بن خالد وأبيه عبد الله بن يحي،

---

(72) نفسه، ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 24.
(73) نفسه، ج.1، ص. 264.
(74) المراكشي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 190.
(75) ابن حيان، المقتبس، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص. 410.
(76) ابن الآبار، المرجع السابق، ج. 1، ص. 12.
(77) نفسه. المراكشي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 190.
(78) نفسه.
(79) ابن الآبار، المرجع السابق، ج. 1، ص. 12.

وتلقى ببجانة من علي بن الحسن المري وسعيد بن فحلون ومحمد بن سعيد بن القلاس [80] . وكان «أرفع مسندي الحديث وقته ذلك (364 هـ /974م) بقرطبة [81]». وقد استقطب عددا كبيرا من الطلبة، حيث إن مجلسه كان أكبر مجالس العلم بقرطبة سنة 336 هـ / 947 م بحيث وصل عدد تلامذته إلى 500 تلميذا [82]. واستقطب الطلاب من كل كور الأندلس [83]. وكان يدرس في حلقته الموطأ وحديث الليث وسماع ابن القاسم وعشرة يحي بن يحي وتفسير عبد الرحمان بن زيد بن أسلم ومشاهد ابن هشام ونتف من حديث الشيوخ [84]. وتظهر هذه الدول التي يدرسها في حلقته مدى اتساع علمه ومعرفته، ولكن الدولة الأكثر استقطابا للطلبة هي دولة الفقه وخاصة الموطأ لسمو سنده، وقد عينه المستنصر لتدريس الفقه لابنه هشام المؤيد بالله [85]. وقد سار على عادة سلفه، ورفض القنوت في الصلاة [86].

تولى يحي بن عبد الله خطة الرد بقرطبة وقضاء بجانة وإلبيرة [87]. ويضيف ابن الخطيب أنه تولى أيضا جيان وطليطلة لبعض الوقت [88] وكانت وفاته في عام 367هـ /977 م عن عمر يبلغ 65 سنة [89]. وأثنى عليه عياض، فقال عنه: «جليل القدر، عالي الدرجة في الحديث، حمد الناس أحكامه وجميع أحواله، وكان من سراة الناس، حسن المركب والملبس والهيئة والصورة والأخلاق، كريما» [90].

(80) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 108.
(81) ابن حيان، المقتبس، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج. 6، ص. 216.
(82) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج.2، ص. 190. عياض، المرجع السابق. ج. 6. ص. 108.
(83) نفسه.
(84) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص.108.
(85) ابن حيان، المرجع السابق، ج. 6، ص. 216.
(86) ابن الخطيب، الإحاطة، ج.4، ص. 373، عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 109.
(87) عياض، المرجع السابق، ج.6، ص. 108، ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 190.
(88) ابن الخطيب، المرجع السابق، ج. 4، ص. 373.
(89) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 190. يورد ابن الخطيب وابن فرحون أن عمره 80 سنة لكونهما يحددان تاريخ ولادته في سنة 287 هـ /899–900 م في الإحاطة، ج. 4، ص. 373، والديباج، المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. 35.
(90) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 109.

وثالث هذا الجيل محمد بن عبد الله بن يحي قاضي الجماعة. وقد قضى فترة طويلة في الطلب، حيث سمع من عم أبيه عبيد الله بن يحي ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد بن الحباب وآخرين بالأندلس (91) ورحل إلى المشرق سنة 312 هـ / 924م، وسمع بمكة من ابن المنذر وأبي جعفر العقيلي وابن الأعرابي ومحمد بن المؤمل العدوي وأبي جعفر محمد بن إبراهيم الديبلي، وبمصر من ابن زيان ومحمد بن النفاخ الباهلي وبإفريقية من محمد بن اللباد وأحمد بن زياد البجلي وإسحاق بن نعمان وغيرهم (92). وقضى في هذه الرحلة سنتين (93). وقد ركز خلال رحلته هذه على ما يظهر على الفقه واللغة والحديث مادام قد عاد إلى الأندلس «حافظا للرأي، معتنيا بالآثار جامعا للسنن، متصرفا في علم الإعراب ومعاني الشعر» (94) ويلخص ابن عبد الرؤوف علمه في هذا النص : «كان فقيها عالما، من بين علم وفقه وسنة وروايات واسعة، وكان يتصرف في علم الأدب تصرف إتقان، وله رسوخ في أفانينه من عربية ولغة وخبر ومثل، وله لسان ذرب، وبيان حسن (...) وكان ممن قال الشعر بطبع حسن، وتصرف في ضروبه، وله إلى ذلك الشأو البعيد في الخطابة، لم يكن عليه في الكلام مؤونة» (95). لقد كان محمد بن عبد الله موسوعة، وتمكن من جمع علوم عصره، والتي تستقطب اهتمام أهل الأندلس من فقه ولغة وآداب، وهذا جعله أحد الوجوه العلمية البارزة في قرطبة في عصره، وأهله لتولي وظائف متنوعة. و لم يذكر أي مصدر قعوده للتدريس.

شغل عدة مناصب، فتولى قضاء إلبيرة وبجانة (96) ، وطليطلة وجيان وأمانة الكور (97). ثم قضاء الجماعة بقرطبة.وكان مقربا من الخليفة الناصر الذي جعله في رتبة فوق الوزراء، وسفره في عدة سفارات إلى الأمراء والولايات والثغور وحملات الجهاد. وتوفي في آخر خرجاته إلى الثغر قرب طليطلة ودفن بها سنة 339 هـ / 949م، وعمره 54 سنة (98).

(91) ابن الفرضي المرجع السابق، ج. 2، ص. 61. الخشني، قضاة قرطبة، ص. 172.
(92) نفسه.
(93) نفسه.
(94) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج. 2، ص. 61.
(95) عياض، المرجع السابق، ج.6، ص. 98.
(96) ابن الفرضي، المرجع السابق، ج.2، ص.61.
(97) عياض، المرجع السابق، ج. 6، ص. 97.
(98) نفسه، ج. 6، ص. 107.

وآخر هذه الجماعة أحمد بن محمد بن يحي بن عبيد الله المكنى بأبي القاسم وقد روى عن غير واحد بقرطبة، ثم رحل إلى المشرق وسمع بمكة من أبي سعيد بن الأعرابي عام 338 هـ /948م، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن السراج ببيت المقدس وأبي علي بن السكن معجمه في الصحابة وعبد الله بن جعفر ـ ربما ـ ابن الوردي المصري (99). ولا نملك بعد ذلك أي معلومات عنه. ويظهر أنه قام بأكثر من رحلة إلى المشرق، كما يمكن أن نستنتج أن اهتمامه بالعلم قد يجعل منه أحد الرجال البارزين في قرطبة، لكن كتب التراجم التي ذكرته لم تبين أي شيء من ذلك. وحتى تاريخ وفاته فلا نعرفه، وآخر ما نعرفه عنه هو أنه كان حيا سنة 357 هـ / 967 م لأن الحكم الثاني نسخ من نسخة له ـ ربما الموطأ (100).

يمثل هؤلاء الرجال الثلة التي أنبتها هذا البيت العريق، أو للتأكيد أكثر ما تعرفنا به المصادر لأنه قد يكون هناك من لهم نصيب من العلم، و لم يكتب لهم الظهور. واختفاء النوابغ من كتب التراجم لايفيد أبدا أن رجال هذا البيت قد انقرضوا وانتهوا، ولكن فقط فقدوا مراكز الصدارة. ويخبرنا ابن حزم عن ذلك في هذه الجملة: «وبنو يحي بن كثير صاحب مالك، وكانت لهم ثروة وعدد، وقد بقيت لهم بقية يسيرة» (101) ولكن عدم وجود أي ذكر لهم، خاصة في اضطرابات بداية القرن 5 هـ / 11م، تثبت أن هذا البيت قد ضعف بحق وتراجع إلى الأماكن الهامشية بعد حوالي قرنين ونصف من النبوغ والعمل.

5- ملاحظات حول اشتغال آل أبي عيسى بالعلم

اشتهر بيت أبي عيسى بكونه بيت فقه، حيث توارث أبناؤه ورجاله الفقه وتناقلوه. وكان منهم في كل الفترات أحد نوابغ الأندلس. وارتبطت رواية الموطإ بهذا البيت، فبعد أن أخذه يحي بن يحي عن مالك وتلاميذته ونشره بالأندلس، ورث عنه روايته ابنه عبيد الله،

(99) ابن عبد الملك المراكشي، المرجع السابق، ج. 1، ص. 527، ابن الآبار، المرجع السابق، ج.1، ص. 14.
(100) نفسه.
(101) ابن حزم، الجمهرة، ص. 500.

ثم انتقل المشعل إلى حفيد أخيه يحي بن عبد الله بن يحي (ت 367 هـ /977م). وكان كل أبناء الأسرة يحرصون على أخذه في بداية حياتهم العلمية، لذلك نجد حتى أولئك الذين لم يشتهروا منهم بسعة العلم والتعمق فيه مثل إسحاق بن يحي وعبد الله بن يحي يحملون رواية في الموطإ.

اتضح من خلال تتبع شخصيات رجال هذا البيت أنهم كانوا أوفياء للرحلة إلى المشرق لطلب العلم، حيث يزورون إفريقية ومصر والحجاز وحتى العراق، وهذا تقليد ثبته مؤسس هذا البيت العلمي يحي بن يحي.

وشهدت نوعية العلوم التي يهتم بها أهل هذا البيت تطورا واضحا فيحي وأبناؤه لا يتجاوز اهتمامهم الفقه، وخاصة رواية كتاب الموطإ مع اهتمام ضعيف بالآداب. لكن وانطلاقا من الجيل الثالث توسع اهتمامهم بالعلم، فإضافة إلى الفقه كمادة أساسية، فقد خصصوا جزءا من اهتمامهم للغة العربية والأدب والشعر والحديث والتفسير والآثار (تاريخ). وهذا التغيير يندرج في إطار التغيير الذي عرفته الحياة العلمية الأندلسية. بحيث توسعت خلال القرن 4 هـ /10م بشكل كبير وظهرت تخصصات متعددة.

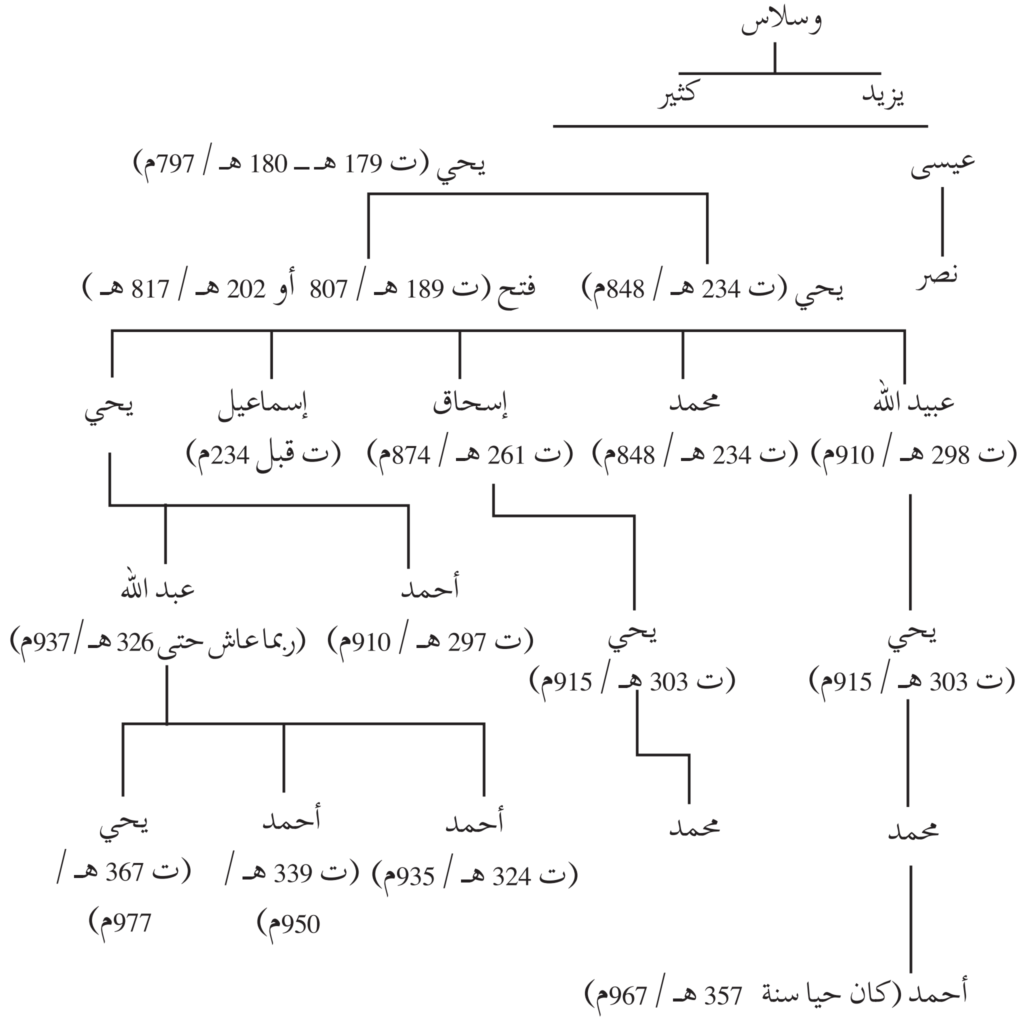
وحقق آل أبي عيسى أوج عطائهم في الجيل الثالث (أواخر القرن 3 هـ / 9م وبداية القرن 4 هـ / 10م)، حيث كثر رجالهم، وكلهم نبغ خاصة في ميدان الفقه وعلا ذكره في رواية العلم وتولي مناصب القضاء أو الشورى.

خلاصات

تنتمي أسرة أبي عيسى إلى كثير من وسلاس المصمودي المكنى بأبي عيسى. وقد استقر في الأندلس وخاصة في قرطبة منذ الفتح الإسلامي. واستطاع هذا البيت أن يحصل على مكانة متميزة في الأندلس عامة وقرطبة خاصة. وارتبط رجاله بالبيت الأموي الحاكم بعلاقات متينة. لكن المجد العلمي للأسرة أسس على يد الحفيد يحي بن يحي صاحب مالك، وناشر مذهبه بالأندلس، وقد زادت ثروة هذا البيت وجاهه بفضل التعاطي للتجارة واستغلال الأرض وتولي المناصب خاصة القضاء وتوابعه.

لقد مكننا تتبع تطور هذه الأسرة العلمي ورجالاتها من الحصول على صورة عن تطور الحياة العلمية في الأندلس، إذ مرت اهتماماتها من التركيز على الفقه في البداية، ثم الانفتاح على التخصصات الأخرى مع اقتصار أغلبها على العلوم النقلية. وقد كان لأبناء هذه الأسرة تقاليد متوارثة أهمها : الحرص على رواية الموطإ والرحلة إلى المشرق لطلب العلم خاصة بمصر والحجاز. لكن النصف الأخير من القرن 4 هـ / 10م شهد تدهورا وتراجعا لهذه الأسرة. فرغم استمرار وجودها بالمدينة، وربما، حفاظها على ثروتها المادية، فقد فقدت ثروتها العلمية مصدر تميزها وشهرتها وعزها. وصارت تعيش على أمجاد الماضي وذكرياته.

شجرة نسب آل أبي عيسى



مصدر: إنجاز شخصي بالاستعانة بالشجرة التي وضعتها الباحثة الإسبانية :

(M) Marin, op.ciy, p. 316.

حصيلة ونتائج

لقد تركز اهتمامنا خلال هذا القسم حول الحياة الثقافية الأندلسية، ولكن من زاوية المشاركة البربرية فيها. وكان زادنا خلال الرحلة هو 108 ترجمة لعلماء بربر أندلسيين، فقط، مع أن قيمتها تختلف بشكل صارخ، فهي في أحيان كثيرة لاتتجاوز بضعة أسطر وتصل أحيانا إلى صفحات، لكنها في بعض المرات لا تتعدى مجرد ذكر لاسم المعني بالأمر. وبالرغم من هذه الندرة والقلة، فقد ساعدنا المنهج الذي اخترناه. والتوأدة التي حاولنا أن نعالج بها الموضوع من الخروج بمجموعة من الاستنتاجات والخلاصات، لا نعتقد أنها كل النتائج الممكن التوصل إليها، ولكن فقط معظمها.

انصب اهتمامنا في البداية على موضوع تحديد أهم خصائص المشاركة البربرية زمانيا ومكانيا وإثنيا. ومكننا التحري الذي أجريناه من الحصول على عدة نتائج وخلاصات.

فمن ناحية التوزيع الزمني ثبت أن المسيرة العلمية البربرية في الأندلس مرت بطورين مختلفين : طور أول يمتد منذ عهد عبد الرحمن الداخل حتى نهاية عبد الرحمن الثاني، حيث كان عدد العلماء البربر محدودا وقليلا. وطور ثاني ما بعد هذا التاريخ وحتى نهاية فترة الدراسة، وفيه شهدت المشاركة البربرية تزايدا واضحا وسريعا، وكثر عدد العلماء البربر. وكان القرن الرابع هـ / العاشر م أوج العطاء البربري والأندلسي عامة. وقد اتضح لنا أن هذا التطور يرتبط أساسا بتطور الحركة العلمية بالأندلس عامة، وببعض تقاليد البربر التي تقوم على العزلة وقلة الاتصال بالآخرين، وما أن ضعف دور هاذين العاملين حتى أظهر البربر حقيقة ما يخفونه في كوامن أنفسهم.

ومن جانب التوزيع الجغرافي تمكنا من إيجاد علاقة ترابط بين مناطق استقرار البربر بكثافة، وعدد العلماء النابغين، بحيث إن تلك المناطق تحتكر أكبر عدد من العلماء البربر.

على أن هذه القاعدة تنطبق أكثر على المناطق التي يتوفر فيها شرطان إضافيان هما : كونها مراكز علمية وأيضا استقرار العرب إلى جانب البربر. ولهذا نجد أن قرطبة وكورة موررور والثغر الأوسط تحتل المراتب الأولى.

وأظهر تتبع انتماء العلماء البربر الإثني أن زناتة تأتي في مرتبة أولى وبعدها من لا انتماء لهم ثم مصمودة فصنهاجة. ولكن مصمودة تتميز بكونها رائدة الحركة العلمية في الأندلس، بينما تأخر دور باقي المجموعات في البروز حتى القرن 4 هـ / 10م. وانكشفت لنا حقيقة أخرى تتعلق بكون أكثر من ثلث العلماء البربر ينتمون إلى أسر محدودة : آل أبي عيسى وآل منذر بن سعيد وآ ل ذكوان وآل الزجالي وآل عباس بن ناصح. كما أن الموالي هم الأسبق إلى الميدان العلمي، ولكن دورهم ما فتئ يتراجع ليضعف خلال القرن 4 هـ / 10م.

ومن خلال تتبع التخصصات العلمية التي اهتم بها البربر، ظهر أنهم شاركوا في كل العلوم التي تجد لها سوقا في الأندلس. مع أن الفقه والآداب واللغة تشكل العنصر الأساسي في ثقافتهم. و لم تحظ العلوم العقلية إلا باهتمام ضعيف، ولانعتقد أن المسألة خاصة بالبربر لوحدهم، بل إن الظاهرة تشمل كل الأندلس. وتمكنا من خلال تتبع تطور التخصصات الزمني أن نكتشف أن البربر مالوا خاصة خلال القرن 3 هـ / 9م إلى الفقه والآداب واللغة، ولكن وانطلاقا من نهاية القرن، ظهرت تخصصات جديدة، وتوسع عدد العلوم المطلوبة، بحيث ظهر ضمن اللائحة الحديث وعلوم القرآن والمنطق والهندسة والحساب والزراعة.

وبحثا منا عن بعض أوجه التجديد التي أدخلها البربر على الثقافة الأندلسية، توقفنا عند شخصيتين بارزتين هما : يحي بن يحي الليثي ومنذر بن سعيد البلوطي، وكلاهما فقيه كبير في الأندلس، ذاع صيته وبلغت شهرته مناطق بعيدة. وظهر من خلال تتبع ما كتب حول الأول أنه يعتبر الناشر والمرسخ للمذهب المالكي في الأندلس بفضل علمه بالمذهب وجهوده في القضاء والتعليم من أجل تعميمه، وقد نجح إلى حد بعيد في هذه الغاية. أما الثاني، فقد ارتبط اسمه بالمذهب الظاهري، إذ يعتبر أول من تبنى المذهب في الأندلس ودافع عنه، ورغم أنه لم يعمل على نشره في البلاد لوجود عراقيل متعددة تحول دون ذلك، فقد ركز حملته على

وسطه العائلي والمقربين منه، وترك ابنين هما : حكم وعبد الملك، وكلاهما ضليع في مذهبه ذاب عنه، وبذلك يكون قد مهد السبيل للظاهري الكبير ابن حزم.

حاول الفصل الرابع أن يطرح إشكالية المساهمة البربرية في حضارة الأندلس، فاتضح أن الوصول إلى نتائج متينة وثابتة في هذا الموضوع أمر شبه مستحيل في ظل الوضع الحالي للبيبلوغرافية المعتمدة. إذ أننا، ورغم حصولنا على بعض الإشارات التي تثبت الحضور البربري، لكننا سرعان ما نكتشف أنها ذات بعد متوسطي أو تتشابه مع ما هو موجود عند العرب. لذلك فأغلب آراء الباحثين تميزت بالتردد، وكلهم يلجأ إلى الترجيح بدل التأكيد والإثبات. و لم يكن في متناولنا أن نسير بدورنا أبعد من ذلك، رغم أننا حاولنا إعطاء لائحة موسعة للجوانب الممكن إيجاد حضور تأثير بربري فيها.

أخيرا مكنتنا دراسة أسرة آل أبي عيسى من مشاهدة أهم خصائص المشاركة العلمية للبربر من خلال نموذج محدود. فهي تبين لنا سبق المصامدة، ودور الموالي الفعال، وتعطينا أيضا صورة عن التوزيع الزمني، فدورها ظل محدودا حتى منتصف القرن 3هـ / 9م، بحيث لانجد إلا إسما كبيرا هو يحي المؤسس. ولكن وبعده تزايدت أعداد العلماء وكثرت، وحققوا الأوج خلال النصف الأول من القرن الرابع هـ / العاشر م. وعلى الصعيد الجغرافي، فالأسرة تستقر بقرطبة، وهي من المناطق الآهلة بالسكان البربر، والمستجيبة للشرطين الآخرين وهما : وجود مراكز ثقافية واحتكاك بالعرب. ومن جانب التخصصات، فالجيل الأول والثاني اكتفى بالفقه وخاصة الموطأ، وفي أحسن الأحوال نتف من الأدب ولكن الجيل الثالث والرابع، سيفجر الحواجز وسيوسع أفقه، بحيث يبقى الفقه ملازما، وإلى جانبه تظهر علوم القرآن والحديث واللغة والآداب والآثار. وما نجده في تاريخ هذه الأسرة ينطبق تماما على النتائج التي سجلناها بالنسبة لكل المساهمة البربرية، وبعضه يتوافق مع المسيرة العلمية بالأندلس.

لقد تمكنا من خلال اختيار المنهج الكمي أن نحصل على نتائج متنوعة أثبتت لنا اتجاهات عامة سبق وأن توصلنا إليها في الأقسام السابقة، وهي أساسا كون النصف الثاني من القرن 3 هـ / 9م مرحلة تحول عميق في الوجود البربري بالأندلس.

خاتمة

تأكد لنا من خلال دراستنا لموضوع تاريخ البربر في الأندلس أن البربر كانوا عنصرا فعالا ونشيطا سجل حضوره في كل أطوار هذا التاريخ وجوانبه السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية. لكننا في نفس الوقت اكتشفنا أن مشاركته كانت في بعض الأحيان بسيطة ومتواضعة، بل تافهة أحيانا إذا ما قورنت بمثيلتها العربية بالخصوص. واتضح أن هذه الصورة نتجت عن عوامل متنوعة، أولها، المصادر التاريخية التي أهملت الحديث عن البربر وهمشت كل ما يتعلق بهم خاصة وأن الكثير منها كتب بعد القرن 4 هـ / 10م، وبعد موجة العداء الكبيرة التي قامت في الأندلس ضد البربر عقب أحداث بداية القرن 5 هـ / 11م. وثانيها، يتعلق باحتكار العرب لأهم المناصب والمواقع الحساسة في الحياة الأندلسية، وتهميش باقي العناصر السكانية بمن فيهم البربر، و لم يتكسر هذا الحصار إلا عقب ضعف العصبية العربية انطلاقا من الثلث الأخير من القرن 3 هـ /9م. وثالثها، ميل البربر إلى العزلة، والأنفة من خدمة الغير. ثم الاستقرار بالبادية بعيدا عن اهتمامات أهل المدن المتنوعة. لكن دورهم سيزداد بمجرد ما بدأت هذه العناصر تفقد جزءا من قوتها وتضعف.

أظهرت الدراسة أن منتصف القرن 3 هـ / 9م، كان نقطة تحول عميقة في حياة بربر الأندلس، إذ يعتبر قنطرة بين مرحلتين. مرحلة أولى تمتد من الفتح حتى هذا التاريخ، حيث كان البربر يعيشون في حالة عزلة شبه تامة، وكان دورهم في تطور الأندلس التاريخي جد متواضع. ومرحلة ما بعد هذا التاريخ حتى نهاية فترة الدراسة، حيث خرج البربر من عزلتهم وبدأوا يتكيفون مع الحياة الأندلسية، ويسايرون مختلف تطوراتها وفي كل الميادين. وكان القرن 4 هـ / 10م، هو قرن النبوغ والإبداع البربري في الأندلس. لقد كان منتصف القرن 3 هـ / 9م، بحق فترة تحول حاسمة في تاريخ الأندلس، فقد شهد استقرارا للسكان البربر في الأندلس وتوقفت الهجرات الجديدة، وعرف تغيرا في التنظيم الإجتماعي من نظام قبلي جماعي إلى سيطرة بعض الإقطاعيين على شؤون القبيلة، وحققت حركة الاستعراب تطورا كبيرا، وشارك البربر بوضوح في الإدارة السياسية والقضائية الأندلسية وتخلوا عن نزعتهم الإنفصالية، ثم حققوا نتائج مهمة في الميدان الثقافي وزاد عدد علمائهم ومثقفيهم.

مر استيطان البربر للأندلس بعدة مراحل، حيث تمكننا من خلال تتبع ظاهرة الهجرة البربرية إلى الأندلس من تحديد أهم الفترات التي عرفت فيها نشاطا مهما، وفترات ركودها. فمنذ الفتح حتى نهاية القرن 2 هـ /8م، كانت هجرة البربر إلى الأندلس متواصلة وأغلب الهجرات جماعية ولأسباب دينية وسياسية، ربما كانت اختيارية واستقطبت رجالها من البادية المغربية. وتجددت الهجرة خلال القرن 4 هـ /10م، لكنها هذه المرة كانت جماعية وفردية، وجمعت بين الاختيارية والإجبارية (تهجير)، أما عواملها فقد صارت أكثر تنوعا، إذ هي سياسية وعسكرية وعلمية ودينية واقتصادية وكان القرن 3 هـ / 9م، مرحلة هدوء بحيث توقفت الهجرة، و لم تظهر بوادر تجددها إلا في نهايته.

ويجب أن نسجل أن كل المهاجرين إلى الأندلس لم يكونوا يستقرون بها بصفة نهائية مادامت فئة مهمة منهم تعود إلى مواطنها بعد فترة في إطار هجرة مضادة. كما أن استقرار البربر بالأندلس عادة ما يمر بمرحلتين، مرحلة أولى يستقرون فيها بوسط الأندلس حول قرطبة، ومرحلة ثانية يضطرون فيها نتيجة ظروف سياسية قاسية إلى الإنتقال إلى الثغور الشمالية والغربية وجنوب البلاد.

تتبعنا أهم النظريات الواردة بشأن مواطن البربر بالأندلس، فإذا هي حتمية تربط بين أصول البربر في شمال إفريقيا وطبيعة مواطنهم الجديدة في الأندلس، لكننا، ورغم تسجيل استقرار البربر في مناطق جبلية أو هضبية في شمال وغرب وجنوب البلاد، وجدناهم أيضا في مناطق سهلية مثل شرق الأندلس وحوض الوادي الكبير ووادي التاجو وأنة وسهلة بني رزين وكورة مورور. وهذا يخفف من الحكم الذي يصدر بشأن مواطنهم. وتوصلنا من خلال تحليلنا إلى أن وجوهم بالجبال لم يأت اختياريا، بل جاء استجابة لتطورات واختيارات سياسية لحكام الأندلس من خلال الرغبة في الحفاظ على مكتسبات الفتح بتكوين جدار بشري في الجبال الشمالية، أو بمطاردة البربر وتقتيلهم أثناء الثورات، فاضطروا إلى التحصن في تلك المناطق المحصنة طبيعيا. أما بشأن نزولهم بالمدن، فاتضح أنهم نزلوا المدن رغم أن المصادر لا تسعفنا في معرفة أهميتهم بها. لكن نموذج قرطبة، يعطي الانطباع بوجودهم بالمدن بأعداد مهمة وأكثر مما تظهره المصادر.

وبدا لنا من خلال تتبع حياة البربر في مواطنهم أنهم حافظوا على تنظيماتهم القبلية. وارتكز التنظيم على العشيرة أو الأسرة الكبيرة. ويتم تسيير شؤون المجموعة وفق مبدإ الشورى والتوافق الجماعي، رغم أن هذا النظام قد تغير انطلاقا من منتصف القرن 3هـ /9م، إذ تمكن بعض الأمراء من السيطرة على مصير العشائر، وتوارث أبناؤهم قيادتها، مهمشين مبدأ الشورى وكانت العلاقات داخل هذا النظام تتم وتتحدد وفق الروابط الدموية ومبدإ النعرة والعصبية. وللحفاظ على هذا النظام تمسكت الجماعات البربرية بالزواج الداخلي خاصة بين أبناء العشيرة، ولكن هذا لم يمنع من وجود زواج مصلحي بأجنبيات وظلت اللغة البربرية، خاصة في البوادي، لغة أساسية، وهي إن لم تكن الوحيدة، فقد استخدمت إلى جانب اللغة العربية كلغة لمخاطبة الأجانب.

نظر أهل الأندلس خاصة والعصر الوسيط عامة إلى البربري نظرة احتقار وتدني، ورسموا له صورة قاتمة، إذ تحامل أهل الأندلس على كل ما هو بربري وسخروا منه ورفضوه. وتأثر البربر بدورهم بهذا الموقف، فنشأ لديهم حس الدونية والنقص، وحاولوا، إخفاء هويتهم بالاندماج في كل ما هو عربي أو بالانكماش والإنطواء على الذات.

على الصعيد السياسي، تأكد أن البربر لم يكونوا ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ عنصر انشقاق وانفصال دائم. ويؤكد ذلك وجودهم في كل الأوقات في صف الجماعة، إذ كان منهم الحجاب والوزراء والكتاب والعمال والقضاة والمشاورون وذلك منذ عهد عبد الرحمان الداخل حتى سقوط الخلافة الأموية. كما شاركوا في الجيش الأموي كمجندي كور أو مرتزقة، ودافعوا عن الإمارة والخلافة الأموية، بل وعن الوجود الإسلامي بالأندلس. وخدموا دولة الجماعة، وساهموا في نشأتها واستقرارها. ولكنهم أيضا كانوا في بعض الأوقات ثوارا ومتمردين. واتضح لنا من خلال تتبع كل أنواع الثورات أن الإنفصالية منها قد توقفت انطلاقا من العقد الرابع من القرن 3 هـ /9م، ثم اختفت تاركة المجال لنوع التمردات الإقطاعية. وهذا دليل آخر على اندماج البربر في الحياة الأندلسية انطلاقا من هذا التاريخ. والصورة التي ترسمها مشاركة البربر في الحياة السياسية هي نفسها التي نجدها عند غيرهم وخاصة العرب الذين لم ينعتوا مع ذلك بأنهم عنصر انشقاق دائم.

وسجل البربر حضورهم في الميدان الثقافي، رغم أن هذه المشاركة جاءت متأخرة نسبيا، ذلك أنها لم تنطلق فعليا إلا في منتصف القرن 3 هـ / 9م. وكان المصامدة رواد الحركة العلمية البربرية في الأندلس، بينما كان الزناتيون أكثر العناصر مشاركة، كما أن بربر قرطبة والثغر الأوسط وكورة مورور أكثر العناصر اهتماما بالعلم.

وظهر ـ شأن باقي أهل الأندلس ـ أن البربر كانوا منجذبين بالفقه واللغة والأدب أكثر، واهتموا أيضا بالقرآن والحديث. أما العلوم العقلية، فدورها ظل ضعيفا وانعدم أحيانا كما هو شأن الطب والكيمياء والصيدلة. وأدخل البربر بعض التجديد خاصة في الفقه بإدخال مذهبين جديدين هما : المذهبان المالكي والظاهري على يدي يحي بن يحي الليثي ومنذر بن سعيد البلوطي.

لقد طبعت تاريخ البربر في الأندلس، وفي كل الميادين، أسر كبيرة احتكرت ميادين اهتمامها مثل : أسرة بني ذي النون الأميرية وأسرة بني الزجالي الإدارية وأسر منذر بن سعيد ويحي بن يحي الليثي وآل ذكوان وآل عباس بن ناصح في القضاء والفقه والأدب. واحتكرت هذه الأسر ميادينها لفترة طويلة، وتوارثه أبناؤها وعملوا بحرص على استمراره فيهم. ولا نعتقد أن هذه الظاهرة خاصة بالبربر فقط، بل هي سمة أندلسية إذ وجدت لدى العرب والموالي والمولدين أيضا.

أخيرا أظهر لنا تتبع مساهمات البربر في الحضارة الأندلسية أنها مساهمة متواضعة، وتقتصر على بعض الميادين مثل : الصنائع الصغيرة والفلاحة وخاصة تربية الماشية والري والجندية وإدخال مذاهب خاصة غير السنية واتضح أن هذا الضعف ناتج عن شح المصادر وإعراضها عن الجوانب الحضارية، أو ذكرها دون تحديد أصولها، وعن قوة النموذج الحضاري العربي الإسلامي وتغلبه على باقي النماذج، وعن ضعف الحضارة البربرية وبساطتها وخذلان أبنائها الذين استلبوا وأخذوا بالنموذج العربي.

يمكن القول إن الوضع الحالي لمصادرنا لن يسمح لنا بتحقيق نتائج أكثر مما حققناه، والوصول إلى نتائج أخرى رهين باكتشاف مصادر جديدة، ولكن أساسا بتطور البحث الأركيولوجي في التاريخ الإسلامي في الأندلس، مادام هو الوحيد الذي يمكنه أن يخلصنا من شح ونمطية ورتابة المصادر المكتوبة، ويمدنا بمعلومات متنوعة ومخالفة لما هو سائد.

ملحق 1
امتدادات موضوع البربر في الأندلس

1- طبيعة المشاركة البربرية/ الأمازيغية في حياة الأندلس

خلال عهدي الولاة والأمويين (92–422 م/ 711 –1031م)[1]

وصل الإسلام إلى الأندلس في نهاية القرن الهجري الأول/ بداية الثامن الميلادي وحمل معه هجرة كثيفة لعناصر بشرية مختلفة شكل العرب بفرعيهم اليمني والقيسي والبربر/ الأمازيغ أهم عناصرها. وقد كان لهذه العناصر دور ما في بناء حضارة الأندلس وتطور حياتها على جميع الأصعدة. وبالرغم من كون الإسلام كنظام عام الموجه الرئيسي للحضارة الإسلامية فقد اعتبرته العناصر العربية عربيا وتبوأت موقع الصدارة في هذا المجتمع ووجهته بناء على تصورها ومصالحها، بينما بقيت الأجناس الأخرى في موقع التبعية وكان عليها أن تحارب لإثبات وجودها وفرض مساهمتها. وكان البربر/ الأمازيغ؛ سواء في بلدهم المغرب أو في الأندلس، في هذا الموقف والموقع. فما هي قيمة وحجم مساهمتهم في هذه الحضارة؟

إن المعطيات التي تتوفر لا تشجع كثيرا على الخوض في هذا الموضوع نظرا لقلتها ولغلبة الطابع السياسي والثقافي على معظمها مما يفرض على الباحث العمل بحذر كبير والتدقيق في البحث عن المعلومة وتوجيهها في وجهتها الصحيحة بعيدا عن كل انزلاق. ويجب أن نشير إلى أن الخبرة التي تكونت لدينا في هذا الميدان سمحت لنا بأن نكتشف بأن المادة التاريخية التي توفرت حول البربر أحسن بكثير مما توفر حول العناصر العربية نفسها (اليمنية والقيسية)[2]، لكن طموح وطمع الباحث المعاصر تجعله في أحيان كثيرة يعبر عن إحباطه باتهام المصادر دون أن يتنبه إلى تقاليد العصر أو العصور التي كتبت فيها وطبيعة المعلومة المطلوبة. وبعيدا عن هذا المشكل سنحاول أن نضع تصورا لهذه المساهمة من خلال العناصر التالية:

- تكوين الجماعة البربرية/الأمازيغية في الأندلس
- الحضور السياسي والعسكري للبربر في الأندلس

(1) قدم هذا العمل في ندوة دولية «مساهمة الأمازيغ في تاريخ وحضارة الأندلس» المنظمة الأوربية العربية للدراسات العليا بغرناطة بإسبانيا أيام 5 و 6 و 7 نونبر 2015 بموضوع «طبيعة المساهمة البربرية في حياة الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (422–92هـ/1031–711م).

(2) انظر كتابنا اليمنية في الأندلس، مطبعة عين أسردون، بني ملال، 2014

- مساهمات في ميدان الثقافة والحضارة عامة
- تقييم للمساهمة وتحديد العوامل المحددة

1- تكوين الجماعة البربرية/ الأمازيغية في الأندلس

بدأ استقرار البربر في الأندلس مع حركة الفتح الإسلامي الذي انطلق بحملة طارق بن زياد عام 92هـ/711م، ليتخذ شكل مسلسل طويل ومستمر على مدى فترة الدراسة. وقد درسناه في كتابنا «البربر في الأندلس»[(3)] وفق منهج يقوم على تحديد دورات هجرية وبناء على المعايير المعتمدة حددنا ثلاث دورات: الدورة الأولى (92/711/136هـ/754م) والدورة الثانية (138–756/202هـ/817م) والدورة الثالثة (300–911/422هـ/1031م). وأظهر التحليل أن تيار الهجرة كان مستمرا ومتواصلا طيلة القرنين الثاني والرابع الهجريين، بينما كان القرن الثالث فترة خمول وهدوء.

حملت الهجرة أعدادا غير دقيقة من المهاجرين فباستثناء حملة طارق التي تميل الآراء إلى تحديد رجالها في حوالي اثنا عشر ألف رجل كلهم تقريبا من البربر[(4)]، فإن أعداد باقي الهجرات غير محددة ولا دقيقة. وأكثر من هذا فتقاليد العصر والتنظيم الاجتماعي القبلي القائم لا يسمحان بعبور أشخاص منفردين خاصة من الأعيان، مما يرشح عدد المهاجرين للتضاعف مرات عديدة.

وإذا صدقنا وأخذنا بمحتوى هذا النص الذي يقول: «وتسامع الناس من أهل العدوة بالفتح على طارق وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق»[(5)] فالهجرة اتخذت طابعا شعبيا شارك فيها الجميع من أفراد وجماعات مستخدمين كل ما وجدوه للعبور. وهذا يزيد من صعوبة تقدير المهاجرين. وستكون السمة الفردية للهجرة واضحة خلال القرن الرابع عندما بدأ أفراد يجتازون المضيق إلى الأندلس للجهاد أو طلب العلم أو الفرار من الفاطميين وخصومهم من جيرانهم[(6)].

عرفت أيضا هذه الفترة هجرة مضادة بعودة أعداد من المهاجرين نحو المغرب، وكانت فترة (123-136هـ) وسنة 202هـ وما بعد 399هـ أهم الأوقات التي حصلت فيها وأفقدت الأندلس أعدادا مهمة من بربرها [(7)].

---

(3) حقي محمد، البربر في الأندلس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص.(31–57)

(4) نفسه، ص.34.

(5) المقري، نفح الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1949، ج1، ص.243.

(6) البربر في الأندلس، ص47–48.

(7) نفسه، ص. 37–38 و 42–43 و 51–52

وقد انتهت الحركة الهجرية باستقرار أعداد مهمة من البربر جعلت منهم العنصر الدخيل الأول في البلاد متفوقين على العرب بفريقيهم اليمني والقيسي ومتخلفين عن الإسبان السكان الأصليين للبلاد.

حركت المهاجرين غايات مختلفة لكننا من خلال دراسة الدورات تمكنا من معرفة أن الدورة الأولى حركها الجهاد والثانية خدمة الجيش الأموي والثالثة الصراع السياسي في المغرب بين الأمويين والفاطميين وبين الزعماء المحليين[8].

ومن خلال تتبع القبائل المهاجرة اتضح أنها مكونة بالدرجة الأولى من قبائل شمال المغرب الكبير من زناتة وصنهاجة أما مصمودة فحضورها ضعيف جدا. وباستغلال مختلف النصوص وأسماء الأماكن وتراجم العلماء أمكن رسم خريطة للاستيطان البربري في الأندلس، إذ استقرت الصورة الأخيرة على استقرار كثيف جدا في الوسط والغرب والجنوب (الثغران الأوسط والأدنى وكور الجنوب)، بينما كان الاستيطان متوسطا في شرق الأندلس وأقصى جنوبها الغربي وضعيف في الثغر الأعلى[9] . وقد أثير نقاش حول المواطن التي استقر بها البربر وذهب باحثون غربيون وعرب (ليفي بروفنصال ـ أرييس ـ مؤنس ـ السالم ـ الحجي...)؛ مقلدين ومرددين لرأي مؤرخي العصور الوسطى، إلى أن البربر اختاروا الاستقرار بالجبال وتركوا السهول للعرب بناء على تقاليد البربر[10] . لكن هذا الرأي يحتاج إلى تدقيق وهو ما بحثنا عنه[11] من خلال استقراء سياسة القواد والولاة والأحداث العسكرية للأندلس، حيث اتضح أن مواطن البربر لم تكن أولا كلها جبالا بل تحتوي سهولا ومنبسطات في المناطق التي استقروا، وثانيا إن وجودهم في هذه المناطق لم يكن اختيارا منهم وإنما فرضته سياسة الحكام وسذاجة البربر وقلة خبرتهم في أمور الفتح والأرض وتطور الأحداث السياسية والعسكرية طيلة فترة الدراسة. فعندما دخل طارق الأندلس مع البربر لم يكن أحد منهم يفكر في استعمار الأراضي التي فتحوها لأن الحماس أخذهم وحاولوا تحقيق أكبر قدر من الانتصارات لأنهم لم يشاركوا من قبل في فتوحات و لم يعيشوا الصراع حول الأرض الذي عاشه العرب منذ وقت مبكر يعود إلى عهد عمر بن الخطاب، لذلك وجدناهم عندما مروا من الغرب مع موسى تركوا من يضمن لهم احتلال تلك البلاد وصار الغرب ضيعة يمنية فيما بعد [12] .
ولما توقف طارق في نواحي طليطلة لقضاء الشتاء انتشر هناك البربر واتخذوا تلك البلاد موطنا، ولما قرر موسى العودة إلى المشرق أمر بعض الجنود بالبقاء هناك لحماية مكتسبات الفتح فكانوا من البربر أساسا. وهكذا يلاحظ أن جهل البربر بظروف الفتح والاستقرار بالأراضي الجديدة وسياسة طارق وموسى بن نصير قد ساهمت في استقرارهم الكثيف بالثغر الأوسط والأراضي الممتدة من شنتمرية شرقا حتى قورية غربا. وجاءت الأحداث

(8) نفسه، ص.56

(9) انظر الخريطتين، البربر في الأندلس، ص.95–96

(10) نفسه، ص.61–63

(11) نفسه، ص.64–65

(12) اليمنية في الأندلس، ص.48–54

الكبيرة التي شارك فيها البربر فيما بعد (ثورة الخوارج 123هـ/ ثورات ضد عبد الرحمن الداخل وهشام / ثورة الربض 202هـ/ الفتنة البربرية 399هـ) وما تلاها من مطاردات وهروب للبربر نحو الهوامش لتحدد المواطن التي وجد بها البربر.

احتفظ البربر بنظامهم الاجتماعي القبلي[13]، وشكلت العشيرة كوحدة ملموسة ومحدودة المجال وحدته الرئيسية. وتبنى العلاقات في هذا النظام على أساس دموي يفترض انتماء كل عناصرها إلى جد واحد مما يفرض تضامنا وتلاحما مستمرا بين أفراده، ويبقي الأفراد والأسر مرتبطة بعشائرها حتى بعد مغادرتها للإقامة في أماكن أخرى، فبمجرد ما يظهر أي طارئ (ظلم ـ إهانة ـ مساعدة...) يسرع البربري بالعودة إلى عشيرته أو يلوح ويهدد به. ويزيد الزواج بين أبناء العشيرة الواحدة أو حتى عشائر مختلفة هذا النظام تماسكا واستمرارا.

وبالرغم من قلة المعلومات فإن البربر عند الأزمات الكبرى يظهرون تلاحما وتضامنا قوميا كبيرا كما حصل في ثورة 123هـ/741-740م حيث عمت الثورة كل بربر الأندلس عدا في مناطق محدودة في الثغر الأعلى[14]. ونفس الشيء حصل فيما يعرف ب «الفتنة البربرية» في نهاية القرن 4هـ/10م حيث شكل البربر حلفا أمام الحلف الأندلسي[15]. دون أن يعني ذلك غياب التنافس والصراع على الصعيد المحلي[16].

أما اللغة فقد اختلف في شأنها بين رأي مدافع عن تعريب سريع وكامل ورأي مدعم للتعريب المتدرج، ونحن نعتقد وبناء على الإشارات القليلة التي نتوفر عليها ومنها هذا الكلام لابن القوطية؛ بمناسبة حديثه عن ثورة عبد الغفار ضد الداخل عام 149هـ/768م، الذي يقول: «فسمع [الداخل] كلام البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية، فدعا بمواليه من بني الخليع وبني وانسوس وغيرهم، فقال خاطبوا بني عمكم وعظوهم (...) فلما أظلم الليل دنوا من العسكر، وخاطبوهم بالبربرية، فأجابوهم إلى ما أحبوه»[17] فهؤلاء المعنيون من الثوار أو من الموالي ما زالوا يتكلمون اللغة البربرية كلغة أولى في الحياة اليومية، وهم من الناحية العمرية من أبناء الفاتحين مما يعني أن هذه اللغة ظلت صامدة كلغة للتخاطب اليومي للبربر؛ وربما لن تفقد هذه المكانة إلا بعد مرور جيلين أو ثلاثة أجيال مما يصل بنا إلى الثلث الأخير من القرن 3هـ/9م. وهذه فعلا كانت فترة تحول كبير في تاريخ الأندلس واندماج البربر في المجتمع الأندلسي مما قد يفقد سلالة الفاتحين لغتهم. وقد استفادت من العلاقة العاطفية الكبيرة التي تربط البربري بلغته وما توفره له أيضا من فرص التعبير والتواصل مع أبناء جلدته. وسيتجدد وجود اللغة في الأندلس مع هجرات القرن 4هـ/ لتعود إلى الواجهة في تخاطبهم اليومي وقد سجل ابن الخطيب ذلك

(13) البربر في الأندلس، ص.97-100 و106

(14) أخبار مجموعة، ص 43

(15) تضامن ميز العصبيات في هذا العصر وقد سجلناه أيضا بالنسبة للعرب يمنا ومضرا وبالنسبة للإسبان مولدين ومستعربين. ويمكن العودة بالنسبة للعرب اليمن إلى كتابنا «اليمنية في الأندلس»، ص. 80-81.

(16) البربر في الأندلس، ص.109-110

(17) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص.55-56 وأخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص.98.

بالنسبة لعلي بن حمود الإدريسي[18] في بداية القرن5هـ/11م. مما يحملنا على التفكير على بقاء جزر لغوية بربرية صمدت في وجه التعريب كما حصل مع الإسبان وحتى مع عرب بلي شمالي قرطبة الذين حافظوا على نقاء عربيتهم وعاداتهم[19].

خلاصة الكلام هي أن البربر قاوموا وحافظوا على لغتهم و لم يسمحوا لعملية التعريب بابتلاعهم إلا بعد مرور أجيال كما أن تجدد تيار الهجرة كان يعيد الحياة لهذه اللغة باستمرار.

جماعة بربرية استقرت في البلاد عبر هجرات امتدت على طول فترة الدراسة عدا في القرن 3هـ/9م وحملت إلى هناك أعدادا مهمة تصدرت أرقام القادمين الجدد مخلفة العرب خلفها. وسيطر على المهاجرين العنصران الزناتي والصنهاجي في حين كانت أعداد المصامدة محدودة. واستقر البربر في مناطق الثغر الأوسط (حول طليليطلة) والموسطة (حول قرطبة) والثغر الأدنى في الغرب والجنوب بكثافات عالية، بينما كانت كثافاتهم متوسطة في الشرق وقلت كثيرا في الجنوب الشرقي والثغر الأعلى وأقصى الجنوب الغربي. ونظموا حياتهم وفق النظام القبلي المبني على التشاور والتضامن والزواج الداخلي. كما حافظوا على لغتهم بشكل متجدد تبعا لتوافد المهاجرين الجدد و لم تكن تفقد عند مجموعة إلا بعد أجيال. هذه هي الجماعة فكيف كانت مساهمتها في الحياة الأندلسية؟

2- مساهمة البربر في الحياة السياسية والعسكرية في الأندلسية

لا تسمح المعطيات التي وفرتها المصادر برسم صورة كاملة واضحة عن هذه المشاركة، لكننا لا نملك إلا أن نجمع الإشارات القليلة والتافهة في أحيان كثيرة ونعمل على رسم صورة انطلاقا منها. وهكذا حددنا طبيعة حضورهم السياسي والعسكري والإداري والثقافي في انتظار تقييمه في النقطة الأخيرة.

بحثنا عن وضع البربر في الإطار العام للتطور السياسي والعسكري للبلاد ككل، فحاولنا أن نبحث عنهم في أحداثها الكبرى. وقد انقسم حضورهم بين المساندة للسلطة القائمة بفرعيها الأموي المشرقي والأموي الأندلسي ومعارضتها والاندماج في البناء الحضاري للبلاد.

ففي جانب المساهمة في الأحداث الكبرى للبلاد؛ نقصد بها الفتح وقيام الدولة الأموية، فقد كان للبربر حضور لافت فيها. فأما الفتح فكان بربريا في كل شيء فكرة وقيادة (طارق وطريف) وجيشا وإنجازات وحتى

(18) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج4، ص.274 وأعمال الأعلام، دار المكشوف، ج2، ص.121.

(19) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص.443

حماية لمكاسبه بعد رحيل موسى[20]. وأما تكوين الدولة الأموية فالبربر ساندوا عبد الرحمن الداخل منذ حلوله بشمال إفريقيا، وكانوا ضمن الموالي الذين استقبلوه في كورة رية، وأثناء مواجهته ليوسف بن عبد الرحمن الفهري كان معه أربعمائة فارس من بني الخليع الموالي وعدد من رجال مغيلة شذونة وبرانس مورور وأتباع إبراهيم بن شجرة وموالي قرطبة [21]. لقد تحقق نصر المصارة ودخول قرطبة وإعلان عبد الرحمن أميرا بجزء من جهود هؤلاء. وعند اشتعال الثورات لجأ عبد الرحمن إلى خدمات مواليه البربر لتحييد بني عمومتهم كما رأينا عند الحديث عن اللغة.

وشارك البربر في تسيير الدولة الأموية حيث شغلوا كل المناصب الإدارية في الدولة من الحاجب كأعلى منصب إلى العامل على الكور والأقاليم (جدول) [22]، لكن يلاحظ أن عدد الموظفين قليل ولا يصل إلى خمسين موظفا كما أن جلهم (2/3) كان في القرن 4هـ/10م في عصر الخلافة، وتأخر ظهورهم حتى القرن 3هـ/9م.

الفترة / وظيفة	حاجب	وزير	كاتب	خازن	والي مدينة	والي العرض	شرطة	عامل كورة	مجموع
عصر الولاة									
ع. الرحمن1								01	01
هشام الرضى									
الحكم الربضي			01						01
ع. الرحمن2	01		02	01					04
الأمير محمد		01	03						04
الأمير المنذر									
الأمير ع.الله		02	02		01				05
الناصر		03	04	02		03		02	14
المستنصر		02	01		01		03		07
المؤيد / آل عامر	01	01	01	01	01		02		07
المستعين		01			01				02
المجموع	02	10	14	04	04	03	05	03	45

البربر في إدارة الأندلس

(20) البربر في الأندلس، ص.161–165

(21) أخبار مجموعة، ص.1.

(22) البربر في الأندلس، ص.170.

ونفس الشيء ينطبق على وظائف القضاء حتى إن العدد كان تقريبا متساويا (45//44) (الجدول) [23] ، ويلاحظ مرة أخرى حضورهم في جميع الوظائف وقلة الأعداد وتركز في عصر الخلافة (3/4) وتأخر الحضور حتى القرن 3هـ/9م.

وظيفة / الفترة	قاضي جماعة	قاضي أحكام	صاحب الرد	المشاور	صاحب السوق	مجموع
عصر الولاة						
ع. الرحمن1						
هشام الرضى						
الحكم الربضي		02				02
ع. الرحمن2		03				03
الأمير محمد		01				01
الأمير المنذر		01				01
الأمير ع.الله				05		05
الناصر	02	10	01	03		16
المستنصر	01	02	01	01	01	06
المؤيد/ آل عامر	01	01	04	01		07
المستعين	01			01	01	03
المجموع	05	20	06	11	02	44

البربر في الوظائف القضائية

وهكذا يلاحظ أن البربر كانوا حاضرين في كل مناصب إدارة وقضاء الأندلس منذ القرن 3هـ، لكن أعدادهم قليلة جدا.

وحضر البربر في جيش الأندلس منذ الفتح، ولما دخل الشاميون مع بلج بن بشر وحصلوا على إقطاعات في كور الأندلس حافظ باقي أهل الأندلس عربا وبربرا بعملهم في الجيش إذ كانوا يغزون تحت ألوية قبائلهم [24] . وفي القرن 4هـ/10م الميلادي تحول بربر الثغر (بنو ذي النون ـ آل زروال ـ آل غزوان ـ آل رزين ـ وآخرون) بقرار للناصر إلى جيوش إقطاعية[25] ونفس الإجراء قام به المستنصر[26]. وإلى جاب الحضور في الجيش كقبائل

(23) نفسه، ص.177.

(24) ابن حيان، المقتبس، مدريد، 1979، ج5، ص.341 و120.

(25) نفسه،437–438

(26) نفسه، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج6، ص.203.

أو مقطعين فقد كان البربر منذ عهد الداخل[27] مرتزقين في جيش الأندلس وكان يطلق عليهم اسم الطنجيين[28] تمييزا لهم عن بربر الأندلس. وقد كانوا حرسا للمنذر بن محمد ومرتزقة لعبد الله. وكان لابن حفصون مرتزقة طنجيون أيضا[29] . واتخذ الناصر مرتزقة منهم وزاد المستنصر والمنصور العامري منهم[30] .

نستنتج أن الحضور البربري في الأحداث الكبرى كمساند للسلطة كان مبكرا وقويا في العمل العسكري ومحدودا ومتواضع في الإدارة والقضاء، لكنهم لم يكونوا فقط مساندين بل كانوا أيضا معارضين فماذا أنجزوا في ذلك؟

ارتبطت حياة بربر الأندلس كباقي العناصر الأخرى بكثرة التمرد والثورة بحيث يكاد تاريخهم يتسم بهذه السمة. وقد اختلفت الثورات في أهدافها وأبعادها. فمنها الانفصالية[31] كثورة عام 123هـ/740م الخارجية التي كانت امتدادا لثورة خوارج المغرب وعمت كل الأندلس، وقد استهدفت القضاء على الوجود العربي في الأندلس وانتهت بالفشل والتقتيل والمطاردة الشديدة للبربر، وثورة شقيا المكناسي الشيعية في المناطق الممتدة من شنتبرية حتى ماردة ما بين –150/767 160 هـ/777م، واستهدفت فصل هذا المجال عن الداخل، وبعد مواجهات دامت عشر سنوات قتل زعيمها وانتهت ثورته إلى الفشل، وثورات تاكرنا المتكررة على عهد هشام الرضى وعبد الرحمن الثاني والتي نرجح أنها خارجية، وقد انتهت بالتقتيل والتهجير كسابقتيها. ومنها القبلية التي ترتبط بمطالب محدودة وطارئة وكبرياء الشيوخ وأنفتهم، ومن هذه الثورات ثورة إبراهيم بن شجرة بمورور ضد الداخل عام 163هـ/780م، وثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس المكناسي بماردة عام 190هـ/806م، وثورة بربر مورور سنة 200هـ/816م، وثورة محمود بن عبد الجبار المصمودي بماردة سنة 213هـ/828م وثورات نهاية القرن 3هـ/9م ومنها ثورات بني هابل وعمر بن مضم الملاحي الهترولي بجيان وبنو المهلب بإلبيرة ويحي الجزيري بالجزيرة ورية وتاكرنا ومسعود بن تاجيت المصمودي بماردة وابن عوسجة بلشبونة وبنو ذي النون في الثغر الأوسط... [32] وثورات الحلف التي كان فيها البربر يساندون حلفاءهم من العرب أو الموالي أو أبناء الطامعين في السلطة [33] . وقد كان مصير معظم الثورات الفشل و لم تحقق أهدافها بالرغم من الصمود الذي أظهره زعماؤها وانتهت بتقتيل البربر ومطاردتهم وتغيير مواطنهم.

كان الحضور السياسي والعسكري البربري قويا بغض النظر عن النتائج التي حققها طيلة فترة الدراسة.

(27) البربر في الأندلس، ص.188–189.

(28) ابن حيان، المصدر السابق، باريس، 1973، ج3، ص. 122 و143 و147.

(29) نفسه، ص.121.

(30) البربر في الأندلس، ص.193–194

(31) نفسه، ص.200–207.

(32) نفسه، ص.209–214.

(33) نفسه، ص.214–217

3- مساهمات حضارية

وقد شارك البربر في الحياة الثقافية للأندلس، واعتمدنا في دراسة الموضوع على عينة صغيرة (108 ترجمة)[34] من تراجم العلماء مما وفرته المصادر المختلفة. وتوصلنا إلى أن مساهمتهم جاءت متأخرة إذ بدأت مع عهد الحكم الربضي ثم توسعت منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م وبلغت القمة في القرن الموالي الذي هيمن على 77% من المساهمة البربرية[35] . وكان لبربر قرطبة قصب السبق في هذه المساهمة إذ احتكروا الثلثين من المشاركة، واحتلت زناتة دور الريادة (2/5) وتبعتها مصمودة (1/4)[36]. واشتغل البربر بكل العلوم المعروفة في البلاد ووفق الاهتمام العام بها، بحيث هيمنت العلوم الشرعية (فقه ـ قرآن ـ حديث) وتبعتها اللغة ولآداب وفي مرتبة متأخرة تأتي باقي العلوم خاصة البحتة (تاريخ ـ هندسة ـ حساب ـ فلك ـ زراعة ـ منطق) [37] . ولا تختلف هذه الصورة عن المشهد العام لواقع التعاطي مع العلوم بالأندلس خلال هذه الفترة ويمكن مقارنة ذلك مع النتائج التي توصلنا إليها بالنسبة لليمنية [38]. لكن الاختلاف يكمن في العدد والكم والقيمة.

وفي ميدان المساهمة الحضارية عامة فقد كان للبربر حضور واضح في بعض القطاعات ويحتفظ صاحب «بيوتات فاس» بنص مهم عن بربر الأندلس يقول: «أما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك. وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار، وصيادة الطيور للأكل، والحملان في الأسواق، وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء، وطبخ الجير والجبس ونحو ذلك.» [39]

ويستنتج من هذا النص أن البربر قد حملوا تراثهم القروي إلى الأندلس بحيث لوحظ أن مهنهم تخص الأعمال اليومية في البادية والمهن الأولية في المدن مما لا يحتاج إلى تعلم طويل أو تكوين خاص. وهذا يتوافق مع خصائص المهاجرين البربر إلى الأندلس إذ كانوا من القبائل الزراعية أو الرعوية لذلك حملت معها ثقافتها المتوارثة لتغني بها حضارة الأندلس. فهم أبدعوا فيما يعرفونه.

(34) يمكن مقارنة ذلك بالعينة التي اعتمدناها في دراسة مساهمات اليمنية والتي وصلت إلى 473 ترجمة، انظر اليمنية في الأندلس، ص 195. و«237–267».

(35) نفسه، ص.243.

(36) نفسه، ص. 246–247.

(37) نفسه، ص.253.

(38) انظر كتابنا «اليمنية في الأندلس»، ص 195–223.

(39) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.24.

وربما، يكون البربر قد احتكروا العمل في المناجم وكل ما يرتبط به من استخراج وتصفية وحرق وتعدين ونقل... وما حملنا على هذا الاعتقاد هو ما سجلناه من كون أغلب مناطق الاستغلال المنجمي آهلة بالسكان البربر[40] .

في الميدان العسكري احتفظ ابن حيان بنص طويل عن تأثير البربر في فنون الفروسية والأسلحة عند الأندلسيين وكيف أن الحكم الثاني استنكر ذلك في البداية ثم عاد ووافق عليه. ومن الأشياء التي قلدها الأندلسيون الركوب بالسرج العدوي الجميل ولباس الفارس البربري الخفيف (لباس الأندلسي ثقيل) وطريقة ركوب الخيل المتقنة[41] ، إضافة إلى الأخبية البربرية المتينة والواقية من المطر[42] .

في ميدان الطبخ وردت إشارة عند السقطي تتكلم عن طريقة للبربر في الشواء تستعمل في الأندلس[43] .

لقد شارك البربر وأثروا وأبدعوا في الأشياء التي يعرفونها في الميدانين العسكري والفلاحي والصناعات القروية والمهن الصغيرة في المدن. لقد كانوا أوفياء لما يعرفونه.

4- ملاحظات حول المساهمة البربرية

يجب الحديث أولا، عن مشكلة المصدر فيما يتعلق بالاهتمام بالإنجازات الحضارية خارج الأحداث السياسية، والمسألة لا تخص البربر لوحدهم بل تعم الجميع. وأعترف أنني فوجئت بهذا الأمر عندما كنت أدرس موضوع اليمنية إذ اكتشفت أن المعطيات الحضارية المتوفرة عن البربر أكبر بكثير مما هو متوفر عن اليمن؛ وربما، حتى عن مضر.

وثانيا، إن تأثير البربر توافق مع خلفيتهم الحضارية ومواطن انطلاقهم، فالبربر المهاجرون كانوا من القبائل البدوية يتقنون الزراعة وتربية الماشية والحرف المرتبطة بالعمل القروي والمجهود البدني اعتمادا على الوراثة ودون تأهيل أو تكوين خاص. وقد حملوا معهم هذه الأشياء وأبدعوا فيها واحتكروها كما رأينا أعلاه، لكن سوء حظهم جعلهم يقعون في حضارة حضرية تهتم بالمدن وتثمن كل شيء فيها بينما تحتقر البوادي وأهلها والأعمال المرتبطة بالأرض، مما قلل من قيمة حضورهم وبروزهم إلى السطح.

(40) البربر في الأندلس، ص.288.

(41) ابن حيان، المصدر السابق، ج6، ص.191–193.

(42) نفسه، ص.40.

(43) السقطي، آداب الحسبة، المطبعة الدولية، باريس، 1973، ص.40

ثالثا، كان العمل العسكري جزءا من حياة القبائل البربرية لذلك حملت معها تراثها فيه، فشاركت بنجاح في الفتح وفي قيام الدولة الأموية وقادت الثورات بكل أنواعها ونقلت فنون القتال والركوب والأدوات من سروج وسيوف ولباس وأخبية إلى الأندلسيين، لكن وجودها في أغلب الأوقات في المعارضة ورفض الأندلسيين للقبول بما تقدمه احتقارا لها؛ حتى إن الحكم الثاني عاقب جنديا استعمل سرجا عدويا وأحرق السرج أمام الجند [44]، قد جعل انتشار هذه الأشياء أقل انتشارا.

رابعا، إن مشاركة البربر في الإنجازات المرتبطة بالحياة الأندلسية ونقصد بها العلوم والإدارة والقضاء جاءت متأخرة ولم تظهر إلا في القرن 3هـ/9م بعدما نجح البربر في الاندماج في الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية وامتثالها، وقد تمكننا في مقال لنا من تحديد أهم العناصر والوسائل التي ساعدتهم في ذلك وهي ثلاثة: التفوق في العمل العسكري وإظهار الفروسية وإثبات الذات وإقناع الأمراء بالاستفادة من خدماتهم والاندماج في الإدارة وإظهار الكفاءة العالية فيها وطلب العلم والتفوق فيه [45]، إضافة إلى الدخول في ولاء العرب وكسب عطفهم وتشرب ثقافتهم. والتقى هذا التقدم البربري نحو الحضارة العربية الإسلامية بتخلي العرب عن احتقارهم لباقي العناصر وقبولهم بتولي الموالي للمناصب الإدارية والقضائية منذ النصف الثاني من القرن 3هـ/9م وبالضبط منذ عهد الأمير محمد قبل أن يتسع في عهد الخلافة، مما فتح الباب على مصراعيه للبربر في كل الميادين.

كان لتأخر البربر في الإبداع الحضاري عوامل ذاتية مرتبطة ببساطة حضارتهم التي غلب عليها الطابع البدوي وبحاجتهم إلى وقت طويل لكسب أدوات الحضارة الإسلامية، وعوامل موضوعية متعلقة باحتكار العرب وتعصبهم للعنصر العربي ولما خف ذلك خاصة في عهد الخلافة التي مالت لاحتضان كل عناصر المجتمع، كانت فرصة ذهبية للبربر لفرض أنفسهم لكنها لم تكن كافية لتحقيق التميز والتفوق.

خاتمة

شكل البربر أكبر مجموعة دخيلة في الأندلس وساهموا في تطور هذا المجتمع وحضارته، لكن فقر المصادر وتأخر اندماج البربر في المجتمع والطبيعة البدوية لحضارتهم الأم جعلت مساهمتهم متواضعة ومحدودة ومتأخرة.

(44) ابن حيان ، المصدر السابق، ج6، ص.191–192.

(45) محمد حقي، مسلسل اندماج البربر في الأندلس، مجلة المناهل، عدد 88، 2011، ص.185-196

2- مسلسل اندماج البربر في المجتمع الأندلسي[46]

عند فتح الأندلس واستقرار المسلمين الجدد بها، كان البربر يشكلون أغلبية القادمين الجدد، فكان منطقيا أن يتصدروا هذا المجتمع الجديد ويحددوا كثيرا مــن معالمه. إلا أن شــيئا من ذلك لم يحدث ـ على الأقل بوضوح ـ، إذ لم يكن ميزان القوة مرتكزا على العدد والكثرة أو القلة، فالنموذج الجديد للمجتمع الإسلامي شرقا وغربا أصبح يرتكز على نموذج عربي مطعما بتوجيهات الإسلام وتعاليمه، وهذا يفرض على كل الجماعات التي تدخل الإسلام أن تندمج في هذا النموذج. و لم يكن البربر استثناء في ذلك. فما هي الوسائل التي اتخذتها هذه العملية؟ وما هي مراحلها؟ ومن أجل تأطير كلامنا وحصره والابتعاد عن العموميات اخترنا أن نتوقف عند ثلاث أسر بربرية يفترض أنها حققت الاندماج، وهي بنو الزجالي وبنو ذي النون وبنو أبي عيسى. ومن خلال تتبع تطورها يمكن استنتاج بعض عناصر الموضوع.

1- استعراض مراحل تطور أسر العينة

1-1- أسرة بني الزجالي

تختلف المصادر حول أصل هذه الأسرة. فابن الفرضي يرى أنها من بتر البرانس دون تحديد اسم القبيلة أو العشيرة [47]. وينسبهم ابن حيان وابـن سعيد إلى بـني يطـفت من نفزة [48]. أمـا ابـن حـزم فيعتبرهـم مــن مـديونة [49]. ويرى ابن خلدون أنهم من ورفجومة [50]. وتتفق هذه الآراء حول انتمائهم إلى البتر وبالذات إلى زناتة، لكنها تختلف حول اسم القبيلة أو العشيرة، وبالرغم من إقرارنا بشهرة هؤلاء المؤرخين في دقة النقل والتحري، فإننا نرجح ما ذهب إليه ابن حزم لتخصصه في علم الانساب، وهو يؤكد أن بني الزجالي من مديونة.

يبدو أن هذا الفرع من مديونة قد عبر إلى الأندلس في دفعة طارق بن زياد |أو التي جاءت بعدها مع ترجيح الثانية بناء على الموطن الذي نزلوها وهو تاكرنا، مادام اغلب مرافقي طارق قد نزلوا في الثغور الشمالية. ويبدو أن أعداد هذه الجماعة كانت كبيرة، بحيث تكفي لتعيش في ظروف عادية وتحمي نفسها دون أن تحتاج إلى موالاة إحدى القبائل العربية، كما أنها قد تكون حصلت على أراضي جيدة تمكنها من جمع ثروة ساعدت مؤسس الأسرة على التعلم والمشاركة في حركات السلطة المركزية كلما دعا إلى ذلك داعي الجهاد أو الفوضى (الثورات والاضطرابات الداخلية).

(46) مقال نشر في مجلة المناهل، عدد 68، سنة 2003.

(47) نقلا عن ابن حيان، ج2، ص.172.

(48) نفسه، ص.171 وابن سعيد، المغرب، ج1، ص.330.

(49) الجمهرة، ص.500.

(50) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص.151

يدعى مؤسس هذا البيت محمد بن سعيد، ويضيف ابن حيان أن اسمه وارشكين ويعرف بحمدون ويلقب بالأصمعي [51] «لعنايته بالأدب وحفظه للغة، وكان من أقوم أهل زمانه بها، وكان له حظ وافر من البلاغة ونصيب حسن من صوغ القريض» [52] و«كان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ، يضرب بحفظه الأمثلة» [53] . ويذكر أن أحد الشعراء جاءه مادحا فحفظ شعره وهو يلقيه ومازحه بإنكار كون القصيدة من نظمه قبل أن يخبره بالحقيقة [54] ، وواضح أن محمد بن سعيد هذا قد قضى وقتا طويلا في التعلم والتلقي بالرغم من أننا لا نملك معلومات حول مشايخه وأماكن تعلمه.

كان أول اتصال لمحمد بن سعيد بالأمويين يعود إلى إحدى غزوات الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206هـ/822م ـ 238هـ /853م) عندما تعثرت به دابته فامتثل ببيت شعر لم يتذكر سوى عجزه، فافتقد الصدر عند كل رجال المعسكر فلم يجده إلا عند محمد هذا [55] . فاستدعي إلى السرادق «فأعجب الأمير ما كان عنده واستخصه ثم استكتبه بعد حين لسره» [56] . وقد عين في البداية كاتبا للوزراء ثم استعفى، فعينه الأمير في كتابته الخاصة [57] حيث استمر حتى وفاته عام 228هـ/844م أو 232هـ/848م [58].

تمكن محمد بن سعيد بدخوله في خدمة الأمويين من الالتحاق بأشراف الدولة، وأسس بيتا من بيوت الشرف بقرطبة [59] . وقد انتقل إلى قرطبة وفشا فيها نسله وصار لهم ربض خاص ومقبرة بالمدينة [60]. وسيتعاقب أبناء الزجالي في كتابة الدولة والوزارة حتى وفاة آخر ممثليهم في الجهاز الحاكم عام 357هـ/986م [61].

قد يبدو صعود محمد بن سعيد صدفة، إلا أن التمعن في تكوينه الأدبي الرفيع وقوة ذكائه وانكبابه على الدراسة واتقان أسس مهنة الكتابة يجعلنا نفترض أن يكون قد وضع نصب عينيه تحقيق هذا الهدف، فتحين الفرصة التي واتته في هذه المناسبة، وقد يكون قام بعدة محاولات فاشلة قبل نجاحه في هذه المرة. لقد كان سلاحه

(51) ابن حيان، المصدر السابق، ج2، ص.171.

(52) نفسه، ص.172.

(53) نفسه، ص.173.

(54) نفسه، ص.173–174 وتذكرنا بحادثة مشابهة وقعت لأبي تمام شاعر المعتصم العباسي.

(55) نفسه، ص.172 وابن سعيد، المغرب، ج1، ص.330.

(56) نفسه، ص.173.

(57) نفسه.

(58) نفسه، ص. 174 و 216.

(59) نفسه، ص.170–171.

(60) المقري، المصدر السابق، ج5، ص.366 وابن الفرضي المصدر السابق، ج1، ص.279.

(61) عياض، المصدر السابق، ج7، ص.296.

في فرض نفسه على المجتمع الأندلسي العلم وخاصة الثقافة الأدبية واللغوية، وكان أنجع سلاح حقق له الاندماج وفرض مكانته وأسرته من بعده.

1-2- أسرة بني ذي النون

ينتمي بنو ذي النون إلى قبيلة هوارة [62]، وينتسبون إلى حمير بالحلف [63]. استقر جدهم السمح بن ورد بقرية أفاقلة بكورة شنت برية منذ جوازه مع طارق بن زياد [64] ، لكن الجد الذي تنتسب إليه الأسرة كان يسمى زنون وهو اسم شائع في البربر، فتصحف مع مرور الزمان وصار ذو النون العربي[65] .

إن استقرار هذه الأسرة داخل عشيرة كثيرة العدد وفي منطقة الثغر الأوسط (طليطلة وما حولها) قد وفر لها ظروفا ملائمة لتشارك في حماية الحدود الإسلامية منذ وقت مبكر، فاكتسبت من هذا العمل ثروة مادية ومعنوية، إذ جمعت الأموال وراكمت الأراضي وصارت من أغنياء الثغر وتصدرت جماعتها وصارت من الوجهاء، وفي نفس الوقت كسبت شهرة واسعة في ميدان الحرب والفروسية والشجاعة، وهذه خصلة تلعب دور السحر في الأندلس عامة وفي الثغور خاصة، وبإمكانها أن تفتح لصاحبها كل الأبواب[66].

كان اتصال الأسرة بالسلطة الأموية على عهد الأمير محمد (273–853/238هـ/886م) عندما مر بموطن ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى فمرض له خصي، فتركه لزعيم الأسرة سليمان بن ذي النون ليمرضه، فعالجه ثم حمله إلى قرطبة فـ «أجزل صلته وأسجل له على ناحيته وارتهن منه موسى ولده»[67] . ولا تذكر المصادر تاريخ هذا التسجيل، لكننا نملك التواريخ التي سافر فيها الأمير إلى الثغور الشمالية. فقد قاد ثلاث حملات إلى طليطلة أعوام 239هـ/854م و240هـ/855م و244هـ/858م[68]، ولكنه خلال هذه الحملات كان يتوقف عند طليطلة والثغر الأوسط، والرواية السابقة تؤكد على أنه اتصل ببني ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى، والرحلة الوحيدة التي قام بها إلى الثغر كانت عام 259هـ/873م[69]. ولذلك نرجح هذا التاريخ، وما يساعد على ذلك هو أن الحدث تم قبل عام 260هـ/874م وهي السنة التي كلف فيها الأمير بني ذي النون بمعاقبة وتأديب طليطلة، وفي السنة التي قبلها كان الثغر مضطربا وقبض على مطرف بن موسى بن قسي وبنيه وتم قتلهم في قرطبة [70] .

(62) الجمهرة، ص. 500.
(63) ابن حيان، المصدر السابق، ج 3، ص. 18.
(64) نفسه.
(65) ابن الخطيب، أعمال، ج2، ص.177 وابن عذارين المصدر السابق، ج3، ص.276 ومفاخر البربر، ص.43.
(66) انظر أعلاه.
(67) ابن حيان، المصدر السابق، ج3، ص.18.
(68) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.94–96.
(69) نفسه، ص.101.
(70) نفسه.

وهذا يعني أن الأسر القديمة التي كانت تتعاون مع السلطة الأموية في الثغر قد انقلبت ضدها فكان عليها البحث عن حليف جديد. ودون شك توصل بمعلومات عن قوة بني ذي النون فافتعل حادثة الخصي لجلبهم إلى صفه، فعين سليمان واليا في هذه السنة.

تحقق لبني ذي النون حلم الدخول في اسلاك الدولة وأشراف الأندلس، لذلك ستدخل الأسرة تاريخ البلاد وتشارك في أحداثه بقوة منذ نهاية القرن 3هـ/9م حتى ضم المرابطين للأندلس في نهاية القرن 5هـ/11م.

اندمج بنو ذي النون بفضل الثروة المادية الكبيرة والفروسية والقتال في الحروب ودعم السلطة الأموية.

1-3- أسرة بني أبي عيسى

ينحدر آل أبي عيسى من فرع أصادة المصمودي من قرية لدية قرب قصر عبد الكريم (القصر الكبير الحالي) شمال المغرب الأقصى[71]. وينفرد ابن خلدون بنسبتهم إلى مصامدة الأطلس الكبير[72]، وهو خطأ منه كما أظهرت أصول الهجرات إلى الأندلس[73] . وتتفق المصادر حول كون هذه الأسرة قد استقرت بالأندلس منذ الفتح، غير أنها تختلف حول اسم أول من اجتاز منها. فالقاضي عياض يقول إنه يحي بن وسلاس وابن أخيه نصب بن عيسى ضمن حملة طارق بن زياد ثم التحق بهما كثير[74]. أما ابن خلكان فيرى أن الداخل هو كثير بن وسلاس[75] ويوافقه كل من ابن الخطيب وابن عبد الملك [76]. ويظهر أن أغلب الروايات تتفق حول كون كثير بن وسلاس هو الداخل مع طارق واستقر في قرطبة مشكلا إحدى الأسر الكبرى من الموالي البربر.

ارتبط بنو أبي عيسى بليث كنانة بالولاء، وتختلف المصادر حول سببه. فالبعض يرى أن وسلاس أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي الكناني[77] ، ويرى آخرون أن آل أبي عيسى نزلوا بمنزل ليث كنانة فانتسبوا إليهم بالحلف[78] . وكيفما كان أصل الولاء فقد حصل سواء بالجوار أو الإسلام. استقر آل أبي عيسى بقرطبة وسرعان ما شكلوا إحدى الأسر الكبرى في المدينة[79]. وعند وصول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة عام 138هـ/756م

(71) ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج1، ص.188 ومفاخر البربر، ص.60 وترتيب المدارك، ج3، ص.379.

(72) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص.299.

(73) انظر فصل الهجرات السابق.

(74) ترتيب، ج3، ص.379.

(75) ابن خلكان، المصدر السابق، ج6، ص.143.

(76) ابن الخطيب، الإحاطة، جج4، ص.373 وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج1، ص.190.

(77) عياض، المصدر السابق، ج3، ص.379.

(78) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص.373.

(79) أخبار مجموعة، ص.84

كان يحي بن كثير ممن استقبله من الوجهاء حيث خرج إليه؛ وربما بايعه، وحمله رسائل إلى أهل قرطبة يدعوهم فيها؛ دون شك، إلى بيعته [80] .

وقد صار يحي من المقربين من الحاكم الجديد [81]. وشغله عبد الرحمن الأول في السفارة وولاية الجزيرة وشذونة [82] وسيموت واليا في الجزيرة الخضراء عام 178 أو 180هـ/796 أو 797م.

لكن مجد الأسرة وصعودها إلى قمة المجتمع القرطبي والأندلسي لن يتحقق إلا على يد يحي بن يحي الليثي الذي ولد في عام 151 أو 152هـ/769م[83] وبدأ تعليمه في حلقات قرطبة العلمية[84]، ثم رحل إلى المشرق ودرس على مالك بن أنس وتلامذته في الحجاز ومصر والقيروان[85] . وعندما عاد من رحلته المشرقية استقر بقرطبة وبدأ بشق طريق المجد والشهرة في عالم العلم بالأندلس، لكن أحداث الربض عرقلت مشاريعه لبعض الوقت[86] . وبعد عفو الأمير الحكم الربضي عليه صار يحي بن يحي الليثي من بين من تدور عليهم الفتيا في قرطبة والأندلس عامة، بل صار زعيم المفتين[87]. وارتبط انتشار المذهب المالكي بالأندلس باسمه وجهده[88]. ولما مات ترك المشعل لأبنائه وحفدته فتداولوه حتى وفاة آخر من نبغ من هذا البيت عام 367هـ/977م [89].

استغل بنو أبي عيسى ثروتهم واتصالهم المبكر بالعرب والسلطة الأموية ثم أساسا نبوغ زعيمهم يحي بن يحي في الفقه المالكي ليحصلوا على مكانة متميزة داخل المجتمع الأندلسي جعلت منهم أحد أشرافه ووجهائه.

2- استنتاجات عامة

أظهرت دراسة تطور عملية اندماج الأسر الثلاث أن هذا الأمر تطلب وقتا ليس بالقصير (ما بين 100 و170سنة)، وهذا يبين مدى بطء العملية وصعوبتها، لكن أيضا الإلحاح والإصرار الذي واصل به البربر عملهم دون كلل أو ملل.

(80) الخشني، أخبار، ص.348.

(81) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص.299.

(82) الخشني، أخبار، ص.348.

(83) نفسه، ص.247.

(84) عياض، المصدر السابق، ج3، ص.380 والخشني، أخبار، ص.348.

(85) نفسه.

(86) نفسه، ص.392 و123 والخشني، أخبار، ص.360–361.

(87) ابن حيان، المصدر السابق، ج2، ص.180.

(88) انظر أعلاه.

(89) كان يحي بن عبد الله آخر رجال هذا البيت وتولى قضاء بجانة وإلبيرة وخطة الرد، عياض، ج6، ص.108.

إن مواطن الأسر الثلاث: تاكرنا وقرطبة والثغر الأوسط، توضح أن عملية اندماج البربر كانت تحدث في كل المجتمع الأندلسي وفق وتيرة متشابهة، مع أن هناك فارقا زمنيا، إذ يلاحظ أن العملية كانت أسرع في المراكز الحضرية منها في الأرياف (قرطبة// تاكرنا وشنت برية). كما أنها كانت أسبق في الموسطة والجنوب وتأخرت بحوالي نصف قرن في الثغر الأوسط، مما يوضح أن الهوامش كانت أقل تأثرا بما يشهده المجتمع الأندلسي من تطورات.

كانت بداية الاندماج مع الفتح الإسلامي للأندلس، فكل الأسر التي درسناها شاركت في الفتح وحصلت على بعض ثماره من خلال الأرض التي احتلتها والتي ستكون مصدر ثروتها وقوتها المادية، وهي أيضا قد كسبت دعما نفسيا تمثل في شعورها بحق الاستفادة من ثمار مجهودها وأنها لا تقل أهمية عن القبائل العربية.

اتجه اهتمام هذه الأسر نحو تملك الأسلحة التي يتفاخر بها العرب، فحاولت الارتباط بهم برابطة الدم، فهؤلاء بنو ذي النون يدعون الأصل العربي من خلال إعلان انتمائهم إلى قبائل حمير اليمنية، أما بنو أبي عيسى فارتبطوا بالعرب بموالاة ليث كنانة والولاء يمنح المولى نفس الحقوق التي لمولاه خاصة إذا كان ولاء حلف أو إسلام. واتخذ الاهتمام بالتعريب شكل تبني الأسماء العربية والتخلي عن الأسماء المحلية. فمحمد بن سعيد الزجالي يترك اسمه الأصلي وارشكين، وبنو أبي عيسى ينسون أسماءهم المصمودية مثل وسلاس لصالح أسماء عربية، أما بنو ذي النون فحوروا الاسم البربري زنون ليصير ذو النون.

كانت الفروسية عنصرا أساسيا في النظام القبلي العربي والمجتمع الأندلسي أيضا، لذلك حظيت بعناية البربر بدورهم. فبنو ذي النون فرسان شجعان يحمون الثغر من هجومات الأعداء، ومحمد بن سعيد الزجالي اتصل بالأمير عبد الرحمن الثاني أثناء مشاركته في حركة عسكرية، كما أن تعيين يحي بن كثير واليا على الجزيرة يفترض فيه أن يكون فارسا شجاعا كما هو متعارف عليه في خصال ولاة الأندلس في عصره.

حظي التكوين الثقافي بعناية خاصة من قبل مؤسسي الأسر موضوع الدرس، حيث نجد يحي بن يحي الليثي يتفقه في المذهب المالكي في الأندلس والمشرق وصار من أكبر رواة الأندلس للموطإ وزعيم المذهب في البلاد. وكان محمد بن سعيد الزجالي يتقن البلاغة والعربية والأدب والشعر وبلغت محفوظاته مستوى عاليا فاق به أقرانه. وكان العلم السلاح الناجع الذي فتح لهذين الرجلين أقفال المجتمع الأندلسي المتعددة ليصير ضمن رجاله وأشرافه.

وحتى لو كانت نتائج الخطوات السابقة ناجعة وناجحة، فإنها لا تكفي لتحقيق الغرض المطلوب، إذ كان من الضروري تحصيل الشرعية السياسية التي يحيطها المجتمع الأندلسي بهالة من الاحترام والتقدير، فهي بمثابة مفتاح سحري يذلل كل الصعاب. وقد وعى هؤلاء البربر ذلك فسارعوا لكسبها. فهذا يحي بن كثير يبايع

الداخل مبكرا ويقوم بالدعاية لسلطته في قرطبة حتى قبل سيطرته عليها الحكم، ثم تولى له بعد ذلك السفارة والولاية، وقبل ابنه يحي بن يحي أن يكون مفتيا وداعية لنظام حفيده عبد الرحمن مقابل الحصول على الزعامة العلمية في قرطبة والأندلس. ونفس المجهود يبذله محمد بن سعيد الزجالي من أجل أن يتحول إلى كاتب لعبد الرحمن الثاني ويصير من أشراف الدولة. وبالرغم من تفوق بني ذي النون العسكري، فقد بحثوا عن شرعية السلطة الأموية، فسعوا ليعينوا ولاة شرعيين على مناطقهم مع أن هذا الأمر قد تحقق فعليا على أرض الواقع قبل ذلك ومنذ زمان، وبعد التعيين صاروا قادرين على التفاخر والتنافس مع أقرانهم من العرب والبربر بنفوس قوية.

إن هذه الخطوات التي قطعها البربر من اجل تحقيق الاندماج في المجتمع الأندلسي توضح أن هذا المجتمع مجتمع معقد إلى حد ما، إذ صارت تحكمه عوامل موجهة متعددة. ولو حاولنا أن نصنفها لوجدنا أنها؛ على الأقل، تجد أصولها في المجتمع العربي والثقل الذي يمثله العرب والإسلام وما حمله لهذا المجتمع، ثم وضعية الأندلس كثغر يفرض على ساكنه تصرفات خاصة.

لعل دراسة مسلسل اندماج الأسر الثلاث في المجتمع الأندلسي التي تنمي إلى مناطق مختلفة (داخلية وحدودية وقروية وحضرية وشمالية وجنوبية) يعطينا شرعية للحديث عن اندماج بربر الفتح في هذا المجتمع مع انتصاف القرن 3هـ/9م، حيث صاروا جزءا منه وفقدت الكثير من الأصول البربرية و لم يبق معروفا منها إلا تلك الخاصة ببعض الأسر الكبيرة والمشهورة.

3- أسرة بربرية أندلسية: آل عباس بن ناصح [90]

سيطر الطابع القبلي على المجتمع الأندلسي طيلة القرون الثلاثة الأولى للوجود الإسلامي بهذه العدوة، حيث كانت العشيرة وأحيانا الأسرة الممتدة الإطار المناسب لكل أنشطة الأفراد وإبداعاتهم وعطاءاتهم. وسمح هذا الوضع بطفو مجموعة من الأسر الكبيرة على سطح الحياة الأندلسية وتحريكها في ميادين مختلفة ولفترات تعاقب فيها أبناؤها على نفس المواقع أو مواقع متقاربة مستفيدين من دعم كل الأسرة التي تغار وتحرص بقوة على استمرار ما تعتبره مكسبا وإقطاعا خاصا بها. وقد أعطى هذا الوضع ما يشبه الطبقات المغلقة (Caste) مما جعل التسرب إلى هذه الأوساط شبه مستحيل. و لم يكن البربر خارج هذا الإطار لأن عددا من الأسر ومنذ بداية القرن الثالث الهجري اشتهرت في ميادين الإدارة والجيش والقضاء والتجارة والعمارة... ومن هذه الأسر نختار أسرة آل عباس بن ناصح لنسلط عليها الضوء ونتتبع أنشطتها ونحدد موقعها داخل مجتمع الأندلس.

1- أصل الأسرة

تجمع المصادر على أن الأسرة تنحدر من ناصح بن يليت الثقفي أو ناصح بن يليت بن قطري الأودي المصمودي[91] . لكن رواية منفردة تجعل قبيلة ناصح نفزة الزناتية بدل مصمودة [92] . وتداول الأصل الزناتي بكثرة يجعلنا نميل إلى اعتماده وترجيحه.

وناصح مولى لمزاحمة بنت مزاحم الثقفي، وقد اكتسب ولاءه من الرق لأنه كان من سبي البربر أثناء حركة فتح المغرب[93] . وقد سمح له هذا الوضع بالاحتكاك المبكر بالعرب والنشأة وسطهم. ونرجح أن يكون سبيه قد تم وهو طفل أو شاب يافع، لذلك يمكن اعتباره من المستعربين البربر الذين دخلوا الأندلس بهذه الصفة. وهذا الأمر يجعلنا نستنتج أن ناصحا لم يكن من بربر الفتح بل؛ هو وفي أحسن الأحوال، من الذين التحقوا بهذه البلاد في ظل الحكم الأموي، واستقراره ومواليه في الجزيرة أقصى جنوب الأندلس؛ ربما، يقوم دليلا على ذلك ما دامت أغلبية بربر الفتح قد استقرت في الشمال.

ينعت ناصح بالثقفي نسبة إلى مواليه من ثقيف، ويسمى أيضا أوديا نسبة إلى قبيلة أود [94]، لكن النسبة الأولى أغلب عليه. وولاؤه لثقيف بالعتق يوحي بأنه استقر في الجزيرة بشكل فردي ووسط جماعة من عرب ثقيف.

(90) مقال نشر في مجلة كلية الآداب ـ بني ملال، العدد 10، سنة 2009.

(91) ابن الفرضي، تاريخ العلماء، مكتبة الخانجي، القاهرة،1988، ج 1، ص. 341، عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، المحمدية، ج 8، ص. 268، الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، مدريد، 1992، ص. 284.

(92) عياض، المصدر السابق، ص. 268.

(93) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج 1، ص. 324.

(94) الخشني، المصدر السابق، ص. 284.

2- صعود الأسرة إلى السطح. مؤسس الأسرة

ارتبط اسم الأسرة أساسا بالشخص المدعو عباس بن ناصح، أبو العلاء[95]. ونجهل كل شيء عن تاريخ ولادته أو وفاته، وتنحصر معلوماتنا عن حياته في كونه عاش في عهدي الحكم الربضي (180هـ/796م - 206هـ/821م) وعبد الرحمن الثاني (206هـ/821 م -239هـ/853م) [96] .

اعتنى ناصح بابنه عباس فرحل به منذ صباه المبكر وتردد به بين أحياء العرب في مصر والحجاز والعراق وخاصة الكوفة والبصرة طلبا للغة. والتقى في رحلته الأصمعي وعلماء آخرين من المدينتين[97]. ويظهر أن الرحلة قد أكسبته علما واسعا باللغة وتطبعا فيها للحد الذي سمح له بنهج مسلك العرب الأوائل في شعره [98] . وقد تكررت رحلاته إلى المشرق، وخصص إحداها لجلب كتب التنجيم لعبد الرحمن الأموي [99]، ورحل في أخرى لملاقاة الحسن بن هانئ في العراق وقضى رفقته سنة كاملة وشهد له بالإبداع في الشعر والنبوغ فيه [100] . واشتهر عباس بن ناصح بولعه بأخبار شعراء المشرق فلا يكاد يلتقي أحدا من المشرق أو قادما منه حتى يغرقه بأسئلته حول آخر إبداعاتهم والأسماء الجديدة التي ظهرت هناك [101] .

إن الولع بالعلم والسفر من أجل طلبه وجمعه قد جعل عباسا «من أهل العلم باللغة والعربية (...) جزل الشعر، يسلك في أشعاره مسالك العرب القديمة، (...) له حظ من الفقه والرواية و لم تشهر عنه لغلبة الشعر عليه » [102].

كان لعباس أيضا علم بالتنجيم حتى إن عبد الرحمن الثاني بعثه إلى العراق «في التماس الكتب القديمة، فأتاه بالسند هند وغيره منها، وهو أول من أدخلها الأندلس وعرف أهلها بها ونظر هو فيها» [103] . ونظرا لقوة معرفته بهذا العلم وإيمانه به فقد حكي عنه أنه لما تولى القضاء «لا يقضي حتى يقيم الطالع فما أراه علم النجوم قضى به»[104] . وبغض النظر عن مدى صحة هذه الحكاية فإن نسجها يدل قطعا على علو كعبه في هذا التخصص.

(95) نفسه وعياض، المصدر السابق، ج 8، ص.268، ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص. 45، ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 340 والزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، 1973، ص. 262.

(96) ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص. 324.

(97) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 340، الخشني، المصدر السابق، ص. 284.

(98) الزبيدي، المصدر السابق، ص. 262.

(99) ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص. 45.

(100) الزبيدي، المصدر السابق، ص. 262، الخشني، المصدر السابق، ص. 384.

(101) الزبيدي، المصدر، السابق، ص. 262.

(102) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص.341.

(103) ابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص. 45.

(104) نفسه

وبالرغم معرفته باللغة والفقه والنجوم، فإن شهرة عباس بن ناصح ارتبطت بالشعر أكثر. فالرازي يعتبره فحل شعراء الأندلس قاطبة كما أن شعراء قرطبة كانوا يأخذون عنه ويؤثره أمراء بني أمية على غيره[105] . وقد كان يتعمد السير على نهج شعراء العرب الأوائل في اختيار الألفاظ والعبارات والمعاني [106] . وكثر الإقبال على شعره ووضعت له الشروح[107] . وشكل الشعر وسيلة عباس لتحقيق مآربه.

3- أبناء وحفدة عباس بن ناصح

ترك عباس بن ناصح ابنا اسمه عبد الوهاب ورث عنه كل شيء. ورحل بدوره إلى المشرق سيرا على خطى والده، فسمع من سحنون بالقيروان وأصبغ بن خليل بمصر[108] . وكان بدوره شاعرا [109] .

وخلف عبد الوهاب ابنه محمدا. ورحل إلى المشرق مع ابن بدرون، وكان « فقيها، حافظا للمسائل والرأي، بصيرا بالفتيا على مذهب مالك ـ رحمه الله ـ وأصحابه» و«عالما باللغة والإعراب والشعر (...) شاعرا» [110]. واشتهر بالرسوخ في العلم[111] .

وجاء بعد محمد ابنه عبد الوهاب وكان بدوره «حافظا للرأي والمسائل متصرفا في اللغة والإعراب، مطبوعا في قول الشعر»[112]. وتختلف المصادر حول تاريخ وفاته، فابن الفرضي يضعها في عام 328هـ / 938م [113] ، في حين يجعلها عياض في سنة 323هـ / 933م[114].

وتغيب عنا أخبار هذا البيت بعد ذلك، إلا أن العبارة التي ختم بها عياض كلامه عن عبد الوهاب بن محمد والتي تقول: «والنباهة والعلم باقيان في بيتهم إلى وقتنا هذا بالجزيرة، وأدركنا منهم أبا عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، وكان من فقهائها المشاورين بها، وتوفي بها»[115] ، كافية لتثبت أن هذا البيت حافظ على أمجاده ومكانته ـ على الأقل ـ حتى منتصف القرن 6هـ/ 12م.

(105) نفسه، ج 2، ص. 324–325.
(106) الزبيدي، المصدر السابق، ص. 262.
(107) عياض، المصدر السابق، ج 4، ص. 268.
(108) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 327 وعياض، المصدر السابق، ج 4، ص. 268.
(109) نفسه.
(110) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 2، ص. 43 والخشني، المصدر السابق، ص. 164.
(111) الخشني، المصدر السابق، ص. 164.
(112) نفسه، ص. 266 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 327.
(113) نفسه.
(114) عياض، المصدر السابق، ج 4، ص. 269
(115) نفسه.

لقد اهتم آل عباس بن ناصح بالعلم واكتسبوا تقاليد علمية حافظوا عليها بغيرة مثل الرحلة إلى المشرق؛ وخاصة إفريقية ومصر والحجاز، وإتقان العربيـــة والفقه ونظم الشعر. لقد كان العلم سلاحهم ومصدر فخرهم ومجدهم وهو المفتاح الذي دخلوا به المجتمع الأندلسي وتسربوا إلى أوساط نخبته.

4- اتصال آل عباس بالأمويين

منذ عودته من المشرق، انشغل عباس بن ناصح بالتقرب من الحكم الأمـوي «فلم يزل مترددا على الحكم بن هشام بالمديح، ويتعرض للخدمة» [116]. كما عبر عن تأييده للأمويين وعارض كل حركة ثورية تهددهم. ففي بداية القرن 3هـ/9م أعلن عداءه الصريح لثورة خارجية بالجزيرة وحرض الحكم الأول على قمعها في شعر بعثه إليه وجاء فيه:

صل بالإفيل الذي ربوا لفتنتهم   من قبل أن يرحلوه نحونا جذعا

وهو ما استجاب له الحكم بخروجه بنفسه إلى الجزيرة «ونزل على بابها وحمل السيف على أكثر أهلها»[117] .

وكان الحكم يأنس به كثيرا ويواكبه في المغازي «ويعجب بفصاحته.» [118]. وهو ما يدل على تحوله إلى مجالس ومنادم للأمير في بعض الأوقات.

في عهد عبد الرحمن الثاني كلف عباس؛ كما سبق لنا ذكره، بالسفر إلى العراق وجلب كتب التنجيم.

إن تكرار مدحه للحكم وطلبه الخدمة إشارة وتلميحا وانضمامه غير المشروط للقضية الأموية

في أوقات عصيبة، جعلت عباس يحظى لديه فعينه قاضيا على الجزيرة وشذونة [119]. وقضى في المنصب ـ حسب صاحب مفاخر البربر ـ سبع سنوات من أواخر عهد الحكم إلى بداية حكم عبد الرحمن الثاني، وأدركته منيته وهو قاض [120]. ويبدو أنه نال القضاء مكافأة له على ولائه وليس بناء على تفقهه. ومن الطرائف التي تحكى عنه ـ كما أشرنا أعلاه ـ أنه يعتمد التنجيم في أحكامه. وقد ورث القضاء لأبنائه.

(116) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 340 والزبيدي المصدر السابق، ص. 263 وابن سعيد، المصدر السابق، ج 1، ص. 324.
(117) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 71 والخشني، المصدر السابق، ص.284.
(118) نفسه.
(119) نفسه، ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 341 والزبيدي، المصدر السابق، ص.262–263.
(120) مجهول، مفاخر البربر، ص. 62.

انتقل قضاء الجزيرة وشذونة إلى عبد الوهاب بن عباس [121]، ويظهر أن ذلك لم يحصل فقط بفعل الوراثة ما دام قد تلقى تكوينا فقهيا مهما على يد أشهر شيوخ عصره في الأندلس أمثال: يحي بن يحي الليثي وعبد الملك بن حبيب، وسحنون بن سعيد بالقيروان وأصبغ بن الفرج بمصر، وهما مرجعا أهل الأندلس في الفقه المالكي. ومات قاضيا على الكورتين.

انتقل القضاء في الكورتين إلى محمد بن عبد الوهاب [122]، وهو فقيه وحافظ للمسائل ومفتي على مذهب المالكية [123] . وهذه الخصال تجعل منه أحد كبار علماء الأندلس ومن أقران عبيد الله بن يحي بن يحي الليثي. وهذا يجعل توليه المنصب مستحقا. وبه توقف توارث القضاء في هذا البيت ـ على الأقل حسب المصادر ـ مادام كلام عياض السالف الذكر يؤكد أنه عاد إليه في عصره في شخص أبي عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الفقيه المشاور.

خاتمة

تعطي أسرة بني عباس بن ناصح صورة عن تطور الأسر البربرية في الأندلس. فقد نبغت مبكرا منذ نهاية القرن 2هـ/8م، وكان لولاء النعمة الذي ربطها بثقيف أكبر الأثر في ذلك. فناصح وأسوة بمواليه تطلع إلى تكوين ابنه عباس فرحل به إلى المشرق لإتقان العربية في أحياء العرب وبواديهم. وتمكن بفضل ذلك من النبوغ في الشعر وبه تملك مفتاح دخول عالم النخب الأندلسية المحظور على غير أبنائها، وحصل على منصب القضاء ومجالسة الحكم الربضي ونيل إعجابه. وقد ورث هذا المجد لأبنائه وأحفاده.

إن تتبع العلوم التي نبغت فيها هذه الأسرة يبين أنها ركزت على علوم العربية والشعر والفقه. فكل أفرادها أتقنوا العربية ونظموا الشعر وعرفوا الفقه المالكي الذي ازدادت علاقتهم به بتقدم السنين، إذ انتقلنا من معرفة سطحية مع عباس المؤسس إلى الاجتهاد والفتيا وإبداء الرأي مع حفيده محمد.

لقد حافظت الأسرة على بريقها ولمعانها لأكثر من قرن قبل أن تتوارى إلى الظل دون الاندثار الكامل ما دام أثرها قد ظل موجودا حتى القرن 6هـ/12م.

---

(121) عياض، المصدر السابق، ج 4، ص. 268 والزبيدي، المصدر السابق، ص. 262 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 327.
(122) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 340 والخشني، المصدر السابق، ص. 284 والزبيدي، المصدر السابق، ص. 262.
(123) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 43 والخشني، المصدر السابق، ص. 164.

4- المصاحفة: وزراء الخلافة الأموية [124]

نجحت أسرة المصاحفة في التربع على قمة الهرم السياسي الأندلسي لفترة قصيرة امتدت على عهد الحكم المستنصر وبداية عهد هشام المؤيد بالله (350هـ/ 960 م – 367هـ/ 977م). وخلالها تولى عميدها جعفر المصحفي الحجابة وملأ الإدارة بأبناء أسرته ووضعهم في مناصب مختلفة ومتعددة.

1- أصل الأسرة وبدايتها

ينتمي آل المصحفي إلى بربر بلنسية [125]، لكننا نجهل كل شيء عن القبيلة التي ينتمون إليها. ولكن يمكن أن نحدد القبائل المفترض انتماؤهم إليها باستعراض القبائل الرئيسية التي عمرت هذه المنطقة. ومن خلال دراستنا للاستيطان البربري لبلنسية وجدنا أن أهم القبائل التي نزلت بها هي: مغراوة وهوارة ومديونة وزناتة وملزوزة وكتامة ونفزة وأوربة [126] ، ومعظم هذه القبائل من زناتة، لذلك يرجح أن يكونوا منها. ويرتبطون بقيس بولاء الحلف[127] . ويبدو أن مؤسس هذا البيت قد انتقل إلى قرطبة وأقام بها.

تأسست الأسرة على يد عثمان بن نصر بن عبد الله بن حميد بن سلمة بن عباد بن يونس القيسي المصحفي[128] أو عثمان بن نصر بن قوي بن عبد الله بن كسيلة [129]. وينتسب في موطنه إلى قرطبة. وقد اشتغل عثمان مؤدبا للحكم المستنصر في حياة الناصر[130] . ولعل شغل ذلك المنصب يكشف عن الثقافة الواسعة والمتنوعة التي يتمتع بها والأدب العالي والسلوك الراقي الذي يجعل الملوك يستأمنونه على تربية أبنائهم. وقد وصفه ابن الفرضي بأنه «كان ذا سمت وعدالة» [131]. وخلال هذه الفترة تقرب ابنه من الخلافة وخاصة من ولي العهد الحكم المستنصر[132]، فتمهد له السبل لدخول أسلاك الدولة، وعلى يديه سمت الأسرة وترقت. وكانت وفاة عثمان المصحفي في يوم الاثنين 20 ذي الحجة من عام 325 هـ/ 935 م عن سن يناهز الثانية والستين سنة[133] .

(124) مقال نشر في مجلة كلية الآداب ـ بني ملال، العدد المزدوج 14–15، سنة 2013–2014.
(125) ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة،1963، ج 1، ص. 257.
(126) انظر كتابنا البربر في الأندلس، المدارس، البيضاء، 2001، ص. 77.
(127) ابن الفرضي، تاريخ العلماء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج 1، ص. 348 وابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص. 257.
(128) نفسه.
(129) ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص. 257.
(130) نفسه، ص. 257–258 وابن الفرضي، المصدر السابق، ج 1، ص. 348.
(131) نفسه.
(132) ابن الأبار، المصدر السابق، ج1، ص. 257–258.
(133) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج1، ص. 349

2- تألق جعفر المصحفي

تميز جعفر بن عثمان أبو الحسن بثقافته العالية إذ «كان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع» [134]. وهو «من أهل العلم والأدب البارع وله شعر كثير رائع، يدل على طبعه وسعة أدبه» [135] و«كان مقدما في صناعة الكتابة، مفضلا على طبقته بالبلاغة» [136] و«جعفر بن عثمان أحد شعراء الأندلس المحسنين المتصرفين في أنواع الشعر من المديح والوصف والغزل، نهاية في كل ذلك في الرقة والإبداع والحسن» [137]. وتتفق هذه الشهادات على سعة ثقافته وتبحره خاصة في الأدب شعرا ونثرا. ورشحه تكوينه لدى الحكم الثاني ليجعله الممتحن والمختبر للمقبلين الجدد على الخلافة وكانت حالة الزبيدي الإشبيلي أهمها سنة 362هـ/ 972 م وقد قال عنها ابن حيان: «وناظره بين يديه يومئذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمان في غرائب من فنه في النحو واللغة والشعر، فتباريا في الشأو وتسابقا في ميدان الإصابة، فسر بهما قيوم المعرفة » [138]. وبذلك يظهر أبو الحسن أنه ممن يدافعون عن مجد الخلافة وسمعتها بين الدول والأمم ويحق لهم أن تفخر بهم.

إن علاقة جعفر بالحكم المستنصر من خلال والده المؤدب للخليفة وثقافته الواسعة قد أهلتاه لتولي مناصب إدارية في حياة الناصر، فقد عين قائدا لميورقة وذواتها سنة 333هـ/ 943 م [139]، وتولى الشرطة الوسطى والنظر في عدد من الأعمال والكور [140]. ولما تولى الحكم الثاني استوزره وأسند إليه كتابته الخاصة والشرطة وأخدمه ابنه هشاما المؤيد ولي العهد [141]، وعين أيضا في الكتابة العليا [142]، وتولى المدينة ما بين 360 و365هـ/ 975 و 970 م وكذلك المواريث [143]. وحظي برضى الحكم الثاني الذي قال له أثناء عيادته في مرض له سنة 361هـ/ 971 م: «فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا لما بلوناه من شكرك ومجهود حرمتك ومحمود صحتك، وإنا لم يرد علينا من قبلك وناحيتك قط ما أغمنا ولا ما أنكرنا ولا سوء ثناء قط بشيء، ظاهرا ولا باطنا» [144]. وهذه الثقة دفعته عند مرض موته سنة 366هـ/ 975 م إلى إسناد أمور الخلافة إليه للإشراف عليها وتسهيل نقلها إلى ابنه هشام[145]. وأظهر المصحفي في تلك اللحظة حزما وحرصا على تنفيذ وصية الخليفة، فبمجرد مفارقته الحياة

(134) ابن خاقان، مطمح الأنفس، تحقيق محمد علي شوابكه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ص. 157.
(135) الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية، 1966، ص. 187.
(136) الحميدي، المصدر السابق، ج1، ص. 259.
(137) ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ليفي ـ بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج2، ص. 254.
(138) ابن حيان، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965، ج 6، ص. 134.
(139) ابن الأبار، التكملة، نشر عزت العطار الحسيني، السعادة، القاهرة، 1955، ج 1، ص. 257–258.
(140) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 254
(141) الحلة السيراء، ج1، ص. 258
(142) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 254
(143) نفسه، ص. 250 وابن حيان، المصدر السابق، ج6، ص. 111.
(144) نفسه، ص. 70.
(145) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 253.

استدعى بني برزال بطانته من المرتزقة البربر وضبط القصر[146]، وجمع رجال الدولة لبيعة هشام، واتفق رأيهم على التخلص من المغيرة الأخ الأكبر لولي العهد، وتكلف بالمهمة محمد ابن أبي عامر [147] .

بعد بيعة هشام المؤيد يوم الاثنين ثاني صفر 366هـ عين المصحفي حاجبا له بعد ثمانية أيام[148] . وبدأ مهامه باتخاذ الإجراءات الكفيلة بتوطيد مقعده فجمع حوله المرتزقة البربر من الجند الذين توطدت علاقاته بهم أيام الحكم المستنصر[149] ، وعمل على إرضاء باقي رجالات الدولة فأظهر التواضع والمساواة بين الرجال حتى إنه استبدل فرش الوزراء من الديباج إلى الكتان ساوى بينهم. وترك هذا العمل صدى طيبا في البلاد، لكنه أضر بمستقبل الحاجب كما لخص ذلك ابن حيان في هذا النص: «وعول جعفر في سائر أوقات دولته على هذا النوع من السياسة، فلزم التواضع للناس، وأطلق لهم البشر وألان كنفه ووطأ خلقه، ورأى أنهم يصلحون له دون البذل لذات اليد والمواساة في النعمة، فاستأثر بالأعمال، واحتجن الأموال و لم ينلهم، وبنى المنازل وهدمهم، وشح بالنشب وسخا بهم.»[150] . وملأ إدارات الدولة بأبناء أسرته والمقربين منه[151] ، وحاول تقوية جانبه بكسب أهل النفوذ في الدولة وعلى رأسهم غالب الناصري قائد الثغر الذي حاول مصاهرته بخطبة ابنته لابنه عثمان [152] .

لم يكد المصحفي يتحسس صلابة الأرض تحت قدميه حتى بدأت الدسائس تحاك ضده خاصة من منافسه الأكبر محمد بن أبي عامر مدعوما بالأسر الكبيرة المتمرسة بشؤون الدولة في قرطبة والتي اعتبرت أن المصحفي أخذ حقا من حقوقها المؤبدة. واستغل الحزب العامري متانة علاقة زعيمه بصبح أم الخليفة هشام المؤيد بذكاء. وبدأ التدمير بإفساد علاقة الحاجب بالصقالبة ليخرجوا من خدمته ويلتحقوا بمنافسه. وتجاوزت الخطة هؤلاء لتصل إلى أقرب حلفائه من البربر وهم بنو برزال[153]. وبمساعدة صبح بدأ العامري في تقليص نفوذ الحاجب فعزل ابنه محمد عن المدينة وحازها لنفسه سنة 366هـ/ 975م[154]. وتدخل لإفشال التحالف بينه وبين غالب الناصري قائد الثغر بالمصاهرة التي سبق لنا الحديث عنها وتزوج هو بأسماء بنت غالب في محرم 367هـ، وكافأ غالبا بإشراكه مع المصحفي في الحجابة [155]. وبهذه الإجراءات صار جعفر دون سلطة فعلية وأصبح منفردا وبلا

(146) نفسه، ص. 260

(147) نفسه، ص. 261.

(148) الحلة السيراء، ج 1، ص. 258.

(149) ابن حيان، المصدر السابق، ج 6، ص. 193.

(150) ابن بسام، الذخيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج 7، ص. 59.

(151) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1، ص. 258.

(152) البيان المغرب، ج 2، ص. 267 والمقري، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس، صادر، بيروت، ج 4، ص88.

(153) نفسه، ص.263–262.

(154) نفسه، ص. 266 والمقري، المصدر السابق، ج 4، ص. 88.

(155) نفسه،

حليف. وجاءت الضربة القاصمة بإشراك العامري وإياه في الحجابة وعزله يوم الاثنين 13 شعبان 367هـ والقبض عليه وأبناءه وابن أخيه [156] .

بدأت النكبة بسجن أبناء البيت المصحفي وإدخال الحاجب جعفر إلى مطبق الزهراء واستصفاء أمواله واتهامه بالخيانة. وقضى حوالي السنتين بين مجلس الوزراء للمحاكمة والمطبق ومرافقة ابن أبي عامر في الغزوات مكبلا وفي حالة ضيق شديد[157] . وانتهى عذابه بموته مخنوقا أو مسموما في شربة داخل سجنه [158] .

انهزم المصحفي أمام ابن أبي عامر لعوامل متعددة. ومنها أصله المتواضع إذ كان مجرد ابن مؤدب للخليفة ومنحدر من عرق بدأ يثير مقت أهل الأندلس وتخوفهم وهذا جعل الأسر القرطبية التي توارثت الوزارة والمناصب الحكومية مثل آل شهيد وآل جهور وآل فطيس تتحالف مع العامري لإسقاطه ودعم هذا الأخير بالرغم من أنه لا ينتمي إليها إلا أنه عربي[159] . ومنها تمسكه بالتواضع معتقدا أنه سيحبب الناس فيه ناسيا أو متناسيا أن القوة ضرورية لإثبات السلطة خاصة في مرحلة انتقالية مثل هذه دون إغفال اجتذاب البعض باللين والمال، وقد فطن ابن حيان لهذا الأمر كما أثبتناه في النص السابق. ومنها غلبة بساطة الأدباء والعلماء عليه وغياب مكر ودهاء السياسيين مما جعل بعض حيل ابن أبي عامر تنطلي عليه بتوريطه في قضايا خطيرة مثل: قتل المغيرة بن الناصر واتهامه بذلك وإفساد علاقته مع أتباعه المخلصين من الصقالبة وبني برزال وغالب الناصري وحتى الخليفة هشام المؤيد. ومنها كذلك ضعف شخصيته وتردده وقلة جرأته وسرعته في اتخاذ القرارات الحاسمة، وهذا ما بدا واضحا عندما تطلب الأمر اتخاذ قرار الرد على قشتالة بعد هجومها على الثغر الشمالي، فبدل التمسك بالفرصة التي منحها إياه القدر بدا خائفا مترددا، فاستغل العامري الفرصة لتحقيق أولى الخطوات نحو الحجابة[160] . ويظهر هذا الخطأ جهلا من المصحفي بعقلية الأندلسيين ووضع البلاد وتاريخها، فالجهاد مفتاح سحري يفتح كل القلوب ويحبب الحكام إلى نفوس الرعية لذلك استغله كل الحكام السابقين بذكاء لترسيخ سلطتهم خاصة وقت الأزمات الداخلية الخطيرة. ومنها أخيرا ضعف الطاقم العائلي الذي استعان به في تصريف الأمور وضبط الأماكن الحساسة، وقد استغل العامري ذلك بذكاء [161]. اجتمعت هذه العوامل و؛ ربما، غيرها لإسقاط المصحفي وأسرته الحديثة النشأة.

---

(156) نفسه ونفسه، ص. 89.

(157) نفسه، ص. 268 ونفسه.

(158) نفسه، ص. 270 ونفسه.

(159) نفسه، ص. 271 ونفسه، ج 1، ص. 397 ومطمح الأنفس، 161.

(160) المقري، المصدر السابق، ج 4 ، ص.86.

(161) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1 ، ص. 258

3- باقي أفراد البيت المصحفي

عند توليه السلطة، عمد المصحفي على عادة أهل العصر إلى ملء بعض المناصب بأشخاص من أهل ثقته. وحظي أبناء أسرته بالقسط الأكبر من هذا الإنعام. وكان ابنه محمد قد عين خليفة على المدينة منذ عهد الحكم الثاني في تاريخ نجهله بدقة إلا أنه وجد في المنصب سنة 360هـ/ 970 م عندما تكفل بضبط الأمور أثناء استقبال الخليفة ليحي وجعفر ابني حمدون الأندلسي القادمين من المغرب الأوسط (162) . وذكر ابن الأبار أنه أساء السيرة في ولايته (163) ، وعزل في بداية نكبة والده لصالح ابن أبي عامر عام 366هـ /976 م (164)، ثم سجن مع باقي أفراد عائلته (165) .

وشغل المصحفي ابن أخيه هشاما بن محمد خليفة له على الشرطة العليا والوسطى وقائدا لبلنسية وطرطوشة عام 360هـ/ 970 م، وكان مسؤولا عن الأمن في السنوات التي تلت ذلك وحضر بفعالية في كل المناسبات(166) ، وبعد توليه الحجابة نقل إلى خطة الخيل ومنها إلى الوزارة (167). ويظهر أنه أكثر أبناء الأسرة كفاءة ونشاطا ودفاعا عن مكاسبها وجهرا بالعداوة للعامري لذلك اغتيل في المطبق بعد سجنه (168) .

ويفترض بناء على كلام ابن الأبار وابن عذاري حول تولية المصحفي أبناءه الأعمال الكبار (169) أن باقي الأبناء وخاصة عثمان وعبد الرحمن وسعيدا قد أسندت إليهم بعض المهام الكبرى.

ومن أفراد هذا البيت محمد بن هشام بن محمد بن عثمان، أبو بكر الذي أخذ الشعر عن ابن القوطية والنحو عن أبي عمر بن أبي الحباب في طرطوشة عندما كان أبوه قائدا بها والآداب والبلاغة والكتابة والمعاملات والهيئة عن صاعد بن الحسن وابن الخشخاش ومحمد بن قاسم بن محمد الشبانسي(170). ولا يخبرنا مصدرنا عن توليه لمهام إدارية بالرغم من أن تكوينه يوحي بتطلعه إلى ذلك، و؛ ربما، كان حلمه قد أجهض بسقوط أسرته.

(162) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1 ، ص. 258

(163) الحلة السيراء، ج 1، ص. 258.

(164) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 266.

(165) نفسه، ص. 267 والحلة السيراء، ج 1، ص. 259

(166) ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص. 381 والحلة، ج 1، ص. 258 والمقتبس، ج 6، ص. 46.

(167) الحلة السيراء، ج 1، ص. 258.

(168) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 368

(169) نفسه، ج 2، ص. 254 والحلة السيراء، ج 1، ص. 258.

(170) التكملة، ج 1، ص. 381–382.

هذا هو فريق المصحفي في حجابته ووزارته ويظهر أنه متواضع العدد والكفاءة والإمكانيات باستثناء ابن أخيه هشام بن محمد، ولذلك شكل نقطة الضعف والوهن التي تسرب منها أعداؤه يتزعمهم ابن أبي عامر. وانتهى الأمر بالكل إلى السجن والضياع والموت للأكثر خطورة وكفاءة.

خاتمة

أسرة قصيرة العمر لكنها تركت أثرها في الحياة الأندلسية. وجسد صعودها إلى قمة الهرم السياسي في قرطبة ملامح التغير الذي يشهده هذا المجتمع في ظل الخلافة وخاصة الانفتاح على كل الفئات السكانية بغض النظر عن أصولها، كما أن سقوطها أثبت هشاشة الخلافة وبداية الصراع حول السلطة واتجاه البلاد نحو الاضطراب والفوضى.

ملحق

من شعر المصحفي أثناء سجنه يحن فيه إلى الماضي (نفح الطيب، ج 4، ص. 90):

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل أراها تـوفي عـند موعـدها الحيرا

فلله أيـام مـضـت بـسبيلـهـا فـإني لا أنـسى لها أبـدا ذكـرا

تجـافـت بـهـا عـنـا الحـوادث بـرهـة وأبـدت لنا منـها الطلاقة والبشـرا

ليـالي مـا يـدري الزمـان مكـانـها ولا نـظرت منـها حـوادثـه شـزرا

ومـا هـذه الأيـام إلا سحـائـب عـلى كـل أرض تمطر الخير والشـر

وله أيضا وقت سجنه (الحلة السيراء، ج 1، ص. 29):

سألت نجوم الليل: هل ينقضي الدجى؟ فـخطت خـطا بالثريا كخط «لا»

وكـنـت أرى أنـي بآخـر ليـلـة فـأطرقت حـتى خلت عـاد أولا

ومـا عن هـوى سامـرتها غير أنني أنـا فيها المجـرى إلى رتـب العـلا

ملحق 2
(العلماء البربر بالأندلس)

الرقم	اسم العالم	تاريخ وفاته	موطنه	طبقته	ملاحظات
1	ابراهيم بن حارث بن عبد الملك الأنطي	391 هـ /1000م	قرطبة	5	لم تدرج في العينة
2	ابراهيم بن هارون بن خلف الزاهد الأشبوني	360 هـ /970م	لشبونة	4	
3	أبو الأسود بن سفيان بن عبد ربه	عهد الناصر	قرطبة	4	
4	أبو بكر المغيلي	عهد الحكم 2	قرطبة	5	
5	أبو موسى بن أبي الحزم بن جوهر المرشاني	427 هـ /1036م	استجة	5	
6	إسحاق بن يحي الليثي	261 هـ /875م	قرطبة	3	
7	أم الحسن بن أبي لواء سليمان بن وانسوس	عهد الناصر	قرطبة	4	
8	أحمد بن بتري القرموني	عهد الناصر	قرمونة	4	
9	أحمد بن خلف بن محمد بن فرتون المديوني	377 هـ /987م	مدينة الفرج	5	
10	أحمد بن خلوف المسيلي	393 هـ /1002م	قرطبة	5	
11	أحمد رحيق بن إبراهيم السماتي	343 هـ /953م	الجزر الشرقية	4	
12	أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان	413 هـ /1022م	قرطبة	5	
13	أحمد بن عبدالله بن يحي بن يحي بن يحي الليثي	324 هـ /936م	قرطبة	4	
14	أحمد بن عبدالعزيز بن أبي الحباب	400 هـ /1009م	قرطبة	5	
15	أحمد بن الليث الأنسري		اشبيلية	5	
16	أحمد بن محمد بن يحي بن عبيد الله الليثي	بعد 345 هـ /955م	قرطبة	4	
17	أحمد بن محمد بن يوسف بن دراج القسطلي	421 هـ /1030م	قرطبة	5	
18	أحمد بن يحي بن يحي بن يحي	297 هـ /909م	قرطبة	3	
19	إسماعيل بن تاجيب	عهد الناصر	قرطبة	4	
20	إسماعيل بن زيد	بعد الحكم 2	قرطبة	5	
21	إسماعيل بن يحي بن يحي الليثي	قرطبة قبل 234 هـ /848م	قرطبة	2	

22	بشر بن جنادة	عهد الأمير عبد الله	الأندلس	3	
23	ثابت بن حزم العوفي	313 هـ /924م	سرقسطة	3	
24	جعفر بن عثمان المصحفي	372 هـ /982م	قرطبة	4	
25	حامد بن محمد بن محمد بن سعيد الزجالي	268 هـ /881م	قرطبة	3	
26	حجاج المغيلي	عهد الحكم 1	قرطبة	2	
27	حسن بن سعد إدريس الكتامي	332 هـ /942م	قرطبة	4	
28	حسين بن فتح	بعد 319 هـ /930م	اشبيلية	4	
29	حسين بن محمد بن سلمون المسيلي	431 هـ /1010م	قرطبة	5	
30	حكم بن منذر بن سعيد البلوطي	420 هـ /1029م	طليطلة	5	
31	خلف بن مسعود الجراوي المالقي	400 هـ /1009م	قرطبة	5	
32	خلف بن يوسف بن نصر المغيلي	396 هـ /1005م	طلبيرة	5	
33	نعمان بن مالك عثمان النفزي	413 هـ /1021م	ترجيلة	4	
34	رفاعة بن الفرج بن أحمد القرشي	413 هـ /1021م	قرطبة	5	
35	زكريا بن يحي ابن الطنجية	300 هـ /912م	اشبيلية	3	
36	سرواس بن حمود الصنهاجي	391 هـ /1000م	طليطلة	5	
37	سعيد بن عثمان بن أبي سعيد بن القزاز	394 هـ /395م 1003 م أو 1004م	قرطبة	5	
38	سعيد بن عمر بن عبد النور النفزي	بعد 425 هـ /1034م	قرطبة	5	
39	سعيد بن مسعدة	288 هـ /901م	وادي المخازن	3	
40	سليمان بن وانسوس المكناسي	292 هـ /905م	قرطبة	3	
41	سعيد بن منذر بن سعيد البلوطي	403 هـ /1012م	قرطبة	5	
42	سكتان بن مروان بن حبيب المصمودي	346 هـ /956م	شذونة	4	

43	سفيان بن عبد ربه	211 هـ /826م	قرطبة/بيانة	2	لم تدرج في العينة
44	سهل بن إبراهيم بن سهل بن نوح	387 هـ /996م	استجة	5	
45	عباس بن فرناس	274 هـ /887م	تاكرنا	3	
46	عباس بن ناصح	عهدعبد الرحمان 2	الجزيرة	2	لم يدرج في العينة
47	عبد الرحمان بن إسماعيل بن زيد الإقليدي	عهدالمنصور	قرطبة	5	
48	عبد الرحمان بن عبد الله الزجالي	بعد 344 هـ /954م	قرطبة	4	
49	عبد الرحمان بن موسى الهواري	عهد ع. الرحمان 2	استجة	2	
50	عبد السلام بن السمح بن نابل الهواري	387 هـ /996م	مورور	5	
51	عبد العزيز بن أحمد بن أبي الحباب	411 هـ /1020م	قرطبة	5	
52	عبد الله بن إبراهيم الأصلي	390 هـ /999م	قرطبة	5	
53	عبدالله بن سعيد بن محمد الزجالي	268 هـ /881م	قرطبة	3	
54	عبدالله بن مطاهر المطماطي البزاز		قرطبة	3	
55	عبدالله بن سلام الصنهاجي	402 هـ /1011م	قرطبة	3	
56	عبدالله بن سمحون الطنجي	397 هـ /1006م	اشبيلية	5	
57	عبدالله بن عبد الرحمن الزجالي	375 هـ /985م	قرطبة	5	
58	عبد الله بن محمد الزجالي	301 هـ /912م	قرطبة	3	
59	عبد الله بن محمد المغيلي	334 هـ /944م	قرطبة	4	
60	عبدالله بن عيسى بن أبي زمنين	359 هـ /969م	ألبيرة	4	
61	عبدالله بن هرثمة بن ذكوان	370 هـ /980م	قرطبة	5	
62	عبدالله بن يحي بن يحي بن يحي الليثي	عهدالناصر	قرطبة	4	

63	عبدالله بن يوسف بن نامى الرهوني	435 هـ /1044م	قرطبة	5	
64	عبد الملك بن أحمد بن سعدان	450 أو 445هـ 1054 أو1059م	فحص البلوط	5	
65	عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي	368 هـ /978م	قرطبة	5	
66	عبد الوهاب بن عباس بن ناصح	النصف 2 من ق.3 هـ	الجزيرة	3	
67	عبد الوهاب بن محمد بن عبد القدوس	بعد 420 هـ /1029م	قرطبة	5	
68	عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح	363 هـ /973م	الجزيرة	4	
69	عبدالوهاب بن منذر بن سعيد	436 هـ /1045م	قرطبة	5	
70	عبد الله بن محمد بن قاسم الكزني	قبل 401 هـ /1010م	فحص البلوط	5	
71	عبد الله بن يحي يحي الليثي	298 هـ /910م	قرطبة	3	
72	عثمان بن نصر المصحفي	325 هـ /936م	قرطبة	4	
73	علي بن أبي حلى المكناسي	406 هـ /1015م	قرطبة	5	
74	علي بن سعيد بن أحمد الهواري	399 هـ /1008م	طليطلة	5	
75	عمر بن تاجيت		قرطبة	4	
76	عمر بن حمدون	عهد ع.الرحمن1	رية	1	
77	عمر بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان	403 هـ /1012م	قرطبة	5	
78	عيسى بن عبد الرحمن بن حبيب الهواري	366 هـ /976م	شذونة	4	
79	غالب بن محمد بن عبد الرحمن الهواري	440 هـ /1049م	أشونة (مورور)	4	
80	فضل الله بن سعيد بن عبد الله البلوطي	335 هـ /945م	فحص البلوط	4	
81	فضل الله صهر منذر بن سعيد		قرطبة	5	

82	مروان بن أحمد بن أبي الحباب	401 هـ /1010م	قرطبة	5	لم يدرج في العينة
83	مطرف بن فرج بن علي أبو سهولة	322.320هـ /3.931م	بطليوس	4	
84	محمد بن أبي سليمان بن حارث المغيلي القسام	377 هـ /987م	قرطبة	5	
85	محمد بن تاجيت	عهدالناصر	قرطبة	4	
86	محمد بن خزر الزناتي	بداية القرن	قرطبة	5	
87	محمد بن زكريا الأشبيلي ابن الطنجية		اشبيلية	5	
88	محمد بن سعيد بن خالد البلوطي	320 هـ /931م	قرطبة	4	
89	محمد بن سعيد الزجالي	228 أو 232هـ /6.843م	قرطبة	2	
90	محمد بن سلامة بن حضين الصدفي	ق. 4هـ /10م	تطليلة	4	
91	محمد بن سليمان بن واسنوس	302 هـ /913م	قرطبة	3	
92	محمد بن عبد الأعلى الأديب		البيرة	5	
93	محمد بن عبد الله بن أبي زمنين	399 هـ /1008م	قرطبة	5	
94	محمد بن عبد الله بن عبد الملك بن أبي دليم	338 هـ /948م	قرطبة	4	
95	محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان	414 هـ /1023م	قرطبة	5	
96	محمد بن عبد الله بن يحي بن يحي بن يحي الليثي	339 هـ /949م	قرطبة	4	
97	محمد بن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح		الجزيرة	4	
98	محمد بن فضل بن سعيد		قرطبة	5	
99	محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم	372 هـ /982م	قرطبة	4	لم يدرج في العينة
100	مسعود بن عمر الهواري	307 هـ /918م	تدمير	3	
101	معن بن محمد بن معن الصنهاجي	330 هـ /940م	سرقسطة	4	

102	محمد بن هشام بن محمد بن عثمان المصحفي		قرطبة	5	لم يدرج في العينة
103	محمد بن يحي بن يحي الليثي	قبل 234 هـ /848م	قرطبة	2	
104	ملحان بن عبد الله بن ملحان	340 هـ /950م	قرطبة	4	
105	منذر بن سعيد البلوطي	355 هـ /965م	قرطبة	4	
106	نافع بن محمد بن رحيق	333 هـ /944م	الجزر الشرقية	4	
107	هشام بن محمد بن رزين	336 هـ /946م	شذونة	4	
108	وليد بن عيسى بن حارث الطنجي	352 هـ /962م	قرطبة	4	
109	يحي بن إسحاق بن يحي بن يحي	303 هـ /914م	قرطبة	3	
110	يحي بن أيوب بن خيار الزهري	ق 3 هـ /9م	جيان	3	
111	يحي بن عبد الله بن محمد المغيلي	362 هـ /972م	قرطبة	4	
112	يحي بن عبد الله بن يحي بن يحي	303 هـ /914م	قرطبة	3	
113	يحي بن عبد الله بن يحي	303 هـ /914م	قرطبة	4	
114	يحي بن يحي الليثي	234 هـ /848م	قرطبة	2	

الفهرس البيبليوغرافي

1- المصادر العربية

1- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت (ب.ت).

2- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافي الدينية، القاهرة (ب.ت).

3- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي، مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، الطبعة 2، 1927.

4- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، نشر السيد عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة القاهرة، 1955.

5- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الحلة السيراء، تحقيق مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1963.

6- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الحلة السيراء، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1962.

7- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، درر السمط في خبر السبط، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، مطبعة كريما ديس، تطوان، 1972.

8- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.

9- ابن أبي زرع، على الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1972.

10- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965.

11- ابن الأحمر وآخرين، بيوتات فاس الكبرى أو ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، دار المنصور، الرباط، 1972.

12- ابن الأحمر، إسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.

13- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، مطبعة روخس، مدريد، 1882.

14- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بنعبد اللملك، كتاب الصلة، نشر عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1955.

15- ابن حبيب، عبد الملك، تاريخه، مطبعة أكوادي، مدريد، 1991.

16- ابن حزم، أبو محمد بن أحمد بن سعيد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

17- ابن حزم، أبو محمد بن أحمد بن سعيد الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والإلاف، تحقيق حسن كمال الصيرفي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر (ب.ت).

18- ابن حزم، أبو محمد بن أحمد بن سعيد الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تصحيح عبد الرحمن خليفة، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، 1927.

19- ابن حزم، أبو محمد بن أحمد بن سعيد الأندلسي، نقط العروس في تواريخ الخلفاء، نشر شوقي ضيف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، مصر ، 1951.

20- ابن حمدون، محمد بن الحسن، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

21- ابن حيان، أبو مروان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ج. 2، تحقيق محمود علي مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971.

22- ابن حيان، أبو مروان القرطبي، المقتبس، ج. 3، نشر الأب ملشورم. أنطونية، المكتبة الشرقية، باريس، 1937.

23- ابن حيان، أبو مروان القرطبي، المقتبس، ج. 5، نشر ب، شالميتاون. كوزينطي و م. صبح، المعهد الإسباني العربي الثقافي، مدريد، 1979.

24- ابن حيان، أبو مروان القرطبي، المقتبس، ج. 6، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.

25- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، 1938.

26- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد، مطمح الأنفس ومسرح التأنس، تحقيق محمد علي شوابكه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

27- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، مطبعة التقدم العلمية، القاهرة، 1902.

28- ابن خرداذ به، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد (ب.ت).

29- ابن الخطيب، لسان الدين، تاريخ إسبانية الإسلامية أو أعمال الأعلام، ج. 2، تحقيق ليڤي بروڤنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، 1956.

30- ابن الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام، ج. 3، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، البيضاء، 1964.

31- ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1973.

32- ابن الخطيب، لسان الدين، رقم الحلل في نظم الدول، نشر عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1990.

33- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، العبر وديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر والعجم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988.

34- ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد، المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981.

35- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق عباس إحسان، دار الثقافة، بيروت (ب. ت).

36- ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار العلم للجميع، القاهرة (ب. ت).

37- ابن دراج، أبو عمر أحمد، ديوانه، تحقيق محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1969.

38- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد، صلة الصلة، نشر ليڤي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937.

39- ابن الزيات التادلي، أبو يعقوب يوسف بن يحي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، كلية الآداب، الرباط، 1984.

40- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق جوان ڤرنيط خنيس، معهد مولاي الحسن، مطبعة كريماديس، تطوان، 1958.

41- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، رايات المبرزين وغايات المميزين، نشر وترجمة إميليو كارثياكومز، معهد بلنسية لخوان، مدريد، 1942.

42- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر (ب.ت).

43- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، المقتطفات من أزاهر الطرف، تحقيق سعيد خلفي حسنين الهيئة المصرية العامة، 1984.

44- ابن شاكر، محمد الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (ب.ت).

45- ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح افريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964.

46- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق قميحة مفيد محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

47- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:

ـ القسم الثاني من السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت (ب. ت).

ـ السفر 4، 5، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ـ السفر6، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 1973.

ـ السفر8، تحقيق محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.

48- ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي، كتاب الحسبة، نشر ليڤي بروڤنسال، المجلة الأسيوية، أبريل ـ يونيو، 1934. ص. 177—256.

49- ابن عذاري، أبو العباس أحمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق س. كولان، وإ. ليڤي بروڤنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.

50- ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، (ب.ت).

51- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، تاريخ علماء الأندلس، نشر عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الأندلسية، القاهرة، 1954.

52- ابن عسكر، محمد بن علي بن خضر الغساني، بعض فقهاء مالقة وأدباؤهم، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 11055.
53- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1984.
54- ابن القوطية الأندلسي، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين.
55- ابن كثير، الحافظ أبو الفدا، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، 1978.
56- ابن الكردوس، الإكتفاء في أخبار الخلفاء، ابن الشباط، صلة السمط وسمة المرط، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.
57- الباجي، أبو عبد الله الشيخ محمد المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، مطبعة بيكار، تونس، 1905.
58- الباديسي، عبد الحق بن إسماعيل، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982.
59- البكري، أبو عبيد، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، 1968.
60- البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، (ب.ت).
61- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، 1957.
62- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1956.
63- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت (ب.ت).
64- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية، 1966.
65- الحميري، محمد بن حارث، أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويس أبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992.
66- الخشني، محمد بن حارث، أخبار الفقهاء والمحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويس أبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992.
67- الخشني، محمد بن حارث، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة المثنى، بغداد، 1953.
68- الداودي، أبو جعفر أحمد بن نصر، كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، مركز إحياء التراث، الرباط، (ب.ت).
69- الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية التونسية، 1902.
70- الذهبي، الحافظ، العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1961.
71- الرازي، أحمد، وصف الأندلس، نشر ليڤي بروڤنسال، مجلة الأندلس، العدد 18، المجلد 1، 1953، ص. 108–51.
72- الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.

73- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1973.
74- الزجالي، أبو يحي، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1975.
75- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كتاب الجغرافية Bulletin d'études orientales، تحقيق محمد حاج صادق، عدد 21، 1968.
76- السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي، آداب الحسبة، نشر ليڤي بروڤنسال، المطبعة الدولية، باريس، 1931.
77- السلفي، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر، تحقيق وإعداد إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1979.
78- الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى،1979.
79- صاعد، أبو القاسم بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، مصر (ب. ت).
80- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، نشر هلموت ريتر، دار النشر، فرانز شتاير بڤسبادن، 1962.
81- الصنهاجي، الأمير عبد الله بن زيزي، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيزي، تحقيق إ. ليڤي بروڤنسال، دار المعارف، القاهرة (ب. ت).
82- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، نشر دار القاموس الحديث، بيروت (ب.ت).
83- الطرطوشي، أبو بكر، سراج الملوك، المطبعة الوطنية، الإسكندرية، 1869.
84- العذري، أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1965.
85- عريب، بن سعد، جدول قرطبة، نشر دوزي، مطبعة بريل، ليدن، 1961.
86- القاضي أبو الفضل عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. الجزء الأول، تحقيق محمد بن تاويت المطبعة الملكية، الرباط (ب. ت)، الجزء 2 و3و 4، تحقيق عبد القادر الصحراوي، المطبعة الملكية، الرباط، 1966، ومطبعة فضالة، المحمدية، 1968و 1970. الجزء الخامس، تحقيق محمد بنشريفة، المطبعة الملكية، الرباط (ب. ت). أجزاء 6و 7و 8، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980، و 1982 و 1983.
87- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت (ب.ت).
88- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، بيروت، 1979.
89- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1977.
90- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة، (ب. ت).
91- المالكي، أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981.

92- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت (ب.ت).
93- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
94- مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها وصفاتها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558.
95- مجهول، ذكر سبب فتح الأندلس، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 7531.
96- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985.
97- مجهول، مدونة تاريخية على عهد الناصر، نشر وتقديم ليڤي بروڤنسال وإميليو كارثيا، مدريد، غرناطة، 1950.
98- مجهول، نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى من كتاب «مفاخر البربر»، نشر ليڤي بروڤنسال، المطبعة الجديدة، الرباط، 1934.
99- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، البيضاء، الطبعة الرابعة، 1978.
100- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبع بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1970.
101- المقدسي، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر شويخ، مطبعة بريل، ليدن، الطبعة الثانية، 1909.
102- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1949، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

103- الناصري، أحمد بن خالد السلوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، البيضاء، 1954.
104- النباهي، أبو الحسن عبدالله بن الحسن المالقي، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليڤي بروڤنسال، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948.
105- القاضي النعمان بن محمد، كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي ومحمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، 1978.
106-النويري، أحمد بن عبد الوهاب، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985.
107- الونشرسي، أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب، تحقيق تحت إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، الرباط، دار الغرب الإسلامي، 1981.
108- اليعقوبي، أحمد بن أبي بن واضح، كتاب البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف (ب.ت).
109- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، وصف افريقيا الشمالية، مقتطف من كتاب البلدان، نشري هنري بيراس، الجزائر، 1960.

2- المراجع

1.2- كتب عربية

110- الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مكتبة الحياة، بيروت، (ب.ت).

111- أبو ضيف أحمد مصطفى، القبائل العربية في الأندلس حتى سقوط الخلاف الأموية، دار النشر المغربية، البيضاء، 1983.

112- بالنثيا، انجل، خنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1955.

113- بدر، أحمد، تاريخ الأندلس في القرن الرابع: عصر الخلافة (ب. م)، (ب. م) و(ب.ت).

114- بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.

115- جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد منزالي والبشير بن سلامه، الدار التونسية للنشر، 1969.

116- الحجي، عبد الرحمان علي، أندلسيات، دار الإرشاد، بيروت، الطبعة الأولى، 1969.

117- الحجي، عبد الرحمان علي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، 1976.

118- حمدي، عبد المنعم محمد حسين، ثوارت البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990.

119- حمدي، عبد المنعم محمد حسين، دراسات في التاريخ الأندلسي : دولة بني برزال في قرمونة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990.

120- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية (ب. ت).

121- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1969.

122- سالم، السيد عبد العزيز، المساجد والقصور، دار المعارف، مصر، 1958.

123- سالم، السيد عبد العزيز، المغرب الكبير، ج. 2، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

124- الصوفي، خالد، تاريخ العرب في إسبانيا : جمهورية بني جهور، المطبعة التعاونية، دمشق. 1959.

125- الطاهري أحمد، عامة في عصر الخلافة، منشورات عكاظ، الرباط، 1989.

126- العبادي، أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (ب.ت).

127- العبادي، أحمد مختار، الصقالبة في إسبانيا : المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1953.

128- العبادي، عبد الحميد، المجمل في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى. 1958.

129- عنان، محمد عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1960.

130- عنان، محمد عبد الله، الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، مطبعة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1958.

131- غومس، إميليو، الشعر الأندلسي : بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1956.

132- مؤنس، حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، القاهرة والإسكندرية، الطبعة الأولى، 1980.
133- مؤنس، حسين، شيوخ العصر في الأندلس، الدار المصرية، القاهرة، 1965.
134- مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح حتى قيام الدولة الأموية، الشركة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1959.
135- ليڤي بروڤنسال، إڤارست، الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الظاهر أحمد مكي، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1985.
136- القادري بوتشيش إبراهيم، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي، منشورات عكاظ، الرباط (ب.ت).

2.2- كتب باللغات الأجنبية

137- Arié (R), Historia de espana : III Espana musulmana, Labor, Barcelona, 1983.
138- Asin Palacios (M), Contribuciôn à la toponimia Arabe de Espana, Imprenta de Estanisloo Maetre, Madrid, 1940.
139- Balbas (L.T.), Ciudades Hispano-musulmanas, Instituto Hispano-Arabe de cultura, Madrid, 2ème éd. 1981.
140- Bazzana (A), Les maisons d'al-Andalus, Habitat médiévale et structure du peuplement dans l'Espagne orientale, collection de la Casa de Velazquez, Madrid, 1992.
141- Berque (J), Structures sociales du haut Atlas, PUF, Paris, 1955.
142- Camps (G), Berbères : aux marges de l'histoire, éd. des Hespérides, 1980.
143- Camps (G), Les Berbères : mémoire et identité, éd. Errance, collection des Hespérides, 2ème éd. 1987.
144- Dozy (R), Histoire des Musulmans d'Espagne, Librairie orientale et américaine, Maisonneuve, Paris, 1952.
145- Dozy (R), Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne, Maisonneuve, Paris, 3ème éd. 1881.
146- Gautier (E.F), Les siècles obscurs du Maghreb, Payot, Paris, 1927.
147- Gerbet (Marie-Claude), L'Espagne au Moyen Age, Armand Colin, Paris, 1992.
148- Glick (T.F), Islamic and Christian Spain in the early Middle Age, Princeton, New Jersey, 1979.
149- Gloria Lopez de la Plaza, Al Andalus, Mujeres, Sociedad y Religion, Alenea, Univer- sidad de Malaga, Malaga, 1992.
150- Gsell (S), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Librairie Hachette, Paris, 4ème éd. 1927.

151- Guichard (P), Structure sociale orientale et occidentale dans l'Espagne musulmane, Mouton, Paris, 1977.

152- Guichard (P), Les musulmans de Valence et la reconquête, Institut français de Damas, Damas, 1991.

153- Isidio de las Cagigas, Minorias etnico-religiosas de la edad Media espanola, Instituto de etudios africos, Madrid, 1948.

154- Jacinto bosch vilà, Historia de Sevilla : La sevilla Islamica, Servicio de publicaciones de la Universidad de Sevilla, 2ème éd. 1984.

155- Leroy (B), L'Espagne au Moyen Age, éd. Albin Michel, 1988.

156- Lévi-Provençal (E), L'Espagne musulmane au 10éme siècle, Larose, Paris, 1932.

157- Lévi-Provençal (E), Histoire de l'Espagne musulmane, Maisonneuve, Paris, 1950.

158- Lévi-Provençal (E), L'Islam de l'Occident, Maisonneuve, Paris, 1948. -

159- Lombard (M), L'Islam dans sa première grandeur, champs Flammarion, Paris, 1971.

160- Luis G. de Valdeavellano, Historia de Espana antigua y médiéval, éd. Alianza Editorial, Madrid, 1988.

161- Luis Suarez Fernandez, historia General de Espana y America, éd. Rialp, Madrid.

162- Marçais (G), La berbérie musulmane et l'orient au Moyen Age, éd. Montagne, Paris, 1946.

163- Montagne (R), Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, éd. Afrique et orient, Collection archives.

164- Montgomery Watt, historia de la Espana islamica, éd. alianza Editoral, Madrid, 1965.

165- Le Roy Ladurie, Les paysans de Languedoc, Champs, Flammarion, Paris, 1969.

166- Ortiz Antonio Dominguez, historia de Espana, Planeta, 1989.

167- Sanchez-al Bornoz (C), l'Espagne musulmane, trad. Faraggi Claude, Opu/Publisud, 1985.

168- Terrasse (H), Islam d'Espagne , Une rencontre de l'orient et de l'occident, Librairie, Plon, Paris, 1958.

169- José Manuel Cuenca Toribio, Andalucia : Historia de un pueblo, Espana-Calpe, Madrid، 1982.

170- Turki (Abdel magid)، Théologiens et juristes de l'Espagne musulmane : aspects polémiques، Maisonneuve Larose، Paris، 1982.

171- Urvoy (D)، Le Monde des Ulémas andalus، Librairie Droz، Genève، 1978.

172- Vives J. Vicens، historia de Espana y America، editorial Vicens–Vies، Barcelona، 2ème éd. 1971.

3- المجلات والدوريات

1.3- دوريات باللغة العربية

173- الحجي عبد الرحمان، العلاقات السياسية بين ثوار الأندلس وإسبانيا المسيحية في الفترة الأموية، مجلة الأبحاث، السنة 18، ج. 1، مارس 1965، ص. 45-63.

174- زنيبر محمد، البربر، معلمة المغرب، مطابع سلا، سلا، 1991.

175- شفيق محمد، إمازيغن، معلمة المغرب، مطابع سلا، سلا، 1989.

176- عنان محمد عبدالله، جغرافية الأندلس والمصطلحات الجغرافية الأندلسية، مجلة تطوان، عدد ممتاز : 4 و 5، سنة 1959-1958 ، ص. 37-47 .

177- محمود، علي مكي، الخوارج بالأندلس، مجلة تطوان، عدد 1، 1956، ص. 169—177.

2.3- دوريات باللغات الأجنبية:

178-Ageron (CR), & Galand (L), Les berbères, Ency. Univ. 7ème. éd. Paris, 1974;, pp. 170-175.

179- Barcelo (C), Galgos o pedencos ? Sobre la supuesta berberizacion del pais valenciano en los siglos 8 y 9, Revista Al Qantara, vol. 11, fasc 2, 1990, pp. 429-460.

180-Basset (H), Terrasse (H), Sanctuaires et forteresses almohades : 1 Tinnel, Hespéris, Vol 4 , 1er trimestre, 1914, pp. 9-92.

181- Benaboud M’hammad, Assabiyya and social relations in Al Andalus during the period of the taifa states, Hespéris-Tamuda, vol. 19, fasc unique, 1980-1981, pp. 5-45.

182- Benaboud M’hammad & Tahiri (A), Berberising Al Andalus, Al Qantara, vol 11, fasc 2, 1990, pp. 475-487.

183- Berdouzi (M), Robert Montagne et les structures politiques du maroc pré-colonial, Regard sur le Maroc, Cheam, Paris, 1992, pp. 127-239.

184- Consuelo Lopez-Monillas, Los berbères zanata en la historia y la legenda, Al Andalus, vol 42, fasc 2, 1977, pp. 301-322.

185- Delaigue (M. Ch), Possible influence berbère dans la céramique médiévale de la région valencienne, Bulletin d’Archéologie marocaine, tome 15, 1983-1984, pp. 493-522.

186- Fierro (M. Isabel), Los malikies de Al Andalus y los dos ‘arbitras, Al Qantara, vol 6, fasc 1 y 2, 1985, pp. 79-102.

187- Garcia Gomez (E), Pidal (V.M), Algunas precisionnes sobre la ruina de la Cordoba omeya, Al-Andalus, vol 12, fasc 2, 1947, pp. 267-293.

188- Garcia Gomez (E), al Hakam II y los bereberes segun un texto inedito de Ibn Hayyan, Al Andalus, vol 8, fasc 1, 1948, pp. 209-226.

189- Guichard (P), Le peuplement de la région de Valence aux premiers siècles de la domination musulmane, Mélanges de la Casa de Velazquez, vol 5, 1969, pp. 10-158.
190- Guichard (P), Faut-il en finir avec les berbères de Valence ? Al Qantara, vol 11, Fasc 2, 1990, pp. 461-474.
191- Guichard (P), A proposito de los «Barbar Al Andalus», Al Qantara, vol 1, fasc 1 y 2, 1980, pp. 423-427.
192- Lévi-Provençal & autres, Al Andalus, Encyclopédie de l'Islam, tome 1, Maisonneuve, Paris, 1975, pp. 501-519.
193- Manzana Moleno (E), Berbères de Al Andalus, Los factores de una evolucion histori- ca, Al Qantara, vol 11, fasc 2, 1990, pp. 397-429.
194- Marin (M), Una familia de Ulémas cordebeses : los Banu Abi 'Isa, Al Qantara, Vol 6, fasc 1 y 2; 1985, pp. 291-320.
195- Montagne (R), La vie sociale et politique des berbères, Regards sur le Maroc, Cheam, Paris, 1992, pp. 13-89.
196- Scales, peter, A proletarian révolution in 11 th century in Spain ? Al Qantara, vol 11, fasc 1, 1990, pp. 113-125.
197- Vallvé (J), Espana en el siglo 8 : ejercito y sociedad, Al Andalus, Vol. 43, fasc 1, 1978, pp. 51-112.
198-Vallvé (J), Nuevas ideas sobre la conquista arabe de Espana, toponimia y onomastica, Al Qantara, vol 10 fasc 1, 1989, pp. 51-150.
199- Vallvé (J), Sobre demografïa y sociedad en Al Andalus, Al andalus, vol 42, fasc 2, 1977, pp. 323-340.

3.3- معاجم وقواميس

200- الزاوي أحمد الطاهر، ترتيب القاموس المحيط، دار الفكر، الطبعة الثالثة.
201- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (ب.ت).
202- المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1977.
203- جماعة من اللغويين العرب، المعجم العربي الأساسي، لاروس اليونسكو، 1989.
204- الأب لويس معلوف اليسوعي، المنجد، المطبعة الكاثوليكية، بيروت. 1937.
205- Robert (P), Le petit Robert, Montéral, Canada, 1990.
206- Dozy (R), Supplément aux dictionnaires arabes, Librairie du Liban, Beyrouth, 1968.

فهرس المواضيع

نشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقـــافة